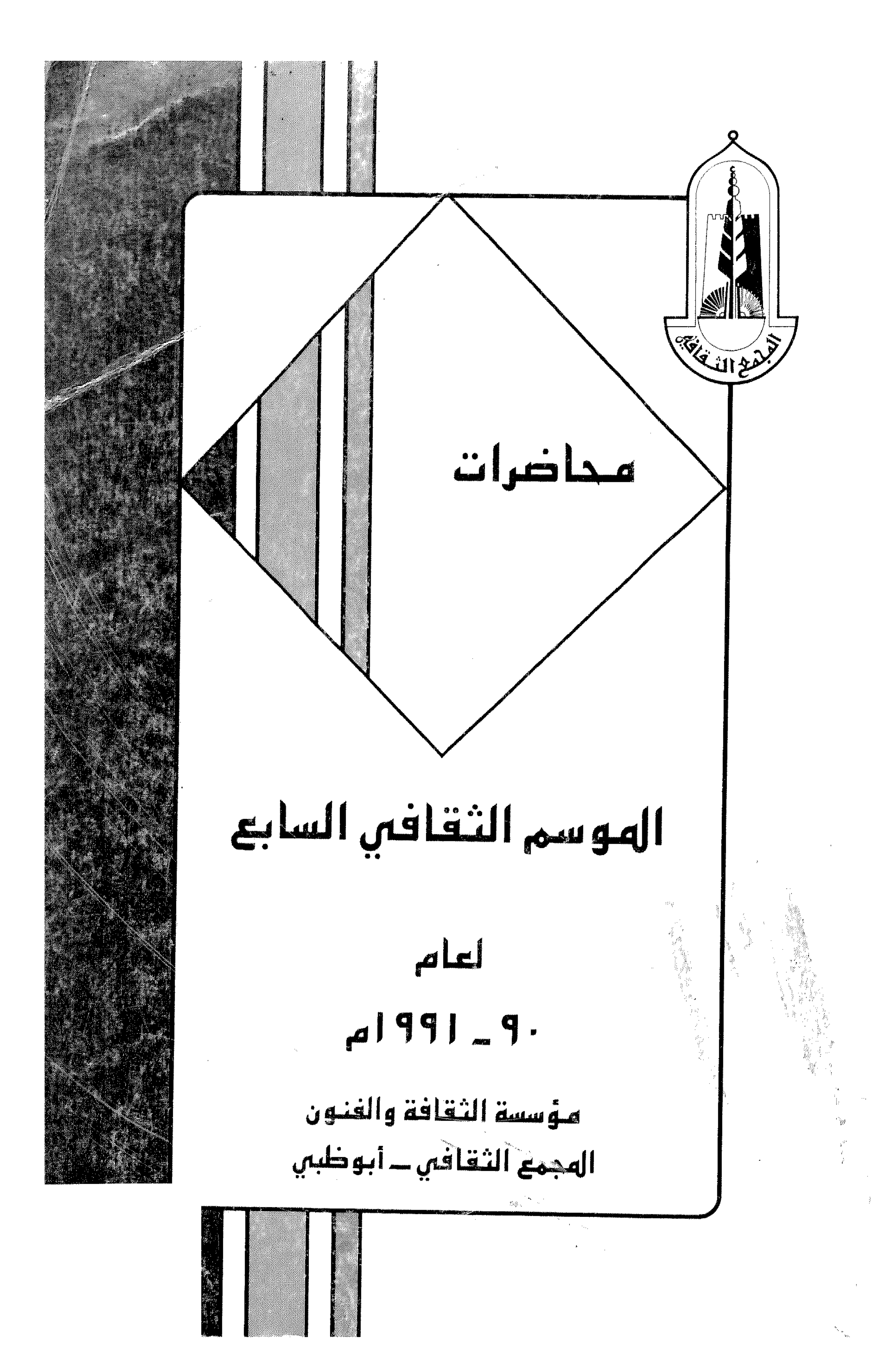


محاضرات

الموسم الثقافي السابع

لعام

٩٠ - ١٩٩١م

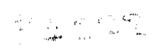
مؤسسة الثقافة والفنون

المجمع الثقافي - أبوظبي

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

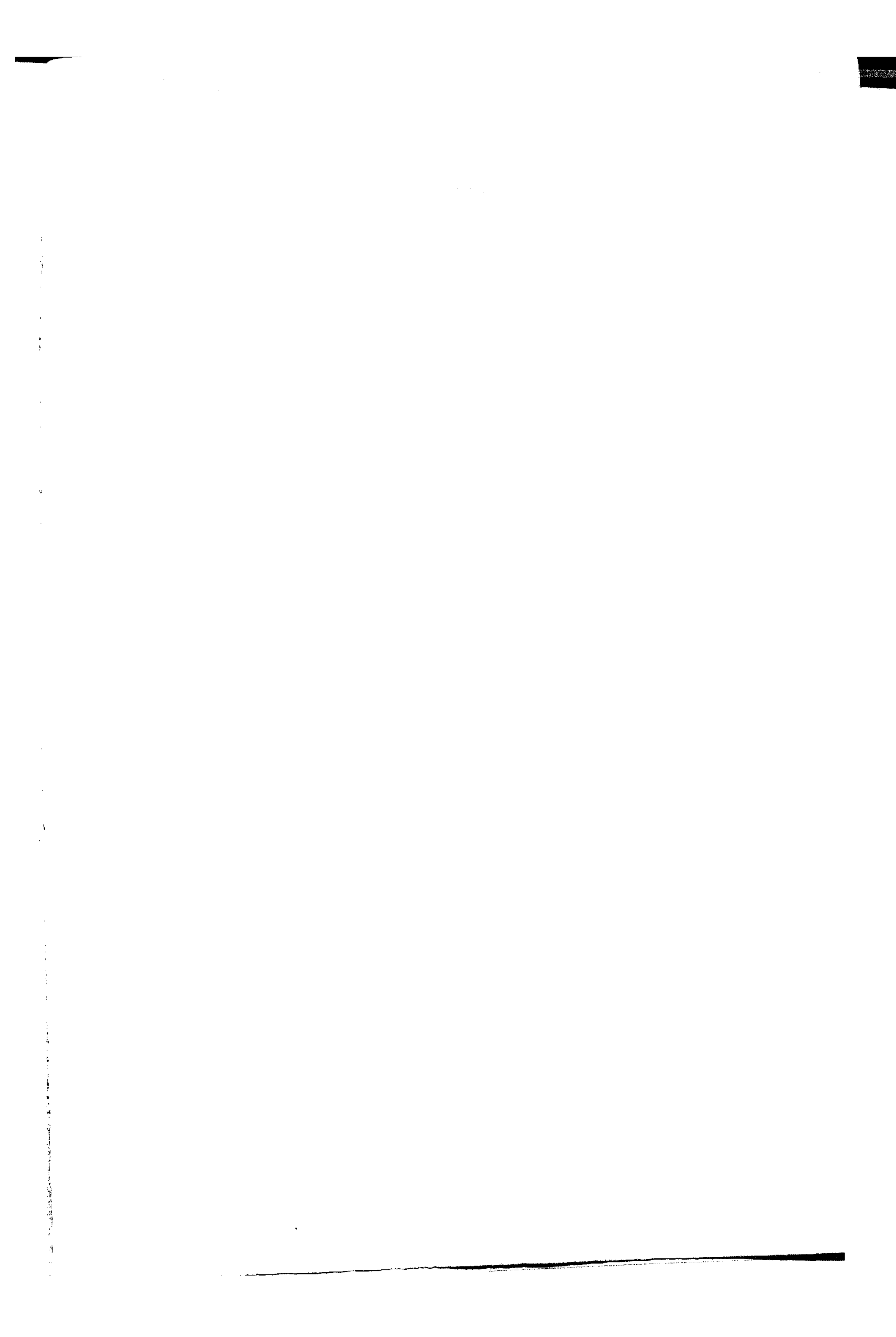


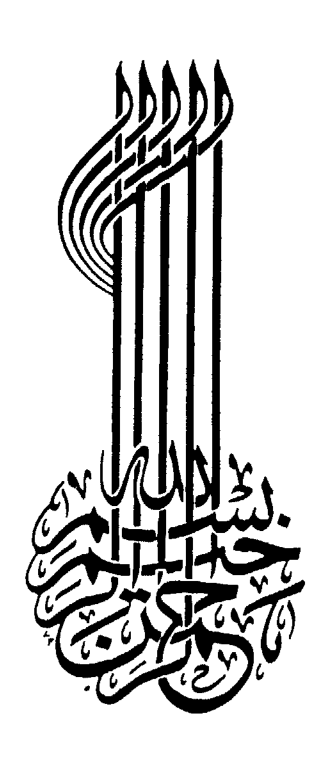


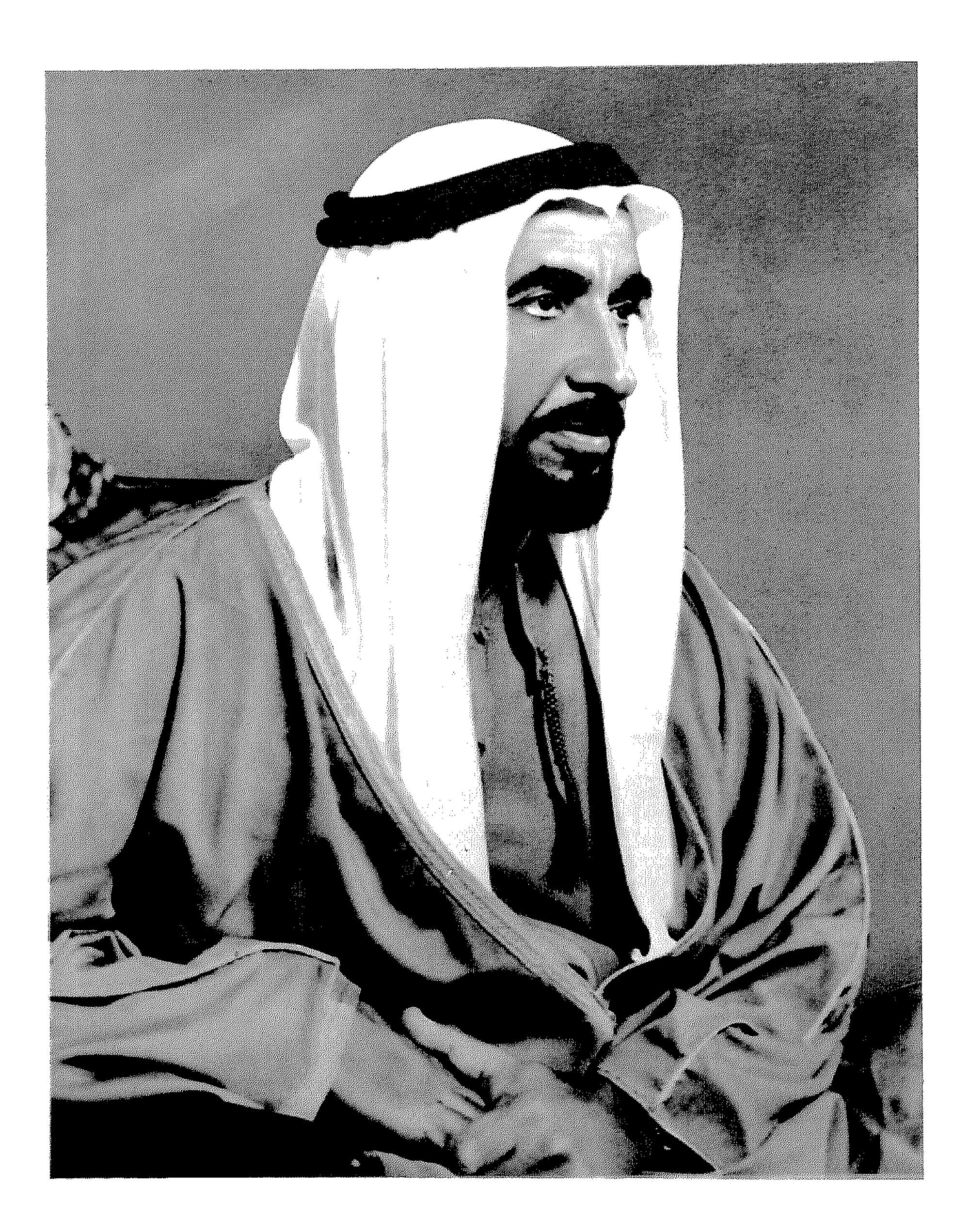
محاضرات
الموسم الثقافي السابع

لعام
٩٠ ـ ١٩٩١م

مؤسسة الثقافة والفنون
المجمع الثقافي ـ أبوظبي







صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
رئيس دولة الامارات العربية المتحدة



صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان

ولي العهد نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة

الفهرس

تقديم

شهد العام الماضي ٩١ أحداثاً وتحولات خطيرة على الساحة العربية والدولية، أدت إلى انعكاسات سلبية على الواقع العربي.

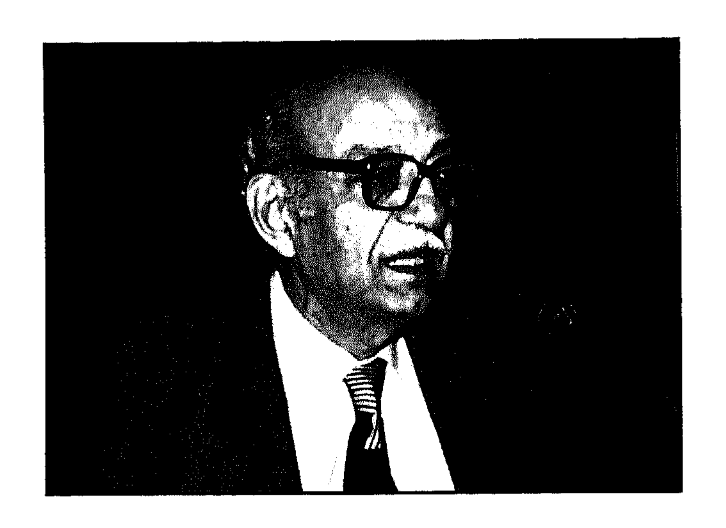
وقد حرصت مؤسسة الثقافة والفنون بالمجمع الثقافي ضمن موسمها الثقافي لهذا العام، دعوة رجال الفكر لإلقاء محاضرات حول هذه الأحداث والتحولات وآثارها السياسية والاقتصادية على العالم العربي، وكيفية مراجعة التراث وآفاق المستقبل المنظور لأمتنا لمواجهة التحديات وسبل النهوض الكفيلة بإثبات ذاتها في ظل هذه المتغيرات.

كما اشتمل هذا الكتاب على محاضرات أخرى متنوعة اجتماعية وفنية وثقافية، ونحن إذ نضع هذا الكتاب بين أيدي القراء، نأمل أن يحقق الفائدة المرجوة. وأن يساعد المهتمين في الاطلاع على ما يطرحه رجال الفكر العرب من آرائهم قضايا أمتهم حاضراً ومستقبلاً وهي آراء تمثل وجهة نظر أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع الثقافي.

والله ولي التوفيق ..

أحمد خليفة السويدي

تصورات حول الأمن العربي
في ضوء أزمة الخليج



الدكتور محمود رياض

القيت بتاريخ : ١٠/١٢/١٩٩٠م

سيرة ذاتية

الأستاذ محمود رياض

- من مواليد محافظة الدقهلية بجمهورية مصر العربية.
- تخرج من الكلية الحربية عام ١٩٣٦م.
- عمل مدرساً بالكلية الحربية في الفترة من ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨.
- عمل مديراً للادارة العربية بوزارة الخارجية المصرية سنة ١٩٥٤.
- عمل سفيراً لمصر في دمشق منذ عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٥٨.
- عمل مستشاراً للشئون السياسية منذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٦١ في عهد الزعيم الراحل جمال عبدالناصر.
- تولى مندوب مصر الدائم لدى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن منذ عام ١٩٦٢ وحتى عام ١٩٦٣.
- عمل وزيراً لخارجية مصر منذ عام ١٩٦٤ وحتى عام ١٩٧٢.
- عمل أميناً عاماً لجامعة الدول العربية منذ عام ١٩٧٢ وحتى ١٩٧٨.

له العديد من المؤلفات منها:

- البحث عن السلام.
- الصراع في الشرق الأوسط.
- الأمن العربي.

تصورات حول الأمن العربي على ضوء أزمة الخليج

الأستاذ محمود رياض

تتركز الأحاديث العربية منذ الاجتياح العراقي للأراضي الكويتية على مواضيع عدة في مقدمتها الأمن العربي والعلاقات العربية المستقبلية. وعندما يدور البحث حول الأمن العربي تتشعب الأحاديث ولكن يظهر أمامنا سؤال واضح وهو كيف نحمي الأمن العربي؟ وهو سؤال سبق وطرحته الحكومات العربية بعد نجاح إسرائيل في توطيد أقدامها فوق الأراضي الفلسطينية عام ١٩٤٨ وخرجت الدول العربية بالإجابة عنه في ذلك الحين بتوقيع الدول العربية على معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي عام ١٩٥٠ والتي تم بموجبها إنشاء مجلس الدفاع المشترك والمجلس الاقتصادي.

وعندما تبين أن المعاهدة تنقصها آليات التنفيذ اقترحت مصر في اجتماع رؤساء الحكومات العربية الذي عقد في القاهرة في يناير ١٩٥٥ دعم جامعة الدول العربية وتشكيل قيادة عربية مشتركة، إلا أن الحكومات العربية لم تتمكن في ذلك الوقت من الأخذ بهذا الاقتراح بسبب الضغوط الغربية التي كانت ترفض قيام تكتل عسكري عربي، وترى ضرورة قيام حلف غربي يضم الدول العربية ويكون تحت السيطرة الغربية وهي السياسة التي تبنتها العراق في ذلك الحين فانضمت إلى حلف بغداد.

إلا أننا نجحنا بعد تسعة أعوام لدى اجتماع القمة العربي الأول في القاهرة في يناير ١٩٦٤ في إصدار قرار بإنشاء قيادة عربية مشتركة.

وقد بدأت هذه القيادة في الانهيار بعد سنتين من قيامها بسبب الخلافات العربية، ولذا لم يكن لهذه القيادة أي دور عندما قامت إسرائيل بعدوانها عام ١٩٦٧م.

ـ ويمكنني إيجاز الجهود العربية لإقامة نظام أمن عربي بعد توقيع اتفاقية الدفاع المشترك عام ١٩٥٠ وهي جهود مرت بثلاث تجارب مختلفة.

ـ الأولى: قيام نظام أمن جماعي يتمثل في اقتراح مصر في يناير ١٩٥٥ وكان عدد الدول العربية في ذلك الوقت سبع دول وهي الدول الموقعة على اتفاقية الدفاع المشترك ولم يؤخذ به في ذلك الوقت، إلا أنه تم الأخذ به عام ١٩٦٤ بقيام القيادة العربية المشتركة التي تضم الدول العربية كافة.

ـ التجربة الثانية: وهي توقيع اتفاقات عسكرية بين الدول الراغبة في التعاون العسكري لحماية الأمن العربي وهي الاتفاقات التي تم التوقيع عليها عام ١٩٥٥، وكان أولها الميثاق الثلاثي ويضم مصر وسوريا والسعودية، وقد تعثر الميثاق بسبب محاولة خالد العظم وزير خارجية سوريا تطويره إلى وحدة سياسية بينما كانت مصر والسعودية تصران على إعطاء الأولوية للاتفاق العسكري، وقد تم الأخذ بوجهة النظر المصرية والسعودية وتم توقيع اتفاقات عسكرية في العام نفسه كانت ركيزتها مصر وسوريا والسعودية ثم انضمت إليها اليمن والأردن فيما بعد.

التجربة الثالثة: وكانت تجمع بين الأمرين ففي عام ٧٣ كان هناك اتفاق ثنائي بين مصر وسوريا لتحرير الأرض العربية. وعندما اجتمع مجلس الدفاع العربي في إبريل ١٩٧٣ تقرر تعيين وزير الدفاع المصري قائداً عاماً للقوات العربية كما قررت كل دولة عربية مقدار المساندة التي ستقدمها في المعركة عندما تقرر مصر وسوريا موعدها.

وقد تكررت هذه التجربة في مؤتمر قمة بغداد ١٩٧٨ عندما أصدر المؤتمر قراراً بقيام الجبهة الشرقية وكانت تضم ثلاث دول وهي العراق وسوريا والأردن وتساندها الدول العربية بالمال والقوات أي أن القيادة هي قيادة مشتركة بين الدول الثلاث فقط أما بقية الدول العربية فهي قوى مساندة. كما كان الحال عام ١٩٧٣.

وقد تعثر قيام الجبهة الشرقية وتحرير الأرض العربية بسبب حرب العراق مع إيران.

وهذه التجارب يجب أن تكون موضع النظر عند البحث في الأمن العربي آخذين في عين الاعتبار أن الخلاف الشديد بين السياسة العربية والسياسة الغربية في الماضي حول الأحلاف لم يعد له وجود في الحاضر.

ففي الماضي كانت الدول العربية تصر على رفض الأحلاف الأجنبية وترى أن مصدر التهديد الرئيسي لأمنها هو إسرائيل بينما تصر الدول الغربية على ان مصدر تهديد أمن الدول العربية هو الاتحاد السوفييتي.

أما اليوم فقد حدث تغيير ضخم في خريطة العالم السياسية خلال عام ١٩٩٠، وكان التغيير أسرع مما يتخيله أي إنسان، فبعد حرب باردة طويلة طال أمدها بين الشرق والغرب بسبب الخلافات الايديولوجية والخلافات السياسية والأمنية مما كان يخشى أن تتحول إلى حرب ساخنة نجد أن هذه الخلافات تذوب بسرعة فائقة وتتحول إلى تقارب جدي، وتتوحد ألمانيا وينعقد مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي يوم ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) في باريس يحضره رؤساء دول حلف الناتو ودول حلف وارسو ويتم توقيع معاهدة لخفض الأسلحة التقليدية وإنهاء الحرب الباردة بين دول الشرق والغرب، ثم يجتمع رؤساء ٣٤ دولة أوروبية لوضع أسس العلاقات الأوروبية المتحررة من الانقسامات بعد إنهاء حالة النزاع بين الدول الشرقية والغربية، ويصدر عن المؤتمر وثيقة تاريخية تحتاج منا إلى دراسة مستفيضة لنأخذ منها العبرة في

كيفية التعامل بين الدول المتحضرة.

فأوروبا التي عانت من حربين مدمرتين نجحت في البداية في إقامة المجموعة الأوروبية الغربية، والآن استطاعت القارة الأوروبية بأكملها تحقيق التعاون بين الشرق والغرب من أجل السلام والتعاون الاقتصادي وتقيم أمانة دائمة للمؤتمر مقرها في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا كما تقيم في فينا مقراً لمركز منع النزاعات ومركزاً آخر في وارسو عاصمة بولندا لمراقبة إجراء الانتخابات الحرة، ويتم الاتفاق على عقد اجتماعات دورية بين أعضاء المؤتمر لتطوير العلاقات على مستوى الوزراء وكذلك على مستوى الرؤساء.

فاتفق أعداء الماضي وكان وراء الاتفاق اقتناع من الجميع باحترام سيادة واستقلال كل الدول والتمسك بميثاق الأمم المتحدة والقوانين الدولية، ونتيجة لهذه المعاهدة سقطت مقولة الغرب: إن الأمن العربي يهدده الخطر الشيوعي.

ومن حقنا أن نتوقع أن هذا الاتفاق التاريخي ستكون له آثار إيجابية في مختلف أنحاء العالم وفي منطقتنا العربية بالذات نظراً لأهميتها الاستراتيجية وهو مادفع الدول المجتمعة في باريس أن تشير في بيانها إلى أهمية التعاون بين دول البحر الأبيض المتوسط وهي دعوة تتبناها إيطاليا منذ الستينيات وانضمت إليها أخيراً اسبانيا.

ونتائج المؤتمر تدعونا إلى الشعور بالرضا لما حققه من تفاهم دولي، إلا أنني أعترف أنني شعرت بالأسى وأنا اتتبع ما يجري على هامش المؤتمر ومن خلال اللقاءات الثنائية بين الرؤساء وماصدر عنهم من تصريحات حول أحداث الشرق الأوسط وأزمة الخليج وضرورة تنفيذ قرارات مجلس الأمن بعد أن عجزت الدول العربية عن الخروج من هذه الأزمة الطاحنة والتي تسبب فيها عدوان دولة عربية على أخرى.

هناك في أوروبا تتفق دولها بعد حروب مدمرة وهي دول لا يوجد بينها أي رباط يجمعهم بل خلافات تاريخية وعداء مستحكم من مئات السنين، أما الدول العربية التي ترفع شعوبها شعار الوحدة العربية ويجمعها أكثر من رباط، فهناك اللغة والتاريخ والمستقبل والعقيدة فإنها تتجاهل كل هذه الروابط فيحتل القوي أراضي الجار الأضعف ويستولي على أمواله ويشرد شعبه وتجتمع الدول العربية تحت مظلة الجامعة العربية وميثاقها لتنظر في أمر عدوان دولة عربية على دولة عربية أملاً في أن تحترم الدول العربية ميثاق جامعة الدول العربية فنرى عجباً، تتجاهل بعض الدول العربية المواثيق الدولية والعربية وترفض إدانة العدوان والمطالبة بإنهائه، وهي بذلك إنما تشجع على الاستمرار في العدوان وعدم حل المشكلة سلمياً كما تسببت في خلق انقسام شديد في العالم العربي.

وعندما تقدمت الكويت بشكواها إلى مجلس الأمن، إذ بها تجد تماسكاً عالمياً شرقاً وغرباً يدين العدوان ويصر مجلس الأمن على إنهائه مع اتخاذ إجراءات وتدابير ينص عليها الميثاق ضد الدول المعتدية.

وقد سارع الكثير من الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة وبعض الدول العربية وفي طليعتها مصر وسورية إلى الاستجابة لطلب السعودية والإمارات لمواجهة تهديد أمنها بعد الاجتياح العراقي للكويت.

وازدادت مشكلة الأمن العربي تعقيداً فلم تعد إسرائيل المصدر الرئيسي لتهديد الأمن العربي بل أصبح الأمن العربي مهدداً من داخل الوطن العربي وذلك لأول مرة منذ قيام جامعة الدول العربية الأمر الذي وضع الأمة العربية في وضع معيب للغاية أمام العالم.

وعند زيارة الرئيس بوش لمصر أشار إلى مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي واعتبره بداية لنظام عالمي جديد يحمل فرصاً أفضل للسلام والاستقرار سواء كان في

مختلف أنحاء العالم أو في الشرق الأوسط.

وفي الوقت نفسه أعلن الرئيس حسني مبارك أنه بعد تحرير الكويت لابد أن تكون هناك إجراءات وترتيبات لجعل هذه المنطقة مستقرة ولتجنب أي توتر أو حرب جديدة وهو ما أشار إليه رؤساء مجلس التعاون الخليجي أكثر من مرة.

ومن هنا كانت دعوتي إلى أن تبادر مجموعة من الدول العربية تضم دول مجلس التعاون الخليجي ومصر وسوريا، لدراسة الإجراءات الأمنية آخذين في عين الاعتبار النظام العالمي الجديد خاصة وأن منطقتنا بمثابة القلب في هذا النظام لموقعها الاستراتيجي بين قارات ثلاث ولاحتياطيها الضخم من البترول وهو مازال عصب الاقتصاد في العالم.

والتوقيت هام للغاية في مثل هذه الأمور، والعالم لايقبل الاستمرار في حالة عدم الاستقرار، ولذا علينا بالمسارعة لوضع النظام الأمني الذي يناسبنا والذي يؤكد أننا جادون في الدفاع عن أراضينا وتحقيق الاستقرار في منطقتنا وأننا على استعداد لتحمل مسؤولياتنا في هذا السبيل.

أما إذا تلكأنا فقد نفاجأ بنظام أمني دولي نجد أنفسنا جزءاً منه وقد لا يتناسب مع ظروفنا الخاصة والتي لا يدركها سوانا، فالعلاقات العربية أصبحت معقدة وزاد من حساسيتها العدوان العراقي مما سيخلق عقداً نفسية قد تطول لسنين طويلة وهو زمن قد لا يستطيع الأجنبي إدراكه أو فهمه، علماً بأن الخلاف العراقي الكويتي حول الحدود ليس الخلاف العربي الوحيد حول الحدود بين الدول العربية، فهناك خلافات حول الحدود تمتد من دول المغرب إلى العديد من دول المشرق.

إلا أن ما نأخذه على العراق ونستنكره هو لجوءها إلى استخدام القوة وإعلان ضم الكويت واعتبارها إحدى المحافظات العراقية.

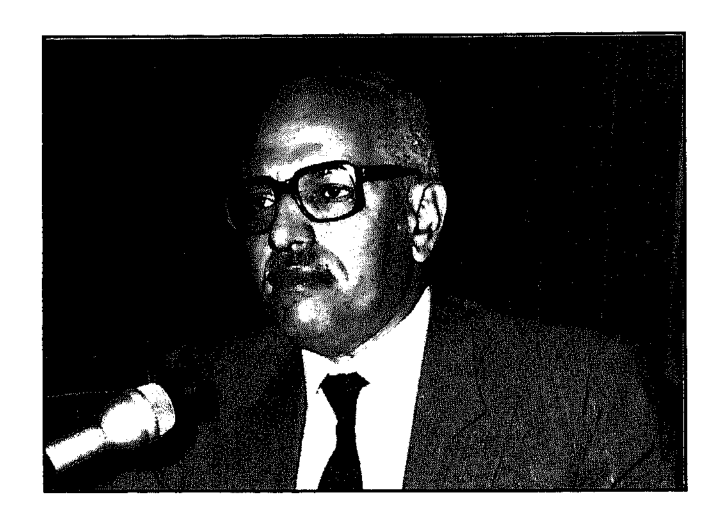
ومن هنا يصبح وجود نظام أمني في منطقتنا أمراً له الأولوية عن أي عمل آخر، وعلينا المسارعة بوضعه.

والأمر لا يحتمل دراسات متعمقة إذا كانت هناك رغبة سياسية حقيقية في تحقيقه، فقد سبق وأشرت إلى تجارب الماضي ونحن نعلم أسباب فشل بعض هذه التجارب، والأمر الذي استطيع أن أجزم به، هو فشل الترتيبات الأمنية العسكرية التي تضم الدول العربية كافة، لذا يجب التركيز حالياً على ترتيبات أمنية يكون مسؤولاً عنها عدد محدود من دول المشرق العربي، وتبسيطاً للموضوع فعندما شعرت دول الخليج بتهديد أمنها بعد الغزو العراقي للكويت ولجأت لجامعة الدول العربية والأمم المتحدة سارع العديد من دول العالم في إرسال قواتها استجابة لطلب دول الخليج وهو طلب مشروع يتمشى مع الأعراف الدولية وميثاق الأمم المتحدة.

كما قامت دول عربية بإرسال قوات لها وفي مقدمتها مصر وسوريا من المشرق العربي وهذه القوات تقف حالياً بجوار القوات السعودية وقوات دولة الإمارات للدفاع عن أمنهما ضد أي عدوان، وهناك ترتيبات عسكرية تم اتخاذها بالفعل لتنظيم وجود هذه القوات. والمطلوب هو وضع هذا التعاون العسكري القائم بالفعل في قالب سياسي على غرار الاتفاقات التي سبق توقيعها عام ١٩٥٥ لضمان حالة الاستمرار وتأكيد التعاون السياسي وفي الوقت نفسه يكون لدينا تصور مشترك بالنسبة إلى أي ترتيبات نابعة عن النظام العالمي الجديد.

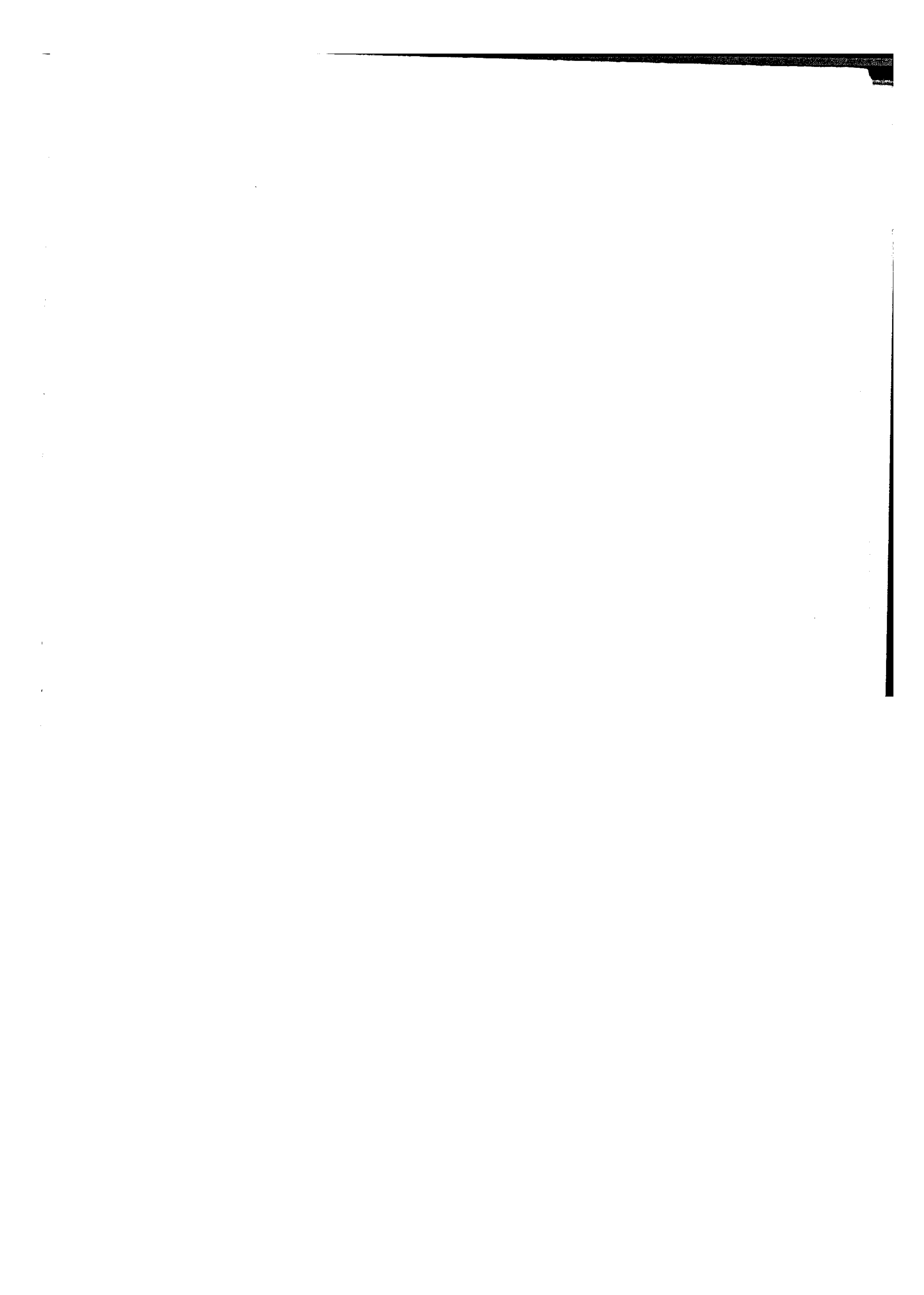
وقد ترتد هذه الترتيبات إلى دول عربية عندما تعود إلى الحظيرة العربية، فالباطل لايمكن أن يدوم، ولابد أن يشرق النور من جديد مع الأمة العربية والتي تضم أقدم حضارات في التاريخ وفي مقدمتها حضارتنا الإسلامية التي أضاءت العالم بنورها، والله الموفق.

مستقبل العالم العربي



احمد كمال ابو المجد

القيت بتاريخ : ٢٧/١٠/١٩٩٠م



سيرة ذاتية

الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد

ـ حصل على الدكتوراه في القانون المقارن من جامعة متسغان بالولايات المتحدة الأمريكية.

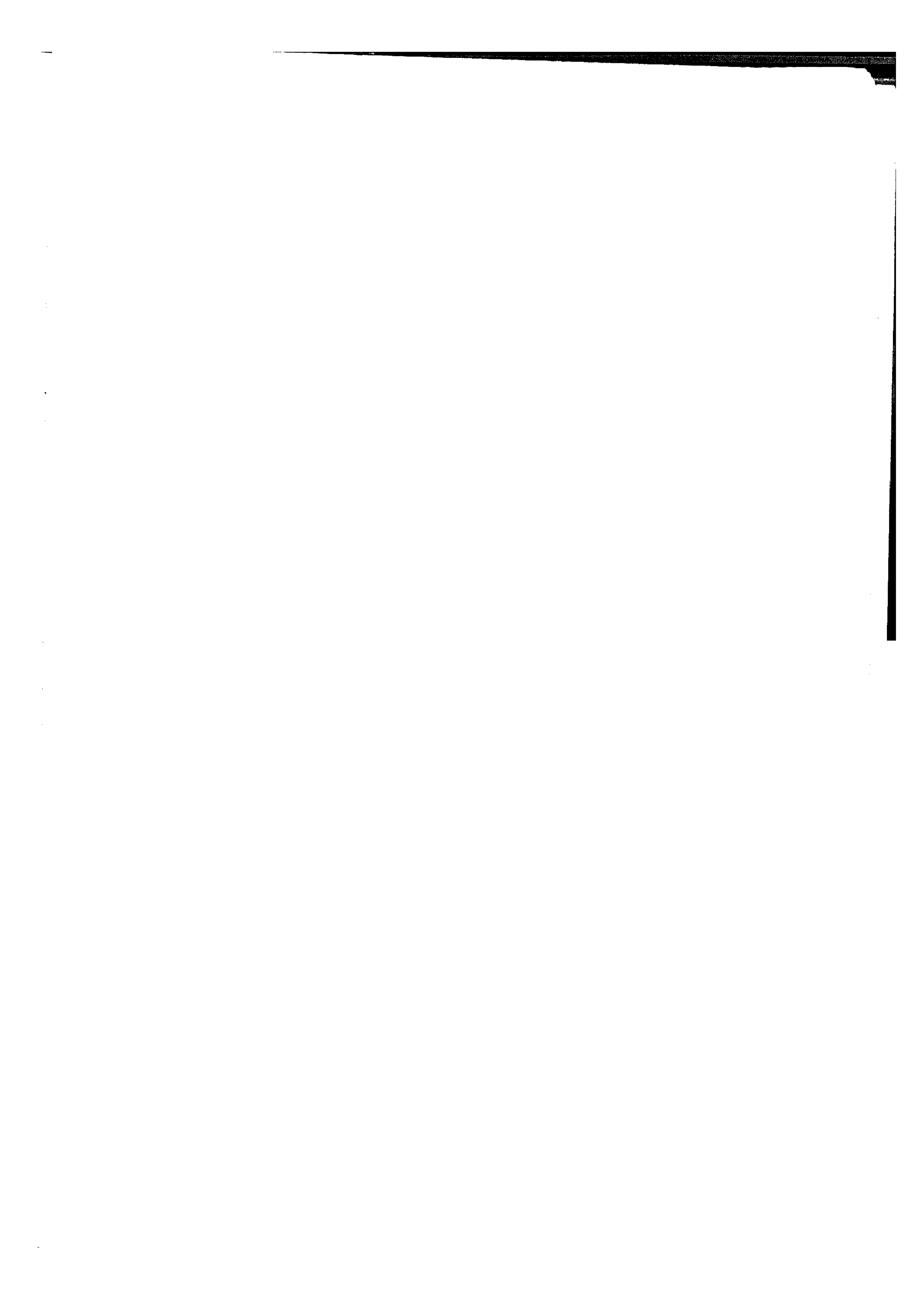
ـ عمل مدرساً بكلية الحقوق في جامعة القاهرة ـ جمهورية مصر العربية.

ـ عين مستشاراً ثقافياً لمصر في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٦٦ وحتى عام ١٩٧١.

ـ ثم وزيراً للشباب منذ عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٧٤ عاد بعدها إلى جامعة القاهرة بصفته أستاذاً للقانون.

ـ عمل مستشاراً للشؤون القانونية والدستورية لمكتب سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء بدولة الكويت.

ـ عين نائباً لرئيس المحكمة الإدارية للبنك الدولي للانشاء والتعمير بواشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية.



مستقبل الأمة العربية

أحمد كمال أبو المجد

اخترت لحديثي هذه الليلة هذا العنوان، وآثرت أن يكون لقاؤنا حواراً حول المستقبل، وأنا أعلمُ علمَ اليقين أننا ـ نحن العرب ـ كل العرب مهمومون بالحاضر، مأخوذون بصدمة الغزو العراقي للكويت، غارقون إلى آذاننا في جدل لا ينتهي وتساولات تشرّق بنا وتغرب بحثاً عن وسائل الخروج من كارثة هذا الغزو بأقل الخسائر، وأعرف كذلك أن من الحصاد السيء الحثيث لهذا الغزو أن الفكر العربي قد تشتت وأن الوجدان العربي والمسلم قد تمزقا وزايلتهما وحدة الرؤية ووحدة الموقف، فضلاً عن وحدة الموقف ووحدة القرار.

وقد كان مقصدي من هذا الاختيار أن أشد الانتباه إلى أمرين:

أولهما: أن أذكر من جديد أنه لا وقت للعمل من أجل المستقبل إلا في اللحظة الحاضرة فإن تركناها تفوت ضاع منا الحاضر والمستقبل جميعاً.

الثاني: أن نعمل معاً من خلال هذا الحديث إلى دفع روح الإحباط والتشاؤم وألا يقتصر دورنا في مواجهة الأزمة على أن نحزن ونستنكر وندين، ونضرب كفاً بكف وأن ندرك بدلاً من ذلك أن الفرج مع الصبر وأن مع العسر يسرا.

وإذا كنا خلال العامين الماضيين بل خلال الأعوام العشرة الماضية قد تحدثنا فأطلنا الحديث عن المستقبل وخصائصه وعن النظام العالمي وتحولاته فإننا قد اكتفينا بالحديث ولم نكن نفعل شيئاً، وكانت علامات المستقبل مليئة بإشارات واضحة تدعو إلى الحركة وتنادي بتغيير كثير من الأمور، فلم نغير ولم نحرك، أخذنا نطالع معالم التغيير من حولنا ولا نغير من أنفسنا، فجاءت هذه القارعة تذكر بعض ماكنا نسينا وتدفع في ظهورنا دفعاً لكي نتحرك ونعمل ونغير، حتى لا يكون

الطوفان، يوم لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ودون إطالة أو إغراق في التفاؤل فإن حديثي اليوم أشبه برسالة أريد أن أبلغها كما أراها ثم أنصرف.

هذه الرسالة تقوم على محاور أربعة:

المحور الأول: أننا نحن العرب ونحن المسلمين لا نعيش وحدنا على هذا الكوكب، ولا نملك أن ننعزل في جزيرة يضعها خيالنا أو تصيغها مشيئتنا. ندير فيها أمورنا كما نشتهي وعلى العالم أن يتركنا وشأننا، لا، لقد سقطت الحواجز بين الأمم وطويت المسافات بين الناس، وانحسر الماء الحاجز بين الجزر، وما يجري بين القوى الكبرى والصغرى الفاعلة والمؤثرة في زماننا هذا يؤثر في كل صغيرة وكبيرة في أمورنا.

وعلى سبيل المثال فإن التغييرات التي طرأت على العلاقات الدولية خلال العامين الأخيرين قد زلزلت النظام السياسي والاقتصادي العالمي وزلزلت معه كثيراً من أوضاعنا.

وحسبي أن أشير إلى أمثلة ثلاثة

١ـ الوفاق الذي تم بين الدولتين الكبريين وتعاونهما الوثيق والمعتاد في مواجهة المواقف الدولية الطارئة والأفكار المشتركة، يجعل من العسير الوقوف في وجههما حين تتحد كلتاهما، لقد انتهى - إذن - عصر الاستقطاب الدولي الواضح، وسقطت فكرة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز.

إنه في ظل هذا الوفاق الجديد جرى انسحاب الاتحاد السوفييتي من أفغانستان وجرى تهجير عشرات الآلاف من اليهود لإسرائيل.

٢ـ الوحدة الأوروبية، وتوجه المعونات الاقتصادية إلى دول شرق أوروبا على حساب المعونات والقروض التي كانت موجهة لدول العالم الثالث ودول الجنوب بصفة عامة.

٣ـ لم يعد من الممكن أن نرفع شعار نفط العرب للعرب ونغلق أبوابنا عليه، ونتحكم في إنتاجه وفي ثمنه، والأقرب أن نسمع دوي شعار معاكس يقول بل نفط العرب للعالم كله، وعلى العرب أن يتنحوا ولا يتحكموا في ثمنه.. هذا وإلا جئنا إليهم بجنود لا قبل لهم بها وأقمنا بينهم نحرسه ونؤمن تدفقه واعتدال ثمنه.

المحور الثاني ـ إن استقلالنا وتميزنا الحضاري لا يقتضي بالضرورة أن نرفض هذا النظام العالمي الجديد وأن نبحث لنا عن مكان خارجه، لأن ذلك ليس ضرورياً من ناحية، ولأنه ليس ممكناً من ناحية أخرى، ذلك أن النظام العالمي الجديد وإن لم تتشكل قسماته بعد على نحو نهائي واضح، فإن من معالمه الأساسية، نبذ الحروب وإسقاط نظام التقاتل دفاعاً عن المصالح وإقامة نوع من الاعتماد المتبادل لمواجهة أخطار جديدة مشتركة أهمها: خطر فساد البيئة ونفاد الموارد وانتشار الأوبئة والأمراض.

فهل في نسقنا الحضاري أو رؤيتنا الثقافية أو عقيدتنا الدينية الحاكمة ما يؤكد لنا أن علينا رفض هذا النظام العالمي الجديد.

أوليست هذه القيم أقرب إلى ما جاء به الأنبياء والمرسلون ومارسوا من العدل والقسط الذي قام عليه أمر السموات والأرض.

وإذا رفضنا هذه القيم فإلى أي قيم ندعو إذن.

إنني هنا استدرك في وضوح واعترض في غير مواربة على تصور يكاد يكون سائداً بين العرب والمسلمين خلاصته أن النظام العالمي السائد نظام شيطاني

جاهلي يتعين علينا رفضه والابتعاد عنه، وأنا أقول: هل من المعقول أن نخاصم الدنيا وهي في ضلالها القديم ثم نستمر في مخاصمتها إذا همت بالخروج... من هذا الضلال... ووقعت على أعتاب هدى جديد.. أوليس الموقف الإسلامي الصحيح أن ننحاز إلى الحق والعدل حيثما كانا وأن نواصل الإصلاح والترشيد حيثما تغيب معالم الحق أو يوشك العدل بين الناس أن يضيع.

وفوق ذلك فإن العزلة عن النظام العالمي الجديد غير ممكنة. فالنظام الجديد يجمع - تحت لوائه - كل حضارات العصر وثقافته وينضوي تحت نسقه جميع الشعوب وستكون الخيرات التي تجيء منه وقفاً على أعضاء ناديه والمشاركين فيه.. ثم هل لنا بعد - نظام بديل، وأين هو ومن أعضاؤه والمشاركون فيه.

العرب المتفرقون الذين لا تجمع لهم كلمة، ولا يعرف لهم رأي ولا تقوم لنسق تنظيماتهم قائمة حتى ينقض عليها المشاركون فيها هدماً وتدميراً.

لقد أدت عزلتنا الثقافية والسياسية وأدى غيابنا عن ساحة الحركة في مركز الحياة إلى تمزيق وحدتنا وتشويه حضارتنا وحرماننا من المشاركة في ثمرات الجهد الإنساني المشترك، واستطاعت الصهيونية أن تزج دينها - ظلماً وكذباً - في حضارة الغرب مقربة زوراً بينها وبين المسيحية، مظهرة العرب والمسلمين على أنهم الأغراب الملقون الأعداء.

فهل نواصل نحن رحلة العزلة والابتعاد.

إن هذه ليست دعوة إلى التخلي عن رسالتنا الكبرى وعقيدتنا التي تجري في عروقها مجرى الدم.. ولا هي دعوة للذوبان في حضارات الآخرين، وإنما هي في وضوح دعوة لمواصلة تبليغ الرسالة وأدائها من داخل الجسم الحي للحضارة الإنسانية وليس من خارج ذلك الكيان.

شعارنا - منذ اليوم - أن حضارتنا إنسانية عالمية - وإنها لا تنعزل عن مسيرة الناس وتيار التاريخ، وإننا نرى في النظام العالمي الجديد معالم رشد وبشائر هداية، ومقدمات خير كثير، وإننا لهذا نعلن أنفسنا جزءاً من هذه المسيرة، وأعضاء مؤسسين في هذا النادي الجديد، وسنعمل في ظل قواعده المنعقد عليها - لتنمو هذه المعالم، ولتحول الإنسانية إلى نظام مستقر جديد.

وحسبنا أن دعاوى إقصاء الدين عن الحياة والإصرار على الإلحاد والكفر بالإله قد سقطت بسقوط النظم التسلطية التي قهرت الإنسان وعقيدته ومصالحه سبعين عاماً أو يزيد.

المحور الثالث: إننا لا نستطيع ممارسة هذا الجهد والتقدم لعضوية النادي الدولي الجديد ونحن متفرقون مشرذمون وإلا عوملنا فيه معاملة الضعفاء وهمش وجود فيه.

أما إذا بدأنا هذا الجهد من موقع قوة ووحدة وترابط فإننا سوف نؤخذ مأخذ الجد، وسيفسح لنا مكان قريباً من الصدارة وليس في آخر الصفوف.

إن الذين سبقونا إلى عضوية هذا النظام الجديد لم يدخلوه متفرقين، فأوروبا توحدت أولاً وأمريكا تقاربت من كندا وأنشأت منطقة جمركية موحدة، ودول جنوب شرق آسيا وضعت يدها في يد اليابان وتحركت كقوة يحسب لها ألف حساب فهل نعجز نحن العرب عن أن نتوحد في صيغة أي صيغة.

المحور الرابع: إن كارثة غزو العراق للكويت قد جاءت والعرب على مفترق طرق شتى، ففجرت إحساساً صادقاً بكل عناصر الضعف والقصور في الواقع العربي.. على مستوى الأطر والهياكل الإقليمية وعلى مستوى النظم السياسية والاجتماعية، وعلى مستوى الفرد العربي وأدائه في جميع الميادين فيها... تهدد الأمن العربي

للمرة الأولى تهديداً خطيراً من داخل الأمة وليس من خارجها وبها ظهر عجز التنظيمات الإقليمية ودون الإقليمية أي الجامعة العربية والاتحادات الإقليمية الثلاثة عن أداء دور فعال لمنع الكارثة أو التكامل الفعال لها.

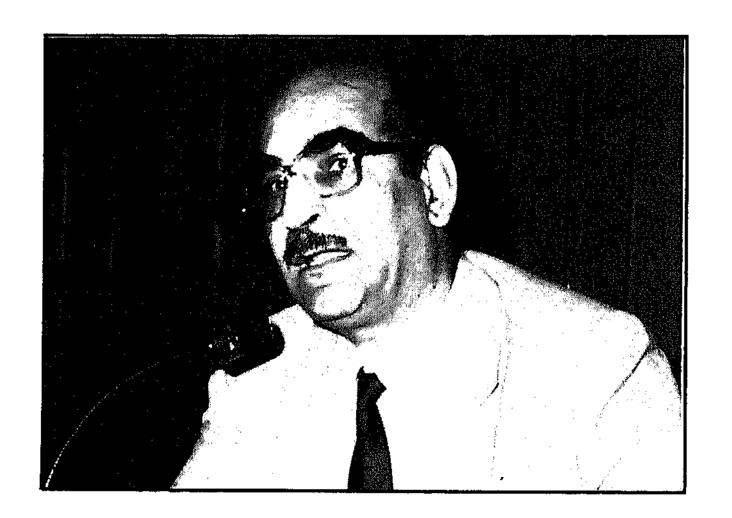
وبها ظهر عجز الفرد العربي عن اتخاذ موقف واضح وحاسم، وعن أداء دور فعال ومؤثر حتى لقد اختصر بعضنا الطريق، فقال مضطراً ـ وتلك قمة المأساة ـ إن الخيار العربي لحل الأزمة لم يعد مطروحاً لأنه ليس قادراً ولا فعالاً، وإنه لذلك، لا خيار فعال إلا بتدخل الآخرين.. هذا بعد عشرات من السنين رفعت فيها شعارات الاستقلال والإصرار على أن أمن العرب مسئولية العرب.. وإن الخليج مسئولية أهل الخليج.

إننا فوق ما تقدم وبسبب ما تقدم جميعه مدعوون إلى إعادة نظر شاملة في نظام الأمن القومي العربي وفي الإطار النظمي الكامل له.

في نظم التوحد دون الإقليمي.. وفي فاعليتها وشروط تلك الفاعلية وفي نظمنا السياسية المختلفة بحثاً عن صيغة تلائم وتناسب ولكنها لابد أن تكفل مزيداً من المشاركة.. الشعبية التي يتحقق بها الاعتماد ويضمن بها المشاركة الفعالة في رعاية الأمن ورد العدوان.

هذا ـ أيها الإخوة ـ أول الطوفان وواجب المثقفين أن يقولوا بكل الصراحة وكل اللياقة إن الذين يخافون النقد ينبغي أن يخافوا من فكرة التغيير.

آفاق المستقبل العربي



الدكتور محمد عابد الجابري

القيت بتاريخ : ١٩٩١/١١/٢٦م



سيرة ذاتية

الأستاذ الدكتور محمد عابد الجابري

من مواليد المغرب.

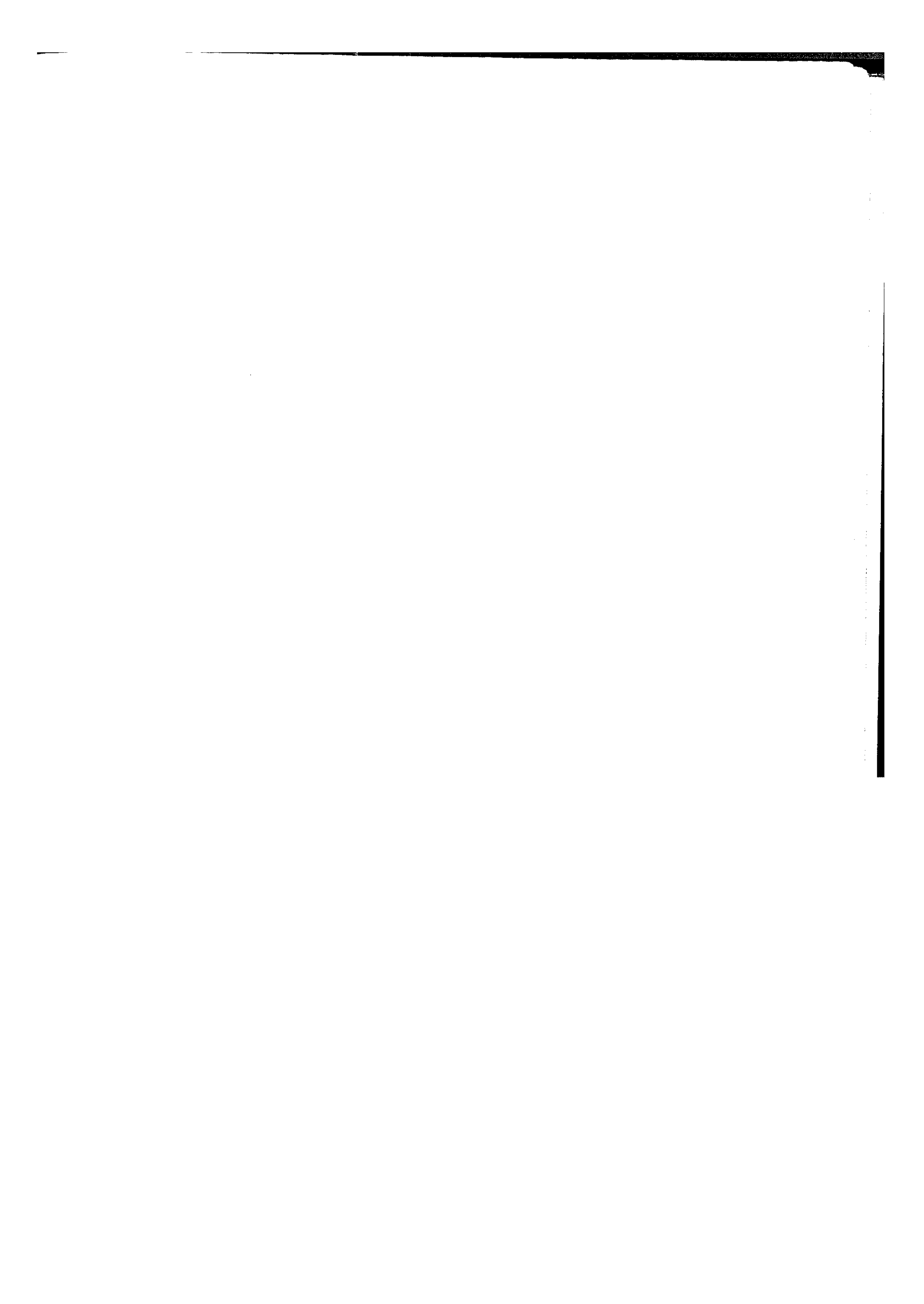
حاصل على دكتوراه الدولة في الفلسفة من كلية الآداب بالرباط.

أستاذ الفلسفة والفكر العربي الإسلامي من كلية الآداب بالرباط منذ عام ١٩٦٧ وحتى الآن.

له العديد من الكتب على سبيل المثال لا الحصر

- المغرب المعاصر.
- كتاب في فلسفة العلوم.
- ويعمل حالياً على كتاب عنوانه «نقد العقل السياسي العربي».

بالإضافة إلى بحوث ومقالات في الصحف العربية والأجنبية وشارك في العديد من المؤتمرات والندوات الفكرية العربية والأجنبية.



آفاق المستقبل العربي

محمد عابد الجابري

التفكير في المستقبل أصبح سمة العصر. لم يعد الناس، في العالم المعاصر، ينظرون إلى المستقبل على أنه ذلك المجهول الذي ليس على الإنسان إزاءه إلا أن ينتظر ما سيأتي به من مغيبات ومفاجآت، بل لقد باتوا يخططون له ويعملون على المساهمة في صنعه والتأثير في اتجاهه. وفي العقود الأخيرة صار الحديث عن المستقبل مركزاً حول سنة ٢٠٠٠ وكأنها موعد مضروب للإنسانية مع عالم آخر، عالم «المستقبل»، عالم القرن الواحد والعشرين. وكما يحدث دائماً فإن اللحظات التي تسبق حلول الموعد تكون مسرحاً للترقب، للتوجس والتوثب، للتزاحم والتنافس والتدافع. وعقد التسعينيات الذي سلخنا منه سنتين يتعامل معه الناس اليوم - أعني من هم يمتلكون القدرة على صنع المستقبل - على هذا الأساس. وهناك من الأحداث العظام ما جاء في السنوات الأخيرة على غير موعد، وكأنها تريد ان تقيم الدليل على ان موعد سنة ٢٠٠٠ موعد جدي سيشهد انطلاق مسار جديد للأحداث وتحول حقيقي في اتجاه التاريخ.

لنقتصر على التذكير بثلاثة أحداث تاريخية كبرى جرت في السنوات الأخيرة ولها علاقة مباشرة بالمستقبل العربي: هناك من جهة التحولات العميقة التي جرت وتجري في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي، والتي دشنت مرحلة جديدة في التاريخ المعاصر صار يطلق عليها اسم: النظام الدولي الجديد، النظام الذي سيطبع بطابعه الأنظمة الإقليمية، بل لربما حتى القطرية منها، وفي العالم العربي بكيفية خاصة نظراً لأهمية البترول العربي في بنية هذا النظام. وهناك من جهة ثانية حرب الخليج وما تنطوي عليه من أبعاد عربية ودولية ستكون بدون شك ذات أثر عميق وواسع على ماجريات المستقبل، على الأقل في المستوى المنظور، وهناك

أخيراً، وليس آخراً، تدشين مسلسل المفاوضات المباشرة بين العرب وإسرائيل، المفاوضات التي يراد منها أن ترسم أفقين اثنين ـ على الأقل ـ من آفاق المستقبل العربي: أفق «حل» القضية الفلسطينية، وأفق «قبول» الدول العربية لإسرائيل كواحدة من دول المنطقة وذلك بالاعتراف الرسمي بها وتطبيع العلاقات معها في جميع الميادين.

ثلاثة أحداث تاريخية كبرى متزامنة متزاحمة كأنها جاءت لتؤكد، كما قلنا، أن موعد سنة ٢٠٠٠ موعد حقيقي وجدي وأن الأمر يتعلق بواحد من تلك التحولات التاريخية الكبرى التي وصفها ابن خلدون بقوله: «وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث». أجل لقد «تبدلت الأحوال جملة» في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي وبالتالي في العلاقات الدولية التي كان هذا الأخير يشكل طرفاً قطبياً فيها، و«تبدلت الأحوال جملة» في العالم العربي خلال حرب الخليج التي كانت ـ في بعض جوانبها على الأقل ـ حرباً أهلية عربية، و«تبدلت الأحوال جملة»، بخصوص فلسطين «القضية» فانتقلت من الطموحات والآمال والشعارات التي نعرف، إلى مفاوضات مباشرة قد تنتهي بما لا نعرف.

على أن هذه الأحداث الثلاثة التاريخية الكبرى إذا كانت قد جاءت لتؤكد من جهة أن العالم مقبل فعلاً على تحولات عميقة ستسفر عن وضع جديد تماماً مع إطلالة سنة ٢٠٠٠ فإنها من جهة أخرى جاءت لتشكل نوعاً من التحدي «السافر»، لإمكانية البشر على توقع مستقبلهم. ذلك لأنه لا أحد كان يتوقع هذه الأحداث الثلاثة ولا أحد كان يعدها ـ قبل حدوثها ـ من جملة «آفاق المستقبل»، القريب المباشر. بل يمكن القول إن صانعي هذه الأحداث ـ أعني الذين ينسب إليهم اتخاذ القرار الذي دشن مسلسلها: غورباتشوف، صدام حسين، جورج بوش، منظمة التحرير الفلسطينية وأي حاكم عربي آخر ـ لا أحد من «أصحاب القرار» هؤلاء

كان يتوقع أن يحدث ما حدث بالشكل الذي حدث ويحدث به. وإذا صح هذا، وهو صحيح، فما الفائدة إذن في الحديث عن «آفاق المستقبل» وما الذي يبرر مشروعية مثل هذا الحديث؟

ويبرز هذا الاعتراض قوياً ومتحدياً إذا نحن استعرضنا جملة الأحداث التي عرفها العالم العربي في العقود الأخيرة والتي جاءت كلها على عكس ما كانت تشتهيه «السفينة» العربية، سفينة الطموحات الوطنية والقومية: فمن كان يتوقع هزيمة ١٩٦٧ بكل آثارها المادية والمعنوية؟ ومن كان يتوقع أن تنتهي حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى زيارة السادات للقدس وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد؟ ومن كان يتوقع أن ينتهي «الرفض» العربي لهذه الاتفاقية ـ الرفض الذي تَجَسَّم في نقل مقر الجامعة العربية من القاهرة وتجميد عضوية مصر فيها ـ إلى المفاوضات المباشرة العربية الفلسطينية مع إسرائيل، بعد سلسلة من التنازلات التي جعلت قبول هذه الأخيرة للدخول في هذه المفاوضات ممكناً؟ ثم من كان يتوقع أن تدوم الحرب الأهلية اللبنانية خمسة عشر عاماً لتنتهي إلى ما كان يمكن أن تنتهي إليه الأطراف المتنازعة قبل نشوب الحرب؟ ومن كان يتوقع أن تساهم أطراف عربية في تضييق الخناق الاقتصادي على العراق (إغراق السوق العالمية بالبترول لتخفيض أسعاره) وذلك بمجرد خروجه من حرب ضروس مع إيران كان للعراق فيها دور أساسي وحاسم في وقف زحف الثورة الخمينية على الخليج العربي بأجمعه؟ ثم من كان يتوقع أن تقوم القوات العراقية بذلك الاجتياح العسكري للكويت، الاجتياح الذي ألقى بعرض الحائط جميع الاعتبارات، العربية والدولية؟ ومن كان يتوقع أن يحدث ما حدث بعد ذلك من حرب تحالفت فيها جهات متعددة ضد العراق، حربٍ مدمرة ذات أبعاد عميقة، عربياً ودولياً، مما جعل منها أحد الأحداث التاريخية الكبرى في هذا القرن؟

لا أحد يستطيع القول إنه كان يتوقع هذه الأحداث ضمن «آفاق المستقبل» الذي

كان موضوع التفكير قبل حدوثها. والنتيجة النظرية التي يمكن استخلاصها من ذلك هي أن التاريخ لا يسير حسب توقعاتنا بل هو يأتي - إن لم يكن دائماً فغالباً - بما لم يكن متوقعاً. ومهما وضعنا من السيناريوهات للمستقبل فإن ما سيحصل فعْلاً سيكون في الغالب شيئاً آخر يقع بين سيناريوهين أو أكثر من سيناريوهاتنا ولا يتطابق تمام التطابق مع أي واحد منها. ذلك أن الحياة البشرية هي مجال لتشابك عوامل عديدة لا تخضع كلها لعملية «الضبط» التي بإمكان الفكر البشري القيام بها. نعم إن المنهج الجدلي - الديالكتيك - يحاول استحضار العوامل المختلفة وتفاعلاتها، ولكنه يختزل الواقع وإمكاناته عندما ينتقل إلى مرحلة «التركيب»، أي تحديد «ماسيقع».

ومع ذلك يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن عدم القابلية للتوقع الدقيق لا يعني استحالة التفسير ولا استعصاءه، فجميع ما يحدث من أحداث في الحياة البشرية هي - مبدئياً على الأقل - قابلة للتفسير، بمعنى أن العقل البشري يستطيع أن يتبين كيف أن وقوعها كان ممكناً جداً، بمعنى أن الواقع كان محملاً بها وأن وقوعها لم يكن مصادفة ولا اتفاقاً وإنما كان لأسباب يمكن التعرف عليها وضبطها. ومن هنا ذلك المبدأ الذي يجعل المعرفة التاريخية ممكنة، المبدأ القائل: لاشيء يقع في المستقبل لم يكن له أساس وأصل في الماضي والحاضر. وإذن فإذا نحن افترضنا أننا نستطيع معرفة الحاضر معرفة جيدة ودقيقة فإن ادعاءنا لإمكانية توقع «آفاق المستقبل»، سيكون ادعاء مبرراً. أقول «آفاق» ولا أقول «ماجريات»: الآفاق تعطينا اتجاه الأحداث وليس الأحداث نفسها.

والواقع أنه إذا رجعنا إلى العقود الأخيرة ودرسنا ماجرى فيها من أحداث دراسة موضوعية فإننا سنجد أن سلسلة الأحداث المؤلمة التي عرفها العالم العربي خلالها كانت من الأمور الممكنة قبل وقوعها وبالتالي كانت تدخل ضمن دائرة «آفاق المستقبل» وأكثر من ذلك فقد نجد إرهاصات تشير إليها وربما أصواتاً تنبه عليها،

مما يعني أنه كان في الإمكان تلافي وقوعها. وهكذا يمكن القول إن هزيمة ١٩٦٧ كان يمكن تلافيها لو وقع التحكم في «العنصر» الذي أشعل النار (علماً بأن الهشيم والوقود كانا موجودين)، وهذا «العنصر»، هو سقوط القيادة المصرية آنذاك تحت تأثير الاستفزاز والمزايدات، وبعبارة أخرى كان قرار الدخول في حرب مع إسرائيل قراراً غير مدروس، غير صادر عن تحليل صحيح للأوضاع الداخلية والدولية ولا عن تقدير حقيقي للنتائج. ومثل ذلك زيارة السادات للقدس واتفاقية كامب ديفيد، فلم يكن أي منهما أمراً مفروضاً محتوماً من جهة، وكان يمكن من جهة أخرى الحصول من خلالهما ـ بعد اختيار القيام بهما ـ على أكثر مما وقع الحصول عليه. ومثل ذلك حربا الخليج الأولى والثانية. فلا واحدة منهما كانت محتومة ولا ضرورية من جهة كما أنه كان يمكن من جهة أخرى أن تكون نتائج الأولى شيئاً آخر تماماً لو لم يصدر قرار إعلان الحرب عن الطرف العراقي، ونتائج الثانية مختلفة جذرياً عما حدث ويحدث لو كان هناك قرار بالانسحاب من الكويت طُبِق في الوقت المناسب. وأيضاً فما حدث في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي كان يمكن أن يتخذ مساراً آخر لو أن عملية «إعادة البناء»، (البيريسترويكا) لم تأت متأخرة ولو أنها اتجهت إلى إعادة بناء الحزب والدولة والنظرية الاشتراكية والعلاقات مع الصين... إلخ. في وقت مبكر وبالصورة التي تجعل من عملية «إعادة البناء»، تدبيراً مستمراً مساوياً للتطورات الجديدة، المحلية والدولية، ومتكيفاً معها.

وواضح أن هذا الذي قلناه بصدد تفسير الماضي ينطبق أيضاً ـ ولو في حدود ـ على «تفسير»، المستقبل: فإذا نحن تمكنا من إدراك جيد لمعطيات الواقع الراهن واتجاه تطوره، أو على الأقل رصدنا الاتجاهات الممكنة فيه، أصبح في إمكاننا تبين «آفاق المستقبل»، أي اتجاه الأحداث. وفي هذا المجال لابد من الإشارة إلى أن حظوظ الرجل السياسي ـ الفاعل التاريخي ـ ستكون أكثر وأغنى من حظوظ المؤرخ الذي يقتصر عمله على جمع المعلومات وتحليلها. ذلك لأن الفاعل التاريخي يستطيع

ليس فقط تبين اتجاه الأحداث، من خلال جمع المعلومات وتحليلها بل أيضاً يستطيع، بما هو فاعل، التأثير في الأحداث واتجاهها. ومن هنا ضرورة التأكيد على عنصر أساسي فيما نحن بصدده، نقصد بذلك إرادة التغيير والعمل من أجله. إن الحياة البشرية لا تسير سيراً آلياً، بل إن للعامل البشري دوراً كبيراً فيها، فالإرادة المصممة، التي تعرف ماتريد، تصنع المستقبل، أو على الأقل تساهم في رسم اتجاهه.

نخلص مما تقدم إلى أن الحديث عن «آفاق المستقبل» سيكون مجرد مغامرة خطابية إذا هو لم يستند إلى ركيزتين أساسيتين: المعرفة الجيدة بالواقع الراهن، وتوافر إرادة التغيير، وهما شيئان متلازمان كل منهما شرط للآخر: المعرفة بالواقع شرط لنجاح إرادة التغيير، وإرادة التغيير شرط في اتجاه المعرفة نحو عمق الأشياء، نحو مفاصلها. فلنحاول الانطلاق من هذه النقطة بالذات: من الرغبة في التعرف على مفاصل الواقع الراهن، الرغبة التي تحركها إرادة التغيير، أعني التطلع إلى مستقبل أفضل - أفضل من المستقبل الذي تريد تكريسه معطيات الواقع الراهن كما هي معطاة لنا وضدنا.

يتميز «الواقع الراهن» في العالم العربي، وفي معظم بلدان عالم اليوم، بكونه مشدوداً إلى المستقبل أكثر من انشداده إلى الماضي، وبالتالي فالعناصر الفاعلة فيه هي تلك التي لها علاقة بالمستقبل. وهذه خاصية كل فترة انتقالية. وإذن يجب التركيز في دراسة الحاضر العربي الراهن على المحددات الفاعلة التي تنتمي إلى المستقبل، فهي التي سيكون لها الأثر الحاسم في التحولات المقبلة. نعم، مازال «الماضي» يشكل إحدى المرجعيات الرئيسية في حاضر العالم العربي، اجتماعياً وفكرياً، ومع ذلك فإن تأثير هذه المرجعية لن يكون حاسماً بسبب أن العوامل الحاسمة في عالم اليوم، والوطن العربي يقع في قلبه، هي عوامل خارجية أساساً. ومعلوم أن الماضي الوطني إنما يمارس تأثيره في اتجاه المستقبل عندما تكون

العوامل الفاعلة الحاسمة داخلية محضة. أما عندما تكون هذه خارجية أو على الأقل ليس فعلها مرهوناً بـ «الأنا» وحده، بل هناك «آخر» يزاحمه ويعمل على إلغاء دوره، وفي نفس الوقت أقوى منه نظراً لـ «عالميته»، عندما يكون الأمر بهذه الصورة فإن العوامل الداخلية، وخاصة منها ما ينتمي إلى الماضي تقمع وتجمد وتفقد قوتها على التأثير الحاسم في مجرى الأمور، وقد لا يبقى في جعبتها إلا «التشويش» الذي لا يحل مشكلة ولا يشق طريقاً.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لابد من التأكيد هنا على أن المستقبل الذي يتحدد انطلاقاً من معطيات الفترات الانتقالية كالتي نعيشها يختلف اختلافاً كبيراً عن «المستقبل الماضي» الذي كانت تحدده معطياتُ ما كان يشكل الحاضر بالنسبة له. وهذا يعني أن المحددات التي كانت تدخل في تحديد «المستقبل الماضي»، لن يكون لها أثر يذكر في «المستقبل الآتي»، وهكذا فبالنسبة لـ «آفاق المستقبل العربي»، كما تتحد اليوم، فإن اغتصاب جزء من الوطن الفلسطيني عام ١٩٤٨ وطموحات المد القومي في الخمسينيات والستينيات وهزيمة ١٩٦٧ ومنطق الحرب الباردة وحركات التحرر الوطني والتغني بالأمجاد القومية والطموحات الاشتراكية... كل هذه العناصر التي كانت فاعلة ومعبئة في العقود الماضية لن يكون لها اليوم نفس الفعل، لان المستقبل الذي كانت تعبئ له وتفعل من أجله هو «مشروع مستقبل» مضى... إن الفعل سيكون في المرحلة المقبلة لمحددات أخرى جديدة سَتَضَعُ المستقبل «الآتي»، أو يفترض فيها ذلك. فإلى هذه المحددات الجديدة، إذن، يجب أن نتجه باهتمامنا.

ثلاث معطيات رئيسية خارجية، أو على الأقل ليس وجودها مما ينتمي إلى ما يخص العرب وحدهم، هي التي سيكون لها الدور الحاسم في تشكيل المستقبل العربي، على المستوى المنظور على الأقل. هناك من جهة ما أصبح يعبر عنه اليوم بـ «النظام العالمي الجديد»، وهناك من جهة ثانية ما يمكن التعبير عنه بـ «صرف

النظر» عن فلسطين «القضية» والاتجاه إلى المفاوضات المباشرة مع إسرائيل لـ «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، وهناك من جهة ثالثة تركة النظام العالمي «القديم»، أعني بذلك «النظام العربي» القائم وما أفرزه من مشاكل وأزمات.

لنلق نظرة خاطفة على كل واحدة من هذه المعطيات لننتقل بعد ذلك إلى الكيفية التي ينبغي أن يتعامل بها العرب معها من أجل المساهمة الفعالة في رسم آفاق مستقبلهم بالصورة التي تحفظ الحد الأدنى من حقوقهم العادلة ومطامحهم المشروعة.

١ـ يتحدث العالم كله اليوم عن «نظام عالمي جديد» هو بصدد التبلور، نظام قوامه هيمنة قطب واحد، رأسمالي في نشأته وتكوينه، إمبريالي في طبيعته وطموحاته. إن انهيار المعسكر الشيوعي وتقلص ظل الاتحاد السوفياتي إلى المستوى الذي جعل منه تابعاً وليس متبوعاً، سيجعل العالم كله يخضع لتوجه وحيد، لفترة من الوقت لا يمكن التنبؤ بمداها، توجه رأسمالي على مستوى النظام الاقتصادي، وامبريالي على مستوى العلاقات الخارجية الاقتصادية والسياسية والثقافية. والإمبريالية تعني الهيمنة والاستحواذ بدافع المنفعة. وسواء انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة هذا «النظام الجديد» أو شاركها فيها «مجموعة الشمال»، فإن النتيجة بالنسبة للعرب ستكون واحدة: فقدان ما كانوا ـ أو بعضهم على الأقل ـ يطلقون عليه إلى وقت قريب وصف «الصديق» أو «الحليف الطبيعي» واضطرارهم بالتالي إلى التعامل مع «حليف» وحيد يفرض نفسه عليهم، حليف غير طبيعي لأن مصالحه تختلف بل تتناقض مع مصالحهم.

وغني عن البيان القول إن هذا «الوضع الجديد» ليس مما يخص العرب وحدهم، بل يعم مجموع البلدان التي كان يطلق عليها اسم «العالم الثالث». إن انسحاب «العالم الثاني» الذي كان على رأسه الاتحاد السوفياتي وسعي هذا الأخير إلى

الاندماج في «العالم الأول» قد جعل «العالم الثالث» يصبح «العالم» الوحيد المقابل للعالم الأول وبالتالي يدخل معه في علاقة مباشرة من جنس العلاقة التي كانت قائمة بينهما خلال عهد الاستعمار التقليدي المباشر. إن هذا يعني بعبارة أخرى انتهاء مرحلة حركات التحرر الوطني التي كانت في جوهرها حركات من أجل الانفلات من قبضة «العالم الأول» وهيمنته الرأسمالية الامبريالية، والطموح إلى بلورة «عالم ثالث» متحرر من التبعية العسكرية والاقتصادية والأيديولوجية لأي من العالمين العملاقين. تلك هي أهداف حركة عدم الانحياز التي أصبحت اليوم في خبر كان أو على الأقل اسماً بدون مسمى.

وهكذا يتميز «النظام العالمي الجديد» ليس فقط بانهيار «العالم الثاني» بل أيضاً بانسحاب «العالم الثالث» كمجموعة أو مجموعات تبحث لنفسها عن طريق خاص فتحول الجميع إلى «جنوب» سمته الأساسية أنه موضوع لسيادة «الشمال» واستغلاله. والنتيجة هي أن الاتجاه الذي سيسود، مستقبلاً، ما كان يسمى بـ «العالم الثالث» ـ وقد بدأ ذلك من الآن ـ هو الانكفاء على الذات، هو الانصراف إلى الدولة القطرية والانشغال بمشاكلها. إن عملية التصعيد التي سادت «العالم الثالث» والتي كانت تقوم على التماس الحل لـ «الخاص» في ميدان «العام»، أي الطموح إلى تجاوز مشاكل الدولة القطرية الثالثية ـ وهي دولة لم ترق بعد إلى مستوى الدولة الوطنية ـ بطلب وحدة قومية أوسع أو إنشاء مجموعات إقليمية إلخ... إن عملية التصعيد هذه قد انتهت اليوم ولم تعد تدخل في أي مشروع مستقبلي بصورة جدية. إن التجمعات الإقليمية الوحيدة الممكنة اليوم ـ أو على الأقل المسموح بها في إطار النظام الجديد، هي تلك التي يساعد قيامها على تنظيم علاقات «الشمال» بـ «الجنوب» بصورة تستجيب لمتطلبات الهيمنة التي يمارسها ذلك النظام، وهي علاقات من جنس علاقة السيد بالعبيد: على العبيد أن يتعاونوا، ليس من أجل تغيير وضعيتهم، بل من أجل خدمة سيدهم بصورة أفضل.

فعلاً إن الهيمنة الاقتصادية والسياسية التي يمارسها «الشمال» على «الجنوب» لا يمكن أن تحقق أهدافها ولا أن تتجاوز تناقضات الأطراف الممارسة لها إلا إذا عمل «الشمال» على جعل الجنوب صالحاً - مرة أخرى - ليكون موضوعاً للاستغلال المتواصل، الشيء الذي يعني ليس فقط ضرورة الإبقاء عليه منتجاً للمواد الأولية والطاقات البشرية الرخيصة بل أيضاً الحفاظ له على مستوى من الاستهلاك يجعله جزءاً مكملاً للسوق العالمية، سوق تصريف مصنوعات «الشمال». وهكذا فعلاقة السيد بالعبد هي النمط من العلاقات الذي سيسود هنا: السيد لا يكون سيداً إلا إذا حافظ للعبد على وضعية تجعله قادراً على خدمته. وإذا كان مستوى الخدمة المطلوبة ودوامها يتطلبان إدخال «تحسينات» معينة على وضعية العبد فإن السيد لا يتردد في ذلك لأن ما يهمه ليس وضعية العبد كعبد بل قيامه بما يريده منه بصورة أفضل.

وهكذا فإذا كانت مصلحة الامبريالية العالمية زمن الحرب الباردة، زمن وجود قطب آخر مصارع لها، قد اقتضت غرس أو تكريس نوع معين من الأنظمة والعملاء في «العالم الثالث» فإن مصلحتها زمن انتهاء تلك الحرب، زمن النظام الدولي الجديد ذي القطب الواحد، تقتضي التخلص من وزر العملاء والأنظمة من النمط القديم لأن المهمة التي كانوا من أجلها قد انتهت، وبالتالي البحث عن صيغ جديدة تحول دون انفجار «الجنوب» وتبقى مجتمعاته قادرة على القيام بالمهمة المطلوبة منها في إطار علاقة السيد بالعبد التي أشرنا إليها. وإذن فليس من المستبعد، بل لعل هذا هو ما بدأ يلوح في الأفق منذ الآن، أن تشهد معظم أقطار «الجنوب»، وفي مقدمتها الأقطار العربية، تغييرات باسم الديمقراطية والتوزيع العادل للثروة وباسم جعل حد للفساد والسلوك اللاعقلاني إلى آخر الشعارات التي بدأت، فعلاً، بعض تطبيقاتها العملية في أقطار أفريقية أصبح «النضال الديمقراطي»، فيها يستأثر باهتمام وسائل الإعلام الغربية بصورة لم يسبق لها

مثيل. ومن دون شك فإن المنطقة العربية، التي لا تخفى أهميتها الستراتيجية والاقتصادية، ستحظى باهتمام زائد في هذا المجال، ومن المنتظر ان تشهد قريباً تحركات وتغييرات تحت نفس الشعارات وفي ذات الاتجاه.

٢ـ من هنا أهمية المعطى الثاني من بين المعطيات الثلاثة التي قلنا انها ستحدد آفاق المستقبل العربي، أقصد بذلك ما عبرنا عنه بـ «صرف النظر» عن فلسطين «القضية»، والاتجاه إلى المفاوضات المباشرة مع إسرائيل لانهاء النزاع معها، فلسطينياً وعربياً. إن إنهاء النزاع العربي الإسرائيلي أصبح الآن شرطاً ضرورياً لخلق الصيغ الجديدة التي يتطلبها بقاء المنطقة العربية في وضع مناسب للنظام العالمي الجديد ولنوعية العلاقات الجديدة التي سيبنى عليها، علاقة السيد بالعبد كما بينا قبل.

وسنكون هنا في غنى عن إبراز التوظيف الإيجابي الذي قام به العمل القومي التحرري للقضية الفلسطينية، من أجل هذه القضية نفسها ومن أجل القضايا القومية الأخرى، فهذا جانب لا يحتاج إلى إبراز، إذ كان هو الجانب المعلن، الجانب المصرح به من خلال الشعارات القومية المعروفة. من أجل ذلك سنقتصر هنا على الإشارة إلى التوظيف السلبي للقضية الفلسطينية، أعني بذلك استغلالها ضد القضايا الوطنية والقومية الأخرى بما في ذلك قضية فلسطين ذاتها.

وهكذا فباسم القضية الفلسطينية قام حكم العسكرتارية في كثير من الأقطار العربية كبديل عن حكم الارستقراطية العصرية التي قادت الكفاح الوطني من أجل الاستقلال... وباسم القضية الفلسطينية وجهت العسكرتارية الحاكمة الموازنات المالية في دول المواجهة خاصة نحو اقتصاد «الدفاع»، اقتصاد العسكر... وباسم القضية الفلسطينية صنف العرب مرات عديدة إلى «وطنيين» و«خونة»، إلى قوميين وقطريين، إلى استسلاميين وصامدين... وباسم القضية الفلسطينية رفعت شعارات

الوحدة لتمارس تحتها عملية بناء الدولة القطرية في أفق قطري ضيق... وباسم القضية الفلسطينية مورس القمع في كثير من الأقطار العربية ضد القوى الوطنية والديمقراطية... وباسم القضية الفلسطينية، أو بارتباط معها، قام التطرف اليساري «العلماني»، ثم التطرف اليميني «الديني»... إلخ.

وإذن فإنهاء «القضية» المرتبطة باسم فلسطين سينتج عنه حتماً تعرية مثل هذه التوظيفات السلبية، أي حرمانها من الغطاء «القومي» الذي كانت تتستر به، وبالتالي اضطرار موظفيها إلى طلب الشرعية في ميدان أو ميادين أخرى غير ميدان «القضية القومية». إن عهد «الشرعية الثورية»، الصادقة أو الكاذبة، قد انتهى ولم يبق إلا الشرعية الديمقراطية أو الديكتاتورية العارية. إن آفاق المستقبل العربي ستتأثر إلى حد كبير بغياب «القضية» الفلسطينية مثلما تأثر الحاضر العربي، أمس واليوم، بحضورها. وكما أن حضورها لم يكن مسخراً دوماً لمصلحة القضايا القومية فان غيابها لن يكون بالضرورة ضد هذه القضايا نفسها.

٣ـ ونأتي أخيراً إلى المعطى الثالث، إلى تركة النظام العالمي «القديم»، في المنطقة العربية والدور الذي ستلعبه هذه التركة في رسم وتحديد آفاق المستقبل العربي. لقد عمل النظام العالمي «القديم» منذ الحرب العالمية الأولى على غرس الدولة القطرية «الحديثة» في المنطقة. وهاهو الوطن العربي الآن موزع إلى دول قطرية أصبحت كل واحدة منها كياناً دولياً ونفسياً وسياسياً واقتصادياً قائماً بذاته، كياناً يشكل حلقة في النظام العالمي القائم الذي لم يعد يسمح بالمس بأية واحدة من حلقاته، حفاظاً على توازناته وعلى قنوات وشرايين الاستغلال الذي يشكل قوامه وجوهره. هذا فضلاً عن ان القطرية نفسها قد تحولت إلى العالم العربي إلى «وطنية». ومنذ مدة أخذ يتبلور نوع من التمييز بين «الوطنية» و«القومية» في الخطاب العربي. فالوطنية تعني الانتماء القطري، الانتماء إلى بقعة من الأرض محدودة بحدود رسمية تشكل وطناً لسكان يحملون هوية خاصة ومجالاً

لسيادة دولة مستقلة. أما القومية فتعني الانتماء العروبي وقوامه الاشتراك في اللغة والتراث والتاريخ وفي الشعور بوحدة المصير مع التطلع إلى نوع ما من الوحدة. ويمتزج بهذين الانتمائين ويتداخل معهما الانتماء إلى دين واحد: الإسلام (والاقليات المسيحية تنتمي بصورة أو بأخرى إلى الحضارة التي قامت باسم هذا الدين).

هذا التمييز بين الوطنية والقومية أصبح الآن لمصلحة القطرية التي هي اليوم «الحقيقة» الأولى في الوطن العربي. أما «القومية» وأما «الإسلام» (لا كدين بـل كـ «قومية سياسية»: أمة) فقد تراجعا إلى مستوى الشعارات السياسية المتنافسة. ولعل مما له دلالة خاصة في هذا الصدد أن شعار «القومية» الذي كان يرفع ضد القطرية أساساً قد تراجع أمام شعار «الإسلام»، الذي يرفع في الغالب ضد «القومية العربية» ولكنه لم يرفع قط ضد القطرية، مما جعل هذه الأخيرة تحتمي به صراحة أو ضمناً، باعتباره الرابطة العامة الوحيدة الذي يجب أن تتوارى خلفه وتذوب أمامه كل رابطة أخرى عامة.

هكذا يبدو واضحاً ان مفهوم «القومية العربية»، كما كان يتحدد في الفكر العربي خلال الخمسينيات والستينيات، قد أصبح اليوم مفهوماً غير إجرائي، أعني انه لم يعد قادراً على التعبئة، لم يعد شعاراً نضالياً. وبعبارة أخرى إن أيديولوجيا «القومية العربية» (أو القومية العربية كايديولوجيا) لم تعد قادرة القيام بوظيفتها كأداة تعبئة من أجل الوحدة، لأن الدولة القطرية لم تعد قابلة لـ «النفي» الإيديولوجي. إنها لم تعد مجرد «كيان مصطنع» وليد «التجزئة» بل لقد باتت كياناً نفسياً وسياسياً واقتصادياً، فضلاً عن كونه حقيقة دولية، وبالتالي صارت تستند إلى أيديولوجيا «الوطنية القطرية».

نخلص مما تقدم إلى أن طريق الوحدة العربية أصبح محكوماً عليها أن تمر

عبر «الوطنية القطرية»، وهذا لا يتأتى إلا بتأسيس «الوحدة»، على المصلحة والمنفعة، فكرياً وعملياً، وهو شيء غدا ممكناً، بل ضرورياً، لكون الدولة القطرية العربية تعاني من مشاكل قاتلة لا حل لها إلا في إطار التكامل الوحدوي بين الأقطار العربية ككل وبين المجموعات الجبهوية بصفة خاصة. وهذا أصبح ممكناً، بل مطلوباً، ليس فقط تحت ضغط مشاكل الدولة القطرية العربية وحاجاتها، بل أيضاً تحت ضغط مصلحة النظام العالمي الجديد الذي يبدو منذ الآن أنه يفضل التعامل مع مجموعات قادرة على التعاون على مشاكلها بدلاً من الارتباط بدول قطرية منفردة أصبحت عبئاً على نفسها.

ثلاثة معطيات رئيسية يبدو واضحاً من الآن انها ستكون ذات دور كبير في تحديد آفاق المستقبل العربي: توجه النظام العالمي الجديد، و«انتهاء» النزاع العربي الإسرائيلي، وتركة النظام العالمي «القديم» والمتمثلة أساساً في ترسيخ وتكريس الوطنية القطرية... وإذا كانت هذه المعطيات قد تبلورت وتركزت في الوطن العربي بفعل العامل الخارجي أساساً، متحدية الأماني القومية والطموحات التحررية التي عاشت عليها الأمة العربية منذ فجر يقظتها الحديثة، فإن هذا لا يعني أن المستقبل العربي أصبح خارج مجال الإرادة العربية بالمرة. كلاً، إن المعطيات المذكورة تحدد الاتجاه العام الذي ستسير عليه الأمور ولكنها لا تحدد، لا سرعة السير ولا طريقته ولا نتائجه، وبالتالي فهناك مجال واسع للإرادة العربية، إرادة التغيير، بحيث يمكن القول إن آفاق المستقبل العربي مازالت مرتبطة بآفاق العمل العربي. والفقرة التالية تقترح بعض المداخل العملية إلى مستقبل عربي تساهم الإرادة العربية بشكل واسع في صنعه.

ما أردنا ان نخلص إليه من الملاحظات التي سجلناها في الفقرة السالفة هو ان العمل العربي من أجل مستقبلٍ أفضل لن يكون مثمراً إلا إذا كان مسلحاً بقدر كبير من الذكاء السياسي الذي يوجه الفعل، لا إلى «كتلة»، المعطيات الواقعية التي

يراد مواجهتها، بل إلى مفاصلها وفجواتها. إن المعطيات الثلاثة التي حللناها في الفقرة السابقة إذْ تحدد آفاق المستقبل العربي، بمعنى أنها تؤطر حركة التاريخ في المستقبل المنظور، فهي ترسم في نفس الوقت المجالات التي يجب أن يتجه إليها الفعل العربي من أجل بناء المستقبل. ولكن كيف؟

١ـ لنبدأ بالمعطى الأول ولنطرح سؤال: «ما العمل؟» الخاص به: كيف يجب التعامل مع النظام العالمي الجديد من أجل مستقبل عربي يساهم العرب في صنعه بجدية وفعالية؟

هناك حقيقة تفرض نفسها اليوم ـ وقد تتغير غداً، هذا شيء آخر ـ وهي انه لم يعد ممكناً في الظروف الراهنة الكفاح ضد «النظام العالمي» من خارجه. فالرأسمالية الإمبريالية ماضية في أحكام هيمنتها على العالم، وهي مستعدة لاستعمال أشد أنواع العُنْف والفتك والتدمير لجعل «الجميع» يدخل «الصف»، وحرب الخليج، بل الحرب ضد العراق، مثال قصد منه إعطاء الدرس للعالم أجمع. إن انسحاب الاتحاد السوفياتي وتفككه وسعي ما تبقى منه، سعياً حثيثاً، إلى الاندماج في الغرب، وما رافق ذلك من تحول «العالم الثالث»، الذي كان يطمح إلى بلورة قوة ثالثة، تَحَوُّلِه إلى مجرد «جنوب» لـ «الشمال»، يجعل التعامل السياسي مع النظام العالمي الجديد هو الطريق الوحيد الممكن للكفاح ضد هيمنته وجبروته.

إن العالم أضحى اليوم «صغيراً» جداً، فأطرافه مترابطة بصورة أصبح معها أي حدَث يقع في أي جزء منه يؤثر في الأجزاء الأخرى. إن الحدود بين الدول، مثلها مثل المسافات المكانية والزمانية، أصبحت اليوم «وهمية»، تصورية أكثر من أي وقت مضى. لقد تقلص وجودها الواقعي إلى درجة الصفر بفعل شبكة الاتصالات والمواصلات المعاصرة التي جعلت أجزاء العالم أقرب إلى بعضها من أجزاء «الساعة» (آلة التوقيت) بعضها إلى بعض. وتزداد درجة التشابك والارتباط

بين أجزاء العالم الراهن يوماً بعد يوم، وبكيفية خاصّة في المجالين الاقتصادي والإعلامي. كل ذلك يجعل من الجائز تشبيه الرأسمالية العالمية ككل بمصنع واحد. والمصنع - مصنع السيارات مثلاً - هو نظام من العلاقات بين ثلاثة أطراف: الرأسماليون ملاك الأسهم، إدارة المصنع وكوادره، العمال. والنظام الرأسمالي الامبريالي العالمي القائم اليوم هو أيضاً نظام من العلاقات بين ثلاثة أطراف: الشركات العملاقة، الحكومات الغربية التي تنتخب «ديمقراطياً» أي تنتجها القوى الرأسمالية أساساً لتدبير وحماية انتشارها محلياً ودولياً، ثم عالم الجنوب وهو يمثل بروليتاريا النظام الرأسمالي العالمي.

والنضال ضد هيمنة الرأسمالية العالمية هذه، التي تحاول إحكام سيطرتها على العالم باسم «النظام العالمي الجديد» لن يكون مجدياً في الظروف الراهنة على الأقل إلا إذا اتخذ صورة نضال «العمال» ضد استغلال «رب العمل» لهم. وهذا ما نقصده بالنضال ضد «النظام العالمي الجديد» من داخله. إنه النضال الذي ينطلق من «الضغط» على «رب العمل» ويتراوح بين مجرد المطالبة بالحقوق وبين «الإضراب»، مع الأخذ بلعبة الحوار، والعمل بمبدأ «خذ وطالب».

هذا النوع من النضال قد أفرزته طبيعة النظام الرأسمالي نفسه ولذلك فهو يقبله ويتكيف معه بالتنازلات الضرورية. ومعلوم أن النظام الرأسمالي إنما استطاع التغلب على تناقضاته بفضل نزوعه المستمر على التكيف مع الظروف الجديدة، وبالتالي قبول تنازلات حفاظاً على البقاء وضماناً للمصالح الأساسية. وبفضل نضال الطبقة العاملة الأوروبية، هذا النوع من النضال النقابي الذي أشرنا إليه، تغيرت كثير من مظاهر هذا النظام في الأقطار الأوروبية: لقد بات وجهه أقل وحشية مما كان عليه في القرن الماضي وبداية هذا القرن. لقد حصلت الطبقة العاملة في العالم الغربي على حقوق كثيرة وصارت وضعيتها تختلف جذرياً عن وضعيتها السابقة، وذلك إلى درجة يمكن القول معها اليوم ان العلاقة بين العمال

وأرباب العمل في الغرب تتجه إلى نوع من «توازن المصالح».

ونحن نعتقد أن النضال ضد هيمنة النظام الرأسمالي الامبريالي الجديد يجب أن يسلك في الظرف الراهن هذا المسلك وإلا فلن يكون هناك بديل غير الانتحار أو الاستسلام. إن «العالم الثالث» هو الآن، شاء أم كره، في موقع البروليتاريا بالنسبة لهذا النظام. وبما أن الوضع القائم الآن لا يسمح بالتفكير في «ثورة بروليتارية عالمية»، خصوصاً بعد تفكك المعسكر «الاشتراكي» وانهيار الاتحاد السوفياتي الذي قام أصلاً لقيادة مثل تلك الثورة (الانهيار الذي يرجع في جزء كبير منه إلى جموده وعدم تكيفه اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً مع المعطيات الجديدة التي أفرزها التطور...)، بما أن الأمر كذلك فان الطريق الوحيد الممكن والمجدي للحد ولو بشكل نسبي من هيمنة النظام العالمي الجديد على الشعوب المستضعفة هو الضغط «الديمقراطي»، أعني ممارسة القوة بواسطة «السياسة»، بهدف تحقيق توازن المصالح. إنه طريق «سهل» في الظاهر ولكنه يتطلب مثابرة ونفساً طويلاً وتضامناً متيناً (معروف إن قوة العمال هي في تضامنهم داخل نقاباتهم، وبالمثل فقوة «الجنوب» ستكون في تضامنه ضمن مجموعات اتحادية إقليمية)، وقبل ذلك وبعده لابد من درجة عالية من «الذكاء السياسي» الذي أصبح الآن يقوم مقام «النظرية الثورية» و«التعبئة الإيديولوجية». إن الذكاء السياسي لا يعني التخلي عن المبادئ، كلاً، وإنما يعني المهارة في المزج بين الستراتيجية والتكتيك، والاتجاه إلى المفاصل بدل الارتطام بالأعضاء الجامدة، واختيار الطريق المناسب، واتقان لعبة الكر والفر وخذ وطالب، واللعب على تناقضات الخصم وخاصة منها الطبيعة التنافسية للرأسمالية، واستعمال سلاح التهديد ولكن دون المضي به إلى الحد الذي يضيع فيه خط الرجعة، وتوظيف نفس شعارات الخصم في محاربته: الحرية، العدالية، الديمقراطية وحقوق الإنسان. والعالم العربي يملك سلاحين فعالين فيما نحن بصدده: المواد الأولية والسوق الاستهلاكية (إضافة إلى الجوانب الأخرى

الاستراتيجية والثقافية) فإذا عرف كيف يستعملهما لتحقيق نوع من توازن المصالح مع الغرب استطاع أن يشق لنفسه آفاقاً جديدة نحو مستقبل يكون له فيه موقع قدم صلبة في عالم لم يعد فيه مكان للضعفاء المشتتين المتنابذين.

٢ـ كانت إسرائيل وستبقى بالنسبة للعرب جزءاً من النظام العالمي الذي يحتويهم وستظل حربته الموجهة إليهم. وإذا كان من غير المنتظر - في المستقبل المنظور على الأقل - ان تلجأ إسرائيل إلى القوة العسكرية لتحقيق هدفها الايديولوجي الديني الاقتصادي السياسي الذي يجسمه شعارها التوسعي الصريح: «من النيل إلى الفرات»، فإن اعتراف العرب بها اعترافاً رسمياً وتطبيع علاقاتهم معها نوع من التطبيع سيفتح المجال أمامها لتحقيق هدفها ذاك من «الداخل»: إنها ستحاول فرض هيمنتها على المنطقة العربية بكافة الوسائل والأساليب التي تتقنها الحركة الصهيونية: الإغراءات، خلق جماعات الضغط داخل الكيانات، اللعب على التناقضات الداخلية العربية... إلخ. وممانعة إسرائيل في قيام دولة فلسطينية لا تفسير له إلا بكونها لا تريد قيام فاصل جغرافي وسياسي واستراتيجي قد يلهيها عن المضي قدماً وبسهولة نسبية في تحقيق حلمها على صورة هيمنة سياسية واقتصادية وتكنولوجية «من النيل إلى الفرات». إن وجود دولة فلسطينية - من طبيعتها أنها ستكون المنافس الدائم لإسرائيل على فلسطين - لن يسهل عليها ما تطمح إليه من العمل المباشر داخل الجسم العربي... ولذلك فهي ترفض قيام دولة فلسطينية.

وإذن فالمجهودالعربي المطلوب بذله في إطار بناء آفاق المستقبل هو التمسك بحق الفلسطينيين في إنشاء دولة مستقلة كامل الاستقلال، مع العمل على تحصين الذات من الداخل قطرياً وقومياً، ومن حَقّ العرب بل ومن واجبهم أن يربطوا بين تطبيع علاقاتهم مع إسرائيل وبين تطبيع وجودها مع الحق الفلسطيني، فلا يعقل أن يتخلى العرب عن «عدم الاعتراف بإسرائيل» ويتركوها تمارس «عدم الاعتراف

بالحق الفلسطيني»، وإذا ما تم تطبيع الأمور من الجانبين، بعد قيام الدولة الفلسطينية، فسيكون على الجانب العربي والفلسطيني معاً العمل «داخل» إسرائيل نفسها، ضد طموحاتها التوسعية ونزوعها الطغياني.

٣ـ ولاشك ان هذا الموقف المطلوب من العرب وقوفه لمقاومة هيمنة النظام العالمي الجديد وأطماع إسرائيل الصهيونية ـ وليس هناك بعد إسرائيل غير صهيونية ـ لا شك أن ذلك يتطلب قدراً كبيراً من التضامن العربي الجدي الفعال: تضامن «نقابي» داخل النظام العالمي وضده، وتضامن قومي/ ديني للوقوف في وجه التغلغل الصهيوني داخل الجسم العربي. ونحن نربط القومية بالدين هنا (الإسلام والمسيحية معاً بالنسبة لفلسطين وما حولها حيث توجد أقليات مسيحية ذات وزن) لأن عنصر التعبئة اليوم هو الدين. والصهيونية قومية دينية، ولا يقاوم التعبئة الدينية إلا التعبئة الدينية المضادة.

وواضح أن هذا التضامن العربي الجدي لا يمكن أن يقوم إلا في إطار علاقات جديدة، عربية عربية، يسودها أكبر قدر من الطمأنينة والثقة. لقد أبرزنا قبل كيف أن الدولة القطرية العربية قد أصبحت الآن في نظر أهلها على الأقل دولة وطنية فضلاً عن كونها حقيقة دولية، وإذن فلابد من تعامل العرب بعضهم مع بعض على هذا الأساس. إن القومية الايديولوجية قد أدت دورها ولا نعتقد أن هناك الآن مجالاً لِعَملِها، فلابد إذن من بناء القومية على المنفعة والمصلحة، وهذا مجال أصبح يتسع مع تعاظم «بؤس» الدولة القطرية واستفحال مشاكلها الأمنية والغذائية والاجتماعية. وقومية المنفعة تقتضي قيام جميع الأطراف العربية بتنازلات سلمية في إطار توازنات تحفظ لكل دولة قطرية ما ترغب فيه من استقلال داخل نظام عربي مبني على المصلحة المشتركة الضرورية لبقاء الدولة القطرية نفسها. وهذا يقتضي قيام أوضاع ديمقراطية سلمية داخل القطر الواحد وداخل النظام العربي ككل. ومن هنا أهمية العمل من أجل إرساء شرعية ديمقراطية وطنياً وقومياً. وهذا

في الحقيقة هو الجهاد الأكبر.

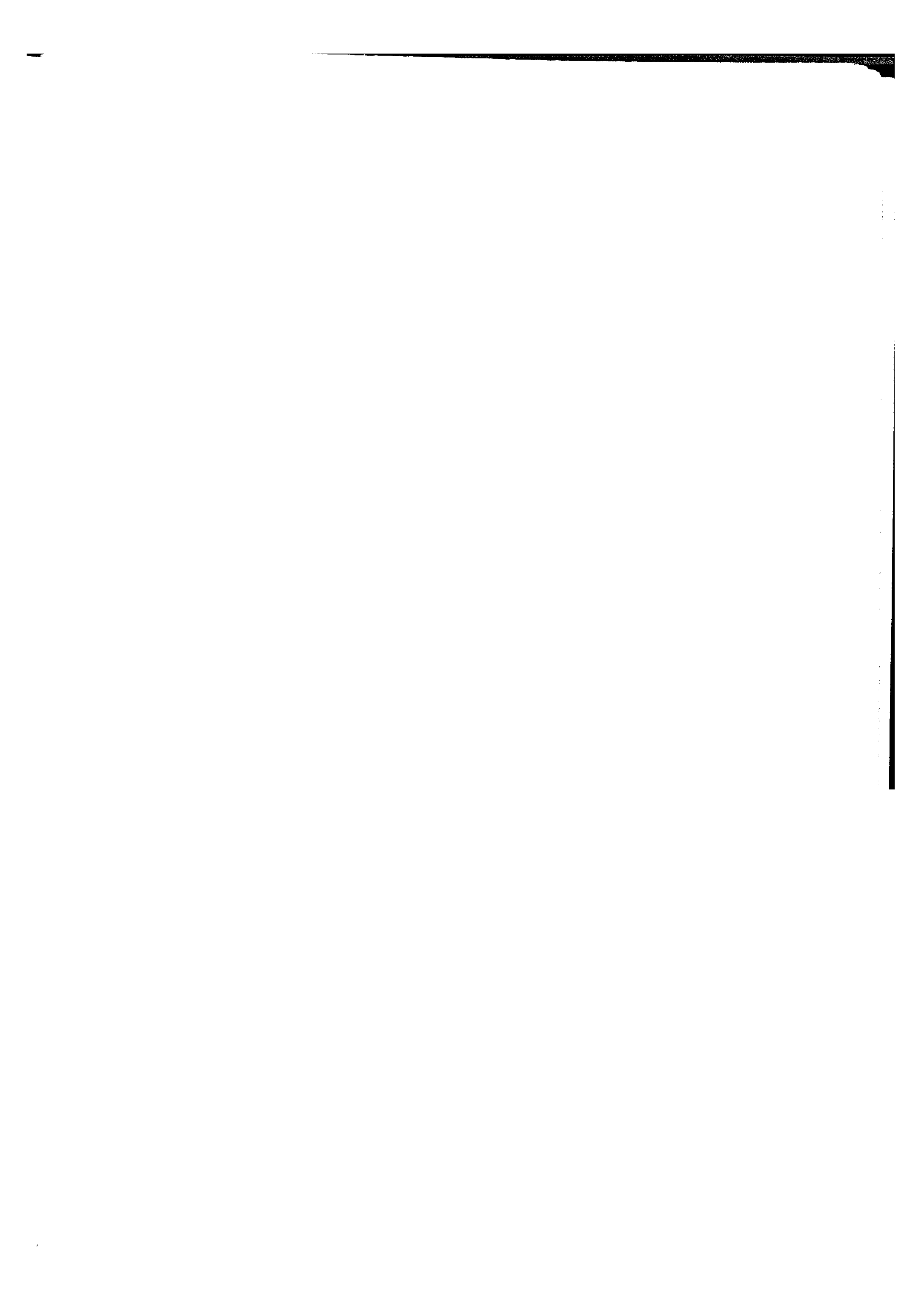
وبعد، فآفاق المستقبل العربي مرهونة بالمعرفة الصحيحة بالواقع وبالارادة المصمِّمة على التغيير. إن التحليل المستمر للأوضاع والعمل المتواصل لتغييرها عنصران متلازمان، خاصة في عالم اليوم الذي يمتزج فيه فعل المعرفة بممارسة الفعل.

انعكاسات أزمة الخليج على الواقع العربي



فهمي هويدي

القيت بتاريخ : ١٩٩١/١/٦ م



سيرة ذاتية

الأستاذ فهمي هويدي

- خريج كلية الحقوق بالقاهرة.
- عمل مديراً لتحرير مجلة العربي الكويتية.
- يعمل حاليًا في جريدة الأهرام منذ سنة ١٩٥٨.
- له عدة مؤلفات منها:
- القرآن والسلطان.
- أزمة الوعي الديني.
- وحتى لا تكون فتنة.
- الإسلام في الصين.
- التدين المنقوص.
- إيران من الداخل.
- العرب وإيران.

انعكاسات أزمة الخليج على الواقع العربي

فهمي هويدي

أيها الإخوة والأخوات..

لابد وأن نقر ابتداء بأن انعكاسات أزمة الخليج على الواقع العربي ستكون أشد وضوحاً لو أننا وقفنا على الصورة التي ستنتهي بها تلك الأزمة. فنحن في الظرف الراهن (مطلع شهر يناير) لا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت الحرب ستنشب أم لا، بعد انتهاء المهلة المقررة في الخامس من الشهر، أي خلال عشرة أيام من الآن. وإذا انفجرت الحرب فلسنا نعرف مداها ولا أساليبها. أعنى لا نعرف ما إذا كانت إسرائيل ستستدرج إليها أم لا، وليس واضحاً تماماً أمامنا الآن كيف سيكون موقف إيران في تلك الحالة. كذلك لا نعرف طبيعة الدور الذي ستؤديه تركيا، الجارة الملاصقة للعراق وقاعدة حلف الاطلنطي في المنطقة.

ثم إننا لا نعرف طبيعة الأسلحة التي سوف تستخدم في المعركة، وهل ستظل مقصورة على الأسلحة التقليدية، أم أن الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية ستدخل المعركة؟؟

فضلاً عن هذا كله وذاك، فلسنا نعرف مصير آبار البترول التي قيل إنها مهددة بالتفجير والاحراقات ثم انعكاسات ذلك الاحتمال على الثروة والبيئة في المنطقة، إذا ما وقع المحظور، لا قدر الله.

ما أريد أن أخلص إليه هو أن المستقبل حافل بالاحتمالات المتعددة، التي يمكن أن تفرز انعكاسات على الواقع تتفاوت في الأهمية والخطورة. ومن يطالع الصحف

الغربية والأمريكية بوجه أخص يستشعر فزعاً شديداً من جراء اتساع نطاق الحرب أو استخدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية فيها، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى سقوط عشرات الآلاف من القتلى والمشوهين، وإلى إفساد البيئة لمدة مائة عام مقبلة.

والأمر كذلك، فيجب أن نتحفظ في إطلاق تقديراتنا لانعكاسات الأزمة على واقعنا، وأن ننتبه إلى أننا نرصد جانباً من تلك الانعكاسات، هو الجانب الذي برز حتى الآن، وليس كل تلك الانعكاسات إلا صدى

سنتحدث إذن عن الشق الذي ظهر خلال الأشهر الخمسة الماضية، متمنين على الله ألا يحدث ما هو أسوأ خلال التطورات القادمة.

هذه نقطة أولى مهمة اردت أن ألفت النظر إليها في البداية..

النقطة الثانية التي أرجو أن نعيها جيداً، هي أن الأزمة الراهنة ليست أزمة الخليج كما درج الجميع على وصفها، وإنما هي أزمة الأمة العربية كلها، التي قُدِّر لها أن تبرز أو تنفجر على مسرح الخليج.

نعم ما جرى كان اغتصاباً مارسته العراق بحق الكويت، وتذرعت فيه بحُجج من التاريخ تارة وبحجج أخرى استندت إلى بعض الشعارات الطنانة تارة أخرى.

لكن ذلك الاغتصاب ما كان له أن يتم لولا غياب النظام العربي، وعجز مؤسساته، ولولا الاطمئنان إلى عدم وجود رادع عربي آخر من أي نوع، ولولا هزال نسيج القيم الحاكمة للعلاقات العربية.

في الفراغ العربي تمدد النظام العراقي وارتكب حماقته بحق الكويت، مراهناً على أن الوضع العربي أعجز من أن يوقفه أو يردعه.

لهذا السبب أقول إن الأزمة في جوهرها هي أزمة الأمة العربية بأسرها، وإن بدا أن أهل الكويت ضحاياها وأهل الخليج وقودها. ولذا فهي بمثابة جرس إنذار يدعو الجميع إلى إعادة النظر في العديد من أوجه الحياة العربية في نظامها ومؤسساتها وطبيعة علاقاتها.

النقطة الثالثة التي أراها واجبة الاعتبار أيضاً هي أن الأزمة ليست شراً مطلقاً، وربما صارت كذلك إذا استسلمنا لعناصرها وانهزمنا أمام ضغوطها وأحزانها. لكننا نستطيع أن نستخلص منها خيراً كثيراً إذا ما تماسكنا أولاً ثم استفدنا منها في التعرف على مواضع الضعف والخلل في حياتنا ثانياً.

من هذه الزاوية، فقد تكون الأزمة مستنقعاً نغرق فيه، وقد تكون فرصة نهتبلها لاستيعاب الدروس واكتساب الحصانة والاستنفاذ من السقوط في قاع المستنقع.

إن اليُسر يخرج من رحم العُسر في الخطاب القرآني، وفي اللغة الصينية إن كلمة الأزمة تحمل معنيين، معنى المحنة التي يهزم فيها البشر، ومعنى الفرصة التي تتهيأ للبشر إذا ما تعلموا الدروس واعتبروا.

اسمحوا لي أيها الإخوة أن أعرض على حضراتكم بعضاً من تلك الانعكاسات التي أحدثتها الأزمة على واقعنا العربي حتى الآن. وهي انعكاسات أحسبها تتوزع تحت عناوين ثلاثة.

عنوان السلبيات التي كشفت عنها الأزمة..

وعنوان الإيجابيات التي أفرزتها..

وعنوان الملفات أو الموضوعات التي استدعتها وفرضتها على الواقع العربي، وصارت بحاجة إلى بحث جاد وعلاج جذري.

الوجه المباشر للصدمة

صفحة السلبيات التي كشفت عنها الأزمة تضمنت عديداً من المؤشرات، في مقدمتها مايلي:

١ـ انهيار النظام العربي، وإعلان عجز الأمة بمختلف مؤسساتها وأبنيتها السياسية ومنظماتها الإقليمية المختلفة. وسواء كان ذلك العجز مفاجئاً للبعض أم غير مفاجئ، فالثابت أن الغزو جاء كاشفاً له أمام الجميع في الداخل والخارج، حتى بدت الأمة في مجملها ـ بعد الغزو ـ في صورة مأساوية ومفجعة. عاجزة عن الفعل أو التفكير. وبدا أن كل ما بني وكل ما أنفق وشُيِّد صار وهماً كبيراً، لم يكن له أثر في لحظة الاختبار والخطر. وبعد أن كنا نفتح أعيننا على الكثير من المجالس والمنظمات والاتفاقيات طيلة السنوات الماضية، فإننا في تلك اللحظة لم نر شيئاً!

٢ـ كان الاحتماء بالقوى الأجنبية واستدعاء قوات التحالف الدولي هما النتيجة المنطقية لذلك العجز العربي. إذ كان مفهوماً، بعد الصدمة وإزاء الفراغ الحاصل أن يتخذ إجراء سريع لصد الخطر المفاجئ، الذي لم نكن نعرف حدوداً لأهدافه.

وبصرف النظر عما إذا كانت أسباب ذلك الاستدعاء كافية ومقنعة أم لا، فالشاهد أن ثمة واقعاً هذا شأنه فرض نفسه على الأمة بعد الغزو، وتعيَّن عليها أن تتعامل مع نتائجه وآثاره على عِلاَّتها، وأن تتحسب لمخاطره على مستقبلها.

٣ـ ارتد الغزو بالأمة إلى عصور الجاهلية، عندما كانت قيم تلك المرحلة تحتمل إغارة قبيلة على قبيلة أخرى وانتهاب أموالها، سواء بسبب من الثأر أو الطمع. وبإحيائه لذلك الأسلوب، فإن الغزو كان بمثابة انتكاسة حضارية، أدت إلى بعث جاهلية انقرضت من عالمنا. وبالتالي فإنه أرسى نهجاً في العلاقات الدولية ـ ولا نقول الأخوية ـ يفتح الباب لشرور كثيرة تهتدي بمختلف قيم الغاب وأساليبه.

٤ـ أدى الغزو إلى تدمير بنية الكويت وترويع شعبها وتشريده، بصورة صارت تفاصيلها الدامية معلومة للجميع. وتلك فاجعة تتجاوز في أبعادها ماجرى في فلسطين، من حيث أن المغتصب للتراب الفلسطيني كان عدواً لا شبيه له، ولكن المغتصب في الحالة الكويتية كان شقيقاً ظل طيلة ثماني سنوات مسنوداً ومدعوماً بإخوته، وقد اهتبل أول فرصة وانقض على بعضهم ليفترسه.

ومن المنظور الإسلامي الذي ننتمي إليه ونحتكم إلى معاييره، فإنه لا شيء يعادل ترويع شعب مسلم وإخراجه من دياره، وفي الخطاب القرآني أن بغياً من هذا القبيل هو أكبر وأفدح عند الله سبحانه وتعالى من أي خطيئة تقترف على وجه الأرض، بما في ذلك انتهاك حرمة كل مقدسات المسلمين.

وفي حالة الحرب فإن احتمالات تدمير البنية العسكرية والعمرانية العراقية واردة بقوة، فضلاً عن أن ترويع الشعب العراقي ذاته سوف يغدو نتيجة حتمية، كذلك فإن بقية التداعيات المحتملة في المنطقة سوف تصنف بالضرورة في خانة السلبيات التي رتبتها الأزمة.

٥ـ إهدار قيمة الأمن في منطقة الخليج، وغرس بذرة التوجس والقلق في أعماق إنسان المنطقة. ولأن الصدمة لم تخطر على بال أحد، فإن شعوب المنطقة ظلت سنين عدداً تعيش في عالم مترع بالهدوء والدعة والاستمتاع بمتع الدنيا وزينتها. ولما وقعت الواقعة وحلت القارعة، زلزل الجميع زلزالاً شديداً، ولا يزال الذهول يستبد بقطاعات عريضة من ضحايا الأزمة. الأمر الذي هز مسلمات كثيرة، واقتلع الشعور بالأمن من جذوره، حتى بات عسيراً أن يعود ذلك الشعور إلى سابق عهده في الآجل القريب، مالم تتدارك الجميع عناية الله ورحمته وسكينته.

٦ـ لم يؤد الحدث إلى زلزلة الشعور بالأمن لدى الأفراد والجماعات فقط، ولكنه أفرز نتيجة أخرى منطقية، تمثلت في نزوح رؤوس الأموال من المنطقة بكميات

هائلة وطائلة طيلة الأشهر الماضية، الأمر الذي كان له تأثيره الواضح على الأوضاع الاقتصادية السائدة واستقرارها.

يتصل ببند الإنفاق أن فاتورة القوات الدولية حتى أول يناير - التي سددتها الدول العربية النفطية وحدها - تجاوزت ٢٠ بليون دولار. والتكلفة المقدرة في حالة نشوب الحرب تصل إلى ملياري دولار يومياً. وهذا المبلغ الهائل الذي دفع كفيل وحده بحل جميع المشكلات الأساسية للتنمية الاقتصادية في العالم العربي بأسره!

٨ـ أوقع الغزو فيما بين الشعوب العربية بصورة لم تحدث من قبل. وإذا كنا قد عهدنا أزمات تطرأ بين الحكومات والأنظمة كل حين، فإن الجديد الذي أضافه الغزو ـ للأسف ـ هو انه أحدث ذلك التوتر المشهود بين بعض الشعوب العربية، مما غرس بذرة للحساسية والبغضاء نسأل الله أن يخيب ثمارها في المستقبل. والأذى الذي لحق بشعوب فلسطين واليمن والسودان والأردن بصفة خاصة شاهد على ما نقول. بل إن الشكوك التي صارت تلقى بحق شعوب بأكملها، والمطاعن التي أصبحت توجه إليها في مصداقيتها ووفائها، لوثت بصورة محزنة صفحة العلاقات الحميمة الدائمة بين شعوب أمتنا. إذ عوقبت شعوب بأخطاء قيادتها، أو بنزوات بعض جماعاتها، هكذا بغير روية.

٩ـ كما أدى الغزو إلى شق الصف العربي، وأوقع بين بعض الشعوب العربية، فإنه أدى إلى شق الصف الإسلامي بصورة غير مسبوقة. وكما لاحظ الجميع، فإن اشتباكاً حاداً وقع بين الجماعات الإسلامية في الخليج والجزيرة، وبين التجمعات الإسلامية في السودان وتونس والضفة الغربية خصوصاً. على صعيد آخر فقد ظهر انشقاق في الصف الإسلامي بمصر، حين اختلفت مواقف جماعاتها إزاء الغزو تارة، وإزاء كيفية مواجهة الأزمة تارة أخرى.

١٠ـ بسبب من الغزو، فقد تراجعت أولوية القضية الفلسطينية، سواء في

الساحة الدولية أو حتى في الساحة العربية. إذ تركز جل الاهتمام حول احتلال الكويت. ولم تعد تذكر القضية الفلسطينية ـ والانتفاضة بالتالي ـ في سياق عموم الخطاب السياسي باستثناء بعض الأصوات في العالم العربي. في الوقت ذاته، فإن الجماهير الفلسطينية في الأرض المحتلة فقدت بسبب الغزو وانقطاع الموارد المالية لقطاعات عريضة من الفلسطينيين أحد أهم مصادر الإعاشة والتمويل. الأمر الذي أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية في الأرض المحتلة، وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على صمود الأهالي وقوة دفع الانتفاضة.

١١ـ حرصت إسرائيل على أن تحقق أكبر استفادة ممكنة من الموقف. وتمثل ذلك بصورة أخص فيما حصلته من أسلحة وأموال، وفي التدفق المستمر للمهاجرين اليهود السوفييت على أراضيها. وبالمعدل الراهن، فحتى منتصف العام الحالي فإن إسرائيل سوف تستقبل حوالي ٦٠٠ ألف مهاجر من الاتحاد السوفييتي، وهو رقم يعادل تعداد اليهود حينما ولدت دولة إسرائيل على أرض فلسطين في سنة ٤٨. أي أن هجرة اليهود السوفييت سوف تمثل في واقع الحال ميلاداً جديداً لإسرائيل، يمكن أن يرتب العديد من النتائج التي لم يستوعبها العالم العربي المشغول بقضية غزو الكويت. إذ من الطبيعي أن تفكر بشكل أكثر جدية في تنفيذ سياسة الإبعاد الجماعي للفلسطينيين (الترانسفير)، ومن المنطقي أن تبحث في خطط التوسع الاستيطاني لاستيعاب تلك الوجبة الفخمة من المهاجرين. وليس من المستغرب إزاء ذلك أن ترتفع الأصوات الإسرائيلية التي تتطلع إلى إقامة ذلك الحلم الوحشي المتمثل في «إسرائيل الكبرى».

نصف الكوب الملآن

في الجانب المتعلق بالإيجابيات برزت مؤشرات مهمة جديرة بالرصد والمتابعة من أهمها:

١ـ ذلك الحوار النقدي الواسع الذي بدأ يجري في مختلف أقطار العالم العربي، مركزاً على مجمل الأوضاع العربية التي قادت الأمة إلى المأزق الراهن. الحوار في ذاته مهم للغاية، لأنه يعني أن جماهيرنا ـ بفعل الصدمة ـ تجاوزت حاجز الصمت، وأدركت حقها في أن ترفع صوتها عالياً في شأن حاضرها ومستقبلها.

وهو مهم أيضاً في مضمونه، من حيث أنه بمثابة مراجعة شاملة للحالة العربية، عنيت بالتحليل والتشخيص وتحديد الثغرات ومكامن الضعف، ومختلف آفات الأمة وعللها المزمنة.

وربما كان من أهم إفرازات ذلك الحوار بروز عديد من القضايا الجوهرية على السطح في مقدمتها قضية المشاركة السياسية، ومسألة حقوق الإنسان العربي، واتفاق الجميع على أن الظلم السياسي والاجتماعي هو الخطر الأكبر الذي يهدد الأمة من الداخل، ويعوق مسيرتها وتقدمها.

٢ـ على صعيد آخر، فإن حوار المراجعة والنقد امتد إلى النخب السياسية والثقافية، حيث استشعرت مختلف التيارات السياسية في مصر مثلاً أن ثمة مخاطر مشتركة تهدد المستقبل، تستوجب قدراً من التفاهم بين الأضداد لدرئها، ولتجنيب الأمة ويلاتها. وقد كانت قضية الاستبداد واحتكار السلطة واحداً من أهم تلك الأخطار، التي دعت بعض شرائح الأضداد إلى أهمية التلاقي حول الدفاع عن الديمقراطية والحرية، باعتبارها مدخلاً ضرورياً لإقامة مجتمع صحي ومتحضر. وثمة دلائل تشير إلى أن هذا المناخ قد يؤدي إلى إفراز تيار إسلامي جديد، وتيار قومي جديد في الوقت ذاته.

٣ـ مثلما كانت الأزمة أو الصدمة جرس إنذار قوي نبَّة الجميع إلى عواقب الاستبداد السياسي، فإنها كانت منبهاً كافياً إلى أهمية الوحدة والتلاحم بين شعوب الأمة. عندما فوجئ الجميع بالفراغ العربي، وبحاجتهم إلى الاحتماء بالقوى

الدولية التي لا تكن لهم وداً، برزت قيمة الانتماء العربي والإسلامي. وكيف أنه هو الملاذ الطبيعي في ساعة الشدة. وبرغم التمزق الحاصل في الساحة العربية، فإن قيمة التلاقي والتوحد صارت تحتل مكانة عالية في الوعي العربي. وإذا كانت انفعالات اللحظة والتعبئة الإعلامية الرديئة قد أصابت تلك القيمة بالكثير من الرذاذ والأوحال، فإن زوال السكرة وعودة الفكرة كفيلان برد الاعتبار لتلك القيمة المهدورة.

٤ـ في الساحة الخليجية برز التلاحم على أوضح صورة. إذ استبان الجميع في لحظة الخطر أن ما بينهم من وشائج وعُرى أوثق مما بدا طيلة السنوات الماضية. وكان الكويتيون أكثر الناس إدراكاً لهذه الحقيقة. فعندما فرض عليهم الشتات وجدوا في أرجاء الخليج خاصة قلوباً مفتوحة ومشاعر دافئة وحميمة. لهذا لم نستغرب أن تتعالى أصوات بعض المثقفين الخليجيين داعية إلى الإسراع بإقامة الدولة الخليجية الواحدة، وطي صفحة التفتيت والتشرذم بكل إفرازاتها. ولم نستغرب أيضاً ذلك الحديث المستمر حول ضرورة تجاوز الصيغة الراهنة لمجلس التعاون الخليجي، التي لم تعد تعبيراً كافياً عن عمق العلاقات بين شعوب المنطقة.

٥ـ حتى على المستوى الكويتي، فأحسب أن المحنة أعادت إليه تلاحمه وتماسكه. بحيث وقف الجميع صفاً واحداً في مواجهة الغزو، بعد أن تعاكست صفوفهم وتعارضت. فكانت هناك الحكومة والمعارضة، والسنة والشيعة، والإسلاميون والقوميون والعلمانيون. أمثال تلك التشققات اختفت في لحظة الخطر، حيث تلاقت أيد كانت دائمة الاشتباك، واتصل حوار كانت سمته الانقطاع أو التراشق في أفضل الأحوال.

٦ـ ربما كان من الإيجابيات أيضاً بروز أهمية دور مصر، ليس فقط بحسبانها «دولة ملاذ» للأمة كما قال بحق أحد الباحثين، ولكن أيضاً كقوة عسكرية يمكن أن

تؤدي دوراً فاعلاً في الدفاع عن الأمة. وهو دور غاب أو غُيِّب سنين عدداً لأسباب معروفة، وتحتاج فاعليته إلى جهد آخر، مصري أولاً وعربي ثانياً. أعني أن الأزمة أعادت مصر إلى مكانها الطبيعي، غير أن الحضور بحد ذاته ليس كافياً، لأن فاعليته هي التي تكسبه قيمته الحقيقية وليس فقط الجغرافية أو التاريخية. وللفاعلية شروط عدة، في مقدمتها أن تكون مصر هي الدولة النموذج بقوتها السياسية الديمقراطية وبقدرتها العسكرية، لتصبح جديرة بدور «الدولة الملاذ».

٧ـ في الوقت ذاته فإن الحضور الإسلامي في الأزمة يمثل اكتشافاً لعنصر مهم في الدفاع عن الأمة. وإذا كانت باكستان وبنجلاديش والسنغال والنيجر قد أرسلت بعض وحداتها العسكرية إلى المملكة السعودية، فالأهم من ذلك هو مبدأ ترجمة التضامن الإسلامي إلى واقع يمكن تجسيده في أكثر من صورة.

لقد استدعت الأزمة العالم الإسلامي إلى الساحة، خصوصاً للمشاركة في الدفاع عن المقدسات المهددة. والذي لا يعلمه كثيرون أن العالم الإسلامي يعيش دائماً نبض الأمة العربية، لكننا نحن الذين لم نبادل تلك الشعوب الإسلامية الشعور نفسه، ولم نستثمر ذلك العمق الاستراتيجي المهم على النحو الذي يخدم مصالح الأمة ويؤمنها.

٨ـ في هذا السياق فلابد أن نلحظ أن الغزو فتح الباب «لتطبيع» العلاقات العربية الإيرانية. وهو ما دعا إليه مجلس التعاون الخليجي في آخر اجتماعاته بقطر، عندما أشار في بيانه الختامي إلى أهمية إقامة «علاقات خاصة» مع إيران، وخارج هذا النطاق فإن خطوط الاتصال والتفاهم فتحت بين طهران والعديد من العواصم العربية، وهي الخطوط التي انقطعت بسبب الضغوط العراقية أثناء حرب السنوات الثماني.

٩ـ أدت الأزمة إلى كشف الغطاء عن القضية الكردية، وفتح ملفها الذي ظل

محاصراً ومدفوناً طيلة السنين الماضية، من جراء المجاملة العربية للعراق. حتى وإن تم ذلك عن غير قصد، فالحاصل أن تعرية النظام العراقي بعد الغزو وفضح جرائمه، أتاحت الفرصة لإماطة اللثام عن مأساة الشعب الكردي المسلم، الذي لا يزال يعاني الويلات في العراق بالدرجة الأولى، مثلما يعاني قهراً متواصلاً في دول أخرى.

١٠ـ كان سقوط العماد عون، رئيس الحكومة العسكرية المسيحية في لبنان، من أول الآثار الإيجابية التي تحققت بعد الغزو. إذ فقد الرجل الدعم الغربي، الامريكي خاصة، وحدثت تداعيات عدة أدت إلى إنهاء تمرده، الأمر الذي فتح الباب لتجاوز إحدى العقد في الساحة اللبنانية، وأدى في نهاية المطاف ـ وحتى الآن ـ إلى إقامة بيروت الكبرى، التي يؤمل أن تكون بداية لحل المشكلة اللبنانية.

١١ـ أخيراً، فقد أدت الأزمة إلى زيادة ملحوظة في أسعار النفط في الأسواق العالمية الأمر الذي كان له مردوده المهم على الدول المنتجة له ـ العربية وغير العربية ـ وإن عكست أثراً سلبياً آخر تمثل في إضافة أعباء اقتصادية إضافية إلى دول العالم الثالث التي تستورد النفط وتنوء ميزانياتها بقيمة فواتيره!

الملفات المفتوحة

أخيراً فإن الأزمة استدعت ملفات أخرى مسكونة بقضايا مهمة تحتاج إلى علاج، ويتعذر تصنيفها ضمن الإيجابيات أو السلبيات قبل أن نتعرف على أسلوب ونتائج التعامل العربي عامة والخليجي خاصة معها. تحمل تلك الملفات العناوين التالية:

* تصحيح البنية السياسية للواقع العربي، بحيث تصبح أكثر التزاماً بالشورى والديمقراطية.

* حل مشكلة البنية السكانية (الديموجرافية) لمنطقة الخليج، وانتهاج سياسة استيعابية تعالج هشاشة هذه البنية.

* ترتيبات أمن المنطقة، التي ينبغي أن تنهض بها مسؤولية خليجية وعربية وإسلامية، في المقام الأول والأخير.

* قضية الحدود بين الدول العربية، التي تمثل قنبلة موقوتة، قد تتفجر في أية لحظة، خصوصاً وأن الغزو العراقي للكويت استخدمها كذريعة لعدوانه.

* قضية العدل الاجتماعي في الساحة العربية، الذي نرى أن أفضل سبيل لتحقيقه هو أن تصبح التنمية العربية مسؤولية قومية، تستهدف توفير أسباب العافية لجسم الأمة، التي تواجه تحدي المشروع الصهيوني بأحلامه المتزايدة وتطلعاته الشريرة.

وأذكر مرة ثانية بأن ذلك ليس الجرد الأخير، داعياً الله ألا يضيف الجزء المتبقى الكثير إلى جانب المثالب والأحزان.

وشكراً لكم جميعاً.

الوضع الاقتصادي المصرفي خلال الأزمة الخليجية



عبد الملك الحمر

ألقيت بتاريخ : ٢٨/١٠/١٩٩٠م

سيرة ذاتية

معالي عبدالملك يوسف الحمر

- حصل على بكالوريوس التربية من الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٥٧.

- نال الماجستير بالتربية من الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٦٨.

- عمل وكيلاً لوزارة التربية والتعليم والشباب منذ ١٩٧١ ـ ١٩٧٣.

- سفيراً بوزارة خارجية دولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٧٧.

- مديراً لمجلس النقد في دولة الإمارات العربية المتحدة منذ سنة ١٩٧٧ ـ ١٩٨٠.

- يعمل حالياً محافظاً للمصرف المركزي منذ سنة ١٩٨٠.

- عضو لجنة استراتيجية التربية العربية.

- عضو مؤسسة المصرفيين ببريطانيا.

- نائب رئيس إدارة الجهاز العربي للثقافة العربية الإسلامية.

- عضو مجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية.

- عضو مجموعة منتدى الفكر الخليجي.

- له عدة مقالات حول التخطيط المدرسي في أبوظبي نشرت في الدوريات المحلية.

الوضع الاقتصادي / المصرفي
خلال الأزمة الخليجية

عبد الملك الحمر

إن أزمة احتلال العراق للكويت قد تعدت آثارها البلدين المتجاورين كما تعدت منطقة الخليج... إلى أبعاد عالمية... في ساعات قليلة. ونحن أمة العرب نعيش في أزمات:

أزمة: حضارية عربية وعالمية
أزمة: سياسية تنظيمية
أزمة: اقتصادية قومية
أزمة: عقلية/ نفسانية
أزمة: إيمانية انفصامية

وهذه الوجوه المتعددة للأزمة: تصب اليوم في أزمة نفطية: فهل هذا الذهب الأسود: نعمة أم نقمة؟

لا شك أن هناك متفائلين وأن هناك متشائمين. ودون اللجوء إلى التطير فإن المال النابع من النفط نعمة ويستمر النفط بأمواله نعمة مرهوناً بحجمه من جهة قياساً على حاجات المجتمع وبكيفية استخدام هذا المال فيما يعود بالنفع العام... والقول المأثور في هذا السياق: نعم المال الصالح للرجل الصالح. أي أن الصلاح شرط أساسي لاستمرارية نعمة المال.

ولكن: ـ

بما أن النفط بمفرده خاصة مورد ناضب، فإن أموال النفط ـ تبعاً لذلك ـ تكون ناضبة. ويتسارع نضوب مال النفط بسوء استخدامه أو بغياب عنصر الصلاح عنه فيزول وتزول نعمة المال ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أيها الإخوة:

عفواً إذا حولت الأزمة إلى أزمة نفط... فهذه وجهة نظر.

ومحاضرتنا هذا المساء تجمع بين وجهة النظر وبين أرقام ومؤشرات اقتصادية وأخرى مصرفية...

هنا سنتوقف عند محطات ثلاث:

الأولى: خلفية عشر سنوات مضت خلال الثمانينات وما صاحبها من صدمات أربع.

الثانية: مؤشرات الوضع المصرفي.

الثالثة: سمات الاقتصاد الكلي لدولة الإمارات.

فالصدمة الأولى حدثت بعد عقد الطفرة والانتعاش المتسارع في السبعينيات.

ـ كان فيض من النفقات الحكومية.

ـ وتوسع عشوائي في الجهاز المصرفي مع توسع خطير في التسهيلات الائتمانية.

ـ وزيادة كبيرة جداً في العمالة الأجنبية... لا علاقة لها بالقطاع المنتج!

- وارتفعت الأسعار.

ولكن حدث انهيار في السوق العقاري بالمليارات في حينه... حيث عجزت البنوك عن الوفاء بالتزاماتها... كما ارتفعت أسعار الفائدة أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات مما شكل صخرة الصدمة الأولى.

وبدأت الصدمة الثانية بانخفاض متتابع في أسعار النفط الذي تراجع إلى عشرة دولارات للبرميل الواحد... فشحت السيولة بشكل ملحوظ وبرزت مشكلة (مديونية المصارف).

وتزامنت الصدمة الثالثة مع الثانية من خلال الحرب الخليجية بين إيران والعراق والتي تمثلت بهروب رؤوس الأموال لاستثمارها في الخارج...

وها نحن نواجه الصدمة الرابعة: أزمة الخليج إثر غزو العراق للكويت... وهذه أزمة مفاجئة متسارعة محلياً وعالمياً. ولقد طالت هذه الصدمة الجهاز المصرفي مباشرة خلال شهري أغسطس وسبتمبر بصورة خاصة...

ولكن وبفضل التعاون التام والمخلص من جميع الأطراف، حكومات ومصارف، أمكن احتواء النتائج السلبية للأزمة على القطاع المصرفي. ومرة أخرى تمكن الجهاز المصرفي في الدولة من الصمود في وجه العاصفة الشديدة التي هبت فجأة ودون سابق إنذار، وسيتم في الجزء التالي عن طريق الأرقام تقييم ما حصل فعلاً للجهاز المصرفي.

تطور الوضع النقدي والمصرفي

أ) الوضع النقدي

لم يكن الوضع النقدي والمصرفي ليتأثر باجتياح العراق للكويت بالمقدار الذي

تأثر به لو لم تساهم وسائل الإعلام الدولية بصورة خاصة في نشر أجواء اتصفت بالتوتر الشديد بصورة منعت أغلب الناس من التفكير بصورة عقلانية. وكان لقرارات الشركات الأجنبية المختلفة (الأمريكية والأوروبية واليابانية) العاملة في دول الخليج العربي بسحب العدد الأكبر من موظفيها وعائلاتهم أثر كبير أيضاً في نشر موجة ذعر بين أغلب العاملين في دول الخليج حيث أن معظمهم من الوافدين. وما حدث من اندفاع الناس نحو سحب أموالهم كان أمراً إنسانياً طبيعياً في ظل تلك الأجواء، بل إن المرء، بعد أن خفت حدة الأزمة، ليعجب كيف لم يكن سحب الأموال أكثر مما حصل فعلاً. وفي هذا بحد ذاته دليل على ثقة المواطنين والوافدين في اقتصاد دولة الإمارات. ولا يعدو ما تم فعلاً عن أعمال احترازية لا يمكن أن تفسر بأنها قلة ثقة عدا عن أن تكون عدم ثقة بهذه الدولة الفتية وقدرتها على الصمود أثناء الأزمات.

وبغض النظر عن عمق الاندفاع لسحب الأموال فمما لا شك فيه أن الجهاز المصرفي في دولة الإمارات العربية المتحدة واجه أزمة عنيفة من نوع يختلف عن الأزمات السابقة (كما سبقت الإشارة إلى ذلك). ولولا أن الجهاز كان قد خرج قريباً من أزمة الركود الاقتصادي الشديد بعد أن صفى كثيراً من نقاط الضعف وشوائب الممارسات لكان وقع الأزمة عليه مهلكاً.

جدول ١ . تطور السيولة والعوامل المؤثرة فيها

(مليارات الدراهم)

	١٩٨٩		١٩٩٠	
	يوليو	أغسطس	يوليو	أغسطس
أولاً: السيولة				
أ. السيولة الإجمالية	٦٨.٣	٦٨.٢	٧٦.٠	٦٨.٩
الودائع الحكومية	٩.٣	٩.٢	١١.٩	١٢.٦
ب. السيولة المحلية الخاصة	٥٩.٠	٥٩.٠	٦٤.١	٥٦.٣
الودائع شبه النقد	٤٨.٥	٤٨.٧	٥٢.٧	٤٦.٠
ج. عرض النقد	١٠.٥	١٠.٣	١١.٤	١٠.٣
نقد في التداول	٣.٥	٣.٤	٣.٧	٤.٠
ودائع نقدية	٧.٠	٦.٩	٧.٧	٦.٣
ثانياً: العوامل المؤثرة				
د. صافي الموجودات الأجنبية	٥٢.١	٥٢.٠	٥٧.٤	٥٠.٤
الموجودات	٧٠.٨	٦٩.٣	٧٤.٦	٦٨.٨
الالتزامات	-١٨.٧	-١٧.٣	-١٧.٢	-١٨.٤
هـ . الائتمان الداخلي	٥٣.٠	٥٣.٣	٥٨.٤	٥٩.٣
منه: (الحكومي)	(٦.٦)	(٦.٥)	(٧.٨)	(٨.٩)
(الخاص)	(٤٤.١)	(٤٤.٥)	(٤٨.٢)	(٤٨.٣)
و. مختلفة	-٣٦.٨	-٣٧.١	-٣٩.٨	-٤٠.٨

وتفصح الأرقام المبينة في الجدول (١) السابق والمتعلق بتطور السيولة والعوامل المؤثرة بها أن السيولة الإجمالية تقلصت خلال شهر واحد (بين ٧/٣١ و٨/٣١) بمقدار ٧.١ مليار درهم أي بنسبة ٩.٣٪. وكان السحب من الودائع شبه النقدية كبيراً حيث تقلصت بمقدار ٦.٦ مليار درهم أي بنسبة ١٢.٧٪. وعلى الرغم من أن السحب من الودائع النقدية (تحت الطلب) لم يكن كبيراً بصورة مطلقة (١.٤ مليار درهم) إلا أنه كان الأعلى نسبياً (١٨.٢٪). ومن المتوقع خلال الأزمات أن يحصل ذلك لسهولة السحب من هذه الودائع علماً بأن مثل هذا السحب يكون على الأغلب للوفاء بدفعات آنية من أجور واستحقاقات وأثمان بضائع وخدمات أكثر من كونه ظاهرة تحويل رؤوس أموال. ومن الملاحظ ارتفاع النقد في التداول بحوالي ٣٠٠ مليون درهم أي بمعدل ٨٪ وكان ذلك بهدف رفد السيولة المحلية.

وبالمقابل انخفض صافي الموجودات الأجنبية لدى الجهاز المصرفي ككل بمقدار ٧ مليارات درهم (١.٩ مليار دولار) كنتيجة لانخفاض الموجودات الأجنبية بمقدار ٥.٨ مليار درهم ولارتفاع الالتزامات بها بمبلغ ١.٢ مليار درهم. وعلى الرغم من هذا الانخفاض فإن نسبة صافي الموجودات الأجنبية لإجمالي السيولة ما زالت تشكل ٧٣.١٪، وإذا ما قورنت بمستوى السيولة المحلية الخاصة فإنها تشكل ٨٩.٥٪ وهذه من أحد أعلى النسب دولياً.

ولا بد من الإشارة إلى أن مستوى الائتمان الداخلي ارتفع بمقدار مليار درهم (بمعدل شهري ١.٥٪ وسنوي ١٨٪). ويتبين من الإحصاءات المفصلة أن الائتمان إلى القطاع الخاص حافظ على مستواه وبذلك لم تؤد الأزمة إلى تقليص في استثمارات المصارف المحلية.

ب). الوضع المصرفي

يمكن من دراسة الإحصاءات في الجدول (٢) موارد المصارف التجارية

واستعمالاتها الخلوص إلى النتائج التالية:

(١) على الرغم من انخفاض الودائع لدى المصارف التجارية بمقدار ٧.٣ مليار درهم (١٠.٧٪) خلال شهر واحد إلا أن الودائع ما زالت تشكل ٦٢.٣٪ من إجمالي الموارد الصافية.

جدول ٢. موارد المصارف التجارية واستعمالاتها

(مليارات الدراهم)

	١٩٨٩		١٩٩٠	
	يوليو	أغسطس	يوليو	أغسطس
أولاً: الموارد				
أ. الودائع	٩٥.١	٩٤.٩	١٠٣.٤	٩٧.٥
ـ حكومية	٦١.٠	٦١.٠	٦٨.٠	٦٠.٧
ـ خاصة	٥٥.٦	٥.٥	٧.٧	٨.٥
	٥٥.٤	٥٥.٥	٦٠.٣	٥٢.٢
ب. الاحتياطيات ورأس المال	١٣.٨	١٤.٠	١٤.٧	١٤.٨
ج. صافي أخرى	٢٠.٣	١٩.٩	٢٠.٧	٢٢.٠
ثانياً: الاستعمالات				
١. صافي الموجودات الأجنبية	٣٥.٤	٣٥.٣	٣٩.٥	٣٢.٧
الموجودات	٥٣.٢	٥١.٨	٥٦.٢	٥٠.٦
الالتزامات	-١٧.٨	-١٦.٥	-١٦.٧	-١٧.٩
٢. الائتمان الداخلي	٥٣.٣	٥٣.٧	٥٨.٣	٥٩.٣
منه: (الحكومة)	٧.٠)	(٧.٠)	(٧.٨)	(٩.٠)
(الخاص)	(٤٤.٠)	(٤٤.٤)	(٤٨.٢)	(٤٨.٢)
د. النقدية ولدى المصرف المركزي	٦.٤	٥.٩	٥.٦	٥.٥

(٢) إن الأموال الخاصة (الرأسمال والاحتياطيات) أصبحت تشكل ١٥.٢٪ من مجمل هذه الموارد وهذا بحد ذاته دعامة قوية لقاعدة الودائع (وملاكها).

(٣) إن انخفاض صافي الموجودات الأجنبية للمصارف التجارية بمقدار ٦.٨ مليار درهم (بمعدل ١٧.٢٪) دلالة واضحة على أن الانخفاض في الودائع كان تحويلاً لرؤوس الأموال إلى خارج الدولة طلباً للأمان. وهو يعكس إلى حد بعيد التركيبة الاقتصادية والسكانية لدولة الإمارات العربية المتحدة.

(٤) إلا أن صافي الموجودات الأجنبية للمصارف التجارية بنهاية أغسطس/ ١٩٩٠ والبالغ ٣٢.٧ مليار درهم (ما يعادل ٨.٩ مليار دولار) ما زال يشكل ٣٣.٥٪ من إجمالي الاستعمالات (وفي نفس الوقت من إجمالي الموارد) كما أنه يشكل ٥٣.٩٪ من إجمالي الودائع.

(٥) لذلك فإن إجمالي الودائع مغطى معظمه (بصافي الموجودات الأجنبية (٥٣.٩٪) و(٢) بأموال المصارف الخاصة (٢٤.٤٪) و (٣) وبالأموال الجاهزة (٩.١٪). أما ما تبقى (ما يعادل ٧.٧ مليار درهم) فهو مغطى بمحفظة استثمارات في القروض والسلف المحلية تبلغ ٥٩.٣ مليار درهم أي ما يشكل تقريباً ثمانية أضعاف هذا المبلغ.

إن ما سبق يشير بوضوح إلى قوة المصارف التجارية في دولة الإمارات العربية المتحدة. وقليل من المصارف التجارية (ككل) في دولة صناعية متقدمة هي بهذا المقدار من القوة وعلو الملاءة.

تطور الوضع الاقتصادي

ولقد تأثر الوضع الاقتصادي تأثراً إيجابياً (خلاف النظام المصرفي) من خلال الأزمة الخليجية الراهنة فمثلاً زيادة عائدات النفط فاقت ما تم سحبه من ودائع

البنوك خلال شهر أغسطس وذلك لسببين: ـ

١) زيادة الإنتاج (تعويضات عن توقف نفط كل من العراق والكويت)... وكذلك.

٢) زيادة سعر النفط الذي قفز من متوسط ٢٢.٥ دولار للبرميل إلى حوالي ٣٧ دولاراً بل بلغ أربعين دولاراً مما أدى إلى ارتفاع القيمة المضافة للنفط (بالإمارات) عام ١٩٨٩ من ٣٩ مليار درهم إلى حوالي ٤٨ مليار درهم عام ١٩٩٠م.

هذان السببان الأساسيان إضافة إلى نمو معتدل في القطاع غير النفطي أدت إلى زيادة الناتج المحلي الإجمالي من ١٠٠ مليار درهم (١٩٨٩) إلى ١١٢ مليار درهم تقريباً عام ١٩٩٠ أي بزيادة في معدل النمو في حدود ١١.٥٪.

جدول ٣. تطور الناتج المحلي الإجمالي موزعاً حسب المصدر الصناعي
(بالأسعار الجارية وحسب سعر المشتري)

(مليارات الدراهم)

	١٩٧٧	١٩٨٧	١٩٨١	١٩٨٦	١٩٨٩	١٩٩٠*
	٣٥.٦	٣٢.٦	٦٩.٨	٢٦.٢	٣٨.٨	٤٧.٧
	٢٧.٨	٢٨.١	٥١.٣	٥٣.٤	٦١.٤	٦٤.٠
القطاع النفطي	٦٣.٩	٦٠.٧	١٢١.١	٧٩.٦	١٠٠.٢	١١١.٧
بقية القطاعات	====	====	====	====	====	====
القوى العاملة (بالآلاف)	٤٧٧.٨	٤٩٤.٩	٥٧٨.٨	٦٢٣.٠	٦٥٤.٨	غ.م.

*: إسقاطات أولية متحفظة.

المصدر: وزارة التخطيط. التطورات الاقتصادية والاجتماعية في دولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥، صفحات ٢٠٢ ـ ٢٠٧، ٢١٠، والحسابات القومية ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨ صفحات ٤٣، ٤٨.

إلا أن توفر المال نقداً لا يعني تحول الدولة إلى مستوى الدول المتقدمة فالمال حاله حال النفط ينضب أيضاً.

والتقدم الحقيقي الاقتصادي يعتمد على معايير أساسية نجملها فيما يلي: ـ

١) تعدد الموارد الطبيعية دون الاعتماد على مورد (نفطي) وحيد.

٢) مستوى الإنتاجية: ونسبة مشاركة المواطنين.

٣) معدل الادخار (الإرادي) الذي يمكن تدويره لإنتاجية أفضل.

٤) امتلاك التقنية علماً أو تطبيقاً في مختلف نواحي مجتمع التنظيم والتخطيط.

وإذا اخذت دولة الإمارات مثلاً وهي متوسطة الإنفاق ومتوسطة الموارد فنجد أن الزيادة التي ذكرناها في الموارد المالية خلال عام ١٩٩٠م ستكون أقل من النفقات التي تواجهها الإمارات قبل ديسمبر ١٩٩٠... أي توقع وجود عجز في الميزانية السنوية الحالية وذلك للأسباب التالية:

فالنفقات العامة ستزداد نتيجة: ـ

١) تقديم خدمات أكثر وأوسع للمواطنين والإخوة الكويتيين.

٢) المساهمة في تحمل تكاليف القوات العربية والدولية.. وهي تكاليف (حرب) باهظة.

٣) والتكاليف المتزايدة لاستيراد مزيد من العتاد العسكري بأنواعه.

٤) نفقات المتطوعين من المواطنين وأعباء الدفاع المدني.

٥) المساهمة في تقديم خدمات للنازحين والمتضررين من الدول المجاورة.

٦) المشاركة في المساعدات الدولية لمواجهة العجز بالدول المتضررة من جراء توقف التدفقات المالية من جهة أو تعطيل التجارية البينية.

هذا وإن إجمالي النفقات الاعتيادية مع الطارئة (المتزايدة) سيصل إلى (٦٠) مليار درهم مقابل الإيرادات التي تقدر بأقل من ٥٠ مليار درهم... أي بعجز حوالي عشرة مليارات درهم!

وإذا طالت مدة الأزمة فقد يرتفع العجز إلى ما يزيد على ١٥ مليار درهم!

إن ما ينطبق على دولة الإمارات ينطبق في تقديري على بقية دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.. أي أن الزيادة الطارئة في الموارد المالية ستقابلها زيادة أكبر في النفقات الطارئة خاصة.. فالإيرادات المتوقعة لمجموعة دول الخليج (باستثناء الكويت) تقدر بحوالي ٦٠ مليار دولار خلال عام ١٩٩٠ أي بزيادة ٣٥٪ من عام ١٩٨٩.. ولكن ما هي بالمقابل تقديراتنا للنفقات على اختلافها والتكاليف العسكرية بصورة خاصة.

يجب أن لا ننسى ما تكبدته الدول الخليجية بما فيه الكويت من مليارات الدولارات لتغطية حرب الخليج.. والآن تدور أزمة الخليج لتبتلع لا الموارد المالية السنوية بل تقصدها فتآكل من الاحتياطيات الرسمية لمجلس التعاون لدول الخليج

العربية!!

مرة أخرى: كلما طالت مدة الانتظار والترقب دون حل كلما زادت النفقات وبرزت بالتالي ظاهرة العجز المالي؟

وعلى الرغم من توقع ازدياد الطلب على النفط خلال التسعينات بحوالي ٣٪ سنوياً وبالتالي توقع ارتفاع أسعار النفط خلال العقدين القادمين، فإن هذا الاتجاه يستدعي من الدول المنتجة للنفط ـ الدول العربية الخليجية خاصة ـ أن تبادر منذ الآن بالتفكير ملياً في الانعكاسات الاقتصادية/ العسكرية/ بل والسياسية/ الاجتماعية على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي... وذلك أن مجموعة الدول الخليجية يتوفر لديها ثلثا احتياطي العالم في المستقبل المنظور.

وحتى تاريخ قريب كان تأثير أزمة الخليج على الأسواق العالمية سلبياً حيث انخفض مؤشر أسعار الأسهم في:

نيويورك	بنسبة ١٦٪	بنهاية يوليو	وبنسبة ١٢,٩٠٪	حتى ٩٠/١٠/٢٦
لندن	بنسبة ١١٪	بنهاية يوليو	وبنسبة ١٥,٩٠٪	حتى ٩٠/١٠/٢٦
طوكيو	بنسبة ١٨٪	بنهاية يوليو	وبنسبة ٣٦٪	حتى ٩٠/١٠/٢٦
باريس	بنسبة ١٧٪	بنهاية يوليو	وبنسبة ٢١٪	حتى ٩٠/١٠/٢٦
فرانكفورت	بنسبة ٢٣٪	بنهاية يوليو	وبنسبة ١٨٪	حتى ٩٠/١٠/٢٦

هذا وإن تطورات القرن الواحد والعشرين قد تكون أسوأ كلما اشتدت الحاجة إلى النفط وعلينا منذ الآن وقبل فوات الأوان.

أيها الإخوة: ويا أصحاب القرارات.. كل في موقعه:

علينا مجتمعين/ متوحدين أن نعيد النظر فيما نحن فيه: وفي ما آلت إليه أحوالنا: فنفكر بإيمان وعقلانية:

أي مجتمع نريد؟

ما النظام الاقتصادي الذي يناسبنا؟

ما التغييرات السياسية/ الاجتماعية التي نستهدفها؟

ما القيم الحضارية التي تنظم حياتنا!

وللرد على هذه التساؤلات نستعرض معكم بعض المرتكزات الأساسية التي أطرحها للمناقشة راجياً أن توضح معالم الطريق المظلم.

وبغض النظر عن ترتيب الأولوية لهذه المرتكزات... فإنها تؤخذ في وحدة متكاملة... ومن جهة أخرى: كل نقطة تحتاج إلى تفصيلات وإيضاحات نظراً لأهميتها المصيرية.

أ) في مقابل تنظيم عسكري خليجي ـ قائم برهنت ظروف الأزمة ـ علينا أن نسعى إلى استحداث نظام اقتصادي خليجي جديد: يرتبط عضوياً باقتصاد عربي موحد مهما تواترت الخلافات. وليس منا من يجهل إمكانياتنا الاقتصادية المتاحة. ولكن ما مضمون نظامنا الاقتصادي وفلسفته ومقاصده وتشريعاته وكذلك ما نوعية أجهزته وأدواته؟

ب) تنسيق السياستين المالية والنقدية وذلك بعد أن خسرت عقدين من الزمن السبعينيات والثمانينيات. إن انفصام هاتين السياستين ينشأ عنه اختلالات تعرقل مسار النمو الاقتصادي الطبيعي لذا لابد من خطة قومية.

ج) تنسيق الاستثمار بين القطاعين الحكومي والخاص وفي هذا المجال تنظيم

الادخار (الإرادي) وتدويره لمجالات من الاستثمارات المنتجة وفي هذا نؤكد على: ـ

١) تنمية الموارد غير النفطية.

٢) تكوين رأسمال ثابت.

٣) السوق المالي (المحلي/ الخليجي) وأدوات الاستثمار.

٤) ترشيد التسهيلات الائتمانية وربطها بالتنمية.

٥) تحفيز الادخار الفردي.

٦) توسيع فرص العمل المنتج وحوافزه.

د) استحداث تشريعات جديدة في مجال التجارة والصناعة المنتجة والخدمات بأنواعها وذلك لأن القوانين الحالية إما غير مستكملة وإما أنها تحتاج إلى تغيير لتواكب المتطلبات الدولية والمجتمعية المحلية.

هـ) إعادة النظر في السياسة السكانية بما يعزز تناسق المجتمع وتجانسه.. ولا ننسى هنا ونحن في ظروف الأزمة... أهمية تنمية الموارد البشرية عن طريق التدريب المستمر وكذلك المشاركة الفعالة.

و) بين النفط والتنمية علاقة متزامنة تحتاج إلى رسم سياسة نفطية واعية لمقاصد التنمية الشاملة ومعدلاتها التي يجب أن تكون متسقة وحاجات المجتمع. هنا محور الارتكاز في تنمية المجتمع. هنا بالنفط مفترق الطريق: نعمة أم نقمة... هذا يحتاج إلى بحث جاد يتفق وأبعاد التنمية؟ متى؟ كيف؟

ز) وأخيراً تتطلب الأزمة... أزمتنا الحضارية العودة إلى العقيدة: إلى الإيمان: مرساة الحياة.

الأبعاد الاقتصادية للغزو العراقي للكويت



جاسم السعدون

ألقيت بتاريخ : ١٢/١٢/١٩٩٠م

سيرة ذاتية

الأستاذ جاسم خالد السعدون

- رئيس مكتب الشال للإستشارات الإقتصادية.
- المنسِّق العام لمنتدى التنمية في دورته الحالية بالكويت.
- باحث إقتصادي منذ تخرجه من جامعة الكويت.
- أصدر كتاباً واحداً بعنوان: «مناخ الأزمة وأزمة المناخ».
- له مشروع كتاب بالإشتراك مع الدكتور علي الكواري بعنوان: «رسالة إلى عاقل».

الأبعاد الاقتصادية للغزو العراقي للكويت

جاسم السعدون

مقدمة:

للغزو بلا شك أبعاد أخرى غير اقتصادية، ففي الجانب السياسي يدعي العراق مثلاً أن له حقاً تاريخياً في الكويت، كما ادعى أنه إنما جاء إلى الكويت بدعوة من ثوار استولوا على الحكم، كما ادعى ويدعي أن غزوه للكويت ماهو سوى خطوة على طريق وحدة قومية شاملة وخطوة على طريق تحرير فلسطين. ولست في مجال الرد على الدعاوي التاريخية والسياسية بدعوى عدم الاختصاص، وقد أعطى المختصون ولا زالو تلك الأبعاد حقها، ولست أيضاً معنياً بالرد من ظواهر الأمور ومنطقها ويكفي أن احداً من المويدين للقيادة العراقية لم يوافق على تلك الدعاوي أو على الأقل تلك هي المواقف المعلنة حتى الآن. وللغزو أيضاً مبررات معلنة تبدو أخلاقية منها مثلاً ادعاء وقوف العراق إلى جانب الديمقراطية في الكويت أول أيام الغزو، ومنها تخليص الشعب الكويتي من الظلم والفساد، ومنها إعادة توزيع الدخل لمصلحة الفقراء على المستوى المحلي والعربي والعالمي.

ولم يكن الوضع في الكويت مثالياً بالتأكيد، ولكنه لشخص يعرف عن قرب ومتابعة ماجرى ويجري داخل العراق، لا يمكن أن يصدق أن الجنة يمكن أن تكون جزءاً من الجحيم. ولم تترك لنا تجربة الاحتلال فرصة للشك في تلك الخلاصة، فكل ما حدث بعد ذلك في الكويت أثبت أن علاقة الشعارات الأخلاقية علاقة عكسية بواقع الممارسة. فمنذ اليوم الأول حرم الأطفال ناقصو النمو من حاضناتهم، ونزعت الأجهزة عن مرضى العناية المركزة ونهبت بشكل مخز كل الممتلكات

الخاصة والعامة، وأهدرت حرمات الناس وأرواحهم وأعراضهم وكراماتهم، وثبت بالممارسة أن الإنسان العربي والمسلم هو مجرد شيء، ولكنه من أرخص الأشياء. وكما تركت الرد على الدعاوي التاريخية والسياسية للآخرين لإثبات سقوطها، سوف أترك الدعاوي الأخلاقية ـ باستثناء تلك التي لها بعد اقتصادي ـ للمنظمات المختصة وللتاريخ لإثبات بطلانها وأخشى أن يسجل الاثنان حالة قياسية في سقوط الدعاوي.

وسوف أركز في هذه الورقة على الأبعاد الاقتصادية للغزو سواء من جانب تحديد الوزن النسبي لتلك الأبعاد في ذلك أو من حيث احتمالات نجاح تحقيق الأهداف الاقتصادية للغزاة، أو عقد مراجعة عامة لآثار الغزو الاقتصادية على مستوى العالم. ولأن اقتصاديات العالم أصبحت متداخلة أكثر من أي وقت مضى، فإن تداعيات تلك الآثار الاقتصادية ستكون مركبة وسوف نحاول أن نحدد سواء بشكل عام أو من خلال نماذج أين يمكن أن يقع العبء الأكبر لتبعاتها. وفي التحليل لا يمكننا أن نقسم دول العالم من حيث مدى تأثرها حسب رغبتنا وإنما حسب ما يفرضه عليها ثقل هذه الآثار، لذلك سوف يكون التقسيم المقبول هو إما دول متورطة بشكل مباشر أو شبه مباشر في الأزمة ودول غير متورطة بذات الدرجة، أو دول متقدمة ودول نامية ويستوي في التصنيف الأخير دول العالم الثالث والثاني، أو دول نفطية ودول غير نفطية.

وسوف تبدأ الورقة بإلقاء نظرة على طبيعة التغيرات في العالم الجديد لرصد التغير في الحسابات الجديدة والقوى الفاعلة واحتمالات الحركة في المستقبل والعوامل أو الأبعاد الاقتصادية المؤثرة فيها وكذلك الأرضية اتي ساهمت في صناعة قرار الغزو وخطأ حساباته في كل من العراق والكويت، ثم نعرج على ظروف وملابسات الأزمة من بعدها الاقتصادي ووزن ذلك البعد في بدئها وفي تعقيدات الوصول إلى حل لها، وأخيراً سوف نناقش الآثار والتداعيات لرؤية من

سوف تخدم تلك الأزمة، أو على أقل تقدير من سيكون المتضرر الرئيسي منها غير طرفيها المباشرين.

الفصل الأول

نظرة عامة :

يحكم العالم صراع مشروع يخف قليلاً بين الأشقاء أو هكذا وقد، يزداد بين الأصدقاء والحلفاء، ويصل حد العنف بين الأضداد وإن خفت حدة ذلك العنف بعد الحرب العالمية الثانية وتوازن الرعب وأصبح العنف يمارس فقط بالواسطة. وضمن عناصر ذلك الصراع، وربما أهمها، ما يتميز منه بغلبة الأبعاد الاقتصادية والتي ترتبط بمصالح البشر في المدى القريب جداً فيما يتعلق بدول العالم الثالث والتي تتميز بقصر النظر، وفي المدى المتوسط والبعيد بشكل أكبر فيما يتعلق بالدول المتقدمة. وحاضر ما قبل الأزمة تميز بحقائق ثلاث للبعد الاقتصادي فيها الغلبة، الأولى إعادة تشكيل العالم على أساس من سيادة أو احتمال سيادة القوة الاقتصادية كبديل للقوة العسكرية. وعناصر ذلك التحول تمثلت في ذلك التداعي غير المتوقع للمعسكر الاشتراكي تحت الشعور بإخفاق تجربة البناء الاقتصادي المدني رغم التوازن في القوة والبناء العسكري. وأصبح طموح زعامة ذلك المعكسر هو إعادة بناء اقتصادها المدني إن ارادت أن تبقى قوة عظمى أو دولاً متقدمة في القرن القادم تحت قناعة مؤادها أن القوة الاقتصادية هي الضمان لمن يريد البقاء أو التفوق. وأصبح العالم ومنذ زمن طويل يعيش بحسابات مختلفة فيها قوة واحدة أعظم بدلاً من توازن بين قوتين وهي حالة تحققت بسرعة مفاجئة افقدت ذلك العالم خبرته وتجربته في تحليل المسارات بالحسابات القديمة. أما عنصرها الثاني فقد كان في تجمع الأضداد في أوروبا لتكوين وحدة اقتصادية أو عملاق اقتصادي آخر يوازي أو سوف يوازي العملاق الأمريكي، وللوحدة الجديدة مصالحها ورؤاها

التي تختلف أو تتفق مع الحليف الأمريكي. ثم هناك عملاق ثالث في الشرق أساس قوته في الأصل اقتصادي، وتمثله حالياً اليابان ولكنها تقوم بعمل من قبلها لربط دول آسيا معها في محاولة لمواجهة أمريكا من جهة ومحاولة مواجهة توحد الأوروبيين من جهة أخرى، رغم أن ما بين اليابان من جهة وكوريا والصين من جهة أخرى من تاريخ بغيض لا يقل بأي الأحوال عمابين المانيا من جهة وكل من فرنسا وبريطانيا من جهة أخرى أو ما بين الأخيرتين. وملخص الحقيقة الأولى أن العالم بات يعمل بحسابات مختلفة لم يعد أهمها ذلك البعد الأيديولوجي أو الإرث التاريخي والسياسي، وإنما بعد أن تتحكم فيه المصالح الاقتصادية والتي ستقرر لمن الغلبة من تلك القوى العظمى أو تلك التي في الطريق إلى العظمة. وإن هذه الكتل الجديدة سوف تعطى الأولوية لحاجاتها المتبادلة. وأنها جميعاً تحتاج إلى النفط، وإنها وإن اختلفت في تفاصيل وسيلة تأمينه فهي لن تختلف على الهدف النهائي في ضرورة ضمان امداده. وداخل هذه الكتل كل على حدة، يتم الربط بين مكوناتها بكل سبيل مع استثناء القوة والإكراه بعد فشلهما كنتيجة لتداعيات تجربة المعسكر الاشتراكي.

أما الحقيقة الثانية فهي النقيض فيما حدث ويحدث في منطقة الأزمة ولا أريد هنا التعميم ليشمل العالم الثالث، فحرق الموارد رغم شحتها ووقتيتها بدلاً من تجميعها وتنميتها، والحروب والإكراه بدلاً من تنمية المصالح المتبادلة وتغذية الشعور بالأمن، والفردية المطلقة بدلاً من التعددية. فلقد بدأ العراق حربه مع إيران في سبتمبر ١٩٨٠ بعد ست سنوات من ارتفاع أسعار النفط من حوالي ٢.٨ دولار للبرميل الواحد في أواخر عام ١٩٧٣ إلى حوالي ٣٥ دولاراً للبرميل عام ١٩٨٠ أي حوالي ١٢ ضعفاً. وتبخرت الموارد والمدخرات لتمويل تلك الحرب التي دامت ٨ سنوات، فقد بدأ العراق الحرب بفائض مالي يبلغ ٣٦ بليون دولار حسب ما ذكره السيد/ عبداللطيف الحمد في ورقة له قدمت في جمعية رجال البنوك

العرب في لندن في فبراير من عام ١٩٨٩، وأحرقت بشكل مباشر حوالي ١٥٠ بليون دولار وخرج منها العراق مديناً بحوالي ٧٠ بليون دولار، ثم انخفضت أسعار النفط بالأسعار النقدية إلى دون ١٠ دولارات للبرميل في عام ١٩٨٦ كنتيجة مباشرة لامتداد نتائج الحرب إلى صراع دول الأوبك، وبذلك تكون أسعار النفط بالقيمة الحقيقية لها قد هبطت إلى أسعار بداية السبعينيات أي قبل زيادة أسعار النفط الأولى، وكان العراق يشجع هذا الهبوط الناتج عن إغراق السوق بالنفط بدعوى أن ذلك يساعد على إيقاف تمويل آلة الحرب الإيرانية. وبقيت الأوضاع النفطية من زاوية كفاية إيراداتها سيئة منذ انفراط الأوبك في ديسمبر من عام ١٩٨٥ وحتى توقف الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨٨، واستنزفت تلك الفترة معظم الاحتياطيات المالية في معظم دول الخليج إما نتيجة شحة الإيرادات النفطية أو نتيجة تمويل الحرب بعد تحول مسارها مع احتلال الفاو في فبراير من عام ١٩٨٦، أو ضياع تلك الموارد على مشتريات الأسلحة بدعوى مواجهة احتمالاتها. ورغم توقف الحرب في أغسطس من عام ١٩٨٨ وزيادة القدرة التصديرية للعراق بزيادة حصته في الأوبك من ١.٧ مليون برميل في اليوم عام ١٩٨٦ إلى ٣.١ مليون برميل في اليوم عام ١٩٨٩ وزيادة منافذ التصدير سواء من الخليج مباشرة أو بفتح الأنابيب المارة بالأراضي السعودية إلى البحر الأحمر، إلا أن حجم الإيرادات النفطية بالأسعار السائدة وعدم انتهاء حالة الحرب وضعف الإيرادات المالية للدول المساندة وطبيعة السياسات الاقتصادية والمصروفات غير المجدية، خلقت ضغوطاً شديدة على القيادة العراقية.

والحقيقة الثالثة، إن راسمي السياسة النفطية في الكويت لم يكونوا واعين لحقيقة الوضع داخل العراق ولم تكن السياسة النفطية جزءاً من سياسة عامة تأخذ كافة العناصر والمتغيرات في الاعتبار. لذلك لم تراع طبيعة الحكم الفردي المطلق لدى الجار الذي خاض ثماني سنوات من الحرب ليحقق لا شيء ويخسر كل

شيء باستثناء أمل وحيد هو القوة العسكرية والتي ما لم تستثمر أو يتم إرضاؤها فقد تنقلب على صانعها. لذلك لم يقدر صانعو السياسة النفطية احتمالات رد الفعل المدمر وغير العاقل لمجرد عدم التعاون بالشكل الذي يؤدي إلى تخفيف أو تنفيس الضغوط الداخلية في العراق. يضاف إلى ذلك أن علاقات الكويت العربية كان يشوبها بعض الفتور مع بعض الأنظمة والمنظمات العربية لاعتبارات لا مجال للتفصيل فيها في الوقت الحاضر. وكذلك الأوضاع الداخلية كان يسودها جدل يصل حد العنف أحياناً بما يمكن أن يفسره أي نظام يحتاج فيه الإنسان إلى إذن مسبق لكي يتنفس بحرية، على أنه صراع على السلطة.

تلك كانت الخلفية أو الأرضية التي أنبتت قرار الحرب، فالفهم العراقي الخاطئ لطبيعة التغيرات السائدة في العالم وجذريتها، والوضع الخانق داخلياً بعد الخروج من حرب ذهب ضحيتها ثلاثة أرباع المليون من البشر بين قتيل وجريح وأسير وانتهت بتحرير الفاو وجزر مجنون وحليجة وهي أراض لم تكن إيرانية أو محتلة من قبل الإيرانيين قبل الحرب. ولم تحسم الحرب السبب الذي قامت من أجله وأصبحت البلد على حافة الإفلاس، والخطأ في تقدير رد الفعل للسياسة النفطية المحلية ووجود فتور في العلاقات الخارجية والمحلية الكويتية، كلها عوامل شكلت الحافز وساهمت في خطأ الحساب.

الفصل الثاني

الأزمة :

أولاً: البعد الاقتصادي في قرار الغزو:

لا شك أن العراق كان يعيش أزمة اقتصادية من مظاهرها ارتفاع في معدلات البطالة ورغبة جامحة في ترك البلد عند أول فرصة، وارتفاع في معدلات التضخم جعلت من سعر سمكة كبيرة ما يفوق راتب متخرج حديث مما شجع الفساد في الدوائر الحكومية وأدى إلى تردي حالة الأمن وانتشار السرقة، ومن مظاهره ذلك التداعي في سعر صرف الدينار العراقي لضعف القاعدة الانتاجية من جانب وعجز ميزان المدفوعات من جانب آخر، ومن مظاهره ومسبباته سوء توزيع الدخل حيث استولت قلة قليلة من النافذين على المشروعات العامة التي تم بيعها إلى القطاع الخاص وقامت تلك الفئة بتسريح جانب من العمالة ورفع أسعار المنتجات مما زاد معدلات البطالة والتضخم، ومن مظاهره انخفاض مستوى التصنيف للعراق كبلد مدين مما خفض من قيمة دولار ديونها من جانب وقلل فرص اقتراضها من جانب آخر. وأمام هذه المؤشرات والتي تمثل ظواهر لمشكلات اقتصادية حقيقية، كانت هناك ضغوط إضافية من قبل المسرحين من الخدمة العسكرية في غياب فرص عمل لهم في القطاع المدني أما بسبب الإخلال الذي تم أثناء وجودهم في الجبهة، أو بسبب عدم قدرة السياسة الاقتصادية على خلق فرص عمل جديدة نتيجة تخصيص الموارد المالية لشراء معدات وذخائر عسكرية أو تمويل صناعة حربية أو الصرف على أجهزة مخابرات متعددة حتى يقال ان واحداً من كل خمسة عراقيين

ذكور في سن العمل يعمل في أحد تلك الأجهزة، أو بسبب بعض المصروفات الاحتفالية الباذخة مثل إنشاء القصور والتماثيل والحفلات والصور والتي تستهلك ثلث مخصصات مصروفات القطاع المدني. ولذات الأسباب يفقد العراق الغني بالموارد حوالي مليون عراقي يعيشون في الشتات ليساعدوا في إنماء اقتصاديات دول أخرى نتيجة استحالة عيشهم في العراق.

وقبيل الغزو، صدرت مؤشرات كثيرة تؤكد أهمية البعد الاقتصادي في قرار الغزو، ففي مؤتمر القمة الأخير في بغداد صدرت عدة إشارات من العراق وحلفائه على حل الأزمة وينسب إلى مسئول عراقي بأنه قال في ذلك المؤتمر بأن قطع الأعناق أهون من قطع الأرزاق. وقد تم في ذلك الاجتماع ولأول مرة مناقشة السياسة النفطية وكان أطراف النقاش العراق من جانب وكل من الكويت والإمارات من جانب آخر. كما كان خطاب الملك حسين وياسر عرفات في طلبهما طلباً للمساعدات من دول الخليج قبل أن يصبح في غير الإمكان المساعدة. ثم كان تصريح السيد سعدون حمادي في الكويت عندما جاء لمناقشة السياسة النفطية في شهر يونيو الماضي والذي ذكر فيه أن الأزمة الاقتصادية في العراق بلغت العظم. وفي مقابلة أخيرة في نهاية أكتوبر في تلفزيون بغداد، يذكر الرئيس العراقي بأن مؤامرة أمريكية كان الغرض منها خنق العراق اقتصادياً قد أدت مفعولها، وإلا كيف يمكن أن يبدأ عقد الثمانينات والدينار العراقي أقوى من الدينار الكويتي. وينتهي العقد والدينار الكويتي يساوي ٢٠ ديناراً عراقياً. ورغم غياب الوعي بالحقائق الاقتصادية التي أدت إلى ذلك ومنها وأهمها تبعات حرب السنوات الثماني والرقابة المفروضة على تحويل الدينار العراقي، إذ إن حكم الدينار العراقي في ذلك حكم العملة الأرجنتينية والتي فقدت في عام واحد ولاعتبارات مختلفة أكثر من ثلاثة أرباع قيمتها دون أن يكون للكويت علاقة في ذلك. وعلى أي الأحوال، فالمبررات بعيدة عن الحقيقة إذ أعلن الرئيس العراقي أن المؤامرة اكتشفت وبلغت

لوزير الخارجية الأمريكي في أواخر عام ١٩٨٩، وهو نفس الوقت الذي منح فيه الرئيس العراقي وسام الرافدين من الطبقة الأولى لأمير الكويت عرفاناً بالخدمات الجليلة التي قدمتها الكويت للعراق في سني حربه. ولكن ذلك يعكس أثر البعد الاقتصادي في قرار الحرب.

لذلك أستطيع أن أقول دون خطأ كبير إن البعد الاقتصادي في قرار الحرب كان بعداً رئيسياً وأرجح أنه البعد الرئيسي، وكما ذكرت في محاضرة سابقة فإن السيد سعدون حمادي يؤكد في ١٩٩٠/٩/٣ هذا التوجه في تصريحات له للصحف العراقية إذ يذكر ما معناه أن العراق بضم الكويت قد حل مشكلاته الاقتصادية، فقد أصبح احتياطيه النفطي ١٩٤ بليون برميل، وأصبح نصيبه في إنتاج الأوبك ٤,٦ مليون برميل قابلة للزيادة، وأصبح دخله حوالي ٣٨ بليون دولار مما يمكن بعد الصرف على جميع احتياجاته من سداد ديونه فيما بين ٣ ـ ٤ سنوات. أي أنها ببساطة محاولة لعلاج مشكلاته الاقتصادية بالسرقة بواسطة استخدام الأمل الوحيد التي تمت تنميته بالموارد الغنية للشعب العراقي وموارد الشعوب العربية الأخرى أي القوة العسكرية العراقية وذلك بدلاً من الانتظار واللجوء إلى عمليات إصلاح اقتصادي جذرية تحتاج لبعض الوقت. وحكمه في ذلك حكم الاتحاد السوفييتي لو استخدم نفس المنطق في اجتياح المانيا الغربية البلد الغني لعلاج مشكلاته الاقتصادية وذلك بدلاً من عملية الإصلاح الجذري التي يقوم بها حالياً رغم عدم وجود ضمانة بنجاحها. أما ماذا سيكون رد الفعل وهل ستقوم حالاً حرب عالمية ثالثة تفني العالم لإنقاذ المانيا، أم أن حلاً سلمياً سيتم التوصل إليه حين الانتظار بعض الوقت ودون مكاسب للمعتدي؟ فإن احداً لا يستطيع الإجابة جازماً في الحال، ولكنه مثال مضخم لغياب العقل وحالة الإرباك والفوضى التي سببها مثالنا الحالي. وهذا يحدث فقط عندما تغيب المؤسسة ويكون الفرد هو تلك المؤسسة وحساباته حسابتها وأهدافه أهدافها ولا وجود للمؤسسة بدونه، ولا

أهمية لقدرها ومصالحها ما لم تطاله وما البشر سوى أصفار على شمال رقم لا يضيفون إليه قيمة. والمهم، هل يمكن للعراق أن يحقق أهدافه من ذلك الغزو وأهمها كما ذكرنا البعد الاقتصادي؟ أم أن مصير ذلك الغزو هو نفس مصير الحرب العراقية الإيرانية؟ فإن استطاع العراق الاحتفاظ بالكويت والاستفادة من مواردها التي ذكرها سعدون حمادي، فإن أهدافه ستكون قد تحققت، أما إذا فشل فيه فان العواقب ستكون عكسية من الناحية السياسية والاقتصادية.

ثانياً: احتمالات النجاح والفشل في تحقيق أهداف الغزو:

يبدو لي أن العراق قد راهن على المستحيل فيما بدا ضمن حسابات خطأ أنه الممكن، فباستثناء إغراء السرقة لحل المشكل الاقتصادي الداخلي والتي يبدو أنها قد غيبت العقل للقيادة العراقية وبعض حلفائها، فإن حساباتها فيما يتعلق برد الفعل المحلي والعربي والعالمي كانت الخطأ بعينه. فعلى المستوى المحلي دخلت القوات العراقية الكويت بدعوى مساعدة ثوار شباب قاموا بتغيير الحكم وكانت تعتقد دون شك في أنها سوف تنجح وستجد عدداً كبيراً في قائمة الانتظار لدى الراغبين في التسلق إلى السلطة. ويبدو أن صراع السلطة داخل العراق قد فرض قناعة مؤداها أن الجميع في الأحوال العادية طالبو سلطة، فما الحكم في أحوال الخلاف؟ إذ لابد وأن يكون طلب السلطة حتمياً. ولم تدرك القيادة العراقية أن الكويت قد مرت بفترات ديمقراطية خلقت أبعاداً مؤسسية للسلطة ليس بينها بالتأكيد تغييرها من على ظهر دبابة أو بممارسة العنف، وإن الخلاف والاختلاف مدعاة لتأصيل الشرعية وإن تغييب الخلاف والاختلاف بالعنف تغييب للشرعية. لذلك كانت أولى المفاجآت هي ذلك الغياب غير المسبوق لأي تعاون من قبل الكويتيين والذي لو حدث لحيد كثيراً من ردود الفعل العربية وخفف كثيراً من ردود الفعل العالمية. ولأن الحسابات الفردية تعمل تحت فرضية واحدة وتحت ضغط الأزمة، فقد تداعى المنطق بسقوط أولى الفرضيات وأخذت القرارات والمبادرات

تأتي كردود فعل، فمن إعلان الانسحاب إلى إعلان الكويت جمهورية إلى إعلان الوحدة الاندماجية إلى إعلان الضم إلى إعلان دراسة تحويل الكويت إلى منطقة حرة إلى ربط القضية الكويتية بالقضية الفلسطينية إلى توزيع النفط بالمجان ثم بيعه بسعر ٢١ دولاراً للبرميل لمن يرغب وبالأجل رغم أن مبررهم الرئيسي في اتهام الكويت بالتآمر هو عملها على إبقاء أسعار النفط منخفضة، ورغم أن العراق كان المقاتل الوحيد حتى أسبوع قبل الغزو لرفع سعر الأوبك من ١٨ دولاراً للبرميل حتى ٢٥ دولاراً للبرميل.

كان ذلك التخبط وغيره كثير يعطي دلائل على أن سير الأمور جاء مخالفاً للمخطط وان مرحلة من التخبط قد حلت بدلاً من مرحلة اليقين تماماً كما حدث بعد قرار بدء الحرب مع إيران وسير الأمور باتجاه الحسم والقدرة عليه في الأمد القريب. وفي الجانب الآخر، استعصى على القيادة العراقية فهم متغيرات العالم الجديد والتي لابد من حسابها والتعامل معها سواء كان ذلك برغبتها أو تحت ضرورة الوعي بتكاليف تجاهلها، فالعالم الجديد كما ذكرنا يتشكل على أساس من خلق كتل اقتصادية متنافسة وتحاول أن توفر مواردها لخدمة بنائها الاقتصادي بتوفير نفقات التسلح ويخلق قنوات تعاون أفضل ما بينها، وبالتبعية الاتفاق على تقسيم وحماية مصالحها خارج نطاق حدودها. والنفط ضمن مكونات الطاقة يقع ضمن مركز اهتماماتها لماله من أثر على الحياة اليومية لها وعلى تقدمها الاقتصادي، ومنطقة الخليج حاضنة لحوالي ٦٥٪ منه، ومنها حوالي ٤٥٪ في كل من الكويت والسعودية والإمارات العربية المتحدة. وما يزيدُ من أهمية المنطقة، أنها تنتج بأقل بكثير من نصيبها في الاحتياطيات مما يعني أن التركيز لاحتياطيات النفط سيزيد بمرور الزمن مما قد يصل به إلى حدود الـ ٨٠٪ مع نهاية العقد الحالي مع احتمالات نضوب النفط الامريكي وبعض حقول بحر الشمال والاتحاد السوفييتي. ومع ارتفاع هامش المصدر من النفط من دول الخليج نتيجة ضآلة

احتياجاتها المحلية، فإنها حالياً أهم مناطق تصدير النفط أي سد احتياجات الآخرين وستزداد هذه الأهمية بحدة في المستقبل. لذلك من الخطأ من الناحية الاستراتيجية التفكير بغزو الكويت على أنه فقط احتلال لـ ١٧ ألف كليومتر مربع وتشريد مليوني نسمة من السكان، ولكنه في حقيقته أيضاً سيطرة مباشرة على ٢٠٪ من احتياطي النفط العالمي والتحكم مستقبلاً بشكل مباشر أو غير مباشر بحوالي ٣٥٪ أخرى على أقل تقدير. وفي ذلك يقول الرئيس بوش في خطاب له في وزارة الدفاع الأمريكية صبيحة ١٥ أغسطس (إن الحرية الأمريكية وحرية أصدقائها سوف تعانيان إذاً وقع الاحتياطي النفطي تحت يدي صدام الشبيه بهتلر) ـ الايكونومست عدد ١٨ أغسطس ١٩٩٠، ص ١٧، وتضيف الصحيفة إن الأمريكان متأكدون بأن مصالحهم ومصالح أصدقائهم الأوروبيين واليابانيين بشكل أكبر مرتبطة بالخليج، وتفترض أنه إذا ما كان هناك مكان سوف يقنعهم بتحمل تكاليف التواجد العسكري طويل الأمد رغم تجربة فيتنام، ذلك المكان سيكون الخليج. ويضاف إلى الأهمية الاستراتيجية للمنطقة شعور الغرب بأن الزمن لن يؤدي سوى إلى رفع الكلفة في التعامل مع القيادة العراقية لأنها إن ملكت أسلحة دمار أكبر ووسائط نقلها فإن ميدان المعركة سوف يتسع ليشمل مناطق أخرى وبتكاليف أكبر، وبالتالي ليس الحسم فقط هو المطلوب ولكنه أيضاً محسوب بالوقت. وهذا يعني أن خروج العراق من الكويت ليس نهاية المطاف ولكنه استبعاد فقط للمواجهة العسكرية الآنية في حين تبقى خطوط مواجهة أخرى معلنة أو غير معلنة. من جانب آخر يعني فشل العالم في المواجهة فشلاً للنظام العالمي الجديد مما يعني احتمال تكرار مثل هذه الحوادث وشرعية استخدام سلاح الرهائن والتحكم العاطفي في عرض المواد الضرورية، أو فقدان العالم لمصداقيته بما ينذر بتغيرات عنيفة ومتطرفة في دول تبدو مستقرة في الوقت الحاضر، وهذا كما يبدو منطقياً غير ممكن، مما يعني أن اختلاف دول العالم أو داخل كل دولة على حدة حول الأزمة إنما اختلاف حول التفاصيل ولكن ليس حول الهدف النهائي، والمهم

في متغيرات العالم الجديد أن الغرب قد ربح الحرب الباردة بزعامة الولايات المتحدة، وأن الحاجة إليها - أي للولايات المتحدة - قد ازدادت لإعادة تشكيل المعسكر الاشتراكي بما في ذلك حاجة الاتحاد السوفييتي في مرحلة إعادة البناء، وإن الكتلة الأوروبية والآسيوية لا زالتا في طور التشكيل وتحتاجان أيضاً إلى المباركة الأمريكية وتعاون الولايات المتحدة. وإن بقية دول العالم في غياب سندها التقليدي عندما كان العالم يحكم بكتلتين، مضطرة اليوم راغبة أو غير راغبة إلى عدم الخروج على حدود معينة في خلافها مع الولايات المتحدة بما في ذلك الصين والأهم العراق. فالعراق حصل على تسهيلات مالية بحدود ١٫١٣٥ مليون دولار من الولايات المتحدة وحوالي ٦٠٠ مليون دولار من بريطانيا لتمويل احتياجاته منهما عام ١٩٨٨ حسب رواية عبداللطيف الحمد في الدراسة السابق ذكرها، وترتيبه السادس في مصدري النفط للولايات المتحدة حسب رواية الوول ستريت عدد ١٠ يناير ١٩٩٠. وسهل كثيراً من مهمة قيادة الولايات المتحدة في تبني خط متشدد في تعاملها مع الأزمة سقوط مراهنة القيادة العراقية على كسب أو تحييد أو على الأقل تخفيف التوجه المضاد لمصر شعباً وحكومة. وذلك يمكن فهمه من المرارة التي يتكلم فيها كل من الإعلام العراقي والأردني عن ذلك الموقف مما منع حصر القضية كما لو كانت صراعاً عربياً أمريكياً وحولها إلى ما يشبه الإجماع العالمي ضد القيادة العراقية.

وفي عجالة، أخطأت الحسابات العراقية على التنبؤ برد الفعل داخل الكويت إذ راهنت على احتمالات التعاون وكانت المفاجأة الأولى، وأخطأت في حساب رد الفعل العالمي لأنها كما يبدو كانت لا تزال تعمل بالتوقيت القديم عندما كانت تحكم العالم كتلتان وكان ميزان القوة هو القدرة على شن الحرب والتدمير بدلاً من الفهم بالإيجابي الجديد بالتنافس في بناء قوى اقتصادية ضخمة، وكانت المفاجأة الثانية. وبدأ العراق باطلاق شعارات مثيرة لا يؤمن بها حقيقة ولكنها لزوم الظرف ووقع

المفاجأة، فأصبح الوجود الأجنبي هو القضية الأساس رغم أن العراق قد قبل وجود الأساطيل الأجنبية في الخليج منذ عام ١٩٨٧ عندما سارت أمور الحرب في غير مصلحته منذ عام ١٩٨٦ وكانت تلك الأساطيل عامل ضغط لمصلحته، كما وافق العراق على قيام الكويت برفع الأعلام الأمريكية على ناقلاتها عام ١٩٨٧ بدعوى الحق المشروع للكويت في الدفاع عن نفسها، كما كان العراق خلال تلك الحقبة يتزود بمعلومات المخابرات والأسلحة من الأمريكان وبقية الغرب مما غير ميزان القوى لمصلحته، وكان الأردن أشد المتشددين ضد الوجود الأجنبي أول دعاته عام ١٩٥٨، وهكذا انقلبت فجأة المفاهيم. وأصبح العراق ينادي بدعاوي مثالية مثل عدالة توزيع الدخل بين الدول الفقيرة والغنية رغم أن العراق من الفئة الثانية ولعله أهمها ولكن لم يكن يقوم بأي حال بتعديل الموازين لمصلحة الأولى من خلال برامجه التنموية وأحرق كما ذكرنا فوائضه وفوائض جيرانه والتي يمكن أن تساعد في تعديل تلك الموازين، وهو الأمر الذي سنعرض له لاحقاً. والمهم أن ذلك الفشل في الحسابات قد جعل من المستحيل أن يخرج العراق بمكاسب تساعده على حل مشكلاته الاقتصادية، وترك خياراته بين السيء وهو استمرار حصاره اقتصادياً حتى ينهار ويقبل بما يرفضه وربما أكثر، والكارثة فيما لو نشبت حرب لإخراجه عنوة من الكويت. وفي هذه الحالة لن يدفع العراق وحده الثمن ولكننا سنشارك جميعاً في دفعه بشكل أو بآخر، وهو الاحتمال الذي يبدو أن الوقت يعمل لمصلحته بسبب هوس وغياب عقل القيادة العراقية.

الفصل الثالث

الآثار والتبعات الاقتصادية للغزو :

أولاً: العراق:

خلصنا من الفصل السابق على أن خيارات العراق باتت بين الأسوأ والكارثة،

فخروج العراق بمكاسبه في الكويت تبدو مستحيلة، وقيامه بغزو الكويت أهدى النافذين في العالم المبرر الأخلاقي والسياسي للقيام بعمل ما أهون ما فيه لا يسمح بخروج العراق بوضع أفضل مما كان عليه قبيل الغزو. فلو افترضنا مساراً للحل يوافق معه العراق على الانسحاب مقابل وعد ببحث مطالبه في الكويت في مفاوضات لاحقة ووعد ببحث القضية الفلسطينية في مؤتمر دولي، فإن ذلك قد ينهي مشكلة الكويت، ولكنه لا يضمن عدم تكرار المشكلة من وجهة نظر الغرب سواء بالغزو المباشر أو بالضغط غير المباشر لاستخدام النفط سلاحاً في أي خلاف محتمل، وبتهديد من ترسانة أسلحة مختلفة. لذلك سوف يستمر شكل من أشكال الحصار غير المعلن وسوف يشجع قيام مشكلات في الداخل وسوف توضع شروط قاسية على التسهيلات المالية والعلمية ما لم يتبع ذلك الانسحاب ضمانات وشروط إضافية وربما غير معلنة. وهذا ما تنبهت له القيادة العراقية متأخرة وهذا ما يجعل خيار الحل السلمي في غاية الصعوبة وما يفسر الإشارات المتناقضة والتي نسمعها بين الحين والآخر من الجانب العراقي.

فيما عدا ذلك فإن أفضل الخيارات بالنسبة للعراق هو الحصار الاقتصادي، وتأثيره أقل قليلاً من الكارثة في بلد كان يعيش أزمة اقتصادية قبل الغزو وكان ينتج ٣,١ مليون برميل نفط ويحصل على مساعدات وقروض. وتشير نشرة لبنك الخليج الدولي في البحرين - عدد ديسمبر ١٩٨٩ ص ٨ - بأن دخل العراق من النفط عام ١٩٨٨ قد بلغ حوالي ١٥,٨ بليون دولار وان هذا الدخل يمثل ٩٠٪ من دخل الحكومة العراقية وحوالي ٩٥٪ من إجمالي صادراتها. والجانب الأهم في الحصار هو منع تصدير النفط مما يعني فقدان الحكومة العراقية لأصل دخلها لأن ما عداه إنما يعتمد عليه مما يضطر الحكومة العراقية لتمويل احتياجاتها من احتياطياتها أو من مسروقاتها من الكويت والقابلة للتسييل. وتشير نفس النشرة إلى أن احتياطيات الحكومة العراقية غير الذهب حوالي ٦,٧ بليون دولار، وتشير

تقديرات متناثرة أن مجموع المسروقات من الكويت من الأصول القابلة للتسييل - عملة صعبة ذهب سندات لحامله... تبلغ ٣,٥ بليون دولار مما يترك للعراق حوالي ١٠ بليون دولار في شكل احتياطيات.

ولكن أكثر من الاحتياطيات العراقية مجمد مما يترك حوالي ٦ - ٧ بليون دولار قابلة للصرف. وهذه تكفي واردات العراق في الأحوال العادية حوالي ٦ شهور وبافتراض صرفها بالكامل ودون هامش كبير من الواردات العسكرية والتي تمول من قروض ومساعدات. ولكن في زمن الحصار وفي بلد يستورد ٧٥ من احتياجاته الغذائية من الخارج وكل معداته العسكرية ذات التقنية العالية، فان المخاطرة بتهريب تلك الاحتياجات يحتاج إلى إغراء في السعر يصل إلى ما بين ضعفين إلى ثلاثة أضعاف أسعار السوق. لذلك نحن نتكلم عما يكفي لتمويل واردات شهرين إلى ثلاثة شهور فقط، ومع افتراض أن العراق بما لديه وبمسروقاته من الكويت لديه ما يغطي كل احتياجاته على مدى ٣ شهور، فإن ٦ شهور كافية لرؤية نقص حقيقي في كل شيء تقريباً مصاحباً لمعدلات تضخم وبطالة عالية. وما حدث من تقنين للبنزين وعودة عنه وما يسمع عن توقف بعض المصانع لافتقارها إلى الخبرة الأجنبية أو إلى المادة الخام أو نصف المصنعة أو قطع الغيار، وارتفاع أسعار بعض الضرورات مثل الرز و الطحين والزيوت إنها مؤشرات لقدوم الأصعب. وقبل إعلان الحكومة العراقية في ١٩٩٠/١١/٢٠ احتكار الحبوب بلغ سعر كيس الرز ٢٠٠ دينار عراقي وسعر كيس الدقيق غير النقي ٥٠ ديناراً عراقياً بعد أن كان ثلاثة دنانير، وسعر علبة الحليب السائب ٢٥ ديناراً عراقياً وسعر الراديو حسب رواية وكالة رويتر بسعر التحويل الرسمي ٨٠٠ دولار أمريكي. ولن تجد الحكومة العراقية سبيلاً لمواجهة جيوش المجندين والعاطلين عن العمل سوى طبع المزيد من العملة العراقية، وأمام شح السلع والخدمات سوف تبلغ معدلات التضخم أرقاماً قياسية مما يجعل تمويل الشعب لاحتياجاته صعباً ويزداد صعوبة بمرور الوقت،

ومن هنا تبدأ المشكلات الاجتماعية والسياسية المصاحبة بالبروز. وفي المجتمعات التي تعتمد العنف والكبت، تصبح التداعيات متى حدثت سريعة التراكم وعنيفة وقياسية من حيث الوقت. ولا أحد يستطيع أن يجزم بوقتها على وجه الدقة ولكنها لن تطول في وجود جبهة عالمية إذا كان ذلك خيارها فسوف تعمل على تسريع آثاره وهي تملك الوسائل لذلك. وعلى أي الأحوال، ذلك هو سيناريو المواجهة العسكرية. أما إذا تطور الأمر إلى حدود المواجهة العسكرية سواء كانت جزئية بمعنى انتقاء وضرب بعض الأهداف من أجل تسريع مفعول الحصار، أو كلية بما تعنيه فإن تدميراً رئيسياً للاقتصاد العراقي يبدأ بكل قدراته العسكرية والتي صرف عليها جل موارده، ولا ينتهي بتدمير بناه التحتية ومحطات التكرير والطاقة باهظة الثمن، وإنما قد يمتد ليدخله حقبة من عنف غير مسبوق قد لا يترك العراق بجغرافيته التي نعرفها.

ثانياً: الكويت:

وما تعرضت له الكويت بمثابة الكارثة، والمشكل ليس في واقعة الاحتلال نفسها رغم أنها واقعة مأساوية، ولكنها في طبيعة ممارسات الاحتلال التي أعقبت الغزو. فقد كانت أغلبية الكويتيين يحملون في قلوبهم صورة مثالية للمقاتل العراقي وللقيادة العراقية إذ ان ذلك ما كانت الشعارات التي تعودوا سماعها تزرعه في أذهانهم. فشهامة ومروءة جند العراق الأبطال الأماجد، وحرمة الدم والمال والعرض العربي وغيرها كانت مقدمة الخطاب الاعلامي العراقي المسموع بكثرة في الكويت. وكانت المفاجأة منذ الأيام الأولى للغزو إذ تم استباحة حرمة كل شيء تقريباً ولا زال، وفوجيء الناس بكل الشعارات معكوسة أمام أعينهم مما هز من الأعماق قيمهم ومبادئهم. ولا أظن أن التاريخ قد وثق عنفا واستباحة لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف بهذا القدر ولعلها بزت كل ما ذكر حول تاريخ النازية في الحرب الكونية الثانية. وقد كان النتاج الطبيعي لمثل هذه الممارسات أن تخسر البلد كل

شيء، فقد تمت سرقة كل المنشآت العامة من الطائرات إلى الأسلحة إلى المستشفيات والمدارس والحافلات إلى كل الممتلكات الخاصة من العربة والملابس إلى الهوية. واتبع ذلك عمليات تدمير غير مبررة للبنى التحتية إما بدعوى الاستعمال العسكري أو بدعوى الأمن والاحتياط أو حتى لمجرد الرغبة في التخريب. ولا أحد يستطيع في الوقت الحاضر تقدير حجم الخسائر التي تكبدتها الكويت حتى الآن، ولكنها لن تقل عن بضعة عشرات من البلايين للقطاعين العام والخاص أو عودة لكل شيء بضعة عشرات من السنين إلى حدود عقدي الستينيات أو الخمسينيات. وتحتاج الكويت إلى حوالي ١٠٠ مليون دولار شهرياً للمصروفات الجارية لكويتيين في الخارج أو لتغطية نفقات الحكومة، والتزمت بحوالي ٥ بلايين دولار لتغطية نفقات القوات متعددة الجنسيات ولمساعدة بعض الدول المتضررة، كما تحتاج أحياناً لبعض الأموال لمساعدات لدول ومنظمات مختلفة. والمرجح أن ترتفع تلك التكاليف بمرور الوقت، إذ أن المتوقع أن يزداد عنف قوات الاحتلال وتزداد أعمال السرقة والتخريب داخل الكويت كلما زادت الضغوط داخل العراق بسبب الحصار الاقتصادي. فمع اشتداد الأزمة تبدأ عملية انحسار للضبط والربط وحلول الفوضى التدريجية مكان النظام الضعيف وتفكك السلطة المركزية في بغداد وهذا سيؤدي إلى استمرار عمليات النزوح للخارج للكويتيين أيضاً. أما إذا تطور الأمر للنزاع العسكري في مواجهة لا يبدو أن للعراق أملاً في كسبها، فإننا سنكون أمام عمليات تخريب انتقامية حيث أن معظم ما تبقى من المنشآت الحيوية وبالذات في القطاع النفطي ملغوماً. وقد ينجح العراق في تحويل الكويت إلى خرائب حق لو لم تكن الكويت ساحة معركة واعتمد القتال على فصل القوات العراقية داخل الكويت عن قيادتها المركزية وقطع خطوط إمدادها وذلك بغض النظر عما يمكن أن يحدث للقوات العراقية داخل الكويت. وقد يحد من ذلك قليلاً احتمال استسلام أعداد كبيرة من القوات العراقية داخل الكويت مع بداية الحرب، أو ذلك على الأقل ما يتركه الانطباع عن وضع القوات العراقية التي يبدو انها لم

تفهم لماذا حاربت ثماني سنوات مقابل لا شيء سوى البؤس والدمار، ولماذا هم الآن مضطرون للقتال دون أمل للاحتفاظ بالكويت لمجرد إرضاء عناد القيادة.

وعلى أي الأحوال، فان عودة الوضع من الناحية الشكلية إلى عقدين أو ثلاثة أو حتى أكثر في حالة المواجهة العسكرية لا يعني أن الوضع يتطلب نفس المدة لإعادة البناء، ولكن خفض التكلفة واختصار الوقت لن يحدث تلقائياً. والواجب يدعو إلى الاحتفاظ وتعظيم تعامل الحكومة الكويتية مع الأصول المتاحة، وأهم تلك الأصول المطلوبة لإعادة البناء هم الناس بالداخل، فهم الأكثر صلابة والأكثر إيماناً والأكثر قدرة فيما بعد على التعامل مع إعادة البناء ورسم المستقبل. ويمكن الحفاظ النسبي عليهم وتخفيف معاناتهم عن طريق العمل الجاد والصادق على تحويل تلك المعاناة إلى قضية عالمية بالإقام وبالصور وبعقد المقارنات النسبية ومخاطبة كل شعب بالأسلوب الذي يفهمه. إن هناك مادة من نتاج الاحتلال تكفي لكسب الرأي العام في كل مكان، ولذلك الرأي قول حاسم في قضيتنا أيضاً وتقصير أمدها، ولكننا حتى الآن كما يبدو نتعامل مع الأزمة يوماً بيوم دون محاولة الاستفادة من الوقت والتعامل مع أكثر من سيناريو. ثم هناك قوى بشرية مؤثرة متناثرة في الشتات لا تستغل قدراتها ولا وقتها كما يجب والوقت مهم جداً سواء في خدمة قضية العودة أو وضع الأسس السليمة لكفاءة وتخفيض تكاليف إعادة البناء. وهناك أيضاً قدر من الاستثمارات الخارجية تمثلُ المادة الضرورية لتمويل عملية التخطيط للعودة وإعادة البناء، وتحتاج في الظروفِ الراهنة إلى الكثير من الرقابة والكثير من التخطيط لاختلاف جوهري في دورها حاضراً عما كان عليه الوضع في الماضي، وهذه تحتاج إلى الكثير من الجهود والالتزام المسبق، ولا تبدو الجهود المبذولة في هذا المنحى أيضاً كافية. إن العمل بشكل عام في ظل مثل تلك الكارثة يحتاج إلى جهود كثيرة ومعقدة ويحتاج إلى آلية تضمن أن يصب كل الجهد في النهاية في اتجاه واحد ولخدمة أهداف موحدة لا يكفي مجرد الإعلان عنها ضمان

تحققها بأفضل السبل وأقل التكاليف. ولكن، تبقى فرص الكويت في إعادة البناء أفضل بكثير من فرص العراق لأسباب منها التجانس ووحدة الصف وصغر الحجم، ومنها أيضاً وجود طاقة بشرية اختزلت الكثير من التجارب والخبرة، ومنها توفر أرصدة مالية مستثمرة يمكن استخدام دخلها وأصلها في تمويل عملية البناء، ومنها وجود اتفاقية بين دول مجلس التعاون تمكن دولاً أخرى من إنتاج النفط لمصلحة الدولة المتضررة وإن كنت لا أعرف إن كانت مطبقة الآن أو غير مطبقة، ومنها وجود الامتداد المالي والجغرافي للكويت مع دول التعاون.

ثالثاً: دور الكويت والعراق في المساهمة في نماء الدول العربية والإسلامية:

يتكرر كثيراً ضمن مسوغات الغزو أن من أغراضه زيادة مساهمة الدول الغنية في نماء الدول الفقيرة، ولكن تجربة العراق والكويت ودول الخليج التاريخية توحي مرة أخرى بانفصال الشعار عن الممارسة. ولو أخذنا صناديق الإنماء القطرية فقط كمؤشر بالإضافة إلى التجربة التاريخية، ربما نستطيع أن نثبت هذه الخلاصة. ففي ورقة منشورة للدكتور هنري عزام ـ نشرة المعهد الياباني لاقتصاديات الشرق الأوسط في القاهرة، صيف ١٩٨٩، ص ٣ ـ ٢٨ ـ يشير إلى أن مجموع التزامات الصندوق الكويتي للتنمية بلغت حتى عام ١٩٨٧ حوالي ٥.٢ بليون دولار سدد منها حوالي٣.٩ بليون دولار وتبلغ التزامات الصندوق السعودي ٤.٦ بليون دولار سدد منها حوالي ٣ بليون دولار. بينما تبلغ التزامات صندوق التنمية العراقي ٨٤٥ مليون دولار سدد منها حوالي ٣٣٨ مليون دولار أي أن التزامات الكويت تبلغ حوالي ٦ أضعاف التزامات العراق، بينما يبلغ مجموع ما دفعه الصندوق الكويتي حوالي ١٢ ضعفاً مقارنة بما دفعه صندوق التنمية العراقي. وتدعى القيادة العراقية أنها كانت وراء اقرار مؤتمر عمان عام ١٩٨٠ لعقد التنمية العربي والذي خصص له نظرياً ٥٠ بليون دولار. وتشير مجلة ـ   ـ في عددها الصادر في ١٧ سبتمبر ١٩٩٠ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٧، إلى أن العراق قد صرف في

حربه مع إيران على السلاح والذخائر وحدهما حوالي ١٠٢ بليون دولار، ٨٠ بليون منها في شكل قروض ومساعدات منها حوالي ٥٠ بليون دولار على شكل قروض بدون فوائد - لن تسدد - من دول مثل الكويت والسعودية ودول أخرى في الخليج. وهذا المبلغ الذي صرف على العراق لتمويل حرب لم يشاركها أحد في قرارها مساو تماماً للمبلغ المقرر لتمويل عقد التنمية العربي وفي نفس الوقت. وكان يمكن أن يستخدم كله أو بعضه على الأقل في عملية البناء العربي بدلاً من عملية الهدم في حرب لا داعي لها ولا مقابل سوى الدمار. وتضيف المجلة السابقة الذكر، إن دول الأوبك قد فقدت ١١٥ بليون دولار لمصلحة ٧ دول كبرى هي: بريطانيا، كندا، فرنسا، إيطاليا، المانيا، اليابان، والولايات المتحدة عام ١٩٨٦، عندما بلغت أسعـــــار النفط دون ١٠ دولارات للبرميل وهي مساوية بالقيمة الحقيقية لأسعار ١٩٧١. وهذا كان ممكناً نتيجة انفراط الأوبك عام ١٩٨٥ والحرب العراقية الإيرانية ورغبة العراق في تخفيض الأسعار كانت سبباً رئيسياً. والخلاصة إن تلك الحجة باطلة لا من حيث حجم المساعدات المباشرة لعملية بناء الدول الفقيرة والتي قدمها كل من الكويت والعراق، ولا من حيث الأثر غير المباشر الذي تتركه قرارات حروب القيادة العراقية في حجب الموارد العربية عن عملية البناء الإيجابي سواء في حربها مع إيران أو في غزوها للكويت والذي سيترك آثاراً سلبية كما سنرى في نفس الاتجاه.

رابعاً: دول مجلس التعاون:

ومن الصعب الحكم على مدى الضرر أو الاستفادة لدول مجلس التعاون الخمس من الناحيتين الاقتصادية والسياسية فالوقت ليس كافياً بعد لتقويم التجربة ولا بد من الإقرار بعجزي حتى الآن عن فهم المؤشرات وترجيح اتجاهاتها. فنتاج التجربة

يتطلب وعياً بها وتغييراً جوهرياً في نمط التنمية الذي كان سائداً وفهماً أفضل للتعاون الاقتصادي والسياسي وانفتاحاً رئيسياً على الشعوب. فقد اثبتت تجربة الكويت كيف أن تنمية قطرية غير مقدر لها أصلاً الاستمرار عاجزة بوقت قياسي عن حماية منجزاتها مهما كان اتفاقنا أو اختلافنا معا، وإن عالم اليوم لا مكان فيه لكيانات صغيرة وبالذات الغني منها، وستمر فترة من الوقت حتى تستطيع الحكم على مدى استفادتنا من التجربة الكويتية وربما تقدم الكويت بعد استعادتها نموذجاً لاتجاهات مثل ذلك الوعي والفهم، ولكن من الناحية المالية على الأقل تبدو الأوضاع أفضل وإن اختلفنا على درجتها، فدخل دول الخليج سوف يرتفع نتيجة لارتفاع إنتاج النفط لتعويض فاقد الإنتاج الكويتي العراقي أو نتيجة زيادة الأسعار. وتنتج دول الخليج غير الكويت حالياً حوالي ١١,٤ مليون برميل يومياً بزيادة أكثر من ٣ ملايين عما كانت تنتجه قبل الأزمة، ولو استقرت الأسعار عند حوالي ٣٠ دولاراً للبرميل وبعد طرح الاستهلاك المحلي، قد يبلغ دخل تلك الدول حوالي ٣١٨ مليون دولاراً يومياً أو حوالي ٩,٥ بليون دولار شهرياً وحوالي ١١٨ بليون دولار سنوياً. مقابل حوالي ٣,٧ بليون دولار شهرياً للسنة الماضية حتى عند افتراض معدل أسعار أعلى من ذلك الذي كان سائداً حتى اتفاق أوبك الأخير. ولكن هامشاً كبيراً من تلك الزيادة سوف يذهب لتمويل ذلك الحشد العسكري وتعويض الدول المتضررة ـ كان الالتزام الأولي لكل من السعودية والإمارات حوالي ٧ بلايين دولار ـ ومبالغ كبيرة أخرى سوف تذهب في شكل مساعدات ثنائية ونفقات تسليح. وحتى لو حدثت مواجهة عسكرية، فإن احتمالات أن تصاب دول التعاون بتدمير صغير وتتضاءل بمرور الوقت كلما زادت الحشود العسكرية وازدادت استحكاماتها. ومن يدري، ربما تخرج دول التعاون من هذه الأزمة أقوى مما كانت بعد أن هزت هذه الأزمة مفاهيم سائدة يبدو أنها لابد وأن تكون مكان مراجعة صادقة وجادة إذا قدر لهذه الأزمة أن تنتهي كما هو متوقع لها.

خامساً: دول عربية وإسلامية أخرى:

ولعل من أهم مآسي هذه الأزمة أن أشد المتضررين منها الدول الأشد فقراً والعربية والإسلامية منها وأكثر تحديداً أغلبها تلك الدول الأكثر ارتباطاً بالموقف العراقي. فمن المعتقد أن أشد الدول تضرراً بعد طرفي الأزمة هي كل من الأردن والضفة الغربية وهي دول أو مناطق نتيجة موقعها وانتمائها يفترض أن لا تتضرر. وتذكر نشرة الخدمة الإخبارية الاقتصادية اليابانية بتاريخ ٨ أكتوبر ١٩٩٠، أن الأمير الحسن وليَ عهد الأردن قد ابلغها أن الأردن قد فقد ٥٠٪ من ناتجه القومي الإجمالي نتيجة الأزمة سواء نتيجة للعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة أو نتيجة فقدان تحويلات العاملين في الكويت. وتذكر أرقاماً غير رسمية أن معدل البطالة في الأردن ارتفع إلى حوالي ٤٠٪ نتيجة ذلك الانخفاض الكبير في الناتج القومي الإجمالي من جانب، ونتيجة ذلك النزوح لأكبر جالية أردنية فلسطينية من الكويت إذ يقدر عدد النازحين حتى منتصف نوفمبر حوالي ١٥٠ ـ ١٨٠ ألف نسمة. وإن صدقت تلك الأرقام فإن ما حدث في الأردن خلال شهرين يفوق قليلاً ما حدث في الولايات المتحدة خلال حقبة الكساد العظيم ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ عندما فقدت نصف ناتجها القومي وبلغت البطالة ٢٥٪. والوضع للأسف الشديد ليس بأفضل في الضفة الغربية وقطاع غزة، فإلى جانب ما افسحته تلك الردة العربية من تغييب لاهتمام العالم بإشراف واشجع حركات المقاومة الشعبية وأقصد الانتفاضة، فقد سمحت تلك الردة بأوسع هجرة يهودية في غياب أي مقاومة لها، وسمحت بأقسى درجات العنف ضدها وفي ساحة المسجد الأقصى. ولا أعرف ما هي درجات الاستفزاز المطلوبة لكي تحفز القيادة العراقية على الرد في الميدان الصحيح هذه المرة وخصوصاً وهي قادرة على تدمير نصف إسرائيل حتى لو تعرض العراق للتدمير بدلاً من تدميره بسبب احتلاله للكويت، فعلى أقل تقدير ستكون تضحية مبررة ومشرفة. والمهم أن الانتفاضة بعد أكثر من ثلاث سنوات من بدئها

استطاعت أن تخلق قنوات تمويل هي في أشد الحاجة إليها لاستمرارها، ولعل أهم تلك القنوات على مستوى التحويلات كانت من الكويت. وكانت روافد تلك التحويلات ثلاثة، أولها يأتي من أكبر التجمعات السكانية الفلسطينية خارج الأردن ويأتي إما عن طريق التحويل المباشر أو من خلال زيارات الأهل والأقارب خلال الاجازات وعمليات التعمير والبناء الناشئة عنهما. وثانيها يأتي من التبرعات الشعبية والتي أصبحت منتظمة باقتطاع جزء من الدخل شهرياً وتبني بعض عائلات الشهداء ويحمل الشعب الكويتي تعاطفاً كبيراً مع شباب الانتفاضة. وثالثهما رسمي ويأتي من تبني الحكومة لبعض المؤسسات التعليمية والصحية والصرف بشكل مباشر عليها إلى جانب نصيب الحكومة في تمويل منظمة التحرير الفلسطينية. ونتيجة شحة الموارد والظروف الصعبة التي يعيشها الفلسطينيون تحت الاحتلال قبل الأزمة الحالية، فإن انقطاع هذه الروافد سوف يشكل ضغوطاً مالية شديدة عليهم وتزداد بمرور الوقت. وتقدر منظمة التحرير الفلسطينية خسائر ممتلكات ومدخرات الفلسطينيين في الكويت بحوالي ٤ بليون دولار وهو رقم بعيد عن الواقع إذ يعني ان لكل فلسطيني طفلاً وامرأة ورجلاً من أصل ٢٥٠ ألف فلسطيني حوالي ١٦.٠٠٠ دولار في شكل ممتلكات ومدخرات وهو رقم بعيد عن الواقع. ولكن لا شك أن الكثير من الفلسطينيين خسروا ممتلكاتهم ومدخراتهم أي حصيلة عمل عمرهم نتيجة الغزو، إذ على أحسن الفروض لم تعد مدخراتهم وممتلكاتهم عملة صعبة.

وما يذكر حالياً عن تحولات في الرأي العام الأردني والفلسطيني لمصلحة القضية الكويتية وهو يتفق معاً مع ما ذكره مراسل لصحيفة نيويورك تايمز في منتصف نوفمبر، إنما جاء نتيجة حتمية للمعاناة المالية من جانب، ونتيجة لمشاهدات النازحين من الكويت من الفلسطينيين والأردنيين لممارسات الاحتلال العراقي والتي بزت كما يروي بعضهم وللأسف الشديد ممارسات الاحتلال

الإسرائيلي.

وتأتي السودان في مرتبة تالية من حيث التأثر إذ أن السودان يعيش في الأصل أزمة اقتصادية طاحنة وصلت بقيمة الدولار لقروضه في السوق العالمي إلى حوالي ٤ سنت للدولار الواحد ومن يشتر في العادة تكن له قنوات للحصول على ماهو أكثر بطريقة غير شرعية. ولا تسد حصيلة السودان من النقد الأجنبي مجرد فوائد تلك القروض ناهيك عن أصل الدين والذي من المستحيل سداده. ويعيش الشعب السوداني مجاعة بسبب الجفاف وتنكرها القيادة وتغيب المأساة في جملة الاهتمامات بالأزمة الحالية وتعجز الكويت وكان لها دور رائد في المساعدة بمد يد العون. وتشتد حرب الجنوب ويفتح السودان جبهة جديدة مع تشاد تحت ضغط الظروف الاقتصادية والحاجة لشراء الود السياسي. وهكذا تدفع الأزمة ببلد إلى ظروف أسوأ في وقت كنا نعتقد فيه أنه قد بلغ حدود الأسوأ ولا يمكن للأمور أن تستمر إلى أبعد من ذلك.

ثم تأتي اليمن الحليف الرسمي الرابع وستكون أقل المتضررين في القياس النسبي مع الحلفاء الثلاثة الآخرين وذلك على الرغم من فداحة الإصابة، إذ تنتج اليمن حالياً حوالي ٢١٥ ألف برميل نفط في اليوم. وعلى افتراض أنها تصدر حوالي ١٥٠ ألف برميل يومياً في شكل مكررات وخام، فإن ذلك يعني زيادة في دخلها الشهري بحدود ٦٨ مليون دولار أو أكثر من ٨٠٠ مليون دولار سنوياً. وتحاول اليمن في الوقت الحاضر الحصول على بعض النفط الليبي بأسعار تشجيعية لتعويض فاقد النفط العراقي والكويتي ولا أعرف حتى الآن نتيجة تلك المساعي والتي إن نجحت سوف تعوض جزءاً آخر من تكاليف الأزمة. ويقدر مجلس الوزراء اليمني خسائرها بحوالي ١.٧ بليون دولار وأظن أن الرقم فيه الكثير من المبالغة سواء في تقدير حجم فاقد التجارة أو تحويلات المقيمين في الخارج أو القروض والمساعدات والتي تسبب الغزو في انقطاعها. ولكن المؤكد أن

الحصيلة النهائية سالبة وبشكل مؤثر وأن هناك معدلات بطالة عالية ناشئة عن نزوح المقيمين في الخارج وبالذات تلك الناشئة عن إلغاء امتيازات اليمنيين في السعودية مع اعتقادي بأن تجنيب الشعوب تبعات الخلافات الرسمية واجب لأن قدر تلك الشعوب مرتبط بعضه ببعض في المستقبل بغض النظر عن أخطاء الزعامات.

وتأتي الدول الأكثر فقراً ضمن أشد الدول تأثراً في الأزمة من الناحية الاقتصادية، وتذكر مجلة التايم الأمريكية ـ عدد ١٥ أكتوبر ـ أن أحد أشد المتأثرين سلباً هي بنغلاديش البلد الذي يعيش شبه مجاعة، فقد تضطر إلى دفع ٢٢٠ مليون دولار في السنة لتغطية تكاليف الارتفاع في أسعار النفط الناشيء عن الأزمة، كما فقدت البلد ١٠٠ مليون دولار أخرى في شكل تحويلات لعمالتها في كل من الكويت والعراق. ويقول مساعد لوكيل وزارة الخارجية الأمريكية في شهادة أمام الكونجرس الأمريكي ـ نشرة الخدمة الإخبارية الاقتصادية اليابانية ٢٠ سبتمبر ـ أن الباكتسان وهو بلد إسلامي آخر يتعرض لمخاطر في إصلاحاته الاقتصادية التي بدأها صندوق النقد والبنك الدولي في عام ١٩٨٨ بسبب أزمة الخليج وقد فقد الحافز على الاستمرار فيها. وباكستان بلد فقير أيضاً وحكمه حكم بنغلاديش في ارتفاع فاتورة النفط وفقدان تحويلات العاملين وارتفاع معدلات البطالة لديه والعالية أصلاً بدون الأزمة.

ولو اتبعنا نفس الترتيب في تصنيف الدول حسب تضررها سنجد دولة مثل الهند وتضم حوالي ٢٠٪ من سكان العالم من أشد الدول تضرراً رغم أن الأداء الاقتصادي لها في العقد الماضي كان مميزاً. فالهند بلد مدين بحوالي ٧٠ بليون دولار وليس لديه في الأحوال العادية سوى ما يكفي ٦ أسابيع من وارداته بالعملة الأجنبية وهو معدل منخفض، ويعتمد في ٢٠٪ من احتياجاته على نفط الكويت والعراق وجزء آخر من احتياجاته يسدها الاتحاد السوفييتي من خلال العراق.

وبسبب الاضطرابات فقد ١٠٪ من إنتاجه المحلي من النفط من ولاية أسام بسبب أعمال عنف انفصالية حسب رواية جريدة الواشنطن بوست عدد ١٣ سبتمبر. وتضيف الصحيفة ناسبة القول لعضو برلمان عن ولاية كيرالا أن معظم النازحين الهنود من الخليج من ولاية كيرالا التي لديها معدل من أعلى معدلات البطالة في الهند. ولمواجهة المشكلة لابد للهند البلد المثقل بالديون من الاقتراض من البنوك التجارية بشروط قاسية وأن يحاول الحد من الواردات. وهكذا تدفع الأزمة في بلد يستطيع بصعوبة أن يبقي إلى أزمة قد تضر بشكل كبير في ٢٠٪ من أكثر سكان العالم فقراً.

وتبقى سيريلانكا من أشد الدول تضرراً أيضاً وهي الدولة التي تمزقها الاضطرابات، ويقدر الرئيس السيريلانكي خسارة بلاده من الأزمة حتى نهاية عام ١٩٩٠ بحوالي ١٠٠ مليون دولار حسب رواية نشرة الخدمة الإخبارية الاقتصادية اليابانية في ١٦ أكتوبر ١٩٩٠. كما تم إخلاء حوالي ٢٩ ألف سيرلانكي من الخليج بسبب الأزمة وقامت اليابان بتمويل العملية بحوالي ١٢ مليون دولار بسبب عجز الحكومة السيريلانكية عن القيام بذلك. وهؤلاء سوف يضيفون فائضاً إلى معدلات البطالة العالية أصلاً وانحدار في مستويات المعيشة المتدنية.

والفليبين بلد آخر مكتظ بالسكان ويعيش اضطرابات تزيد بؤسه سوف يعاني هو الآخر وبشدة من الأزمة، ويذكر تقرير الخدمة الإخبارية الاقتصادية اليابانية بتاريخ ١٩٩٠/١٠/٣، أن أزمة الخليج سوف تجعل الأمور أسوأ عندما يعود آلاف الفليبينيين من العاملين في الخارج مما يعني خسارة بضعة بلايين من الدولارات والإساءة إلى معدلات البطالة السيئة أصلاً. ويضيف أن التوقعات تذكر أن زيادة دولار واحد في أسعار النفط تعني ٧٠ مليون دولار عجزاً اضافياً في الميزانية، وبأن الارتفاع الحالي في الأسعار قد رفع معدلات التضخم إلى ١١٪ وأن معدل النمو الاقتصادي قد انخفض من ٦٪ العام الماضي إلى مابين ٣ ـ ٣.٥٪ العام

الحالي.

ومع ذلك، ليست كل دول العالم الثالث تتعرض لنفس الألم بسبب الأزمة، فالدول الأقرب إلى الدول المتقدمة من حيث درجة التعاون ومستوى النمو وارتفاع مستوى المعيشة ستكون أكثر قدرة على اجتياز التبعات الحادة التي تعرضت لها الدول الأكثر بؤساً وتخلفاً. فاقتصاديات منظمة أمم جنوب شرق آسيا والتي تضم بروني وأندونيسيا وماليزيا والفليبين وسنغافورة وتايلاند سوف تستطيع تجاوز الأزمة وذلك رغم الأثر السالب للفليبين البلد الأكثر تضرراً بسبب عدم الاستقرار السياسي والجفاف وغياب مصادر الطاقة والزلازل الأرضية وفقدان تحويلات العمالة بسبب الأزمة، حسب رواية نشرة الخدمة الإخبارية الاقتصادية اليابانية في ٢٩ أكتوبر ١٩٩٠.

أربع من الدول الست هي أندونيسيا وماليزيا والفليبين وتايلاند سوف تنمو بمعدل ٧.٣٪ في عام ١٩٩٠، وما بين ٦.٣٪ و ٦.٥٪ في العام القادم. وتشكر النشرة الاتفاقية لأن تبادل النفط بين الدول المصدرة والمستوردة في آسيا والتي تلزم الأولى بتزويد الثانية في النفط مما يحصر المشكلة في سعر النفط وليس في شحنه. وضمن هذه المجموعة حالة خاصة ليست بعيدة عن مثال الكويت والعراق، فقد مرت ماليزيا وسنغافورة بتجربة اتحادية طوعية قريبة في توقيتها من ادعاء عبدالكريم قاسم بالكويت عام ١٩٦١. ولكن رغم فشل التجربة فإن الاعتبارات لها علاقة بحساسيات السيطرة واختلاف مستويات النمو، إلا أن كلا البلدين قدم نموذجاً للتنمية الاقتصادية والسياسية قربهما من بعضهما بدلاً من أن يباعد بينهما، فرغم الاختلافات العرقية والدينية داخل ماليزيا إلا ان تجربتها الاتحادية والديمقراطية وبرامجها الطموحة في التنمية الاقتصادية رغم أن إنتاجها النفطي في حدود ٥٩٥ ألف برميل في اليوم فقط وقد يرتفع إلى ٦٠٥ الاف برميل في اليوم بسبب الأزمة. وفتح عليها ذلك باب الاستثمارات الخارجية وقامت فيها حركة إعمار

زادت من الطلب الداخلي إذ ان اعتمادات خطتها الخمسية التي تبدأ عام ١٩٩١ تبلغ ٢٦ بليون دولار وتمثل حوالي ١٥٪ مما صرفه العراق مباشرة في ٨ سنوات من الحرب مع إيران. وكذلك زيادة في الطلب الإقليمي على صادراتها حيث تمثل صادراتها ٦٠٪ من ناتجها المحلي الإجمالي ونصيب سنغافورة واليابان حوالي ٣٦٪ من تجارتها الخارجية ولم يحدث عليها تغيير.

ويتوقع مع الأزمة أن ينمو الاقتصاد الماليزي بنسبة ٩٪ أعلى قليلاً من العام الماضي وهذا يعد من أعلى معدلات النمو في العالم. ويقول هنري أونغ مدير البحوث في شركة يو. أو. بي للأوراق المالية في سنغافورة، إن الكل يركز اهتمامه على سوق الأوراق المالية الماليزية بدلاً من سوق سنغافورة للأوراق المالية لأن الاقتصاد الماليزي تفوق في أدائه على الاقتصاد السنغافوري. وتلك هي صورة معكوسة للوضع في الستينيات عندما نشب ما يشبه الحرب من أجل انفصال سنغافورة عن ماليزيا، وهكذا أيضاً ينجح تقديم نموذج إيجابي في تحقيق ما يعجز عنه النموذج السلبي وهي الحالة التي مارسها العراق مع الكويت في الستينيات والتسعينيات رغم أن كل ما عدا بؤس النموذج السياسي والاقتصادي العراقي يرجح تقارباً وتجانساً أفضل بين العراق والكويت سواء من ناحية اللغة أو الدين أو التاريخ ويفترض الأماني والأهداف المشتركة.

لسنا في مجال الحصر لتتبع أثر الأزمة على كل بلد ولكن الواضح مما تقدم أن مدى الضرر يتناسب طردياً على مستوى دول العالم الثالث مع مستوى فقرها وبؤسها وارتفاع مستوى اعتمادها على النفط المستورد. أي أن أكثر الدول تضرراً من الأزمة هي تلك الدول الأكثر فقراً وصادف كون بعضها الأكثر ارتباطاً بالعراق. ولا شك أن إيران إحدى أكثر الدول المستفيدة حالياً من الأزمة ويبدو لي أنه كلما طال أمد الأزمة كلما تخلت إيران عن خطط بالاقتراض لتمويل احتياجاتها، إذ إن زيادة إيرادات النفط إلى ضعفين سوف يفي بتلك الاحتياجات ويزيد. وهناك دول

تضررت ولكن بشكل أخف وإن كان لها حضور مباشر في الأزمة مثل مصر وسوريا وتركيا، فمصر على سبيل المثال عانت من عودة عمالتها في الخارج وفقدان تحويلاتهم وتأثر الموسم السياحي قليلاً، ولكنها استفادت من ارتفاع أسعار النفط والمساعدات وإلغاء ديون عسكرية ومدنية. وسوريا تنطبق عليها نفس التبعات والمزايا وربما تكون المحصلة النهائية في المدى المتوسط والطويل استفادتهما وهو تطور إيجابي ومهم. وتركيا قد تكون أكثر الدول الثلاث تضرراً لاعتبارات منها فقدان تحويلات عمالة وتدفق عماله للداخل وفقدان تجارتها مع العراق وهي أكبر شريك تجاري له وفقدان رسوم مرور خط الأنابيب العراقي وارتفاع فاتورة النفط وهي بلد مستورد، وإذا كانت ستعوض جزئياً من صندوق تعويض الدول المتضررة وستكسب شروطاً وعلاقات مالية وتجارية أفضل بسبب موقفها فهذا أيضاً قد يحولها إلى مصاف الدول المستفيدة في الزمن المتوسط والطويل. وأروبا الشرقية والتي حدثت فيها تحولات جوهرية تتوقع شعوبها أن تعوض عن سني الحرمان، وقد كانت تحصل على معظم احتياجاتها من النفط البالغة ٢ مليون برميل يومياً من الاتحاد السوفييتي بأسعار مخفضة ومدعومة تبلغ ٧ دولار للبرميل. وبعد إلغاء ذلك الدعم ستكون مضطرة إلى تخصيص عملات صعبة لا تملكها لمواجهة احتياجاتها مما يضطرها لمزيد من الاقتراض، كما أن الدول التي يفترض أن تساعدها إما انها دفعت مخصصات لتمويل الحشد العسكري أو لمساعدة الدول المتضررة منه مباشرة، كما أن الطلب على صادراتها سوف ينخفض للتباطؤ في النمو الاقتصادي لشركائها التجاريين نتيجة للأزمة.

وبشكل عام يتوقع لدول العالم الثالث أن يفقد معدل نمو في حدود ٠,٧٥٪ هذا العام، ويتوقع ان تزيد فاتورة وارداته بحوالي ٢٨ بليون دولار في دول مدينة بحوالي ١٢٥٠ بليون دولار، وترتفع معدلات التضخم وأسعار الفائدة والبطالة، كل ذلك بسبب الأزمة، وهكذا تعمل الآلية التي صنعتها الأزمة على إعادة توزيع الدخل

لصالح الدول الأكثر غنى، أو على الأقل توزع الأعباء بشكل أكبر للدول الأكثر فقراً والأقل نمواً لتزيد بؤسها وهي آلية تفعل العكس تماماً للشعار الذي رفعته القيادة العراقية صانعة الأزمة.

سادساً: الدول المتقدمة:

ولا شك أن الأزمة قد فاجأت العالم المتقدم بعد أطول فترة رواج بعد الحرب العالمية الثانية والتي دامت ٨ سنوات وكانت الولايات المتحدة بدون الأزمة تقود العالم ما بين الركود والتباطؤ في معدل النمو الاقتصادي. وجاءت الأزمة لتدفع الولايات المتحدة إلى ركود أطول وأعمق من المتوقع ولكنها لتعطي مبرراً للومها فيه إذ انها المرة الأولى التي تواجه فيها الولايات المتحدة الركود بعجز في الميزانية يبلغ ٣٪ من ناتجها القومي الإجمالي، وقضية شائكة هي أكبر القضايا من حيث التكلفة المالية والمتمثلة في عجز مؤسسات الادخار والإقراض والتي تبلغ تقديراته ما بين ١٥٠ إلى ٥٠٠ بليون دولار وأدت إلى ركود القطاع العقاري. ورغم أن معدل البطالة في الولايات المتحدة بقى ثابتاً في أكتوبر عند ٥.٧٪ ولا زالت معدلات النمو في الربع الثالث موجبة عند ١.٨٪، إلا ان الشعور السائد هناك هو شعور أن البلد قد دخل مرحلة الركود. فقد دفعت الولايات المتحدة لدول الأوبك في شهر أغسطس حوالي ٢.١٦ بليون دولار زيادة لتغطية الزيادة في تكاليف وارداتها النفطية مما زاد من عجز ميزانها التجاري، ويذكر تقريراً للتايم الأمريكية عدد ١٥ أكتوبر بان شركات رئيسية تحاول الاستفادة من دروس ركود السبعينيات وبداية الثمانينيات، ويذكر على سبيل المثال بأن ثاني أكبر بنك أمريكي - جيس مانهاتن - سرح ٥٠٠٠ من موظفيه أو ١٢٪ من قوة العمل فيه، وإن شركة ماكدونيل دوجلاس أكبر شركات عقود الدفاع قد سرحت ١٧٠٠٠ من عمالها أو ١٣٪ من قوى العمل فيها. ويقول أحدهم إن الركود مشاعر وليس نظرية وهذا ما نشعر به الآن. ويقول آخر في التقرير إن الولايات المتحدة هي أكبر قوة شرائية لكل شيء في العالم من

القهوة الكولومبية إلى الكاميرات اليابانية، وعندما يصيب الركود الولايات المتحدة يشارك العالم في دفع الثمن وأكثر تحديداً العالم الثالث. والأزمة الحالية كما ذكرنا لم تسبب الركود في أمريكا وإنما عمقته وأطالت أمده وأعطت الفرصة للومها فيه مما قد يخفف من أعبائه السياسية لصالح الإدارة الأمريكية. فقد عملت الأزمة على تغييب الأهمية النسبية للقضايا الأخرى، واستطاعت الولايات المتحدة أن تحشد دعماً مالياً وسياسياً لخططها في الخليج، ثم إنها دخلت المنطقة بمبررات استراتيجية وأخلاقية لا يمكن أن تتمكن من حشدها لولا الغزو، وأخيراً وكما ذكرنا سابقاً فإن خيارات الدول المتقدمة ليست قصيرة الأمد، وما يمكن أن يرتب في المدى الطويل لضمان إمدادات النفط والنفوذ يفوق بمراحل ما يمكن أن تخسره في المدى القصير.

وفي اليابان قد يتباطأ النمو بحوالي ٣.٠٪ وترتفع معدلات التضخم بحوالي ٩.٠٪ كما يقدرها أحد الرسميين في وكالة التخطيط اليابانية وتزيد فاتورة اليابان الخارجية بحوالي ٢٢ بليون دولار سنوياً إذا استقرت أسعار النفط عند ٣٠ دولاراً للبرميل، وكان مؤتمر نيكي قد فقد منذ ديسمبر الماضي حوالي ٤٠٪ من قيمته وفقد اليابانيون حوالي ٢٠٠٠ بليون من ثرواتهم فيه. والأزمة إنما تقلل كثيراً من احتمال استعادته لخسائره وتساهم في زيادتها. والتزمت اليابان للولايات المتحدة بحوالي ٤ بليون دولار لتمويل الحشد العسكري في الخليج والدول المتضررة من الحصار الاقتصادي، ولكن ذلك المبلغ حسب مقالة التايم السابق ذكرها يحققه الناتج القومي الإجمالي لليابان خلال ١٢ ساعة.

وارتفعت تقديرات عجز الميزانية في ألمانيا الغربية من ٢٠ بليون دولار في العام القادم إلى ٨٣ بليون دولار بسبب تمويل إعادة بناء اقتصاد ألمانيا الغربية حسب رواية نفس المجلة، وكذلك عليها إيجاد فرص عمل لحوالي ٢ مليون عامل من أصل ٨.٩ مليون عامل وتمثل قوة العمل في ألمانيا الشرقية وكذلك عليها إعطاء قروض

لثمانية الاف شركة في المانيا الشرقية على شفا إفلاس. والأزمة كما يبدو بالنسبة لها قد جاءت في الزمن غير المناسب كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة واليابان.

ومع ذلك فإن تقريراً لصندوق النقد الدولي يذكر بأن أداء الاقتصاد الألماني والياباني سيظل قوياً نسبياً رغم المشاكل التي واجهتهما حسب رواية الخدمة الاخبارية الاقتصادية اليابانية في ٢٠ سبتمبر ١٩٩٠. وربما ذلك يكون صحيحاً لأن هذين الاقتصادين كانا ينموان بمعدلات أقوى من الاقتصاد الأمريكي مما يعني أن هناك هامشاً لا يزال موجوداً لتحمل الصدمة. وإذا واجه الاقتصاد البريطاني أية مشاكل فلن تكون بسبب الأزمة بشكل مباشر لأنه اقتصاد مكتف ذاتياً من النفط وربما يتحول إلى مصدر لهامش صغير ولفترة محدودة.

أما الاقتصاد الروسي فهناك اعتقاد بان أزمة الخليج قد أفادته وحسنت من احتمالات النجاح للرئيس غورباتشوف. وتشير مجلة الايكونومست عدد ١١ اغسطس أن كل دولار زيادة في أسعار النفط، تعني زيادة بحدود ٥٠٠ مليون دولار من العملة الصعبة. وهذا يعني أن زيادة أسعار النفط إلى ٣٠ دولاراً من متوسط قبل الأزمة ٨ دولارات للبرميل يعني زيادة صافية في الدخل بحدود ٦ بلايين دولار، أضف إلى ذلك زيادة أسعار الغاز الطبيعي والذهب ومبيعات بعملة صعبة لأوروبا الشرقية، كل ذلك لابد وأن يؤدي إلى حصول الرئيس غورباتشوف على الـ ٢٠ بليون دولار التي ذكر أنه يحتاجها لإنقاذ الاقتصاد السوفييتي. وتبدو الصين في وضع مماثل إذ إنها بلد مصدر للنفط ويعتمد عليه بشكل رئيسي في توفير احتياجاته من العملة الصعبة، والأزمة التي ضاعفت سعر النفط لابد وأنها قد ضاعفت أيضاً من إيراداته من تلك العملة مما يعني أيضاً أن الأزمة من الناحية الاقتصادية قد أفادت الاقتصاد الصيني.

ولكل من روسيا وفرنسا مصالح اقتصادية من نوع آخر بعضها مباشر وبعضها غير مباشر، فالبلدان أكبر شريكين في قروض العراق ويهمهما قدرته على سدادها، وهما أكبر شريكين أيضاً في تجارة الأسلحة مع العراق وتمثل الأسلحة أهم بند في تجارة العراق غير الموثقة. ثم إن العراق يمثل مدخل النفوذ بالنسبة لهما إلى الشرق الأوسط المنطقة الهامة نفطياً وجغرافياً. لذلك هما يترددان في السماح باستخدام القوة ضد العراق قبل الترتيب المسبق للوضع في المستقبل لأن استخدام القوة قبل ذلك يعني تحول المنطقة نهائياً إلى النفوذ الأمريكي، ومع ذلك ولسلامة العراق والكويت والمنطقة العربية أرجو أن لا يراهن العراق على ذلك، لأن مصالحهما المتبادلة مع الولايات المتحدة أكبر وأكثر أهمية بمراحل من مصالحهما معه. وتبقى الصين أضعف حلقات الائتلاف العالمي لطبيعة اختلاف الأيدلوجية وطبيعة العلاقات السائدة، ولكن حتى الصين سوف ترجح حصيلة مصالحها مع الولايات المتحدة، أو هي قد لا توافق ولكن لا تعترض على خطواتها.

ومع ذلك لم تعن الورقة بنقاشها وتركتها للمختصين فيها وللتاريخ، وركزت الورقة على الأبعاد الاقتصادية للأزمة. وشمل التركيز شرحاً موجزاً للأرضية التي أنبتت مناخ الغزو وحددتها في ثلاث، الفهم والحساب الخاطئ لطبيعة التغيرات في العالم الجديد، والخطأ في حساب طبيعة التفاعلات داخل المجتمع الكويتي وعدم تقدير راسمي السياسة النفطية في الكويت لطبيعة الحكم المطلق والعنيف داخل العراق، والأزمة الاقتصادية الخانقة التي يعيشها الاقتصاد العراقي نتيجة حرب عبثية ومصروفات دعائية باذخة وسياسات اقتصادية غير رشيدة.

وتناولت الورقة ثقل البعد الاقتصادي في قرار الغزو وأعطته الثقل الأساسي، ثم ناقشت احتمالات حل المشكل الاقتصادي العراقي من خلال الغزو وخلصت إنه قد ترك خيارات القيادة بين الأسوأ وهو استمرار الحصار الاقتصادي في اقتصاد كان يصدر ٢.٧ مليون برميل نفط يومياً ويحصل على قروض ومساعدات ويعيش

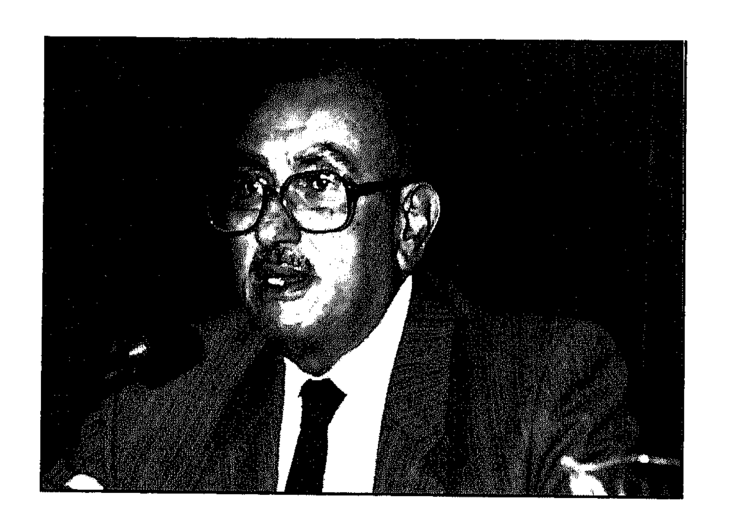
أزمة، وهو سيناريو الرحمة، وبين خيار الحرب العسكري والذي سيدمر كل شيء تقريباً في معركة غير متكافئة وفي بلد عجز عن تحقيق إنجاز خلال حرب ثماني سنوات مع بلد من دول العالم الثالث وشبه محاصر، وهو سيناريو الكارثة. أي بإيجاز إن أحسن الفرضيات سوف يعني أن الأوضاع الاقتصادية أسوأ بكثير منها قبل قرار الغزو، وقد يقتنع العراق بالانسحاب دون شروط تحت تلك الضغوط إذا ما حكم العقل والقلب فيما يمكن أن يحدث، ولكن حتى هذا المسار سوف لن يعود بالعراق إلى أوضاع ما قبل الأزمة سواء من جانب حجم المساعدات أو مستوى التعاون العالمي معه أو قدرته على الاقتراض أو حتى تحقيق أسعار عادلة للنفط، بل ستكون أسوأ أيضاً.

ثم ناقشنا توزيع أعباء الأزمة والتي سيتصدرها الكويت والعراق والدول المتحالفة مع العراق والدول الأكثر فقراً في العالم ثم الأقل، وستكون الدول المتقدمة الأقل تضرراً في المدى القصير والأكثر استفادة في المدى المتوسط والطويل اقتصادياً وسياسياً. أي أن الأزمة خلقت آلية تؤدي إلى توزيع عكسي للدخل إذ ستزداد معاناة الدول الأكثر تخلفاً في العالم وهي نتيجة معاكسة للشعار الذي تطرحه القيادة العراقية. وتذكر الأرقام أن صندوق التنمية الكويتي التزم بست أضعاف ما التزم به صندوق التنمية العراقي وسدد من التزامه ١٢ ضعفاً ما سدده صندوق التنمية العراقي. كما أن الشعار الذي رفعته القيادة العراقية بتبنيها لعقد التنمية العربي في مؤتمر عمان، قد عملت في حربها مع إيران على هدر كل مخصصاته المحتملة بالاقتراض دون فوائد وبدون نية للسداد لـ ٥٠ بليون دولار من دول الخليج لشراء الأسلحة والذخائر وذلك وغير المساعدات الأخرى، وذلك يساوي تماماً المبلغ المخصص نظرياً لعقد التنمية العربي. وبسبب الحرب العراقية الإيرانية، وبسبب رغبة العراق الاحتفاظ بأسعار نفط منخفضة للضغط على إيران، فقدت الأوبك عند اقراضها عام ١٩٨٦ حوالي ١١٥ بليون دولار لصالح ٧ دول

كبرى.

ويبدو أن احتمالات المواجهة العسكرية تتزايد، آثارها التدميرية على العراق والشعب العراقي تبدو الأكثر أهمية بعد أن دمر الجانب الأكبر من الكويت، وأملنا أن تعي القيادة العراقية وتقدر ان كل الأهداف حتى إن كانت حقيقية - وهي بالتأكيد غير ذلك - لا تستحق كل تلك التضحيات وذلك الدمار المادي والمعنوي. لقد انتحر مسئول ياباني لعلاقته غير المباشرة، بسقوط طائرة ومصرع أبرياء عليها، واستقالت السيدة تاتشر لمجرد تحسين فرص حزبها للفوز في انتخابات قادمة، ألا يستحق قدر هذه الأمة ومستقبلها إجراء مماثل للأخير؟ الا يحق لنا على الأقل أن نحلم بإمكانيته؟

فن ادارة الأزمات



أمين هويدي

القيت بتاريخ : ١٩٩١/١٢/١٥ م

سيرة ذاتية

الأستاذ أمين هويدي

- أحد الذين عملوا في المجالين الدبلوماسي والسياسي العربي أثناء حكم الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، وكان سفيراً لمصر في المغرب ثم في العراق ووزيراً للاعلام المصري في أواخر عام ١٩٦٦، ثم وزيراً للحربية عام ١٩٦٧، ثم شغل منصب وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء.

- له مساهمات فكرية كثيرة، كما وأنه مازال يكتب في جريدة «الأهالي» المصرية الناطقة باسم حزب التجمع القومي الديمقراطي في مصر.

- من مؤلفاته:

- صناعة الأسلحة في إسرائيل وتأثيرها على القرار السياسي.

- الصراع العربي الإسرائيلي بين الرادع النووي والرادع التقليدي.

- أحاديث في الاستراتيجية.

- الأمن العربي في مواجهة الأمن الإسرائيلي.

- أضواء على حرب ٦٧ وحرب الاستنزاف.

- كيسنجر وإدارة الصراع الدولي. إلى غيرها من المؤلفات الأخرى.

فن إدارة الأزمات

أمين هويدي

تمر بلادنا العربية هذه الأيام بأزمات عديدة من الوزن الثقيل، فهناك بعيداً في واشنطن تجمع رياح أزمة حقيقية في المباحثات الإسرائيلية ـ العربية والتي تجري تحت إشراف كل من واشنطن وموسكو. وفي منطقة القلب في البلاد العربية مازالت الأزمة موجودة عقب إيقاف اطلاق النيران بعد حرب الخليج في كل مكان من العراق هناك أزمة تهدد بتفكك الدولة نتيجة لتآكل السلطة المركزية ونتيجة للجماعات الدولية التي تتحرك في كل مكان لتدمير الترسانة التقليدية والنووية العراقية.

وفي المغرب العربي نجد أزمة الطائرة الأمريكية التي دمرت فوق لوكربي باسكتلندا منذ ثلاث سنوات والتي سحب ملفها من على الرف في وقت حرج لتأديب الرئيس الليبي، ولضرب مصانعه الكيماوية من جانب وللتغطية على تكاسل التحرك في حل قضية الصراع العربي الإسرائيلي من جانب آخر. وإذا اتجهنا بنظرنا إلى الجنوب لوجدنا أزمة جنوب السودان التي تهدد بانفصاله عن شماله.

أزمات تثقل كاهل المواطن العربي الذي كتب عليه أن يساق إليها دون أن يؤخذ رأيه، ودون أن يشارك في صنع القرار. وكأنه فرض علينا أن نخرج من أزمة لندخل في أزمة أخرى تهزنا هزًا وتبعدنا عن طريق الديمقراطية التي نتطلع إليها وعن دروب التنمية التي نتمناها ونسعى لتحقيقها.

وهناك قصة تحكى في «الفلكلور العربي» تتطابق مع ما يحدث الآن تماماً. إذ سيطر على عقل أحد حكامنا الأقدمين خاطر غريب تجري عليه مسابقة بين القادرين. فمن منهم من يقدر على جمع ثلاثمائة فأر في كيس من القماش . وأعلن

الحاكم العجيب عن المسابقة وتقدم الكثيرون ليحصلوا على المكافأة المعلن عنها ولكن فشل الجميع في جمع الفئران المطلوبة لأنها كانت تقضم كيس القماش لتحدث به ثقباً تهرب منه. وأخيراً تقدم رجل داهية من الملك ومعه كيس قماش به ثلاثمائة فأر بالتمام والكمال. وهنا سأله الحاكم وكيف نجحت في هذا يا رجل؟ فقال له الرجل الداهية: «يا مولاي كنت أستمر في هز الكيس دائماً حتى لا أسمح للفئران أن تفكر في طريقة للهرب» فعينه الحاكم في الحال رئيساً لوزرائه حتى يضمن شغل الفئران عن أن تجد لها طريقاً للهرب بهزها بصفة مستمرة...!

أمام تكاثر الأزمات في الوطن العربي اخترت عنوان المقال.

حدثت أزمة الصواريخ في كوبا بين القوتين العظميين والتي هددت بالمواجهة الحقيقية بينهما في أوائل الستينيات، إذ اكتشفت طائرات الاستطلاع الأمريكية التي خرجت من قواعدها في فلوريدا أوكاراً لصواريخ روسية فوق أرض كوبا بناء على معاهدة الصداقة بين هافانا وموسكو، وقامت الولايات المتحدة ولم تقعد، فقد أصبح الاتحاد السوفييتي موجوداً بقواته في «بطن» الولايات المتحدة وأصبحت القاعدة السوفييتية في مواجهة قاعدة «جوانتيامو» الأمريكية التي أخذتها عنوة على أرض كوبا. ودار حوار بين القوتين بتحرك القوات هنا وهناك انتهى بانسحاب القوات السوفييتية من أراضي كوبا دون تصادم مباشر كان يهدد باندلاع حرب نووية بين القوتين العظميين.

وقد قال روبرت مكنمارا وزير الدفاع الأمريكي وقتئذ «لقد انتهى عصر الاستراتيجية وبدأ عصر فن إدارة الأزمات». ويقصد بذلك أن عصر احتمال المواجهة المباشرة بين القوتين العظميين باستخدام القوات المسلحة في ظل الرعب النووي أو التدمير المتبادل قد انتهى، وبدأ عصر فن إدارة الأزمات عن طريق ما يسمى بالردع، وليس بالقتال. والردع هو فن استخدام وسائل القتال لمنع القتال،

أو فن تلافي الصدام المباشر باستخدام القوات المسلحة.

ولكن علينا أن نلاحظ أن حروباً كثيرة دارت منذ ذلك الوقت ولكنها حروب على المستوى الإقليمي وليس على المستوى العالمي بين القوتين العظميين. وقد اختلف الوضع حالياً في ظل النظام العالمي الجديد. ولتفسير ذلك ليس هناك أبلغ مما قاله ريتشارد نكسون في كتابه «عام ١٩٩٩» وهو يتحدث عن السلام «فالسلام الكامل بمعنى نهاية الخلافات والأزمات مجرد وهم لأننا نعيش في عصر السلام الواقع، بمعنى التعايش مع الأزمات والخلافات ومحاولة حلها باستخدام كل وسائل الصراع عدا القوات المسلحة.» يعني على العالم في ظل النظام العالمي الجديد أن يقبل تناقضاته ويحترمها ويتعايش معها.

وبات علينا أن نتعلم فن إدارة الأزمات على أسس يجب أن نعيها:

- ففن إدارة الأزمة لا يتم التعامل أبداً مع الأسود والأبيض ولكن مع اللون الرمادي الذي لا هو أسود ولا هو أبيض، فلا توجد وجهة نظر صحيحة تماماً أو خاطئة تماماً. يعني لابد أن نتعامل مع «البين بين».

- يجب على الأطراف ألا تتمسك بالحقوق الكاملة، ولكن عليها أن تسعى للحصول على الحقوق الناقصة. المطالبة بالأمن المطلق أو الكامل مستحيل، وعلى الأطراف أن تسعى لتحقيق الأمن المتبادل. لأن الأمن المطلق لطرف فيه تهديد لأمن الآخرين.

- التحرك عند إدارة الأزمة بإرادات ناقصة فإدارة الأزمة تتم بين إرادات تتحاشى التصادم. فإذا تمسك كل طرف بإرادته الكاملة تنتهي إدارة الأزمة إلى طريق مسدود. فعلى الأطراف التنازل عن جزء من إرادتهم لمصلحة تحقيق الاستقرار المنشود بالنسبة للجميع.

ـ لا يوجد عدو دائم ولا صديق دائم ولكن توجد مصلحة دائمة. فعدو اليوم قد يكون صديق الغد.

فالسياسة والحالة هذه نهر كبير تغذيه منابع كثيرة هي المصالح التي تحرك التيارات المتلاطمة والتي تعتبر بمثابة الصراعات يتخللها الدرامات الحلزونية التي هي بمثابة الأزمات التي تنشأ دائماً نتيجة للتصادم بين مصالح الدول، وعلى ذلك فمن يريد أن يسبح في نهر السياسة عليه أن يجسد مسار التيارات والتعامل مع الدوامات ومعرفة أسس ذلك وقوانيه.

ولكن ماهي الأزمة؟ (Crisis)

أصلها اليوناني يعني نقطة التحول أو النقطة التي يصدر عندها القرار، فيمكن أن تطلق الأزمة على حالة مريض تحولت حالته بحيث تقتضي قراراً جديداً أو أزمة بين الزوج وزوجته، أو بين صاحب العمل وعماله، أو بين الأحزاب الحكومية، أو في العلاقات الدولية.

ومن أحسن التعاريف العلمية للأزمة هو تعريف كورال بل Coral Bell في كتابها دراسة في إدارة الدبلوماسية A Study in Diplomatic Management إذ عرفتها بأنها «ارتفاع الصراعات إلى مستوى يهدد بتغيير طبيعة العلاقات بين الدول» وعرفها ألستر بوخان Alester Buchar بأنها «تحد مرتب ورد فعل مرتب من نوع يأمل فيه كل طرف تحويل مجرى الأحداث لمصلحته.» وعرفها أوران يونـــــج Oran Young بأنها «حوادث سريعة تؤدي إلى زيادة عدم استقرار النظام العالمي أو الإقليمي إلى درجة أعلى من الدرجة العادية، ويزيد فيها الميل إلى العنف وربما يحمل القتال.»

والغرض من إدارة الأزمات Grises Management مفاداة الصدام

المباشر، أي استخدام القوات المسلحة، فإذا تطورت إدارة الأزمة إلى قتال بين أطرافها تعتبر الإدارة فاشلة، وقوانين إدارة الأزمة غير قوانين القتال، فالحسابات في الأولى تجري بطريقة مختلفة تمام الاختلاف عنها في الثانية.

والوسيلة الوحيدة لإدارة الأزمة هي الردع Deterrence وقد سبق أن عرفناه وله قاعدة يجب أن نضعها في الاعتبار.

توفر وسائل الردع أي القوة في حالة الثبات + تبليغ ذلك إلى الطرف الآخر + تصديق الطرف الآخر للرسائل المرسلة = الردع.

وإذا فشل الردع يبدأ القتال.

ولعلنا نلاحظ أن العراق لم يفهم أصول إدارة الأزمة، فقد تبلغ له مراراً وعن طريق مختلف الوسائل نوايا الطرف الآخر، ولكن ومع علمه أن وسائل الردع متوفرة خاصة بعد إتمام عملية درع الصحراء أي عملية الحشد تمهيداً لعملية عاصفة الصحراء إلا أنه لم يصدق ذلك، وظل في تجاهله حتى أفاق على الضربة الأولى، ولكنه ظل على كبريائه الغاشم حتى دمر العراق بعد أن دمر الكويت، وهذا مثل فاضح لجهل أحد أصحاب القرار بأصول فن الردع، فالسياسة أصعب كثيراً من معالجتها بواسطة من يجهل أسسها أو لا يعرف قوانينها، لأن القوة وهي في الحالة الثابتة: Static لها تأثيرها وحيثياتها تحاشياً لانطلاقها من المخازن لتصبح في حالة انتشار لا يوقفها عند حدها إلا قوة أكبر تمهيداً لتراجعها من حيث أتت.

ولكن على أصحاب القرار وهم يجرون حساباتهم عند إدارة الأزمة ألا يتجاوزوا النقطة التي يمكن أن يتحمل فيها الطرف الآخر الهزيمة التي لا تضعه في مأزق يدينه دفعاً إلى القتال أو الصدام المباشر.

وقد يلجأ مدير الأزمة ـ وهو صاحب القرار ـ إلى التهديد باستخدام القوة ضد الطرف الآخر، وعليه في هذه الحالة أن يعلن عن قوته الحقيقية، وليس بالجعجعة الكلامية، وأن يكون لديه سبب وجيه لهذا التهديد، وأن تكون أغراضه عادلة، وأن هناك نسبة كبيرة في النجاح أي الوصول إلى حالة سلم أفضل مع تجنب ضرب غير المتقاتلين.

وأهم عامل عند التهديد باستخدام القوة أي الردع هو العزيمة التي لا تعرف التردد عند استخدام الرادع المتاح والعزيمة والقدرة على امتصاص الضربة الأولى والاستعداد للضربة الثانية، فإسرائيل دائما ما توجه الضربة الأولى وتمنع العرب من توجيه الضربة الثانية وحين توجه لها الضربة الأولى تكون قادرة على امتصاصها وتوجيه الضربة الثانية كما حدث في حربي ١٩٦٧، ١٩٧٣. ففي الحرب الأولى وجهت الضربة الأولى بطريقة كاسحة لا تعرف التردد بحيث منعتنا من توجيه الضربة الثانية وفي الحرب الثانية وجهنا لها الضربة الأولى ولكن بعزيمة متراخية مكنتها من إمتصاصها وتوجيه الضربة الثانية بنجاح.

وقد حدثت اختلافات كبيرة في إدارة الأزمات الآن عنها في الماضي القريب، فقد كانت الدول الإقليمية قادرة على إثارة أي أزمة بل البدء بالقتال في المكان الذي تريده، والوقت الذي تختاره، وبالطريقة التي ترغب فيها، ولكن بعد الطلقة الأولى تصبح عاجزة عن إيقاف القتال في المكان الذي تريده والوقت الذي تختاره وبالطريقة التي ترغب فيها، لأن القوتين العظميين وقتئذ كانتا قادرتين على منح أو منع السلاح الذي يطيل من مدة القتال وبذلك أصبح «تدخل» القوتين في الأزمات الإقليمية «تورطا» بمعنى الكلمة والفرق بين التدخل والتورط هو أن الأول يتم بناء على خطة مسبقة تتحكم في الأحداث، أما الثاني أي التورط فيتم بناء على خطة سريعة تمليها الأحداث، وبذلك فالتدخل هو الفعل والتورط هو رد الفعل.

أما الآن وفي ظل النظام العالمي الجديد الذي أصبحت الولايات المتحدة في ظله هي الدولة الوحيدة العظمى والتي يمكنها التحكم في المنظمات الدولية فإن «الشرعية الدولية» قللت من حرية الدول الإقليمية في بدء الأزمات خوفاً من استخدام قوى الشرعية الدولية كما حدث ضد العراق والشرعية الدولية شرعية إنتقائية Selective تستخدم العصا أحياناً كما يحدث لنا الآن في ليبيا، وتستخدم الجزرة أحياناً كما يحدث دائماً مع إسرائل، وعلى الدول الإقليمية وهي تدير أزماتها أن تحسب حساب «الشرعية الدولية» واتجاهاتها المحتملة.

كانت هناك قوانين من تلك التي يتفق عليها دون اتفاق فعلي عند تورط إحدى القوتين العظميين في التدخل بالقوات المسلحة إذا تطورت الأزمة الإقليمية إلى حرب تهدد مصالحها، وهنا كان يصبح لدينا دولة «متدخلة» ودولة «متفرجة» ولكن كانت الدولة «المتفرجة» تتجنب التدخل تجنباً للصدام المباشر بل وتحترم تدخل القوة العظمى الأخرى، ولكنها تبدأ في زيادة توريطها سياسياً في المحافل الدولية، وبتأليب الرأي العام عن طريق الدعاية، وبإمداد الدولة الإقليمية الحليفة بالسلاح كما حدث عند التدخل السوفييتي في أفغانستان، ولكن تغير هذا بصفة كاملة فالقوتان الآن تتعاملان مع الأزمات الإقليمية في تناغم كامل ويشتركان سوياً في إدارة الأزمة حتى مع التفوق الملموس للولايات المتحدة بحيث يبدو الاتحاد السوفييتي إلى جوارها كتابع أكثر منه شريك كما حدث في تدخل الولايات المتحدة ضد العراق، مع تأييد الاتحاد السوفييتي لهذا التدخل، وإن فضل عدم إقحام نفسه في القتال رغم دعوة الولايات المتحدة له لإرسال قواته وهذا يخالف تماماً رفض الولايات المتحدة أن يشارك الإتحاد السوفييتي عندما هدد بإرسال قواته إلى منطقة القناة في حرب ١٩٧٣ بعد ثغرة الديفزوار بل هددت الولايات المتحدة بمنع القوات السوفييتية بالقوة إلى الحد الذي رفعت فيه درجة استعداد القوات النووية. وهذا الخلاف أيضاً يجب وضعه موضع اعتبار عند إدارة الأزمة.

وكما نرى فإن فن إدارة الأزمة يهدف إلى ملافاة المواجهة المباشرة باستخدام القوات المسلحة، ولكن في الوقت نفسه يعتمد على حالة توازن القوى بين الأطراف المختلفة، وقد أصبح ذلك مرتبطاً تماماً بالمحاولات الحالية للسيطرة على نقل السلاح والاتفاقيات التي تجري الآن بين الدولة المصدرة للسلاح بحيث تبنى التوازنات حسب مصالحها الكونية.

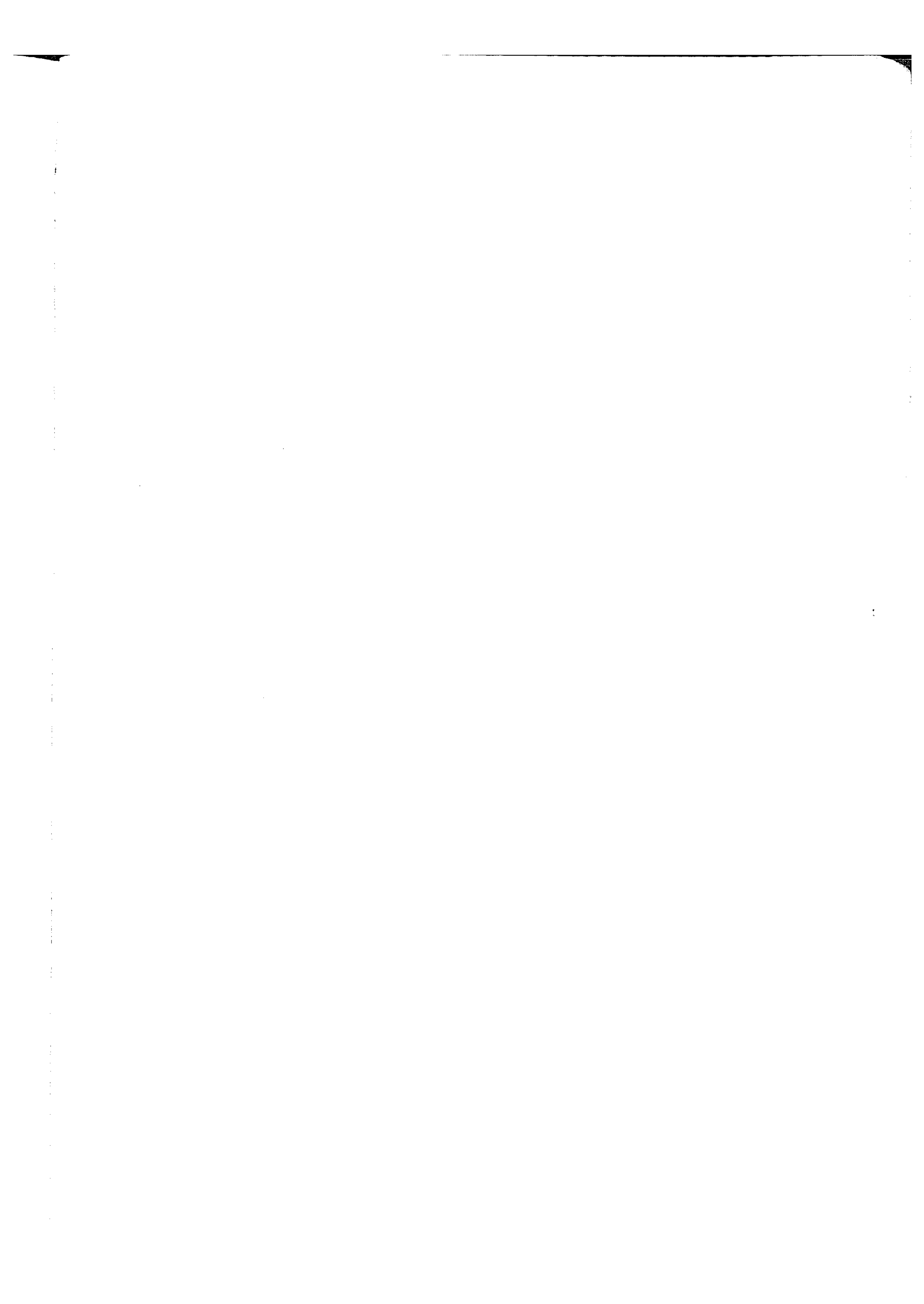
وفن إدارة الأزمات في النظام العالمي الجديد يسبق الاستراتيجي وعلى معاهدنا السياسية المتخصصة ومعاهدنا العسكرية التعمق في دراسة هذا الفن حتى يمكننا أن نتحاور مع العالم باللغة التي يتحدث بها، ولا نظل خارج الملعب نتكلم بلغة مختلفة بحيث لا نفهم ولا يفهموننا.

نحو مفهوم جديد
لمراجعة التراث



وليد المدفعي

القيت بتاريخ : ١٠/١١/١٩٩٠ م



سيرة ذاتية

الأستاذ وليد مدفعي

- كاتب ومؤلف قصصي ومسرحي، حاز على إجازة في الكيمياء والصيدلة، من الجامعة السورية عام ١٩٥٤م.
- أديب، ومحاضر، شارك في العديد من المهام الثقافية وساهم في تأسيس بعض المنتديات الفكرية والثقافية العربية.
- عضو بارز في اتحاد الكتاب العرب، وأمين سر جمعية المسرح بسوريا.
- عضو في مؤتمر المسرح الآسيوي الأفريقي. نشط في مختلف مجالات الأدب، والمسرح، والقصة.
- أغنى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات الزاهرة منها على سبيل المثال لا الحصر:-

في المسرح: مسرحية نداء اليوم

مسرحية دماء لم تجف

مسرحية البيت الصاخب، التي حظيت بجائزة وزارة الثقافة السورية

مسرحية، «وبعدين»، نالت جائزة المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية في سوريا.

وتصدى للعمل الروائي، بروايته المشهورة:

«مذكرات منحوس أفندي»، و«غرباء في الوطن».

- أما في مجال القصة القصيرة، فكتب

الجندي، وغيرها من المنشور في بعض الصحف والمجلات العربية.

نحو مفهوم جديد لمراجعة التراث

الأستاذ وليد مدفعي

مقدمة

عبر المؤرخ آرنولد توينبي في نظرية التحدي والرد عن شوق الأمم إلى العودة إلى تراثها لرد الأخطار التي تتهددها.

وإن قيمة أي تراث هي في أن يكون فاعلاً في نفوس الذين يعيشون في الحاضر أو سيعيشون في المستقبل وذلك من أجل عدم انقطاع وجود أمتهم بفقدها هويتها ومن أجل الارتقاء بحضارتها.

وإذا ما استثنينا القرآن الكريم لكونه كتاباً منزلاً فله قيمة سرمدية. فإن قيمة التراثِ نفسَها متغيرةٌ. لأنها تكسب وجودها في نهاية المطاف من منظور الحركة الثقافية المعاصرة - حتى الكتابات الدينية التي تناولت القرآن تخضع كلها للتقييم لأنها اجتهادات حصلت في لحظة زمنية ماضية وخضعت للحكم الذاتي من خلال الثقافة السائدة آنذاك كوجود الأرض محمولة على قرني ثور أو غير ذلك، والعبرة هي أن كل إنسان ينظر إلى التراث من موقعه، ولا خير في تراث غير مصحح أو مهمل أو مُنَكَّر.

إن أي قاموس يتصدر المكتبة جزءٌ من تراثنا سنعود إليه عند الضرورة وستكتسب الأجيال معرفتها منه. ولنأخذ الآن قاموس المنجد في اللغة والإعلام ونفتح على لفظة الكنعانيين ونقرأ:

الكنعانيون شعب سامي استوطن في الألف الثالث ق. م. القسم الغربي من فلسطين وفينيقية وسورية.

نفتح الآن على لفظة الفينيقيين ونقرأ: شعب سامي استوطن لبنان القرن ٢٨ ق.م. وامتزج بشعوب ما قبل التاريخ.. انتشروا على الساحل المتوسطيّ بين أوغاريت (رأس شمرا) وجبل الكرمل وأنشأوا مدناً دولاً أهمها جُبيل وصور وصيدا وبيروت وأرواد. ارتبطوا بعلاقات وثيقة مع الفراعنة منذ الألف الثالث ق. م. تمكنوا بفضل سيادة صور من مد نفوذهم التجاري حتى حماه ودمشق واسسوا على شواطئ المتوسط المصارف والمتاجر والمستعمرات وبلغوا اسبانيا بحثاً عن الفضة والقصدير. شيدوا مراكز هامة على الشاطئ الآخر أهمها قرطاجة وسبراطة وحضرموت وفي أوربة مالطة وقادش ومالطة.

ازدهرت صناعتهم المحلية كالصوف المصبوغ بالأرجوان والفخار وأدوات الزينة والتبرج. اكتشفوا الأبجدية في (أوغاريت) وطوروها في جبيل.

أكتفي بهذا القدر الذي أوردته ومايزال في القاموس كلام عن ثوراتهم وتماثيلهم وأبنيتهم وعبادتهم لبعل وعشتار. وأعود إلى مناقشة للنصين أورد القاموس عشر كلمات عن الشعب الكنعاني حتى يجير كل ما هو كنعاني إلى الفينيقيين ومع ذلك حصل تناقض الكتاب في الكلمات القليلة.

الشعب الكنعاني شعب سامي والشعب الفينيقي شعب سامي. ويقطن الشعب الكنعاني باعترافه القسم الغربي من فلسطين وفينيقيا وسوريا أي فينيقيا؟ هل هي غير لبنان في عرفه. وقطن الشعب الفينيقي لبنان وفي التفاصيل وصل إلى جبل الكرمل وإلى اللاذقية (رأس شمرا) أي قطن فلسطين ولبنان وسورية في ذات الوقت في القرن الثالث ق. م. فكيف يقطن شعبان أرضاً واحدة في زمن واحد ويرحلان ويؤسسان قرطاجة وغيرها ويتكلمان اللغة الكنعانية ويكتبان بالأبجدية المخترعة في أوغاريت ولا يكونان شعباً واحداً.

أشار عدد كبير من المؤرخين إلى أن اسم الفينيقيين هو الاسم الروماني الذي

أطلق على الكنعانيين لحمل سفنهم الصوف المصبوغ بالأرجوان الذي يسمى بالرومانية - فينيئوس ولكن طبعة المنجد الثلاثين عام ١٩٨٨ في بيروت لا تريد أن تصحح شيئاً.

وإن عدداً كبيراً من السائرين في ركب التضليل الصهيوني لا يريدون أن يتحدثوا عن وجود الكنعانيين الحضاري العظيم وإلا سقطت بنوءة التوراة بمعاقبة الكنعانيين وسقطت معها خرافة الشعب المختار والوعد الإلهي بإعطائهم أرض كنعان من النيل إلى الفرات فأمجاد كنعان تسخف اللعنة التي لعن بها. من أجل تراث مصحح ومعرف. كتبت محاضرتي.

نحو مفهوم جديد لمراجعة التراث

إن أول ما يتبادر إلى أذهانكم هو أن يكون المقصود من كلمة التراث تراثنا - أنتم كمستمعين وأنا كمتحدث - وطالما أن حديث الأمسية باللغة العربية فهو التراث العربي تحديداً - أعربي وأعجمي -.

وكلنا لو حاولنا بكل جهد صادق وبكل نية صافية أن نحدد التراث العربي هل كنا نصل إلى حل مرض ومتفق عليه من الأغلبية في هذه القاعة وحدها. فكيف إذن بعد خروجنا إلى أقرب شارع؟ وماذا نفعل بخلافنا بعد انطلاقنا إلى عواصم مجاورة وكيف سنتفق حين سنرحل من الخليج حيث نحن الآن إلى المحيط.

تدركون أيها الأعزاء.. ماذا فعل التاريخ المديد بنا؟ بل ماذا فعلته أمجادنا بنا؟ إن القضية صعبة لا ريب في صعوبتها. فنحن قد نتفق على جزئيات بعينها بأنها من التراث العربي ولكنا سنختلف حول أفكار تتعلق بمصيرنا.

وضعتكم الآن في الحرج الذي يفرض نفسه على كل مفكر وداعية رفض الأوضاع الزرية في محيط نشأته ورام نصراً بإيجاد تيار فكري يسري في عقول

الشعوب المجزأة من حوله ويصبح قاعدة صلبة لوحدة إرادتها. وذلك من خلال العودة لمراجعة التراث.

إن حديث العودة لمراجعة التراث صرخةُ استغاثة وطلب نجدة هو حكم بالتقصير على السنوات التي مضت وهو إدانة لما هو قائم وخوف مما سيؤول إليه الحال. إنه قلق شديد وخوف عارم على المستقبل الذي إذا قصرنا نحن في المشاركة بصنعه لابنائنا صنعه الآخرون لهم حسب مصالحهم.

ما أكثر الأصوات التي دعت لمراجعة التراث منذ مطلع هذا القرن؟ ومازلنا نسمعها تدعو وتؤلف لجاناً من أجل إعادة كتابة التاريخ وتفسير التراث. ولو لم يقم اقتناع بهذا الحال الفكري وبضرورة القيام به لما وجدنا أذناً صاغية لكل حوار تناول الموضوع. ولقد أقره المفكرون على اختلاف مذاهبهم وآرائهم، حتى الذين يقرأون النصوص السلفية كقراءة الأدعية في احتفالات الدفن بلغتنا موافقتهم.

حصل إجماع على إعادة النظر ومراجعة التراث من أجل مفهوم جديد يلم شملنا المتشتت، ولكنا على وشك أن نتم قرناً دون الوصول إلى أقل قدر ممكن من الاتفاق.. بل صرنا في العقود الأخيرة غرباء في أوطاننا.

لسنا كلنا - شيخ جامعنا وقسيس كنيستنا وحبر كنيسنا وشاعرنا ومفكرنا ومؤرخنا - أعراض مرض الشيفرونانيا - مرض الأزدواجية يتفشى في مجتمعاتنا وبقي كل منا متمرساً خلف أفكاره كأنها أسوار الحصون والقلاع القديمة حتى صارت الازدواجية من عيوب مثقفينا من عاهاتنا، من المنظور العادي اليومي ولم نعد نجد مواطناً يقاضي قادته على مرض الازدواجية، بين المعتقد والسلوك اليومي بين الموقف الجريء الذي يطورنا نحو الحضارة والموقف الواضح الأكثر جرأة من أجل المحافظة على المكتسب الذي يضمن مصلحة بين الجهاد من أجل الحقيقة وبين السعي لجمع الأتباع.. مع كل إجماعنا على البحث عن تيار موحد، ضاعت الجهود

بسبب انقسامات سلفية تعود إلى الوف السنين فكيف نجد الآن مفهوماً جديداً يوحد مواقفنا من كوارثنا المخيفة. ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق وأن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد.

لقد حصلت اجتهادات منذ مطلع القرن من أجل وضع الحلول لشعوبنا الممزقة المستعمرة وظهرت توجهات ضل بعضها الطريق وضلل أجيالاً وأضاع علينا حقباً زمنية ولكن الحال بقيت في عهد النضال من أجل الاستقلال أرحم بنا من عهد الاستقلال الذي تلاه. لاننا كنا نجد في عهد الاحتلال أكثر من فكرة توحدنا من المحيط إلى الخليج، أقلّها طردُ المستعمر، مع ما يحمله النضال من حماسة للنصر وتجسيد لأفكار تراثية هي من خصائص النفس العربية.. كالموت قعصاً والإيمان بالخلود مع العظماء في جنات النعيم الذي قرأناه في ملحمة قلقابشي على لسان انكيدو ثم تابعناه في سيرة المسيح وهو يبشر بهدم الهيكل الجسدي لبلوغ ملكوت الله، وتوج القرآن الكريم الفكرة بقوله، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. وهو ما نلمسه الآن واضحاً في نفسية أبطال الانتفاضة في فلسطين.

لست الآن في صدد تعداد خصائص النفس العربية التي وحدت في مرات كثيرة مواقفنا من الكون وأعطت تفاسير متعددة لوجودنا على الكرة الأرضية فنحن سابقون في هذا المضمار، ولست في صدد متابعة الأفكار التي ضللت الأجيال في التاكيد على ضرورة التخلي عن شخصيتنا واستعارة شخصية غربية وبأسرع ما نستطيع فأنتم أعلم مني بأسماء الكتب التي ناقشت تلك المواقف وأسماء الذين طرحوها قبل منتصف هذا القرن وأسماء الذين تصدوا لهم ونقضوا أقوالهم وإنما ما زلت أؤكد على أن عهود الاستقلال طرحت من الأفكار الغريبة عن تراثنا ما زاد في تجزئتنا وانقسامنا حتى طال الانقسام الشخصي ذاته فلم يعد قادراً على توحيد نفسه بين الصباح والمساء ولم يعد قادراً على التعبير عن موضوعين في لحظة

واحدة بمنطق واحد وكانت من نتيجة ذلك أن أجيالنا ناضلت وكان الحق بيناً والباطل بيناً واستطاعت أن تحلم وأن تحقق حلماً شخصياً على الأقل، بينما أجيال الشباب من عهد الاستقلال لم تعد تتلمس طريقها بين الحق والباطل والأدهى من ذلك لم يعد لها حق في أن تحلم بمسكن أو بعمل شريف أو بممارسة عمل مشرف - سيأتي يوم على أمتي يكون القابض فيها على دينه كالقابض على الجمر - وما قلته الآن ينطبق على كل البلاد العربية ولا أجد حاجة إلى بيان التفاوت في انطباقه بين قطر وآخر.

من بين الاجتهادات التي جاد بها علينا جزء من العالم لمراجعة التراث، وقراءته بمفهوم جديد، النظرية الديالكتيكية المادية والمادية التاريخية، وقد تسربت إلى وطننا العربي محمولة في عقل أرمني وصل إلى لبنان واستطاع أن يجمع عدداً من الأقليات وقد أشرت إلى البداية إشارة عابرة، ولا أريد طبعاً أن أستعرض تاريخ نشوء الماركسية في الوطن العربي وتطورها فكل ما يتعلق بهذه المواضيع موجودة في الكتب التي دعت إليها أو نقضتها، ولكني أعطيتها حيزاً في هذه المحاضرة لانها شغلت حيزاً في الوطن العربي، واحتلت مواقع في مكتبته وهو ما يدفعني إلى السؤال هل كل ما كتب في اللغة العربية هو من التراث العربي وما لم يكتب في اللغة العربية تراث أجنبي.

لن أجيب عن هذا السؤال الآن، كما لم أجب بعد عن السؤال الأول الذي افتتحت به محاضرتي.. بل سأمضي في الكشف عن الواقع العربي والتيارات الثقافية التي أثرت في مجموعات كبيرة من أجياله محددة لهم طرقهم في الحياة.. ألا وهي الثقافة القومية التي أوجدت بدورها شروخاً بين المثقفين بها وبالتالي أوجدت شروخاً لا في بنية المجتمع الواحد بل وصل الأمر حداً من السوء تجاوز المجتمع إلى الأسرة الواحدة فدب الخلاف بين الأب وابنه وبين الأخ الأكبر والأصغر حتى علا صوت الأمهات يستنكر حالة الأخوة المتردية ويحاول التوفيق بين النقيضين في

البيت الواحد وقد سبق لمجتمعنا أن عاش مثل هذا الخلاف الجذري في مطلع الدعوة الإسلامية ولكن سرعان ما انتصر التيار الإسلامي على نقائضه لأنه لم يكن غريب الوجه واليد واللسان على المجتمع العربي، ولا على المجتمع الإنساني الذي جاوره واتصل به فقد كان في التيار الثقافي الإسلامي نكهةُ التراث وأصولهُ من حيث أنه مصدق لما كان بين أيديهم بينما فشلت الثقافة القومية في مد تيارها حتى في المجتمع الواحد وذلك لعدم احتوائها على مفهوم موحد ومقبول لدى مراجعة التراث. بل اختلفت في قراءته وفي الحكم عليه.

اتفقت الثقافة القومية على أمر واحد هو استقلال الشخصية الوطنية عن مواطني أمم أخرى واتفقت على أن يكون لنا رأي في مجمل فلسفات العالم. وان نكون أصحاب قرار، إن لم يكن في القضايا العالمية - فعلى أقل تقدير في القضايا التي تخصنا مباشرة ولا سيما في القضايا التي سنورثها أبناءنا ونرسم معالم مستقبلهم.

لم أحدد في عباراتي حتى الآن هوية الثقافة القومية ولذا استعملت عبارة استقلال الشخصية الوطنية عن مواطني أمم أخرى. لأن الثقافة القومية التي قامت كرد فعل على ظهور جمعية الاتحاد والترقي في مطلع هذا القرن وعلى سياسة تتريك شعب مسلم. انقسمت إلى تيارات ثقافية قومية إقليمية يضيق أفق بعضها على بلد واحد وشعب واحد ويتسع أفق بعضها إلى عدة بلدان وشعوب ويشمل بعضها جزئي القارتين الإفريقية والآسيوية. فاختلفت في تعيين الهوية القومية وأفرزت أحزاباً متقاتلة على الساحة، تنظر بعين الشك إلى مضامين بعضها بعضاً وقد ساهمت كلها بأقساط متفاوتة في تشويه الصورة النهائية للمجتمعات وجزأتها بدلاً من أن توجد التيار الفكري الموحد.

لم أستعرض موقع الحزب الشيوعي، ولن استعرض موقع الأحزاب العقائدية

القومية، ولكن عبارة السادات ما تزال ترن في أذني عندما تساءل، هل تخضع مصر لقرار الأكثرية العربية أو لا تكون عربية وقد صفق لهذا القول مصفقون واستنكره مستنكرون.

أوردت عبارة السادات لأبين كم هو غياب القرار الثقافي الفكري المطابق للقيم ولضمير التراث مشتتٌ في الأزمات الكبيرة وبلاءً فوق ما نحن عليه من بلاء وابتلاء، ولأبين أن الثقافة القومية عجزت عن فرض تيار ثقافي ملزم وموحد وبالتالي فإن أي قرار هو اجتهاد شخصي لم يولد نتيجة مقدمة منطقية. وذلك لأن كل تيار قومي راجع التراث قدم لنا مفهوماً يؤكد فرضيته..

وما أدراك ما فرضيته؟

لفرضيته أصولها لدى المنظرين الأجانب فلا يستطيع واحد منهم أن يحدثك عن صحة نظريته دون الاستعانة بأسماء أجنبية، ولما كانت الأسماء الأجنبية على خلاف فيما بينها فقد انتقل الخلاف إلى التيار الثقافي القومي ونسي المختلفون في بلدنا على النظريات الأجنبية اتفاقَهم على استقلال الشخصية الوطنية عن مواطني أمم أخرى.

وزاد في الطين بلة، يوم انقسمت الأحزاب القومية على نفسها في البحث عن مضمون للنضال، فمنهم من حافظ على تراثه وقيم ذلك التراث فاتهم بالرجعية حتى بعدما سقط شهيداً كالدكتور عبدالرحمن الشهبندر ومنهم من حاول التوفيق بين قيم قديمة وتطلعات نحو مظاهر مدنية عصرية ليست حضارية فازدوج وصار يخاطبنا بمختلف اللهجات فيما عدا اللهجة التي نفهمها، وقد هاجم هؤلاء شعرنا التراثي بضراوة الذئب الجائع وجعلوه وقفاً على الناقة والجمل والحصان ولم يخجلوا من وصف المتنبي بالمتكسب وانه لم يصنع التاريخ متناسين قصائدهم في من لا يستحقها.

وتجرأ فريق منهم على جعل الاشتراكية مضموناً للوحدة مع العلم أنه لا يوجد تعريف محدد للاشتراكية على مستوى العالم وهذا القول معروف للقاصي والداني فتعددت الاشتراكية بتعدد أحزابهم وتعدد تياراتهم الثقافية وضاعوا وضعنا، وتمزقت الثقافة وانحسرت المعرفة ولم يتفقوا حتى الآن، أين موضع الاشتراكية من الوحدة وأيهما أهم وأحق بالنضال؟ هل ستحقق الوحدة بعد قيامها مضمونها الاشتراكي أم أن الاشتراكية هي الطريق القصير إلى الوحدة.

ومن العجيب أن يخطئ معظمهم في ترجمة لفظة الاشتراكية عن اللغات التي أتقنها معظمهم إلى اللغة التي سعوا إلى توحيد أوطانها، فلم تترجم بالاجتماعية وهي الترجمة الصحيحة لمدلولها في كل اللغات (سوسياليزم) بل ترجمت بالاشتراكية فقطع بينها وبين ولادتها في اللغات الأجنبية وبينها وبين لغتنا الأم. ولو أعيدت كلمة الاشتراكية من اللغة العربية إلى أي لغة أجنبية على لسان مترجم غير ملم بأنباء الأحزاب والصحافة، لترجم الكلمة بلفظة مختلفة غير الكلمة التي يعرفها الأجانب.

لم يبحث التيار الثقافي القومي في مدلول الكلمات التي لزمته لشرح أفكاره بل أخذها من النظريات التي قرأها كلفظة شعب وأمة والشعور القومي ووحدة الأرض الجغرافية والوطن ولم يدرس التراث ليعرف هل قام مثل هذا المدلول في الفكر السابق، وهل توجد قابلية لدى المواطنين لتقبل المعنى الجديد من خلال القراءة الجديدة أو أننا سنقع في خلط بين اللفظ والمدلول، وقد وقعت في أيدينا بيانات خلطت مراراً بين الألفاظ ومدلولها في النظرية.

ثم زاد في الطنبور نغماً ولادة التيار الثقافي القومي الماركسي، الذي يتحدث عن وحدة عربية ماركسية ويبشر بانتصار الإنسان العربي الماركسي الذي أنكر الدين وأنكر القيم وخاصة الفقه والفضيلة واعتبر هذه الأفكار وسائل يتسلط بها الإقطاع

ورأس المال على العامل والفلاح ويتسلط بهاالرجل على المرأة لمنعها من التحرر.

وأوضح مثال على الازدواجية بين المعتقد والسلوك، هو ما شاهدته مراراً عند معارفي من الماركسيين، من الإصرار على أولادهم بالمواظبة على الصلاة وتساهلهم إزاء تعلق أبنائهم بالتربية الدينية. وكان جوابهم على سؤالي المستفسر، لم تتساهلون مع أبنائكم وقد تحملنا من مواقفكم الأمرين، كان جوابهم إنها الطريقة الوحيدة للتربية الاخلاقية في مطلع حياة الأولاد.

أعود الآن إلى عنوان المحاضرة نحو مفهوم جديد لمراجعة التراث حتى لا أضل عن السبيل في مراجعة التراث. وأعتقد أنني رتبت في هذه المقدمة بعض الأفكار التي تمدنا بمنطق صحيح نجاوب به عن السؤال هل كل ما كتب تأليفاً وليس ترجمة في اللغة العربية هو من التراث العربي وما لم يكتب في اللغة العربية هو تراث أجنبي.

صار الجواب سهلاً طالماً أن الماركسي من بلدي أكثر انسجاماً مع الماركسي الآخر من جميع بقاع الأرض، من انسجامه مع العربي وخاصة العربي المسلم. ولا أدري إذا كان أحد بينكم قادراً على تصور إنسان عربي ماركسي أو وحدة عربية ماركسية. أنا شخصياً غير قادر على مثل هذا التصور لانه يعادل تصور ماء يابس.

إن من خصائص النفس العربية الإيمان بالخالق ومن خصائص المادية التاريخية، أن الفكرة حركة المادة في الدماغ ولا يوجد لقاء مع أي تراث عربي.. حتى بعدما وصفت الدراسات العليا في جامعة موسكو القرآن بانه كتاب جيد وفيه مبادئ جيدة من أجل تحرير الإنسان والشعوب المضطهدة.

إذن.. نسطيع ان نسقط كتباً كتبت بالعربية من التراث ونضيف كتباً كتبت بغير

العربية إلى التراث. وهذا ما يوصلني إلى السؤال الهام عند مراجعة التراث.

ماذا نفعل بكتب سبقت ظهور اللغة العربية، أو سبقت على الأقل الكتابة باللغة العربية، وأسست لخصائص النفس العربية ولكنها مكتوبة بواحدة من اللغات السامية كالإنجيل الذي نزل على عيسى باللغة الآرامية والتوراة التي كتبت باللغة الكنعانية وكتب ايبلا في تل مردوخ في سورية المتعددة اللغات والتي عثر في مكتبتها على قاموس يترجم من لغة إلى أخرى وماذا نفعل بكتب أوغاريت حيث كشف هناك عن أول أبجدية لغوية في العالم كله وتبين أنها أبجدية كنعانية، وماذا نفعل بأساطير ملوك شومر أو شمر وأكاد وآشور وفيها ملاحم شعرية رائعة، هي أصل الملاحم اليونانية، وفيها صحف نوح تروي قصة الطوفان وقصة خلق العالم والبشر وقد كشفت هذه الكتب تزوير الأحبار للتوراة بالخلاف الذي قام بين نصوصها ونصوص التوراة.

أيها السادة.. بالحب الكبير الذي أحمله للغتي العربية وفنون إعجازها في التعبير عن أدق الأمور وهو موضوع يطول شرحه ويحتاج إلى محاضرات أخرى وبإيماني العميق بالله عز وجل لا أجد ما يمنع من مراجعة تراثنا الكامل من شومر إلى هذا العصر ولا أجد غضاضة في البحث عن أصول لغتنا في اللغات السامية الأخرى.

وأقول لكم بكل صدق وإخلاص كنت أتمنى لو أنني ما زلت شاباً حتى أكرس وقتي لتعلم تلك اللغات حتى أفك ألغاز أسماء مدننا وقرانا بل وأسماء دول عربية وأجنبية.

وإنني في هذا السياق أرجو من جميع الحكومات العربية وغير العربية ألا تبدل اسم مكان أو موضع على الخارطة لأن تبديله سيغير من فهم موقعه في التاريخ وسيطمس معالمه الأثرية. وأرجو من الحكومات القادرة أن تنشئ فرعاً في الجامعة لتعليم اللغات السامية ابتداء من الشومرية وحتى الكنعانية والفرعونية.

وهنا أقف لاغمز من قناة التيارات الثقافية القومية الإقليمية التي وجدت وقتاً تضيعه في التناحر ووجدت مالاً تصرفه على السلاح ولم تفكر بإنشاء غرف لتعليم اللغات السامية أو البحث عن المكتشفات الأثرية بل تركت قراءة نصوصنا للمستشرقين الذين نشكر جهود بعضهم من الذين نذروا أنفسهم لهذا العمل الشاق في البراري والقفار وألوم بعضهم وأعتب عليه لتأثره بالفكر الصهيوني وأغفر لبعضهم تقصيرهم في الفهم لأنهم لا يتقنون كل اللهجات العربية وخاصة العامية مثلنا، حيث نقرأ بالفصحى ونتكلم بالعامية فنحن أقدر على فهم كل كلمة آلت إلى العربية الفصحى بكل سهولة.

من أين أبدأ بمعالجة التراث من خلال مفهوم جديد؟

وضعت مبدأين تساءلت في المبدأ الأول ماهو الأسلوب الذي نختار به أسماء أبنائنا والذي تم بموجبه اختيار أسمائنا، ويتضح بوضوح أن عدداً كبيراً من الأسماء لا ترد إلى أصول هامة ولكن عدداً كبيراً أيضاً من الأسماء المتطابقة يرد إلى شخصية تاريخية كحاكم أو قائد.

وقلت في المبدأ الثاني، إن كل اسم يحمل معنى، سواء أكان اسم شخص أو مكان ويدل المعنى وراء المسمى على معتقدات الأب الذي وضع الاسم فنكتشف الفكرة خلف الاسم ونستدل من الاسم والفكرة على أن تلك اللفظة كانت مستعملة في لغة الشعب الذي ندرس أفكاره ونكشف عن حضارته.

بدأت من التفكير في هذين الأمرين، وسعيت استنطق الآثار وأسماء القرى وأسماء الناس وتوصلت إلى أمور غريبة أحياناً ولكنها كلها ذات معطيات هامة في حياتنا وحياة البشر الآخرين.

توصلت أولاً إلى نتيجة مدهشة تخص أسماء الناس في البلاد الأجنبية وهي أن

معظم الأسماء الأجنبية يمكن إعادتها إلى أسماء عربية كنعانية نبطية وذلك بحذف التحريف الذي أصابها، إما لضيق أحرف اللغة التي اقتبست الاسم لعدم وجود حرف العين أو القاف، أو بسبب اللكنة الأجنبية التي بدلت من أصول لفظه.. فيما عدا الأسماء التي تحمل معنى في اللغة الأجنبية الأم كآرم سترونج و«الفايكنك» وهي أسماء استعملت قبل وصول المد الحضاري الكنعاني إلى أوروبا ثم المد الحضاري العربي الإسلامي.

نأخذ اسم «ايدي» المستعمل بكثرة في الولايات المتحدة الأمريكية فهو اسم كنعاني ولفظه الصحيح «عيدي» وليس لهذا الاسم معنى في اللغة الأمريكية أو الإنجليزية.

والبرهان على ذلك هو أن الكنعانيين أسسوا ثلاث مدن في ليبيا هي صبراتا ولبدا وأويا، والمدينة الأخيرة هي مدينة طرابلس الحالية وقد اشتق اسمها من الاسم اليوناني «تريبوليس» أي المدن الثلاث ومازال لبدا تحوي آثاراً كنعانية ومن آثارها مبنى مخصص للعبادة بناه الثري الكنعاني «عيدي بعل كندا».

ويوجد بين آثار لبدا أيضاً مسرح وهو تقدمة الثري الكنعاني - حنا بعل روفس - وهو اسم كنعاني واضح لأن «حنا» لفظة كلمة فعل «حنّ» التي نستعملها في اللغة العربية ولفظة بعل هي اسم الإله بعل الذي انتشرت عبادته في المدن الكنعانية قبل ظهور الإسلام وقد نهى الإسلام عن عبادته لما رافقها من طقوس جنسية فاجرة محطمة رباط الخطوبة والزواج الذي كانت تباركه «عناة» «أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين» وروفس تصبح بعد حذف السين اليونانية «روف» وهي قريبة من لفظة رؤوف أو رئيف.

ونحن لا نضيف كيفياً الأحرف الصوتية إلى اللفظة المرادة ولكننا نضيفها لأن الكتابة العربية في أول ظهورها كالكتابة النبطية والكنعانية والآرامية لا تثبت

الأحرف الصوتية الصغيرة بإشارات على اللفظة فيتغير الاسم عند قراءته حسب لهجة المنطقة من الضم إلى الفتح أو الإمالة، فنلفظ كلمة لبنان في سورية «لبنان» بينما يلفظ اللبنانيون اسم بلدهم بالامالة «لبنين» وينادوننا «بالشويم» بدلاً من «شوام».

وكانت الكتابة المفرقة في القدم تتجاهل حتى أحرف المد الصوتية كالواو والياء والألف فقامت بسبب ذلك صعوبة أمام ضبط اللفظ القديم وحالت دون الوصول إلى قراءة صحيحة.

نعود إلى اسم عيدي الذي بقي منتشراً في أفريقيا من أيام الكنعانيين حتى يومنا هذا وما زال منتشراً في أوروبا وامريكا ومثله اسم «حنا» الذي أعطى آن وآنا الغربيين، ومثله اسم يوحنا الذي انقلب في اللغات الأجنبية إلى يوآن وجوهان وتوما وتوم وسارة.

وكثيرة الأسماء الغربية التي أطلقها الآباء على أبنائهم في كل أنحاء العالم متأثرين بالكنعانيين أو متأثرين بالموسوية أو المسيحية أو الإسلام وكلها لا معنى لها في تلك اللغات بل تكمن معانيها في تراثنا الحضاري وإنني أدع لكم كشف الأسماء الغربية العديدة التي هي من أصل كنعاني عربي وأنتقل إلى الاسم الأول الذي لفت نظري ذات يوم ودفعني إلى هذا الاستنطاق للتاريخ والتراث.

في سورية عدد كبير من القرى تنتهي أسماؤها بلفظة /تا/ صافيتا ـ جباتا ـ حرستا ـ وفي لبنان أيضاً ـ زغرتا وجعيتا وفي ليبيا ـ صبراتا ـ وفي فلسطين ـ كفرتا ـ وحين أتيت إلى الخليج قرأت ـ حتا ـ

سألت أول مواطن تعرفت عليه عن /حتّا/ وقلت له ابحثوا في حتّا عن الآثار وكم كنت مسروراً حين أجابني بأنها منطقة أثرية ولم ألبث أن قرأت بعد عدة أيام خبراً

عن وجود بعثة تنقيب في حتا.

أضناني البحث عن /تا/ حتى وجدت قصة الكاتب الشهير أناتول فرانس بعنوان «تابيس» فاقتنيت الكتاب وقرأت القصة وشعرت أن بطلة القصة تلك الراقصة والممثلة والمغنية التي انتهت حياتها إلى حياة راهبة، لابد وان تكون عربية فالقصة تكررت في تراثنا أكثر من مرة ليس آخرها رابعةُ العدوية.

مثلت تابيس ورقصت على مسارح إنطاكية وحمص والإسكندرية فنالت الإعجاب واتسعت شهرتها ويكتب أناتول فرانس في كتابه عن اعجاب ابن والي حمص بها حين خاطبها قائلاً:

ـ ليتني التاجُ المنعقد على مَفْرقك يا تابيس، ليتني القميصُ المزرور على جسمك البديع، ليتني نعلُ قدمك الجميلة إني أروم أن تطئي بقدميك هامتي وأن يكون قميصُك وتاجُك من عناقي وقبلاتي فتعالي أيتها البنية المليحة تعالي إلى بيتي ولننس العالم.

إذا حذفنا الحرفين الملازمين للأسماء في اليونانية «الياء والسين» بقي لدينا الاسم الحقيقي «تا أو تاي».

إذا عدنا إلى اسم «كفرتا» وهو اسم قرية تابعة لقضاء الناصرة نجد أن /كفر/ تفيد معنى ضيعة في الكنعانية والآرامية والعامية المصرية فصار الاسم ضيعة تا ولم يقنعني أن تكون تاي الراقصة التي أصبحت راهبة هي التي أعطت التا إلى كل هذه الأسماء التي وصلت إلى أبعاد شاسعة وتابعت البحث في كتب التاريخ حتى عثرت على الاسم في كتاب معالم تاريخ الإنسانية لـ. ه. ج. ويلز الذي كتب:

ولم تكن والدة امنحوتب الرابع من سلالة الفراعنية إذ يبدو أن أباه تزوج زواجاً غرامياً بإحدى الرعايا وهي سورية حسناء اسمها «تي» ونتابع في كتاب الأستاذ

ماسبرو ضوء جديد على مصر القديمة) قوله:

يرجع التوحيد في مصر إلى زوجة امنحوتب الثالث التي دفعت ابنها امنحوتب الرابع إلى إعلان ديانة التوحيد فوضع ابنها حداً لكل العبادات الصغيرة الطائفية في كل أرجاء مملكته، وأقام في كل مكان عبادة رب واحد هو آتون قرص الشمس وبدل اسمه إلى اخناتون.

انهزم التوحيد في مصر بعد وفاة اخناتون ويؤكد الأستاذ ماسبرو في كتابه أن التوحيد بدأ في فلسطين وانتقل منها إلى مصر على يدي السيدة «تا».

نعود الآن إلى أقدم ذكر للفظة «تا» فلدى مراجعة الأساطير نجد هذه اللفظة قد ذكرت على ألواح أسطورة دلمون ويناقش بعض علماء الشومريات في أن كلمة /تاي/ تعني بالشومرية اسم الضلع وتعني أيضاً كلمة أحيا أو حبلة يحيا ونحن بهذين المعنيين نقترب من حواء التوراة التي أخذت من ضلع آدم واسمها حواء بمعنى التي تحيا.

أوصلتنا تاي إلى حواء إلى الاسم الذي اعتبر ترجمة لكلمة تحيا وما زلنا نسعى خلف معاني الأسماء وبما أننا نتحدث عن حواء، نجد من الضروري أن نشير إلى خلو القرآن الكريم من لفظة حواء فأشارت الآيات إليها دون ذكر اسمها ففي الآية (وقلنا ويا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجُك الجنة) (فقلنا يا آدمُ إن هذا عدوٌ لك ولزوجك). أما التوراة فتقول ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي.

صار معقولاً ومقبولاً أن تكون تا المذكورة في أسطورة دلمون هي التي أعطت اسمها لكل بلد تسمى باسمها ومن أولى بالخليج أن يحوي اسماً ينتهي (بتا لأن الاعتقاد السائد أن موقع جنة دلمون في البحرين أو هي في قاع البحر غرقت مع ما غرق بكارثة زلزالية شطرت الأرض أو بالطوفان أو بكليهما.

ولقد سألت نفسي مراراً لم لم تتسم النساء في المنطقة باسم (تا). وللإجابة عن هذا السؤال لابد لي من أن أدخل في الموضوع أفكاراً أخرى.

وأبدأ باسماء الأسبوع مستعرضاً إياها كما نعيشها اليوم حيث تنتهي في يوم الجمعة ثم نبدأ الأسبوع بيوم السبت ثم يليه الأحد وهو كما نرى مخالفاً لمعناه الذي يدل على الواحد.

بينما يبدأ الأسبوع باليوم الأول - أحد - ثم الاثنين وهكذا حتى الخميس. ويأتي يوم الجمعة ونقصد فيه أسواق الجمعة وقد أخذ اسمه من الحركة التجارية واجتماع الناس في الأسواق وقد بقيت تلك الأسواق في بدء الدعوة الإسلامية فنزلت الآية التي شددت على ترك البيع والشراء والتوجه إلى الصلاة ثم أصبح يوم الجمعة عطلة عن العمل ومع ذلك بقيت في بعض العواصم والمدن أسواق للبيع والشراء في الجمعة ونصل إلى اليوم السابع وهو السبت ومعناه العظيم أو المقدم وهو يوم الاحتفالات الدينية في المنطقة منذ فجر التاريخ وبعد تقسيم الأسبوع إلى سبعة أيام منسوبة إلى أيام الخلق في التراث الأكادي والبابلي والآشوري والكنعاني وقد أعطى يوم السبت اسمه إلى الرقم السابع في التعداد اللاتيني فاسمه (ست) ولكنه يكتب (سبت).

كان الكنعانيون يجمعون الأسماء بإضافة (الياء والميم) فإذا جمعنا «سبت» على قاعدتهم وصلنا إلى كلمة (سبتيم) وقد صار هذا الجمع اسماً لأحد الأباطرة العرب الذين حكموا روما وهو مولود في ليبيا واسمه سبتيموس سيفروس وقد يكون الاسم الأول لقباً ومازلنا بحاجة إلى معنى سفروس وتصحيح لفظها. فهل يكون الشق الأول سيف والشق الثاني روس إنني لا أؤكد ذلك لانني بحاجة إلى تعاون مختصين باللغات السامية وهو ما دعوت إليه قبل قليل.

وعند مراجعتي لحل رموز نقش تدمري يتعلق «بسيبتموس اذينت ملك الملوك»

عثرت على لفظة هامة كانت مستعملة ألا وهي سيد وسيدة وقد وردت في النقش «مر ومرت» وأعرف أن كتب التاريخ تقدم ملك تدمر تحت اسم أذينة مما جعلني أن اعتبر سبتيموس لقباً أخذه الرومان عن كلمة سبت (العظيم).

سأذكر الآن النقش كاملاً لنتحقق من الصلات القوية التي تربط اللغة العربية اللغة النبطية والكنعانية والآرامية وهي واحد من أهداف مراجعة التراث.

يقول النقش: صلم سبتيموس أدينت ملك ملكاً وترجمته صنم العظيم أو بالجمع العظماء أو جلالة أذينة ملك الملوك.

ونتابع ترجمة النقش

٢ـ ومتقننا دي مديتا كله	ومتقن أو مصلح المدينة كلها.
٣ـ سبتيما زبيدا رب خيلا	وجلالة زبيدا رب الخيل أو القائدة المهيمنة
٤ـ قرطسطا أقيم لرهون	أقام القائدان لسيدهن
٥ـ بيرح آب دي شنة	المبارح من آب سنة

نلاحظ أن كلمات كثيرة انتقلت إلى العربية محافظة على معناها ولفظها كرب الخيل بمعنى القائد أو المهيمن وكافة استعمالات رب (رب العمل رب البيت) وكلمة أقيم ومتقن وشنة بمعنى سنة حيث تتبادل السين مع الشين في اللهجات السامية القديمة وكأمثلة على ذلك بلاد الشام هي بلاد السام وسلمى تلفظ بالكنعانية شلمى وسمير تقلب إلى شمير وشمس إلى شمش أو سمش وكلمة هامة هي الشاطر وأصلها الساطر.

ونلاحظ أن دي التدمرية موجودة الآن في العامية المصرية بينما هن للنسبة في العامية الشامية فنقول «كتبهن وأقلامهن» أما «مر» للتعظيم بمعنى سيد فما تزال تضاف لتنظيم الآباء الروحيين في الكنائس الشرقية ومنها جاء اللقب مار الياس

ومار مارون وغيرهم. ونستنتج الآن أن مخاطبة الزوجة بلفظة «مرتي» تحوي احتراماً بالغاً لأن معناها «سيدتي» ويمكن أن نتابع مع هذه اللفظة ولادة كلمة أمرء وامرؤ وامرأة.

نعود الآن إلى اسم تا ونضيف إليه لفظة التعظيم فيصير «مرتا» وهو اسم معروف ومحبوب على نطاق واسع في كل البلاد العربية والأجنبية ويبين لنا اسم مرتا أن أحداً لم ينس قدسية السيدة «تا» الموحدة زوجة اسنحوتب الثالث ولا الراقصة التي صارت راهبة فصار اسمها «مرتا».

ولابد من الإشارة في هذا المجال أن إضافة لفظة «مر» إلى اسم آلهة عربية قديمة وهي «يم» نحصل على اسم مقدس ظهر في فلسطين وانتشر في جميع أصقاع المعمورة ألا وهو اسم العذراء «مريم». وقد تبدل هذا الاسم إلى ماريا في اسبانيا وإيطاليا وإلى ماريانا وماري، وهو اسم كنعاني آرامي عربي. ولا أدل على عروبة هذا الاسم من نسبه إلى آل عمران حيث أن مريم بنت عمران وأرجح أن هذا هو الاسم الوحيد الذي ذكر مع نسبه في القرآن على قلة الأسماء المذكورة فيه. فلفظة عمران مشتقة على وزن فعلان كنعمان وفرحان وهو وزن اشتقاق عربي. وهو ما يؤكد عروبة المسيح بالنسب إلى أمه ويفسر لنا كيد اليهود الشديد له وإنكارهم لبنوته.

وقد أكدت وثائق الرهبان في عدد كبير من الكنائس أن انتشار المسيحية في سورية ولبنان ومناطق كثيرة من الجزيرة العربية واليمن قد حصل بعدما وصلت معلومات صحيحة تفيد بأن المسيح آرامي عربي ففرحوا ودخلوا في الديانة المسيحية ونحن نعلم ان المسيح خاطب تلامذته باللغة الآرامية ونعلم أن الإنجيل باللغة الآرامية.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم إلى سورة آل عمران نجد الآية ٣٣ بسم الله

الرحمن الرحيم إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم، كما نجد الآية وما أرسلنا من رسول إلا بلغة قومه ليبين لهم. صدق الله العظيم.

ويرد المستشرقون آرامية الإنجيل إلى تغلب الثقافة الآرامية ليبقوا على الاعتقاد السائد في الغرب على أن أصل المسيح يهودي فيذكر المستشرق أبو ذؤيب واسمه الأصلي «د. أ. ولفنستون» في كتابه تاريخ اللغات السامية العبارات التالية: وبقيت لغة الحضارة هي اللغة الآرامية التي كانت في تلك العصور لغة العمران عند جميع أمم الشرق الأدنى. والمستشرق أبو ذؤيب من المستشرقين الذين أعتب عليهم لأنه منحاز إلى اليهود وتلاحظون ذلك من نهاية عبارته غير العلمية وغير المسؤولة «عند جميع أمم الشرق الأدنى» هل يستطيع أن يعدد ثلاث أمم في الشرق الأدنى أم نسي انه أكاديمي يجب أن يتأكد من انطباق عبادته على الواقع. وأعتب على الجامعات المصرية لقبوله كمدرس للغات السامية وهو يكتب عبارات لا تتصف بالدقةالعلمية.

قبل أن انتقل إلى أفكار جديدة أعود إلى الأسماء التي بدأت منها وقد تبين لنا معنى ـ كفرتا ـ ونستطيع أن نفسر بسهولة حرستا على معنايين الأول حرس ـ تا ـ والثاني حرش ـ تا. وجباتا بمعنى بئر ـ تا وصافيتا الحاية الصافية ـ ويبقى علينا أن ندرس بجد للكشف عن معنى حتا في الخليج ومعنى زغرتا وجعيتا وكل مكان ينتهي بتا، حيث ستجدون آثاراً قديمة ولعلي الآن أدفع بالكثيرين للبحث عن الكنوز المدفونة خلف كل اسم ينتهي بتا.

* * *

أنتقل الآن إلى التوراة لأصحح فيها كلمة ويكفي أن يقبل العالم بتصحيح هذه الكلمة في صلواتهم حتى نكون قد سجلنا انتصاراً ثقافياً تراثياً رائعاً.

تقول التوراة: وعرف آدم امرأته فحبلت وولدت قايين، وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب، ثم عادت فولدت أخاه هابيل.

تذكر التوراة اسمي ابني آدم (قايين وهابيل) ويتكلم القرآن عنهما دون ذكر اسميهما (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق). ولكن التفاسير والتواريخ العربية كلها تذكر الاسمين (قابيل وهابيل) ويشير تاريخ أبي الفداء إلى أن الاسم قابيل ورد في التوراةقايين.

ساقرأ عليكم الآن نمطاً من أنماط التفكير المسيحي المقيد برباط اليهودية والملتزم بتفسير التوراة على أنها وحدها هي الحقيقة التاريخية.

يقول المطران يوسف الدبس في كتابه تاريخ سورية الدنيوي والديني.. فحملت حواء، وولدت قاين (بياء واحدة) وقالت رزقت رجلاً من عند الرب، فمعنى قاين ـ قنية ـ وثمرة ـ وقد وردت في الكتابات القديمة في نيناوى وبابل، بمعنى من يقتني عبداً وربما كانت منها كلمة قن بالعربية بمعنى الرقيق، أو كان بذلك أثر للعنة التي استحقها قاين لقتله أخاه. وعن ابن الأثير في الكامل أن أهل العلم مختلفون في اسم قابيل فبعضهم يقول قين وبعضهم يقول قائن وبعضهم يقول قاين وبعضهم يقولقابيل.

وفسر الربيون هابيل بمعنى البخار أو الهبلة بلغة العامة وبمعنى الباطل والغم الحداد.

أكتفي بهذا المقدار من كتاب المطران يوسف الدبس، لأن محاولاته المتعمدة لتبرير كل ما جاء في التوراة، عطلت تفكيره المتزن في أكثر من موضع من كتابه تاريخ سورية الديني والدنيوي.

يذكر قاموس الكتاب المقدس: قاين ـ قايين ـ اسم سامي معناه حداد وهو بكر

آدم وحواء، اشتغل لما كبر بالزراعة.

بما أن آدم هو الذي دعا ابنه باسمه، فالمعنى موجود في معتقدات آدم كما بينا في أول المحاضرة، وقد جاء المعنى واضحاً على لسان حواء، التي قالت، اقتنيت رجلاً من عند الرب، فأشارت في الاسم إلى صلته بالرب، ويجب أن يكون قابيل لانه ينتهي باسم ايل، فكيف تصر التوراة على قايين، ويرضى العالم كله بهذا التزوير.. ثم ولدت أخاه هابيل، والاسمان منسوبان إلى ايل ولا نجد غرابة في كلمتي قاب أي اقتراب الرب، أو اقتنيت رجلاً من عند الرب، ولا في كلمة هاب أي خاف الرب لأنه ينتهي بكلمة ايل.

لقد ابتعد المفسرون عن جهل أو عن قصد سيء عن ملاحظة اسم هابيل الذي ينتهي بلفظة ايل، حتى لا يضطروا إلى تصحيح لفظة قايين إلى قابيل في التوراة. وإن معرفة العرب للاسمين بشكل صحيح، على الرغم من عدم ذكرهما في القرآن يدل دلالة واضحة على وجود ثقافة دينية غير القرآن وغير الإسرائيليات، مما أرجح إتلافه بعد نزول القرآن، أو إهماله حتى التلف.

نتبين من خلال اسمي قابيل وهابيل، أن اللغة العربية قريبة جداً من اللغات التي نسبت إلى بدء الخليقة، وسنتبين هذه الصلة بوضوح في الأسماء الكنعانية التي سترد معنا، بعدما وصلنا إلى لفظة ايل.

تقول الموسوعة في شرح كلمة ايل، إنها تعني إله السماء عند الشومريين ورئيس مجمع الآلهة. وقد وردت اللفظة في الأساطير متطورة من إله ومحدود النفوذ والمسؤولية إلى إله قادر وكبير الآلهة، ثم صارت تعني أيضاً معنى إله بالمعنى المطلق فتجمع على ايليم بالكنعانية، حيث الياء والميم علامة الجمع.

إن لفظة ايل، أخطر كلمة، نقلت عن اللغات السامية إلى اللغة العربية، فقد قام

التوحيد على لفظة ايل، فدعا إبراهيم الخليل ابنه باسم إسماعيل ومعناها سمع الله، لأن الله استجاب لدعائه ورزقه طفلاً. وتوجد أسماء كثيرة في التراث تنتهي بايل لعل أبرزها إسرائيل لقب يعقوب، ومعناها عبدالله.

وقد أقام إبراهيم بيوتاً لايل في كل مكان زاره ونشر فيه ديانته، بما في ذلك البيت الحرام والكعبة، الذي أقيم أول ما أقيم للتوحيد على لفظة ايل. ونسب القرآن الكريم في الآيات الكريمة، الأشياء المقدسة إلى ايل، بقوله تعالى «بسم الله الرحمن الرحيم، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل».

كلمة أبابيل جمع والمفرد ابيل، وهي كلمة منسوبة إلى ايل، والقسم الأول منها آب، ومعنى كلمة آب «لهب» ومنها جاء اسم شهر اللهب شهر آب، وما تزال كلمة ابيل تستعمل في اللغة الشعبية، حين يشعل الأولادُ النار في الحارة وهم يصرخون ابيل- ابيل.

وكان اشعال الابيل تقليداً متبعاً في المواسم والأعياد الدينية، عندما كان المتعبدون يوقدون النار لايل على رووس الجبال وفي المعابد، فبقيت الكلمة مستعملة شعبياً لإشعال النار، بعدما بطل ايقادها لايل.

وسجيل ـ السجج ـ طين وهو طين منسوب رلى ايل.

ونلاحظ أن اسم الملائكة في القرآن منسوبة إلى ايل، فنقول جبريل وعزرائيل وغيره. ونؤكد في هذا المجالِ على كنعانيةِ الأسماء الأجنبية التي تنتهي بايل أو تبدأ بايل ومنها مرسيل وراشيل وحتى مرسى ايل- ومرسيليا.

توجد قرية في سورية تدعى «عتيل» على طريق السويداء ويوجد في لبنان «جبيل». ونستطيع ان نحدد بسهولة مناطق وجود الآثار القديمة على الخارطة بسهولة لهواة المعرفة وهواة البحث عن الكنوز، وهي القرى التي يكون اسمها مركباً

ويبدأ أو ينتهي بايل، ونصحح لفظة «حرجلة» إلى «حرج ايل».

نبحث الآن كيف يعرض قاموس الكتاب المقدس، أسماء الأشخاص والأماكن وكيف يترجم هذه الأسماء ليبين معانيها، نأخذ مثلاً «ايل فعل» يكتبها بالألف واللام «الفعل» ويترجمها «الله فعل» ويؤكد على عبرانية الكلمة، بينما الكلمة كنعانية ولا تحتاج إلى ترجمة لأن كلمة فعل هي ذاتها في العربية.

نأخذ كلمة ثانية «ايل نعم» يقول القاموس عنها إنها اسم عبراني معناه «الله سرور» ويكتبها بالألف واللام.. والكلمة كما نرى كنعانية عربية لا تحتاج إلى ترجمة. ومثلها «اليشع» يجب أن تكتب «ايل يشع».

وأما عن أسماء الأماكن في فلسطين فنأخذ كلمة «التولد» تقول الترجمة إنها كلمة عبرية ومعناها «إله الميلاد أو الولادة. بينما تتضح الكلمة بلفظها «ايل تولد» فتصبح الكلمة كنعانية عربية وهي اسم بلدة يرجح أنها بلدة «خربة عرقة سقرة» التي تبعد مسافة ثلاثة عشر ميلاً جنوبي شرق بئر سبع، ومثلها «التقون» يجب أن تكون ايل تقون، ومعناها واضح تقوى ايل.

لم يتجاهل القاموس لفظة ايل في الأسماء الكنعانية ليجعل منها أسماء عبرية بل تجاهل لفظة آدون. وطلب من القارئ أن يرجع إلى كلمة آدان وفي صدد شرح كلمة آدان، يقول القاموس معناها غير معروف وهي اسم لمدينة في بابل وهي نفسها تدعى آدون.

تجاهل القاموس وجود إله كنعاني باسم آدون وتجاهل معنى ادون، بينما عاد عند شرح اسم آدوني صادق إلى القول إنه اسم كنعاني ومعناه سيد البر أو سيد العدل والاسم لا يحتاج إلى ترجمة لان آدون اسم إله، فآدوني صادق تعادل إيلي صادق ومثله ملكي صادق الذي تعامل مع إبراهيم الخليل. ومثله آدوني قام اسم

كنعاني واضح كل الوضوح يقول عنه القاموس إنه اسم عبراني ويترجمه إلى السيد قام. ونرى في كل هذه الأسماء تطابق اللفظ والمعنى مع ألفاظ اللغة العربية كقام وصادق ونور وسلام.

لا يجد البحث الجدي المنصف تاريخاً يخص تلك القبائل التي دعيت بالعبرية ولا يجد تراثاً يمثلها، حتى لو تجاهل قاموس الكتاب المقدس شرح لفظة آدون، وأخفى العلاقة ما بين آدون وأدوناي، وهي اللفظة التي يصرخ بها اليهود في صلاة الخشوع ادوناي.. آدوناي.. وهي تعود إلى عبادة آدون الذي صار اسمه ادونيس في اليونان.. وهذا ما ينفي عن عقائد اليهود التوحيد في مراحل كثيرة من ماضيهم.

يقول قاموس الكتاب المقدس عن لفظة إنجيل أنها من اللفظة اليونانية أونجليون ومعناها «خبر طيب». وقد أوجز الإنجيل أن الله أرسل ابنه الوحيد لخلاص المؤمنين وقد أخذت القواميس العربية كالمنجد وغيره هذا التفسير لكلمة إنجيل فذكرت انها كلمة يونانية، ولم تكلف نفسها عناء البحث.

كنا نصدق هذا الكلام لو أن الإنجيل يدعى على الطريقة اليونانية انجيليوس وظهر في أيام الثقافة اليونانية، وكان المسيح يونانياً. ولكن المسيح آرامي ويجب أن تكون لفظة إنجيل مركبة من إنج وايل ومعناه واضح. فقد وحد المسيح على لفظة ايل، وانج من مادة نون جيم التي تصاغ منها معاني النجاة والخلاص في العربية.

يقول عباس محمود العقاد في كتابه إبراهيم أبو الأنبياء.

فلا يقال عن إبراهيم إنه إسرائيلي. لأن يعقوب هو أول من تسمى بإسرائيل ويعقوب حفيد إبراهيم.

ولا يقال عن إبراهيم أنه يهودي لأن اليهودي ينسب إلى يهودا رابع أبناء يعقوب،

ولم يكن ينسب إليه إلا بعد أن أصبح اسمه علماً على الإقليم الذي قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب.

ولا يقال عنه أنه عبري إذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف، فإن إبراهيم كان يتكلم بلغة يفهمها جميع السكان في بقاع النهرين وكنعان، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام.

وهو ما يطابق الآية الكريمة التي تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، أم تقولون ان إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى.. قل أنتم أعلم أم الله.. صدق الله العظيم.

كثيرة هي الأسماء التي تكشف عن حقائق تاريخية في الوطن العربي، فنحن لا نحفر حفرة إلا ونعثر على نقش يظهر شريعة الإلهية، ولا نزور قرية أو مدينة أو أمكنة مهجورة في البراري ونتعرف على أسمائها إلا ونجدها منسوبة إلى الله.

فمن الأسماء ما نسب إلى مردوخ الخالق الأول في شومر وآكاد وبابل ومنها قرية مردوك على طريق السويداء، وتل مردوخ قرب إدلب على بعد المسافة بينهما. ومن الأسماء ما نسب إلى بعل كبعل بك، وكثير منها ما نسبَ إلى «تا أو تاي» ولكن القسم الأعظم نسب إلى ايل الذي ظهر التوحيد أول ما ظهر على اسمه.

كان آدم موحداً على اتفاق كل الروايات والمذاهب، وبما أنه دعا ابنيه بقابيل وهابيل، فالاسمان يدلان دلالة واضحة على أن توحيد آدم قام على عبادة ايل. وقام توحيد إبراهيم عليه السلام على عبادة ايل، وإبراهيم من اور الكلدانيين، واستطاع الكنعانيون أن يمدوا بيوت ايل إلى المغرب العربي وحتى مرسيليا.

ونرى موسى عليه السلام في الأصحاح الخاص به يؤكد على شريعة حمورابي

ويحافظ على وحدة التفكير الديني، ويوحد علىايل. ثم نجد المسيح عليه السلام قد وحد على ايل، فذكر تلامذته أنه قال بالآرامية «ايلي ايلي لما شبقتني» أي الهي الهي لما تركتني. وما تزال كلمة اشبقوا بمعنى اتركوا مستعملة في عدد كبير من القرى.

إن النصوص الدينية في الديانات السماوية الثلاث وما سبقها من نصوص مقدسة ذكر القرآن بوضوح أسماء أنبيائها. قد طبعت الإنسان العربي بخصائص نفسية متميزة، وإن خلاصة هذه النصوص والإيمان الذي رافقها لدى غير العربي طبع أيضاً حياته بخصائص قربته من الإنسان العربي سواء في بحثه عن القيم أو التزامه بالمثل أو اجتهاده في تشريع القوانين.

إن تأثير العرب في أمم العالم لا يقتصر على الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية التي كانت سبيلهم إلى الخروج من عهود الظلمات إلى النهضة بل يتعدى ذلك إلى تاريخ أقدم، إلى زمن إعطاء الإنسان هويته في هذا الوجود ومن ثم دفعه في طريق الفكر والخص المعطيات الكبرى: بالإيمان بالله والقيم، وبفكرة الحق والقانون وفكرة الخلق والإبداع من أجل كل الإنسانية.

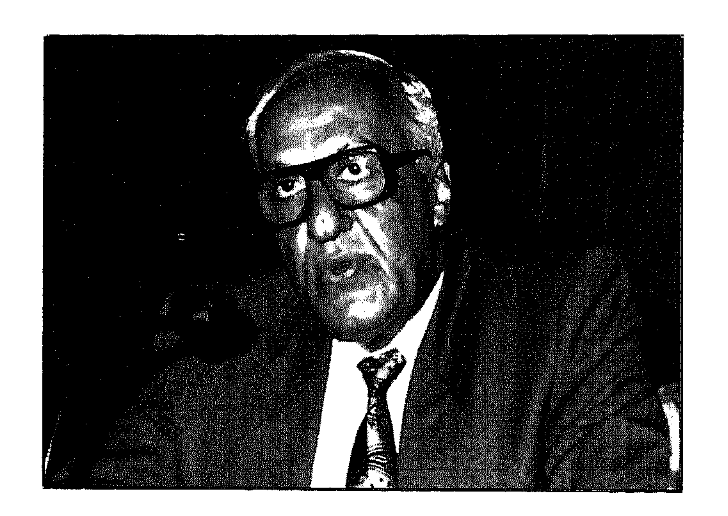
إن الأرض العربية تحوي القسم الأكبر من مقدسات الإنسانية، وهي الأرض التي دعيت بمهبط الوحي، ومنبع الأنبياء والرسل، وإن إنسانها صنيعة سبعة الآف عام من الفكر الديني المستمر من شومر إلى فلسطين فمكة في الحجاز.

فالعروبة على طول تاريخها، إيمان بالله وإيمان بالحياة، إيمان بإرادة الخالق وانتصار لإرادة الخالق، فهي إذن انتماء إلى الكلي إلى العام من أجل التطور بكشف المجهول.

نبعت مآسي الإنسانية في القرن العشرين بسبب غياب الفكر العربي الروحي الموحد الأصيل، وانحراف المؤمنين نحو الفكر المادي الجشع، نحو التشبث ببهارج

الدنيا واستهلاك الأغراض، ولا راحة للكرة الأرضية إلا بعودة الفكر العربي منارة تهدي روح الإنسان وتخلصه.

التنمية ومستجداتها



الدكتور اسكندر بشير

القيت بتاريخ : ١٩٩١/١٠/٦م

سيرة ذاتية

الأستاذ الدكتور اسكندر بشير

ـ حاصل على الماجستير في الإدارة العامة من جامعة سيركيوس بنيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٩.

ـ حائز على الدكتوراه في الإدارة العامة من نفس الجامعة سنة ١٩٦٢. تدرّج في سلك التدريس بالجامعة الأمريكية في بيروت من محاضر في الإدارة العامة سنة ١٩٦٤ إلى كبير المحاضرين من سنة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧ ثم نائب رئيس قسم الدراسات السياسية والإدارة العامة من سنة ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧.

ـ أعير إلى جامعة الإمارات كأستاذ مساعد ورئيس قسم الإدارة العامة من سنة ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨. ثم مستشاراً لمعهد التنمية الإدارية في أبوظبي.

ـ يعمل حالياً كبير مستشاري إحدى الشركات المهتمة في إعداد النظم الإدارية.

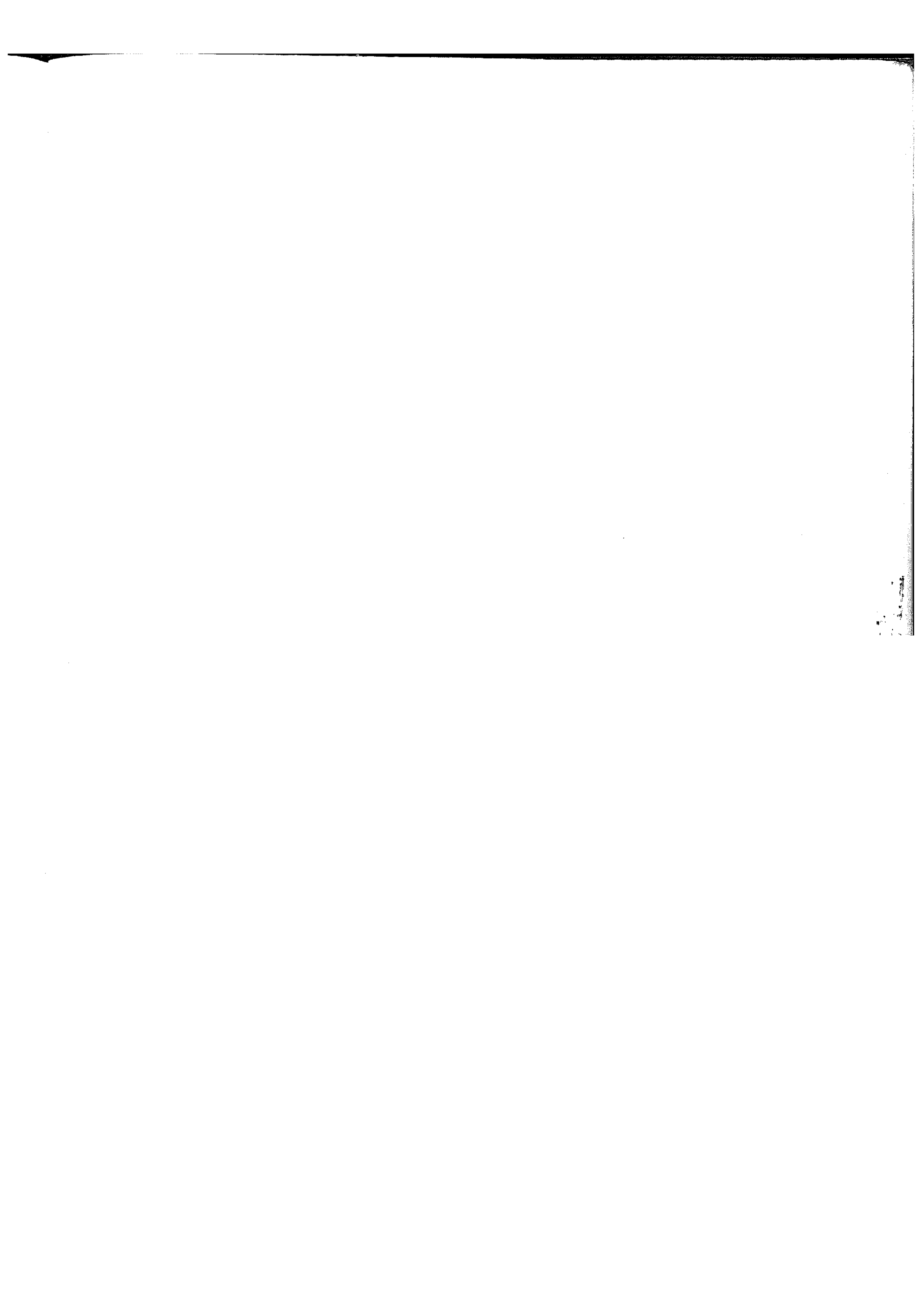
ـ له عدة مؤلفات بالعربية والانجليزية منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ـ كتاب حول مفاهيم في الإدارة العامة.

٢ـ دولة الإمارات العربية المتحدة ـ سيرة الاتحاد ومستقبله.

٣ـ التنظيم الإداري في لبنان.

بالإضافة إلى المقالات والأبحاث في الصحف والمجلات العربية والأجنبية.



واقع التنمية و آفاقها الجديدة

الدكتور / اسكندر بشير

نظرة شمولية لواقع التنمية وآفاقها الجديدة

سأحاول في هذا البحث معالجة موضوع التنمية من منظور شمولي وإطلالة مستقبلية متناولاً بعدين أساسيين:

الأول، يتعلق بالخلفية التاريخية والمفاهيمية لنشوء فكرة التنمية وتطوراتها.

والثاني، يتناول البحث بالمتغيرات الحاصلة على الساحة الدولية ومدى تأثيرها في التنمية واتجاهاتها المستقبلية.

الجزء الأول: المنطلقات الأساسية للتنمية ومقوماتها:

١ـ التنمية هوية هذا العصر:

تعتبر التنمية قضية هذا العصر الأولى، وربما ستبقى كذلك لعصور مقبلة. لم يشهد عصر من عصور التاريخ اهتماماً كبيراً ومتزايداً بموضوع ما قدر ما شهده ويشهده عصرنا هذا بموضوع التنمية. إذ أمست التنمية هدفاً استراتيجياً وعملية حضارية تسعى لتحقيقها دول وشعوب العالم كافة، وخصوصاً تلك الطامحة نحو تحقيق مجتمع أفضل يسوده الطمأنينة والرفاهية والمنعة والتكامل والنماء.

هذا التطلع المستقبلي نحو الأفضل ليس بجديد في تاريخ تطور المجتمعات وارتقاء شعوبها. فكم محاولة عبر شعارات مثل التطوير، والتصنيع، والتغريب، والعصرنة، والحداثة، والنمو كانت تطرح بين الفترة والأخرى، بقوة، ثم ما تلبث أن تتراجع وتنحسر.

لكن الجدير ملاحظته أن كلا من هذه المصطلحات يحمل في طياته الدعوة إلى تحقيق تغيير ما وباتجاه تصور أفضل. فهي إذن تتفق من حيث طبيعة جوهرها على صفتين أساسيتين:

الأولى، أنها غنائية "Purposeful"، أي تهدف إلى تحقيق هدف معين.

والثاني، أنها معيارية "Normative"، أي تصبو إلى تحقيق ذلك الهدف قياسًا على نموذج ما.

ويأتي مصطلح التنمية "Development" في هذا العصر ليتقدم جميع هذه المصطلحات، خصوصًا مصطلح النمو "Growth"، الاكثر شيوعًا، وينتقل بها إلى درجة أعلى من الشمولية والأهمية والتكامل.

ففكرة التنمية إذن ليست بجديدة وجذورها قديمة ومتأصلة تتطور بتطور المعرفة ورغبة الإنسان وقدراته على التطور والنمو. أما الجديد في اتساع انتشار هذا المصطلح في هذا العصر لدرجة أنه بات يشكل ايدولوجية اقتصادية ـ اجتماعية قائمة بذاتها. وذلك بحكم ما تجسده هذه الأيدلوجية الناشئة من أهداف وتطلعات وطنية وحضارية، من جهة، وما تطرحه، من جهة أخرى، من منهجية عمل متطورة تسعى لتسريع عمليات التطور الطبيعية "Gradual Progress" لقطاعات المجتمع كافة في إطار مؤسساتي وعقلاني قادر على مواكبة المستجدات والتحكم بها.

لكن من المؤسف أن مصطلح التنمية قد تم تعميمه بشكل غير متأن ودقيق بحيث أسيء استخدامه في كثير من الحالات لتبرير سياسات ومواقف بعيدة كل البعد عن التنمية الحقيقية المقصودة. لذا ينبغي التنبه لهذا التشويش والسعي لاستعمال المصطلح في إطاره الصحيح انطلاقًا من مفهومه العلمي المتعارف عليه.

كيف نحدد مفهوم التنمية ونعرفه؟

٢ـ تحديد مفهوم التنمية وماهيتها:

تتضارب تعاريف التنمية لدى العلماء والباحثين، وإنما هناك نوع من التوافق في الرأي على أن التنمية ظاهرة اجتماعية تتضمن عنصرين أساسيين: النمو، كمحصلة لنشاط اقتصادي يتعلق بقياس الزيادة الحقيقية الحاصلة في معدلات الناتج العام أو الخام خلال فترة محددة، زائد عنصر التغيير الاجتماعي، المصاحب أو الناتج عن المعادلة الاقتصادية القائمة. فبإضافة البعد الاجتماعي إلى مفهوم النمو الاقتصادي بدأ مصطلح التنمية يظهر بقوة ويستقطب في آن واحد اهتمامات المفكرين والباحثين.

يقدم، في هذا الصدد، الدكتور/ فيصل السالم تعريفًا للتنمية، «بأنها في كل الحالات أصبحت اصطلاحًا يمثل العملية الكلية للتغيير لتحقيق أهداف مرجوة. وعليه فهي تعني تحقيق العصرية والتغيرات التي تحدث في المجتمع من اقتصادية واجتماعية وسياسية وإدارية»(١). مع تبنينا إلى حد كبير هذا التعريف، نضيف إليه عنصرًا آخر هو عنصر اختصار مرحلة الوقت في عمليات التغيير المطلوبة، أي تحقيق نوع من القادومية. إذ أن هذا البعد، بنظرنا، يكون محور العملية التنموية، وإلا لتساوى مفهوم التنمية "Developement" بمفهومي التقدم "Progress" أو والتطوير "Evolution" وكان رديفًا لهما.

لكن الواقع يشير إلى عكس ذلك. وأكبر دليل على صحة هذا القول ما نشهده من ترابط عضوي قائم بين مصطلحي التنمية والتخطيط. إذ إنهما وجهان لعملة واحدة. فالتنمية هي بمثابة فلسفة أو رؤية مستقبلية يقوم التخطيط بترجمتها إلى خطط وبرامج متوازية ومتكاملة ليصار إلى تنفيذها فيما بعد وفق جداول زمنية محددة.

ولمزيد من التعرف على طبيعة التنمية وماهيتها فلابد من النظر إلى التنمية كونها هدفًا وعملية في آن واحد.

٣ـ التنمية هدف وعملية:

فبالنسبة للتنمية كهدف، يبدو في الظاهر أن هناك توافقًا كليًا لدى المعنيين بشئون التنمية على أهدافها من حيث أن هذه الأهداف تكون بالمطلق مطالب تدعو إلى تحقيقها دول وشعوب العالم كافة. لكن ما تتضمن هذه الأهداف من محتوى، وما يمكن أن يتفرع عنها من عناصر، تتباين الأفكار والنظريات بشأنها بسبب اختلاف الأيدلوجيات والنظريات الاجتماعية والاقتصادية القائمة بين مجتمع وآخر. هذه الاختلافات تجعل مسألة الاتفاق على سياسات التنمية مسألة صعبة ومعقدة، ويرتبط حلها بنظم القيم العائدة لكل مجتمع، وتتحمل القيادات في تلك المجتمعات مسئولية أمر البت فيها وتحديد مسارها ومصيرها لكي تعطي لخطط وبرامج التنمية منطلقاتها الأساسية وأبعادها الحضارية. كما ينبغي أن ينظر إلى هذه الاختلافات في وجهات النظر المتعددة في حالة السيطرة عليها كمصادر قوة يمكن الاستفادة منها في التفتيش عن الأنسب والأفضل.

أما التنمية كعملية فهي تستقطب الاهتمام بالدرجة الأولى بموضوع القدرات التي يجب أن تتوفر في مجال تحقيق خطط وبرامج التنمية. فهي تتعلق بتحديد وتطوير العناصر التي تتكون منها العملية الإدارية.

من هنا تبرز أهمية الإدارة كعنصر أساسي في عمليات التنمية وعليها تتوقف إمكانيات نجاحها. ومهما بلغ مدى الحديث عن الإدارة، تبقى الإدارة وسيلة لتحقيق أهداف محددة أكانت عائدة للقطاع العام أو القطاع الخاص. ولكي تتمكن الإدارة من النهوض بمسئولياتها بشكل فعال وكفؤ لابد أن تتوفر لديها الكفاءات المهنية، والأدوات التقنية المتعلقة بنظم المعلومات الحديثة، الهياكل التنظيمية الملائمة،

والموارد المادية الضرورية لتحقيق أهدافها.

فإذا كانت أهداف الدولة في الشأن التنموي غير واضحة ودقيقة، والقدرات المادية والبشرية غير متوفرة، فلا شك أن العملية التنموية ستبوء بالفشل. كما أن موضوع القدرة على التنفيذ ليس مرتبطًا فقط بتوفير الإمكانيات المادية والبشرية المطلوبة، وإنما أيضًا بحسن الاستفادة من هذه الموارد المتوفرة، والتي تكون جوهر العملية الإدارية. فالدعوة إلى تحقيق التنمية بمعزل عن هذه الاعتبارات لاشك يؤثر سلبًا فيها.

لقد أصاب الدكتور روسكو مارتن حينما أدرك هذه الحقيقة منذ فترة بعيدة، في منتصف الخمسينيات، بقوله أن الإدارة كانت عنصرًا مهملاً في موضوعات التنمية مما أثر فيها سلبًا وجعلها تدور في حلقة مفرغة(٢). ويشهد على صحة هذا الاستنتاج ما توصلت إليه التقارير والدراسات التي كانت وكالات منظمة الأمم المتحدة وغيرها قد وضعتها عن نتائج برامج المعونات الفنية والاقتصادية للدول الآخذة في النمو. هذه التقارير كانت تؤكد على أن مرد فشل خطط ومشاريع التنمية القائمة في الدول النامية سببها الرئيسي تخلف الإدارة وعدم مقدرتها على التطوير، الأمر الذي دفع بالمعنيين مفكرين وإداريين ـ مخططين فيما بعد ضرورة إلى الاهتمام بالإدارة والعمل على تطويرها.

وهكذا يبدو أن فكرة التنمية أثرت بشكل كبير في بروز دور وأهمية الإدارة وكذلك ضرورة تطويرها لكي تتمكن من القيام بتنفيذ خطط ومشاريع التنمية المطلوبة.

٤ـ تطور دور وماهية الإدارة:

غير أن تحديد منزلة الإدارة بشكل دقيق واتساع نطاق مسؤولياتها مرتبطان

بالتعرف بشكل عام على التطور التاريخي الذي طرأ على دور وماهية الدولة في المجتمع، باعتبار أن الإدارة هي وسيلة الدولة تتأثر بها سلبًا أو إيجابًا.

لقد قام العديد من المفكرين والمؤرخين بدراسة الظاهرة السياسية منذ القدم ولا يزالون حتى وقتنا الحاضر. وإنه من المؤكد أن الأفكار والنظريات تباينت فيما بينهم حول طرق ووسائل تنظيم السلطة الحكومية، ولكنهم أجمعوا على ضرورة وجود نظام حكم للمجتمع، وبالتالي على وجود آلية له، هي الإدارة.

إذن الإدارة العامة قديمة قدم وجود مؤسسات الحكم المختلفة والتي تأتي في طليعتها الدولة. أما الجديد في الإدارة العامة فهو عائد إلى التطور الذي طرأ على دور الدولة وماهيتها وما أوجده ذلك من انعكاسات على واقع وأنشطة الإدارة العامة.

هناك اتجاهات ثلاثة أثرت في نشأة وتطور الدولة لتطور الدولة عبر التاريخ يمكن إيجازها كالآتي(٣):

أولاً ـ سمة الدولة الحارسة:ـ

هذه الصفة هي الأقدم في نشأة الدولة، إذ تاريخيًا اتسمت أولى مهام الدولة ومسئولياتها بالقيام بتأمين مهمات الدفاع، والأمن، والعدل، والعلاقات الخارجية، وتوفير بعض الخدمات العامة الضرورية. إذ كان دورها محصورًا في وظائف محدودة وكان الفكر السياسي وراء تشكيل هذه الدولة يقول بأن النظام الأفضل هو ذلك الذي يتدخل بأقل قدر في شئون الفرد. ومن هنا نلاحظ أن السياسة الاقتصادية الليبرالية التي عمت أوروبا لعصور عديدة أعطت المبادرة الفردية والقطاع الخاص القدر الأكبر من الأهمية في تسيير شئون المجتمع وتأمين حاجياته. على ضوء هذا الواقع، لعبت الإدارة دورًا متواضعًا ومحدودًا، ولكن مع

بداية الثورة الصناعية في القرن السابع عشر بدأت تظهر متغيرات اجتماعية واقتصادية ما لبثت أن مهدت الطريق لإجراء تعديلات في دور وماهية الدولة وتغيير في اتجاه توسيع سلطاتها ومسئولياتها.

ثانيًا ـ التحول إلى دولة الرفاهية والخدمات:ـ

مع تزايد المشكلات الاقتصادية خصوصًا في الدول الصناعية في هذا القرن اضطرت الدولة إلى التوسع في أنشطتها وفي تحملها مسؤوليات جديدة تهدف إلى تحقيق الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية لشعوبها. فكانت الدولة تحاول القيام بمشروعات عامة ضخمة لتأمين العمل للمواطنين، ولتدعيم البنيات الأساسية للاقتصاد لديها عن طريق إقامة شبكات من المواصلات، وتوفير الطاقة، وغيرها من الخدمات كالخدمات الصحية و التربوية والبيئية.

كما أن هذه الدولة وبتأثير من الفكر الاشتراكي بدأت تقدم خدمات اجتماعية مثل التأمينات الاجتماعية والدعم المادي لبعض السلع الضرورية. هنا يلاحظ أن الدولة بدأت تتوسع في أنشطتها، وتتدخل في الاقتصاد وأمور أخرى بهدف تحقيق مستوى أعلى من الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية.

وبحكم هذه التطورات بدأت الإدارة الحكومية يتعاظم دورها وتتنوع أجهزتها واختصاصاتها من مؤسسات اجتماعية ومالية واقتصادية تجاوبًا مع هذه المتغيرات الجديدة، وكذلك بدأ الاهتمام الفكري يأخذ منعطفًا هامًا في دراسة الظاهرة الإدارية والعمل على تطويرها وتحديثها.

ثالثًا ـ التركيز على الدورة الإنمائي:ـ

تأسيسًا على ما ورد، وفي ضوء مطالبة المجتمع بالحفاظ على المكتسبات الاقتصادية التي حققتها الدول المتقدمة، وكذلك مطالبة الدول الناشئة المعاصرة

بمواكبة ركب التطور الاقتصادي والاجتماعي، فقد وجدت الدولة المعاصرة نفسها في مرحلة جديدة هدفها الأساسي تحقيق الإنماء الشامل والمتوازن في المجتمع. وفي ضوء هذا الواقع فلا شك في أن دور وماهية الإدارة قد تطور بشكل جذري وتعاظم شأنه أمام هذه المسئوليات الجديدة الملقاة على عاتقه حتى وصل إلى التنمية بشكل شامل وإلى إدارة التنمية (كمصطلح يركز على إعطاء الأهمية لإدارة المؤسسات المعنية مباشرة بالمشاريع الاستثمارية والإنشائية) والتنمية الإدارية (كمصطلح معني بتطوير الإدارة لمواكبة مرحلة الإنماء والتطوير) بشكل خاص.

ولابد من التأكيد في سياق هذا العرض لتطور دور وماهية الدولة على أن التركيز على سمة الإنماء أو التنمية كصفة ملازمة للدولة المعاصرة لا يشكل بديلاً للشخصية العقائدية التي تقوم عليها دولة ما سواء أكانت علمانية، أو دينية، أو اشتراكية أو غيرها. فإن المرتكزات العقائدية والفكرية في المجتمع تعطي دفعًا للتنمية باعتبارها عملية هادفة بجوهرها إلى تسريع علميات التطور والإنماء المطلوبة كما تحددها القيادات المسؤولة لدى كل مجتمع ووفق نظمها القيمية ومنطلقاتها الحضارية.

لننتقل الآن بعد أن استعرضنا التطورات التاريخية الهامة التي غيرت في دور وماهية الدولة وانعكاساتهما على الإدارة، لنبحث كيف نشأت وتطورت فكرة التنمية في سياقها التاريخي والمفاهيمي وما وصلت إليه من نتائج بشكل عام.

٥ـ نشأة فكرة التنمية:ـ

من العوامل الأساسية التي تقف وراء بروز فكرة التنمية في هذا القرن موضوع مشاريع المساعدات الاقتصادية والفنية التي طرحت بشكل واسع بعد الحرب العالمية الثانية وشكلت نهجًا جديدًا في التعامل الدولي. فكيف حدث ذلك تاريخيًا وماذا كانت أهم نتائجه؟؟

طرأ على مسار العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية تغيير جذري في السياسات التقليدية المتبعة بين الدول وشعوب العالم. لقد تحررت دول عديدة وأصبحت تتمتع بكيانات مستقلة تمارس السيادة وتقيم العلاقات الدبلوماسية والسياسية مع الدول والمنظمات الدولية القائمة.

كما رافق تلك المرحلة تعاون دولي لدى دول المحور المنتصر وحلفائه في إنشاء منظمة الأمم المتحدة لتكون أداة دولية في خدمة السلام العالمي وتعمل على التخفيف من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب.

يتضح من نتائج هذه التطورات أن عصر الاستعمار الذي كان مهيمنًا قبل الحرب العالمية الثانية قد ولى. إذ تفككت امبراطوريات، واستحدثت دول جديدة، وبرزت على المسرح الدولي قوتان أساسيتان هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي.

غير أن هذا التطور الأخير ما لبث أن نتج عنه تلبد في أجواء العلاقات الدولية بحيث أخذ الصراع يتفاعل بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي في نطاق ما سمي بالحرب الباردة في الخمسينيات وصعوداً فيما بعدها. وبالفعل كونت هذه الظاهرة شكلاً جديداً من أشكال الهيمنة من قبل هاتين القوتين انعكست تأثيرها في أغلبية مناطق الدول الناشئة، دول العالم الثالث، طبقًا لأهداف استراتيجية خاصة.

خلال هذه المرحلة من الحرب الباردة ومنذ بدايتها بدأت تظهر أفكار واتجاهات جديدة تدعو إلى معالجة المعضلات الاقتصادية والاجتماعية لدى الدول الحديثة تدعيمًا لتحقيق الاستقلال السياسي الفعلي. فتلاقت هذه الرغبات من الخارج، أي الدول المؤثرة في الساحة الدولية، مع مثيلاتها من الداخل، أي الدول النامية، وفق التدرج في اتساع وتعاظم دور ونطاق الدولة كما سبق شرحه.

فتوجهت اهتمامات الدول الصناعية المتقدمة، وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، إلى التركيز على معالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تعانيها أوضاع مجتمعات الدول الآخذة بالنمو بهدف التخفيف من حدتها.

فتقدم الرئيس هاري ترومان إلى السلطة التشريعية، عقب انتخابه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٤٩، ببرنامج لمشاريع حكومته المزمع تنفيذها مدرجاً تحت أحد بنودها، البند الرابع(٤)، فكرة فحواها سعى الولايات المتحدة الأميركية إلى القيام بتقديم مساعدات اقتصادية وفنية للدول المستقلة حديثاً، من أجل المساهمة في تخفيف الأعباء الاجتماعية والاقتصادية المتردية في تلك المجتمعات ودفعها لاقتحام عمليات الإنماء الذاتي. فكان الشعار المطروح «دعنا نساعدهم ليساعدوا أنفسهم».

ولم تقتصر في البدء عمليات مشاريع المساعدات الفنية والاقتصادية من أجل تسريع عمليات الإنماء في دول العالم الثالث على اهتمامات الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي وبعض الدول الصناعية الكبرى، بل ولجتها منظمة الأمم المتحدة وبقوة بدءا من الخمسينيات. إذ أنشيء عام ١٩٥١ برنامج الأمم المتحدة الموسع للمساعدات الاقتصادية والفنية "U N D P" بصندوق مالي مستقل، وتبعه أيضاً عدة برامج مماثلة عبر وكالات منظمة الأمم المتخصصة ووفقاً لأهدافها المتعددة.

لعل اقتحام منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها هذه البرامج في الخمسينيات وبشكل مطرد فيما بعد جاء نتيجة لشعور دولي بضرورة التخفيف من الصراع القائم بين الدولتين العظميين، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، على التدخل في شئون دول العالم الثالث الداخلية وسعي كل منهما لتوسيع نطاق نفوذه وتأثيره

على العالم.

أما دور بعض الدول الأوروبية في مجال تقديم المساعدات الفنية والاقتصادية للدول النامية فقد كان بالبدء محدوداً ومتواضعاً بسبب حاجة الدول الأوروبية نفسها إلى إعادة البناء والتعمير، ولكن تطور هذا الدور فيما بعد باتجاه بعض الدول الصديقة وبخاصة تلك التي كانت تربطها بها علاقات سابقة خلال مرحلة الاستعمار أو الانتداب.

٦ـ بروز دور الدول النامية:ـ

أما الملفت للنظر فإن عقدي السبعينيات والثمانينيات قد شهدا تحولاً جذرياً في حجم ومسارات المساعدات الاقتصادية والفنية بين الدول بحيث بدأت تتضاءل برامج المساعدات الاقتصادية والفنية التي تقدمها الدول الصناعية الكبرى لدول العالم الثالث، باستثناء ما كانت تقدمه ولا تزال الولايات المتحدة الأمريكية لدولة إسرائيل، وبالمقابل قيام بعض دول العالم الثالث بتبادل الخبرات فيما بينها وتقديم المساعدات والتسهيلات المالية للعديد من الدول النامية.

ويلاحظ بشكل خاص بروز دور الدول العربية النفطية في تقديم المساعدات المالية الضخمة وتوفير التسهيلات الضرورية عن طريق المؤسسات المالية والاقتصادية التي كانت قد أنشأتها خصيصاً لمشاريع التنمية. وكلمة حق تقال بأن لدولة الإمارات العربية المتحدة سجلاً مرموقاً في مشاركتها ومساهمتها في العديد من مشاريع التنمية في دول العالم الثالث والعمل على إنجاحها.

وفي هذه الحقبة بالذات، أي عقدي السبعينيات والثمانينيات، جرت محاولات من قبل بعض دول المجموعات الصناعية المتقدمة وبعض دول العالم الثالث لإقامة حوارات فيما بينها في إطار ما سمي حوار دول الشمال ودول الجنوب، وذلك

بهدف دراسة مشكلات الهوة القائمة بينهما والسعي على تلمس الوسائل الكفيلة لتسريع عمليات نقل واستيعاب التكنولوجيا المتقدمة من قبل دول الجنوب، أي دول العالم الثالث.

انطلاقًا من هذه التجارب كلها، وبتأثر بالغ بالنموذج الغربي للإنماء، بدأت تتبلور أكثر وأكثر مفاهيم ومعايير جديدة يمكن الاعتماد عليها في تحقيق خطط ومشاريع التنمية المنشودة. فما هي هذه المقومات أو المؤشرات التي يمكن بموجبها توجيه التنمية وتقويم نتائجها؟

٧ـ مقومات التنمية ومؤشراتها الأساسية:ـ

هي كالتالي:

أولاً ـ الدعوة للتطوير العلمي والتكنولوجي:

ليشمل: اعتماد العقلانية والترشيد منهجًا، اكتساب المعرفة وتعميم فوائدها، القيام بالأبحاث العلمية، استيعاب التكنولوجيا المتقدمة وتطويرها.

ثانيًا ـ الارتقاء بالمستوى المعيشي وتحقيق الرفاهية:

ليشمل: استغلال الموارد الطبيعية والبشرية بالشكل الأمثل، تشجيع التصنيع وتنويع مصادر الثروة، توفير المرتكزات الأساسية للبنية التحتية، سعي الحكومات والمؤسسات الخاصة إلى الارتقاء بالمستوى المعيشي، ووضع السياسات والبرامج الملائمة لمحاربة التخلف والتغلب على الفقر.

ثالثًا ـ توسيع قاعدة المشاركة ودعم الانصهار الوطني:

ليشمل: التوعية بأهمية العمل الجماعي، انتشار الرغبة في العمل، احترام حقوق الإنسان، حرية التعبير المسئول، ربط عمليات صنع القرار بمصالح

المواطنين، برامج توعية وطنية، تفعيل دور مؤسسات التعليم والإعلام في عملية التنشئة الوطنية.

رابعًا ـ التركيز على تنمية الموارد البشرية:

ليشمل: إنشاء المؤسسات التعليمية والتدريبية على كافة المستويات، لارتقاء البرامج التعليمية وتطويرها، التركيز على النوعية وليس الكمية، الربط بين البرامج والاحتياجات الفعلية للمجتمع، دعم البحوث والدراسات العلمية وتطويرها.

خامسًا ـ تطوير المؤسسات وتعزيز منعتها وقدراتها:

ليشمل: إنشاء وتطوير الهياكل التنظيمية الضرورية، التركيز على دور إدارات الأبحاث والتنمية وتطويرها، توفير المرونة في المؤسسات للتجاوب مع المتغيرات، اعتماد الترشيد والعقلانية في سلوكيات المؤسسات، التوجه الإنمائي والتطويري لدى المؤسسات، وتشجيع العمل الإبداعي ودعمه.

سادسًا ـ اعتماد منهجية التخطيط ووضع الخطط:

ليشمل: إعداد الخطط المتوازية والمتكاملة، تحديد الأهداف والأولويات، توفير القدرات المادية والبشرية للتنفيذ والمتابعة والتقويم، دعم المبادرات الفردية، وتنشيط القطاع الخاص.

إن تطبيق هذه المعايير أو الدلائل يقوم على استخدام منهج المقارنة النسبية، باعتبار أن التنمية كمرتبة حسابية محددة تبقى مسألة نسبية ولا تتوقف عند نقطة ثابتة. فيقال إن الأمة أو المنطقة أو المجتمع يمكن اعتبارهما في مرحلة انتقالية بين التخلف والتقدم. وهناك العديد من الجداول في كتب التنمية والدوريات الدولية والإقليمية التي تحدد منزلة كل من الدول وفق معايير معينة، غالبًا ما تكون اقتصادية بحتة. فالدول الأكثر تقدمًا، معروفة لديكم، وهي الدول الصناعية الكبرى.

أما بعد انهيار النظام الشيوعي والكتلة الشيوعية، فلا شك أن القوائم الجديدة التي ستوضع ستشهد تغيراً جذرياً بمراتب هذه الدول. ومن المحتمل أن تبرز الدول العربية النفطية بمرتبة عالية، ربما تلي الدول الصناعية الكبرى.

بغض النظر عن الجداول الإحصائية حول مرتبات الدول بالنسبة للتنمية الموضوعة أو التي يمكن أن توضع، فان الأهم في هذا المجال مدى قيام دولة ما باستغلال مواردها الاستغلال الأمثل وبذلك يمكن اعتبارها أكثر نمواً من دولة أخرى. كما أن مثل هذا الاستغلال المحتمل للموارد، كما يقول جورج كانز في كتابه، إدارة التنمية، يرتبط أيضاً بمدى تطبيق وتطوير المعرفة العلمية والتكنولوجية المتوفرة(٥).

٨ـ النماذج الاقتصادية السائدة:ـ

إن طرح هذه المؤشرات الهامة لتحديد مسار عمليات التنمية وغيرها لا يقوم من فراغ بل تستوجب العملية توفر المعلومات والبيانات حول الموارد الطبيعية البشرية العائدة للمجتمع المعني. وهذا غير ممكن دون إنشاء المؤسسات العصرية الملائمة، وكذلك القيام بالدراسات والأبحاث الضرورية، وبالعمق.

إضافة إلى ذلك لابد من توضيح السياسات وتحديدها بالنسبة لخطط ومشاريع التنمية والحدود التي ينبغي أن يقف عندها أو يشارك فيها القطاع العام. ففي هذا المجال نجد أن الفكر التنموي يتمحور بحكم التجارب القائمة حاليًا على ثلاثة نماذج بشكل عام: هناك نموذج الاقتصاد الحر حيث القطاع الخاص يقوم بدور هام وأساسي، وهناك نموذج الاقتصاد الاشتراكي حيث القطاع الخاص يقوم بدور بسيط، مع التذكير بأن التطورات الحاصلة حاليًا في معظم الدول الاشتراكية هي في اتجاه الحد من هذا النظام أو إلغائه، وهناك نموذج النظام المختلط الذي يجمع بين الاثنين، والذي يبدو أنه الأكثر رواجًا في وقتنا الحاضر.

والاتجاه المعاصر قبل انهيار الشيوعية في أوروبا يقوم على التوسع في مشاريع الاستثمار التي تشارك فيها الدولة القطاع الخاص بنسب معينة، وتتراوح درجات هذه النسب ومدى تأثيرها وفقًا لماهية وطبيعة المشاريع المطلوبة، من جهة، والإمكانيات المتوفرة لدى المجتمع المعني، من جهة أخرى. ويمكن الإكتفاء بالقول إن المعطيات الاقتصادية من موارد مادية وبشرية خاصة بكل دولة تفرض عليها بالتالي اختيار السياسة والمسار الاقتصادي الأنسب لها.

كما أن الدول النامية في معظمها في هذه المرحلة من تطورها تحتاج إلى تدخل

الدولة في القيام بالمشاريع الإنشائية الضخمة وكذلك في دعم للقطاع الخاص وتنشيطه. ولا يزال الوضع يشير كما يقول الكاتب الكبير الأستاذ/ محمد حسنين هيكل، برده على الدعوات المطالبة في مصر مؤخرًا ببيع مشاريع القطاع العام وتقليص دوره وأنشطته، إلى أن هناك متسعًا في المجال لكل من القطاع العام والخاص معًا ولا ينبغي بالضرورة أن تكون العلاقة فيما بينهما علاقة تنافسية بل تكاملية(٦). هذا القول ينطبق على معظم الدول النامية.

٩ـ مأزق التنمية:

بعد هذا العرض الموجز لواقع التنمية وتطوراتها في الحقبة المنصرمة، لنسأل هل وصلت التنمية إلى مأزق؟ وهل هي بالفعل مفقودة؟

غلب في الكثير من أدبيات التنمية استخدام مصطلح التنمية المفقودة للدلالة على النتائج السلبية التي وصلت إليها خطط ومشاريع التنمية في العديد من الدول النامية(٧). قد يكون لهذا الانطباع أو لهذا الموقف بعض ممن يبرره، ولكن ليس إلى هذه الدرجة من التشاؤم وربما من المبالغة والتجني، خصوصًا إذا نظرنا إلى التنمية على أنها مشروع حضاري واجتماعي وإنساني بعيد المدى.

أخذت عمليات التنمية في الدول الأكثر تقدمًا وبالأخص في أوروبا قرونًا عديدة حتى توصلت إلى تحقيق الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي، والتقدم التكنولوجي الذي تنعم به حاليًا. بدأت هذه المسيرة الطويلة مع إطلالة عصر النهضة والتنوير "Enlightment" في القرن السادس عشر، مرورًا بعصر الثورة الصناعية التي انطلقت في أوائل القرن السابع عشر بأوروبا، وتوصلاً لعصرنا الحاضر الذي يشير إلى دخول هذه الدول مجتمع ما بعد المجتمع الصناعي "Post-Industrial".

فالافتقار إلى التنمية الحقيقية والمطلوبة في أكثرية الدول النامية ليس وليد فشل مشاريع التنمية خلال هذا القرن، وإنما له خلفياته التي تعود إلى حد كبير إلى مراحل ما قبل تحقيق الاستقلال السياسي وما أفرزته من آثار سلبية من الصعب إزالتها بالسرعة المطلوبة.

في مجمل هذا التحليل يتضح مدى المأزق الذي وصلت إليه التنمية كمفهوم وتجربة، وبالتالي مدى خطورة هذه المرحلة التي تمر بها الدول النامية في سعيها لتحقيق التنمية المنشودة. فإن أحسنت هذه الدول الاختيارات، وجندت الإمكانيات، وطورت القدرات تمكنت من تصحيح مسار التنمية وتوجيهه وجهاته الصحيحة، معبرة بالعبر والدروس من التجارب السابقة للاستفادة منها في المرحلة المقبلة التي تشير دلائلها إلى أنها ستشهد تغييرات وتطورات جذرية.

فما هي هذه المستجدات وما يمكن أن تأتي به من انعكاسات على التنمية؟

الجزء الثاني: التطورات المستجدة وأثرها في التنمية:

١ـ محطات سابقة هامة في مسيرة التنمية:

بانتقالنا إلى الشق الثاني من هذا البحث والمتعلق بالمستجدات الحاصلة على صعيد التطورات الدولية وأثرها على واقع التنمية ومستقبلها، لابد من التأكيد على الحقائق الثلاث التالية:-

أولاً: إن العالم اليوم يعيش أحداثًا وتطورات متداخلة ومتشابكة وذات أبعاد شمولية تؤثر نتائجها على جميع دول وشعوب العالم بشكل لم يسبق له مثيل.

ثانيًا: إن كل حادثة أو ظاهرة جديدة لا يمكن تحليلها ورصد نتائجها بمعزل عن مسبباتها والخلفية والجذور التي انبثقت منها.

ثالثًا: لا يمكن أيضًا عند تحليل تلك الحادثة أو الظاهرة التوقف عند نقطة معينة في الزمان والمكان، بل ينبغي الاستشراف والتبصر بما يمكن أن تحدثه من إفرازات ومضاعفات جانبية ومن تأثيرات مستقبلية.

تاريخ الإنسانية وخصوصًا تطور الفكر فيه يشهد أنه سلسلة من الأحداث المتلاحقة والمتراكمة.

ففي خلفية نشوء فكرة التنمية وتطورها فيما بعد إلى قضية هامة استأهلت باهتمامات شعوب العالم كافة، كانت البداية أو المحطة الأولى في قيام بعض الدول الصناعية الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية، كما أشرنا سابقًا، بطرح فكرة تقديم برامج من المساعدات الاقتصادية والفنية للدول المستقلة والناشئة حديثًا لمساعدتها على التخفيف من مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية وتثبيت أوضاعها السياسية والدستورية كما تشاء.

غير أن سياسة المعونات الخارجية هذه وما أفرزته من برامج تطبيقية أحدثت سابقة في النظام الدولي وتحولاً جديدًا في نسق علاقات الدول مع بعضها البعض آنذاك، لاسيما في أحداث تعديل في المفهوم التقليدي القائم لعنصر السيادة "Sovreignty" لدى الدولة.

فمن خلال تقديم مشاريع المعونات الاقتصادية والفنية بدأت الدول الكبيرة، المانحة المساعدات، بالتدخل والتأثير في السياسات والشؤون الداخلية لبعض الدول الأخرى المتلقية المساعدات. ونتيجة لذلك وجدت هذه الدول الكبرى، مانحة مساعدات، في موقف مماثل. إذ إن الدول المتلقية المساعدات تؤثر في سياساتها الداخلية والخارجية عبر تأثيرها عن طريق اللوبي بشكل مباشر أو لاعتبارات داخلية عائدة لقوى الصراع في الساحة الداخلية على صناعة القرار وتنفيذه.

هذا ما نلاحظه جليًا من ممارسة قائمة من قبل اللوبي المتعدد المصالح الذي يمارس في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول بالنسبة لمشاريع المعونات الخارجية وغيرها من المسائل الدولية الأخرى.

أمست الدول الكبيرة تتدخل وتضغط على الدول الصغيرة بشئونها الداخلية والخارجية بموجب صيغة برامج المعونات وما تتطلبه من شروط معينة، وكذلك أمست الدول الصغيرة تؤثر في مجريات سياسات الدول الكبيرة وتحد بشكل أو آخر من مفهوم السيادة المطلقة للدول الكبرى. هناك قائمة من الأمثلة العديدة التي تدعم صحة هذا التحول، نذكر على سبيل المثال القضية اللبنانية، والكويتية، وإسرائيل، وغيرها من الدول....

أما المحطة الثانية في هذه الجولة حول نشأة وتطور فكرة التنمية من منظور النظام الدولي والعلاقات الدولية تمحورت حول مرحلة الصراع بين الدولتين العظميين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي ابتداء من الخمسينيات بالسعي والمنافسة فيما بينهما على اكتساب التأييد والنفوذ لدى دول العالم الثالث عبر ما يمكن تقديمه من برامج للمعونات على جميع الأصعدة.

إذ كلكم يتذكر ملابسات وإشكاليات مشروع السد العالي في مصر والذي كانت تتجاذبه القوتان العظميان. وفي النهاية تمكنت مصر من تشييد هذا الصرح الكبير بالمساعدة السوفييتية المالية والفنية.

ورافق هذه الحقبة خصوصاً منذ الستينيات وما بعدها قيام منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها بتأدية دور أكبر في مجال التنمية عبر تقديمها برامج من المعونات الاقتصادية والفنية والتقنية، ولربما كان هذا التحول نتيجة حتمية لبروز دول العالم الثالث بتكتل جديد عرف بحركة دول عدم الانحياز والداعية إلى تعزيز دور ومكانة المؤسسات الدولية واعتبارها أكثر أهلية وأقل إحراجًا وحساسية في

التعامل مع دول العالم الثالث.

هنا تبرز محطة ثالثة سماتها التراجع في دور الدول الصناعية الكبرى في دعم عمليات التنمية في دول العالم الثالث والتوسع من قبل المؤسسات الدولية وخصوصاً المؤسسات الإقليمية التي بدأت تظهر وتتخذ من التنمية هدفاً أساسياً لأنشطتها وأعمالها، محاولة في الوقت نفسه تحديد المبادئ والأسس التي يمكن أن تعتمد في عمليات تمويل مشاريع التنمية مع التركيز بشكل خاص على تنمية الموارد البشرية لهذه الدول.

وأخص في هذا المجال الدول النفطية العربية التي بدأت تؤدي دوراً بارزاً على صعيد المساهمة في تمويل مشاريع التنمية في أغلبية الدول الآخذة في النمو. وتشهد التقارير والإحصائيات الدولية بأن المعونات المالية التي كانت تقدمها الدول النفطية في السنوات العشر الأخيرة تجاوزت أرقام المعونات التي قامت بتقديمها الدول الصناعية الكبيرة لدول العالم الثالث، خصوصاً نسبة هذه المعونات من مجمل الناتج العام لهذه الدول.

هذه التحولات على أهميتها كانت لها إيجابياتها وسلبياتها. ففي مجال الإيجابيات، أثرت مسيرة التنمية في بلورة مفاهيم جديدة في العلاقات الدولية لمصلحة الدول الناشئة، وساعدت في إقامة مؤسسات وأنظمة جديدة للتعاون الدولي في مجالات التنمية وتبادل الخبرات. كما أنها أسهمت على الصعيد الداخلي لبعض الدول القادرة في تسريع عمليات التنمية لديها خصوصاً في بناء وتطوير بنياتها التحتية وإقامتها المؤسسات التعليمية والتدريبية والبحثية لتطوير قدرات ومهارات القوى البشرية لديها.

وفي المقابل من السلبيات يمكن إيجاز القول بأن الحقبة الماضية في ظل النظام الدولي القديم لم تحقق الاستقرار على الصعيد الدولي في المجالين السياسي

والاقتصادي، مما أثر سلباً على مسيرة التنمية بشكل عام وحد من طموحاتها في معظم دول العالم.

أما الآن فنحن أمام أحداث جسام، وتطورات جذرية، ونظام دولي جديد. فما هي هذه المستجدات وكيف يمكن أن تؤثر في مسيرة التنمية ومستقبلها؟ هذا هو السؤال المطروح.

٢ـ التحولات الجديدة وأثرها على التنمية:

من الأحداث الهامة والتطورات الجذرية الحاصلة على المسرح الدولي منذ نهاية عقد الثمانينيات ومطلع التسعينيات تبرز التحولات التالية:ـ

أولاً: شيوع فكرة التخصيص أو التخصصية (Privatization):

شهد الفكر الاقتصادي المعاصر تحولاً في السياسات الاقتصادية المعتمدة وخصوصاً تلك التي عاشت مرحلة التجارب للنموذج الاشتراكي ونتائجه السلبية. فقد برز اتجاه قوي في بعض دول العالم الثالث وبتأثير خارجي يدعو إلى إعادة بعض المشاريع الاستثمارية والخدماتية إلى القطاع الخاص. أي بعبارة أخرى تقليص دور القطاع العام وخصوصاً في المجالات الاقتصادية والمالية المشتركة. هذه الفكرة برزت بقوة من أجل السعي لتحسين الأداء وتوفير الطاقات المادية والبشرية لدى الدول الآخذة في النمو.

وإذا سلمنا بتصويب هذا الطرح، نجد من الناحية العملية أن هناك كثيراً من المشاريع التي لاتزال تحتاج إليها دول العالم الثالث في مجال بناء واستكمال بنيتها التحتية، حيث يصعب على القطاع الخاص تمويلها أو تحمل مخاطر تكلفتها الكبيرة. ولذا سينتج في حالة التحول نحو التخصصية في هذا المجال مزيد من سياسة الدعم التي ستلتزم بها الدولة تجاه القطاع الخاص، الأمر الذي يتعارض

كلياً مع الأهداف الرئيسية التي من أجلها طرحت أصلاً فكرة التخصصية.

إضافة إلى ذلك فان مشاريع التنمية في دول العالم الثالث تعاني أكثر ما تعانيه من سوء الإدارة لديها سواء أكانت في القطاع العام أو في القطاع الخاص. فالقطاع الخاص ليس بمعزل عن هذه الظاهرة. وعليه لن يمكن تحقيق النتائج المتوخاة من الممكن تحقيقها وتصحيح الخلل القائم إلا عبر مواجهة صريحة للتغلب على المشكلات الإدارية في المؤسسات الحكومية والخاصة معًا، لبناء إدارة متطورة، أي تحقيق قيام إدارة التنمية.

ثانياً: انحلال الكتلة الشيوعية وانهيار النظام الشيوعي بكامله:

تطورات جسام حدثت في الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية ابتداء من مرحلة الغلاسنوست والبيرويسترويكا التي ظهرت في الاتحاد السوفييتي بقيادة الرئيس ميخائيل جورباتشوف، وما تبع هذه السياسة من انفصال دول الكتلة الاشتراكية، واتحاد الدولتين الألمانيتين، وأخيراً قرارات إلغاء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي.

ورافق كلاً من هذه التطورات المذهلة قضية بمنتهى الوضوح وهي التحول نحو مجتمع السوق والدعوة إلى تحقيق الرفاهية عن طريق المشاريع الإنمائية والاجتماعية لدى هذه الدول. وكذلك بروز الحاجة الماسة لتوفير المعونات المالية والاقتصادية والفنية للاتحاد السوفييتي. فبينما كان الاتحاد السوفييتي في مطلع الخمسينيات الدولة الثانية في تقديمها المساعدات الخارجية خصوصاً للدول الشيوعية وبعض الدول الصديقة، إذ به الآن بأمس الحاجة إلى مثل هذه المعونات بالرغم من موارده الطبيعية الغنية.

هذا التطور الحاصل في الساحة الدولية هام وأساسي لأنه ألغى فكرة الاشتراكية كنموذج اقتصادي أمثل استحوذ فكر الكثيرين من دول وشعوب العالم

واعتبر الملاذ الوحيد لتحقيق التنمية، متحولاً إلى اقتصاد السوق، وبذلك يمكن التأكيد إلى حد كبير أن مسألة الخيار الإيديولوجي الأمثل للتنمية حسمت لمصلحة الاقتصاد الحر. إذ أصبح الآن نموذج السوق الأكثر اعتماداً ورسوخاً في إعداد ووضع خطط التنمية المستقبلية. ففكرة التخطيط الشامل والمتكامل التي كانت قائمة في الدول الاشتراكية على أساس عدم وجود الملكية الفردية قد انتهى.

ونتيجة لهذه التغييرات تجد المؤسسات الاقتصادية والمالية في الدول الصناعية وكذلك الدول العربية النفطية أسواقًا جديدة ومجدية لاستثماراتها في هذه الدول. فضلاً عن الدوافع الإنسانية ومصلحة النظام الدولي الجديد التي تدعو للمساهمة في مشاريع التنمية لدى هذه الدول لكي تتجاوز هذه المرحلة الدقيقة والمصيرية في تاريخها.

ثالثًا: بروز دور التكتلات الاقتصادية:-

وبموازاة هذه التطورات المتسارعة على الساحة الدولية بدأت ملامح المستقبل تشير إلى بروز تكتلات اقتصادية بديلة عن التكتلات السياسية والأمنية.

هاهي أوروبا على طريق الاندماج الاقتصادي الكامل بعد أن تم توحيد ألمانيا. والاتحاد السوفييتي بعد تفككه يتوجه مع بعض دول الكتلة الشيوعية سابقًا إلى إقامة سوق اقتصادية مشتركة وتعاون وتنسيق اقتصادي فيما بينهم. ولقد سبق ذلك إقامة مجلس التعاون الخليجي عام ١٩٨٠. وهناك توجه لتشكيل سوق مشتركة لأمريكا الشمالية تضم الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسيك، وحديثًا يجري الحديث حول تعزيز عرى التعاون الاقتصادي بين دول الشرق الأقصى بقيادة اليابان.

إذن العالم يتجه وبخطى سريعة نحو التجمع في كتل دولية مشاركة يحل فيها

الصراع بين القوى الاقتصادية وتوجهاتها التنموية محل القوى العسكرية التي كانت مهيمنة سابقًا على الساحة الدولية. إن هذا التحول لاشك سيعطي التنمية دعمًا قويًا، خصوصًا عند انحسار اعتمادات الإنفاق العسكري وتحولها نحو خطط ومشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وعلى ضوء هذا التوجه الجديد فلابد من أن تقوم المؤسسات المالية والاقتصادية بدور أكبر وفاعل في المرحلة المقبلة.

رابعًا: الدعوة لإقامة نظام عالمي جديد:-

نقطة الثقل في التطورات الجذرية التي طرأت أخيرًا وبالتحديد منذ حوالي سنة هي في طرح مشروع نظام دولي جديد يقوم على الدعوة للارتقاء بمفهوم الشرعية الدولية وتعزيز أدواتها.

في أعقاب انهيار وانحسار النظام السابق الذي كان قائمًا على توازن القوى بين الجبارين، والتقارب العملي الذي نتج عن التعاون بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي في أعقاب اجتياح العراق للكويت ظهرت مواقف جديدة واتخذت قرارات جسدت فيما جسدته رؤية جديدة تدعو لحل المنازعات الدولية بالتضامن في وجه العدوان، والعمل على تخفيف ترسانة الأسلحة ومراقبتها، والتعامل الجدي مع قضايا العالم وأزماته بروح من العدل والإنصاف.

ويقول الدكتور سليم الحص في هذا الصدد أن حرب الخليج كونت أول امتحان لهذا النظام بحيث اجتازه بنجاح، وخرجت معه الولايات المتحدة الأمريكية، راعية هذا النظام الجديد، في موقع الدولة العظمى والأكثر تأثيرًا في مجريات الأحداث على الساحة الدولية(٨).

ولقد حدد الرئيس الأمريكي جورج بوش، معالم هذا النظام في خطاب ألقاه

بتاريخ ١٣ نيسان ١٩٩١ في قاعدة مونتجمري الجوية في الاباما، حيث قال «إن النظام العالمي الجديد لا يعني تنازلاً عن سيادتنا الوطنية أو تخليًا عن مصالحنا. إنه ينم عن مسؤولية أملاها علينا نجاحنا. وهو يعبر عن وسائل جديدة للعمل مع الأمم الأخرى من أجل ردع العدوان وتحقيق الاستقرار والازدهار، وفوق كل شيء تحقيق السلام. إنه ينبع من التطلع إلى عالم مبني على التزام مشترك بين الأمم، كبراها وصغراها، بمجموعة من المبادئ التي ترسو عليها علاقاتنا: التسوية السلمية للنزاعات، التضامن في وجه العدوان، تخفيف ترسانات الأسلحة ومراقبتها، والتعامل العادل مع كل الشعوب(٩).

ويستطرد الرئيس بوش قائلاً «هذا النظام، الذي يتجلى بالقدرة على العمل المشترك، اجتاز الامتحان الحقيقي في حرب الخليج»(١٠).

لسنا في صدد التوسع في بحث خلفيات هذا المشروع وإمكانيات نجاحه، وإنما يكفي التأكيد على أن هذا النظام المقترح هو في بدايته ويشكل حلمًا تسعى له دول العالم قاطبة من أجل تحقيق الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، توصلاً إلى تحقيق السلام الحقيقي في العالم. فهو في جوهره يتلاقى مع فلسفة وانطلاقات التنمية كمشروع حضاري للخروج من الحروب والأزمات وبناء مجتمع أفضل وأقوى على الصمود والتطور.

ومن مصلحة المعنيين بالتنمية ومستقبلها أن ينجح هذا النظام الدولي الجديد لأنه بالنتيجة عبر تصديه ومحاولاته إيجاد الحلول للمشكلات المستعصية من دولية وإقليمية سيخلق الأجواء والمناخات الأكثر ملاءمة للتنمية ويوفر أيضاً طاقات وجهودًا بشرية ضخمة.

كما أن التطلع نحو إنجاح هذا النظام الجديد المقترح يتطلب بالدرجة الأولى دعم منظمة الأمم المتحدة بصفتها تسجد إرادة المجتمع الدولي وملاذه في السلام

والتنمية.

نحن أمام حقبة تاريخية نادرة وصعبة في آن واحد. فإذا تمكنت الأسرة الدولية من تثبيت دعائم هذا النظام الجديد وتفعيل دوره، سيكون مستقبل التنمية زاهرًا وإيجابيًا. كما أن الطريق ستبقى شاقة وطويلة وخصوصًا بالنسبة للتوصل إلى الحلول المطلوبة لأزمات الشرق الأوسط القائمة، بالرغم من التئام المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط في الوقت الحاضر. فعقد التسعينيات بالنسبة لدول منطقة الشرق الأوسط، بنظرنا سيكون المحك الرئيسي لنجاح أو فشل النظام الدولي الجديد. نأمل أن تكون انطلاقته قائمة على القيم السامية وأسس العدل والحق التي خير ما تجسده العقيدة الإسلامية وتاريخ حضارتنا العربية العريقة.

فنحن مدعوون جميعًا للمشاركة في بناء هذا النظام الدولي الجديد ودعمه. أما دون هذه الأماني فتحديات كبيرة ينبغي مواجهتها وإيجاد الحلول الملائمة لها من أجل تحقيق التنمية المنشودة، محور هذا اللقاء. فما هي هذه التحديات؟؟

٣ـ التحديات القائمة:

إذا تجاوزنا تأثيرات التطورات الدولية وانعكاساتها على التنمية، ولنفترض أنها ستكون في محصلتها إيجابية، تبقى العملية التنموية لدى الدول الآخذة في النمو، تواجه عددًا من التحديات كالآتي:

أولاً: التحدي الماثل في سرعة التطورات والمستجدات:

تقوم النظرية التنموية كما أشرنا سابقًا في تحديد مفهومها على عنصر اختصار أو تسريع عمليات النمو والتطوير المطلوبة. أي سلوك طريق القادومية. فهناك سباق قائم باتجاه هدفين استراتيجيين الأول يتمثل في ردم الهوة أو الوصول إلى مرتبة معينة، نحددها بشكل إجمالي في اللحاق بركاب الدول المتقدمة

ومنجزاتها. والهدف الثاني يكمن في أن الوصول إلى ذلك الهدف أو عملية الاختصار المحققة قد لاتفي بالحاجة، لأن المتقدم غير ذلك هو أيضًا في هذه المرحلة قد حقق مزيدًا من التقدم والتطور. وبذلك تصبح القفزة المحققة في خطة من خطط التنمية لدى دولة ما خلال حقبة من الزمن عند نهايتها متخلفة عن واقع التطورات والمستجدات القائمة، وعلى سبيل المثال، هذا ما نلاحظه جليًا في تكنولوجيا المعلومات وأدواتها التي تشهد تطورات متسارعة تؤثر بشكل مباشر في خطط ومشاريع التنمية من حيث توفير المعلومات الدقيقة والمساعدة على اتخاذ القرارات الصائبة.

السؤال الصعب المطروح والذي يكون تحديًا للمعنيين بالتنمية خصوصًا المؤسسات المالية والاقتصادية والبحوثية يكمن في إيجاد الاستراتيجية الملائمة لمتابعة المستجدات في مواقعها وأزمنتها والاستشراف بشأنها لكي تبقى عمليات التنمية في مجريات الأحداث وتفاعلاتها لا متخلفة عنها أو على هامشها.

ثانيًا: التحدي الماثل في بناء النظرية أو النموذج التنموي المطلوب:

إذ لا يوجد نموذج واحد للتنمية، وما الإشارة سابقًا بالنسبة لصوابية نموذج الاقتصاد الحر أو اقتصاد السوق إلا من زاوية أنه يكون إطارًا مؤسساتيًا لتحديد دور ونطاق الدولة في برامج التنمية، ولا يغني بالتالي عن التفتيش عن النموذج التطبيقي الملائم الذي تحدد بموجبه عناصر برامج التنمية وعلاقاتها بعضها ببعض.

نحن في هذا المضمار كنا وما زلنا نستورد نماذج من الخارج عائدة لبناء الهياكل التنظيمية، ورسم السياسات، ووضع النظم والإجراءات، خصوصًا من تجارب الدول الغربية ذات النظام الاقتصادي الحر. فإذا كانت سمة التباين حالة طبيعية لواقع الشعوب وتصرفاتهم فلماذا إذن الأخذ بنموذج خارجي خاص هو

بحد ذاته نتاج تطورات حضارية وتاريخية مرت بها تلك المجتمعات الغربية وعبر حقبات طويلة.

وإن كان ذلك النموذج ليتلاءم مع مصالحها ويرهن فاعليته فليس بالضرورة يصلح تطبيقه على الدول النامية بشكل مطلق. وأكبر دليل على صحة هذا الاستنتاج ما نلاحظه من فشل وتعثر خطط ومشاريع التنمية القائمة على تلك النماذج الغربية في أغلبية الدول النامية.

إن النموذج الغربي للتنمية، أو أكثر دقة للنمو الاقتصادي، قائم على معطيات من المحددات "Parameters"، أي فرضيات ليست بحاجة إلى البرهنة، كوجود مستوى تكنولوجي معين، ويد عاملة متدربة، واستقرار اقتصادي، واستمرارية للمؤسسات، وقدرات مالية، وتنافس اقتصادي، وسلوكيات عقلانية، واستثمار أقصى للوقت، وغيرها من الأمور المتصلة بأساسيات النظام القائم واستمراريته.

بينما نرى بالمقارنة أن للدول النامية من المحددات غير تلك الواردة في النموذج الغربي، أو على الأقل لا تشاركها الرأي في تصنيفها أولويات من حيث درجات أهميتها. ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه من الضروري لضمان إمكانية نجاح النموذج الغربي أو الأخذ ببعض جوانبه في حالة اعتماده العمل على إحداث التغيير اللازم في المحددات القائمة في الدول النامية للتوافق مع تلك المتوفرة في الدول الغربية. وعلى سبيل المثال، لننظر كيف نتعامل مع عنصر الوقت وأية درجة من الأهمية تولي بالنسبة لعمليات الإنتاج في المجتمع، وهناك أمثلة عديدة على هذا الشكل. وقد يتطلب معالجة هذه المحددات لتعديلها وتوجيهها وجهاتها الصحيحة الكثير من الوقت والجهد. كما أن مصلحة الدول النامية في بعض الحالات عدم إجراء التغيير في بعض من هذه المحددات لديها بسبب مكانتهما الحضارية والقيمية وما يمكن أن توفرها من قوة مؤثرة وهامة تساعد على طرح نموذج التنمية

المطلوب فعلياً.

السؤال الكبير الذي لا يزال مطروحاً بشكل شمولي، هو أية تنمية تريد هذه الدول؟ وبعبارة أخرى أي تصور لديها لمستقبلها وكيف السبيل إلى تحقيق ذلك؟ الجواب على هذا السؤال أو الأسئلة هذه يتطلب عملية إبداعية يقوم بها أبناء البلد المعني في محاولة توفق بين متطلبات الأصالة القائمة في حضاراتهم وقيمهم، من جهة، وبين ضروريات التجديد والتحديث من جهة أخرى. وبذلك يتكون لكل مجتمع نموذج للتنمية خاص به وليس بالضرورة التطلع نحو نموذج واحد يتم تعميمه على الجميع كما هو متوخى في المحاولات القائمة.

ثالثاً: التحدي الماثل في تطوير المؤسسات وخصوصاً التعليمية والبحوثية:

إذا كانت محاولات تطوير الأجهزة الإدارية والقوى العاملة لديها ممكنة عبر الاستفادة من الخبرات المتقدمة وتفعيل برامج التأهيل والتدريب المناسبة، إلا أن المؤسسات التعليمية العالية وكذلك مؤسسات البحث العلمي تتحمل مسؤوليات ضخمة وأكبر في إنجاح عمليات التنمية والتطوير الحضاري، وذلك يشكل تحدياً لها من حيث ضرورة السعي للارتقاء بمهامها ومسؤلياتها إلى مستويات أعلى من الأداء الفعال والعمل الإبداعي.

إذ، في نهاية المطاف، مصير التنمية لدى كل مجتمع يتوقف على صياغة الإنسان فيه، وعلى المدى الذي ساعدت وتساعد فيه هذه المؤسسات التعليمية ببناء هذه القدرات واستيعاب التكنولوجيا الجديدة والتفاعل معها عطاء وتطويراً.

وتتجه المؤسسات الدولية وتوجهات برامج المعونات الاقتصادية والفنية إلى التركيز على دور وأهمية تنمية الموارد البشرية لدى الدول النامية باعتبارها المنطلق الأساسي في العملية التنموية وغاياتها في آن واحد. فتخطيط القوى البشرية

والقوى العاملة يكون المدخل العملي لانطلاقة عمليات التنمية المطلوبة، إنما دونها العديد من المشكلات ـ التحديات التي ينبغي التغلب عليها وتجاوزها.

هذه التحديات كلها هامة وأساسية تتحمل النخبة والقوى الفكرية والمؤسسات التربوية والإنمائية مسؤوليات مواجهتها في الدرجة الأولى.

فهل تتمكن هذه القوى من مؤسسات وأفراد من التصدي لها وإيجاد الحلول الملائمة لها؟ وكيف؟

سؤال هام، تتطلب الإجابة عنه وضع استراتيجيات وخطط محكمة من أجل تحقيقه.

خلاصة:

في نهاية هذا البحث أخلص إلى القول أن موضوع التنمية واستشراف آفاقه المستقبلية لا حدود له على ضوء ما تشهده الإنسانية من مشكلات تستوجب التخطيط لمواجهتها على كل الأصعدة من دولية وإقليمية وقطرية وذلك بسبب الأزمات المحدقة التي تواجه العالم وقائمة بنودها:

* استنفاد الموارد الطبيعية وخصوصاً الطاقة في فترة زمنية محدودة،
* التصحر وانعكاساته على الأمن الغذائي،
* مديونية دول العالم الثالث وتأثيراتها السلبية الاقتصادية والاجتماعية،
* مشكلات التلوث،
* عدم الاستقرار السياسي،
* الانفجار السكاني،
* التضخم الاقتصادي،
* إمكانيات الانفجار النووي

وغيرها من المعضلات الشائكة التي تواجه العالم وتطرح على النظام الدولي الجديد عبر مؤسساته الشرعية الدولية وتعاون دول وشعوب العالم كافة مسؤولية التصدي لها والتغلب عليها.

فهل نحن نكون جاهزين للمشاركة في تحمل هذه المسؤوليات الضخمة الملقاة علينا جميعاً شئنا أم أبينا؟ هذا هو السؤال الذي سأقف عنده في هذا اللقاء الكريم، مفسحاً في المجال أمام استفساراتكم وأسئلتكم القيمة، ومكرراً شكري على دعوتكم الكريمة وتلبيتكم حضورها.

والله ولي التوفيق

الهوامش :

(١) فيصل السالم، الإدارة العامة والتنمية: الكويت، جامعة الكويت، ١٩٧٨، ص ١٣ . ١٤.

(٢) American Society of Public Administration,

Public

Review. Administration

Roscoe Martin,

"Public Administration is a Neglected Fator in Development" Summer1956

(٣) هذا الجزء مقتبس من مقالة سابقة مشتركة للمؤلف. راجع معهد التنمية الإدارية، الإدارة والتنمية، الدكتور اسكندر بشير والدكتور زهير الكايد، «مقدمة في التنمية»، أبوظبي، ٢ يوليو ١٩٩٠، ص، ٤٤.

(٤) إن مشروع النقطة الرابعة الذي كان متداولاً به في أوائل الخمسينيات تغير مصطلحه في الإدارة الأمريكية إلى عدة مسميات في فترات لاحقة وأصبح الآن معروف بالوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (AID).

(٥) George Gant, Development Administration

Comcepts, Goals, Methods, The University of Wis-

consin Press1979, P.19

(٦) الأستاذ/ محمد حسنين هيكل، «الديمقراطية نتيجة سياسية لحقائق اقتصادية واجتماعية»، الاتحاد، أبوظبي، ١٥ ابريل ١٩٩٠/ العدد ٥٧٥٩، ص٩.

(٧) جورج قرم «التنمية المفقودة» بيروت، ١٩٨٠

(٨) الدكتور/ سليم الحص، «أي نظام عالمي جديد؟»، الخليج، أبوظبي، ٢٢ سبتمبر ١٩٩١/ العدد ٤٥١٩، ص٧.

(٩) م. ن.

(١٠) م. ن.

التحولات السياسية على الساحة السوفيتية



الدكتور عبد الخالق عبدالله

القيت بتاريخ : ٢٩/٩/١٩٩١ م

سيرة ذاتية

الأستاذ الدكتور عبدالخالق عبدالله

* حصل على الماجستير في النظرية السياسية من الجامعة الأمريكية بواشنطن سنة ١٩٧٩م.

* نال الدكتوراه في علم السياسة من جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٨٥م.

* يعمل حالياً أستاذاً مساعداً في جامعة الإمارات العربية المتحدة.

* رئيس تحرير مجلة شؤون اجتماعية.

* **له عدة مؤلفات منها:**

- كتاب العالم المعاصر والصراعات الدولية سنة ١٩٨٩م.

- كتاب التبعية والتبعية السياسية.

- بالإضافة إلى عدة بحوث ومقالات نشرت في الدوريات.

التحولات السياسية على الساحة السوفييتية

د. عبدالخالق عبدالله

موضوع المحاضرة «المستجدات السياسية على الساحة السوفييتية» هو بلا شك موضوع متشعب ومتداخل ويحتمل أكثر من قراءة ويتطلب أكثر من اجتهاد ويثير تساؤلات عديدة حول موضوعات حيوية تتعلق بالفكر والسياسة وبالديمقراطية والعلاقات الدولية ومستقبل البشرية بشكل عام. إن جميع هذه الموضوعات ذات علاقة بموضوع المحاضرة.

لذلك ونتيجة لتشعب الموضوع، بل نتيجة لخصوصيته وأهميته، فإنه لابد أولاً من طرح بعض الملاحظات التمهيدية التي تتعلق بالمعلومات والإدراكات والمفردات المستخدمة للحديث عن التحولات السياسية على الساحة السوفييتية.

الملاحظة الأولى تتعلق بالمعلومات ليس حول الأحداث الأخيرة، بل وحول الاتحاد السوفييتي بشكل عام. فعلى الرغم من وجود سيل من المعلومات المزدحمة والمتدفقة. إلا ان جميع هذه المعلومات على الرغم من غزارتها لا تبعث في النفس الاطمئنان. معظم المعلومات عن التحولات الأخيرة تبدو وكأنهامعلومات مسلوقة ومصنعة وأحادية. الأخبار تأتي مصنعة والأحداث تبدو معدة سلفاً وحتى التحليلات تبدو مجهزة ومعلبة بحيث لم يعد الإنسان المتابع قادراً على التأمل والتفكير والاستنتاج المستقل. لقد أصبحنا نردد الاستنتاجات والتحليلات الموجهة. ورغم ان هذا صحيح بالنسبة لمعظم الأحداث إلا أن هذا أكثر صحة فيما يتعلق بالمستجدات الأخيرة على الساحة السوفييتية.

ليس فقط معلوماتنا هي وحدها التي تعاني من التوجيه وتثير بالتالي التساؤلات والشكوك، بل إن إدراكنا عموماً تجاه الاتحاد السوفييتي هو أيضاً إدراك موجه ويفتقد الاستقلال. يبدو لي أن مجمل تصوراتنا وانطباعاتنا عن الاتحاد السوفييتي هو انعكاس إدراك الغرب الرأسمالي الذي كان يتعامل مع الاتحاد السوفييتي من منطلق العداء السياسي الحضاري والعقائدي. لذلك فإن صورة الاتحاد السوفييتي في أذهاننا كانت ولازالت صورة العدو. كنا ننظر للاتحاد السوفييتي، كما كان ينظر إليه الغرب، وكأنه مصدر عدم الاستقرار إنه المسئول عن كل الاضطرابات، كنا نظنه انه هو مصدر الخطر على العالم والبشرية. كنا نعتقد أن المجتمع السوفييتي مجتمع متفسخ، مجتمع أفراده كفار، أقرب إلى الشياطين الحمق الذين يعادون الدينَ وخاصة الإسلام. كان التصور الشعبي السائد لا يتجاوز في أحسن الأحوال عن التصور الساذج الذي كان يصف الاتحاد السوفييتي بانه إمبراطورية الشر. فقد زرع فينا خوف غير مفهوم تجاه الاتحاد السوفييتي. ووضعنا طوال السنوات الماضية في موقع العداء الغريزي والوجداني لكل ما كان يمثله الاتحاد السوفييتي في التاريخ. من هذا المنطلق ظلت حكومات الخليج لا تقيم علاقات دبلوماسية طبيعية مع الاتحاد السوفييتي، بل إن بعضها لازالت حتى الآن مترددة، وربما فاتها الآوان أصلاً. والملفت للانتباه أنه حتى العرب الأكثر قرباً سياسياً وايديولوجياً من الاتحاد السوفييتي كانوا يروجون لصورة مبسطة وأحادية وغارقة في الدعائية عن الحياة السوفييتية وربما كانوا رغم قربهم، أكثر الناس ذهولاً ودهشةً لما يحدث في الاتحاد السوفييتي اليوم.

كانت هذه هي الملاحظة الأولى التي تتعلق بالمعلومات والإدراكات. إن الهدف من ذكر هذه الملاحظة هو الدعوة للتمهل وعدم التسرع في إطلاق الأحكام والاستنتاجات القطعية التي ربما كانت بعيدة كل البعد عن الحقائق المتسارعة والمتداخلة أشد التداخل في الاتحاد السوفييتي.

الملاحظة الثانية تتعلق بأن العالم ككل، وليس فقط الاتحاد السوفييتي يعج اليوم، بالتحولات والتغييرات السياسية المتلاحقة والسريعة. لم يعد الإنسان قادراً اليوم على الإلمام بالأحداث المتتالية نتيجة لشدة سرعة التغيير. كل دول وشعوب العالم أصبحت تجد صعوبة بالغة في التكيف مع المستجدات والتأقلم مع التداعيات الدولية. إن معظم التحولات الجذرية التي طرأت على العالم وقعت خلال الأعوام الخمسة الأخيرة/ فجورباتشوف برز على مسرح الأحداث الدولية خلال السنوات الخمس الأخيرة، ومنذ تلك اللحظة وهو يصعق العالم بمبادراته السياسية والفكرية. وخلال هذه السنوات ازداد حضور اليابان كقوة اقتصادية ومالية وتكنولوجية عملاقة وبدأ العالم يتجه للشرق الياباني. كذلك وخلال السنوات الخمس الأخيرة ازداد إدراك العالم بجدية شروع الوحدة الاقتصادية الأوروبية وذلك مع اقتراب موعد ١٩٩٢. بالإضافة إلى ذلك ازداد خلال السنوات الزخيرة الدفع العالمي نحو الديمقراطية ونحو تأكيد حقوق وحريات الإنسان بدأت سلسلة تساقط الأنظمة الفردية والسلطوية في كل مكان. إضافة إلى ذلك فقد ازداد الحديث أيضاً عن الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة وتحولها إلى قوة فاعلة ومولدة لمعطيات اقتصادية وسياسية ذات أبعاد إنسانية وحضارية عميقة. كذلك ازداد خلال الخمس السنوات الأخيرة الوعي العالمي بمخاطر تلوث البيئة وتحولت قضية حماية البيئة إلى نسخة قائمة المشكلات الدولية التي تتطلب حلاً دولياً جماعياً. ثم إنه وخلال السنوات القريبة الماضية تسارعت الأحداث في أوروبا الشرقية وانهار جدار برلين وتوحدت المانيا وتم الاستغناء عن حلف وارسو وانتهت الحرب الباردة وتوقف سباق التسلح النووي وأعلن رسمياً عن انتهاء صراع الشرق والغرب، ذلك الصراع الذي هيمن على العالم لأكثر من ٤٥ سنة. لقد كانت جميع الترتيبات الدولية قائمة ومتمحورة حول هذا الصراع الذي اختفى وأصبح الآن جزءاً من التاريخ وكأنه لم يكن له وجود أصلاً. مع انتهاء صراع الشرق والغرب برزت الولايات المتحدة كقوة عظمى أولى. لقد كان الجميع، خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات، يتحدث عن

انهيار وانحسار الولايات المتحدة عن الساحة الدولية. كان الجميع يشير للولايات المتحدة كدولة مثقلة بالديون ومرهقة بالمشكلات الاقتصادية كمجتمع مصاب بالأزمات الخانقة والمستعصية. لقد أعلن أكثر من منظر ومفكر وباحث أن الولايات المتحدة قد دخلت مرحلة الشيخوخة. لكن فجأة حصلت الولايات المتحدة على فرص تاريخية بتجديد زعامتها وحققت انتصارات سياسية وايديولوجية ضد عدوها اللدود الاتحاد السوفييتي وتوجت ذلك بانتصارات عسكرية في حرب الخليج وأصبحت الولايات المتحدة مرة أخرى دولة متفردة تدير شؤون العالم بدون منافس. ثم أخيراً جاء الانهيار العظيم في الاتحاد السوفييتي ليفعل بذلك الفصل الأخير لحقبة سياسية بأكملها ويضع نقطة البداية لعهد جديد ونظام عالمي جديد.

إن التحولات الأخيرة في الاتحاد السوفييتي هي امتداد لهذه المستجدات التي تشكل في مجملها أحداثاً تأسيسية: تؤسس لارتباطات وتفاعلات وعلاقات دولية جديدة وتؤسس لمفاهيم وبديهيات عالمية مختلفة.

الملاحظة الثالثة تتعلق بحقيقة أنه إذا كنا بالفعل أمام تحولات تأسيسية كبرى في الاتحاد السوفييتي وفي العالم ككل فإن ذلك يتطلب أكثر ما يتطلب مراجعة للأسس الفكرية الفلسفية السائدة حالياً. إن الأفكار والتصورات الراهنية تبدو أعجز من ان تستوعب حقيقية المستجدات وأعجز من أن تستلهم دروسها وعبرها العميقة. إن المطلوب وعي شمولي جديد وإدراك سياسي بعالمية العالم. اننا نعيش عصر عالمية التفكير وعالمية المصير وعصر عالمية البقاء أو الفناء.

العالم يتضارب، ربما باكثر مما ينبغي. تقلصت المسافات واختفى بعد المكان والزمان وازداد تجانس الثقافات والحضارات وحدث تقارب هائل بين الشعوب. لقد برزت فجأة أمور بشرية مشتركة ومصالح كونية مشتركة. لم يعد هناك مجال للتقوقع. نحن أمام روابط إنسانية ومؤسساتية كونية ونحن أمام تجارب وجودية

مشتركة وأمام مشاكل حياتية وبيئية تبحث عن حلول عالمية مشتركة. عالمنا اليوم هو أكثر من أي يوم آخر عالم واحد. ونحن هنا معنيون تماماً بما يجري هناك. علينا أن ننظر في إرث البشرية جمعاء على أنه ارث لنا جميعاً وعلينا ان ننفتح على العالم. إننا اليوم أمام حقيقة أنه لا يمكن فهم التراث إلا من خلال فهم العالم.

نحتاج، أولاً، لوعي جديد ولمفردات جديدة للتعامل مع المستجدات ولفهم التحولات المصيرية من حولنا. ينبغي علينا أن نعي أنه لا يمكن التعامل مع عالم التسعينيات بمفردات الستينيات ولا يمكن فهم عالم نهاية القرن برؤى بداية القرن ولا يمكن استيعاب عبر ودروس عالم مابعد الحرب الباردة بنفس المفاهيم والمصطلحات القديمة لعالم صراع الشرق والغرب.

بدون رؤية سياسية وفكرية جديدة ستظل قراءاتنا للمستجدات الدولية متعثرة وسندفع الثمن السياسي لسوء تقييم وسوء تقدير مايجري في العالم ومايجري في الاتحاد السوفييتي.

بعد هذه الملاحظات التمهيدية حول المعلومات والمفردات، نعود للتحولات السياسية على الساحة السوفييتية. وسوجز الحديث في النقاط الأربع الآتية.

النقطة الأولى تتعلق بمن هو الاتحاد السوفييتي أو ماهو الاتحاد السوفييتي. لابد من الإشارة إلى ماهو الاتحاد السوفييتي وما يمثله الاتحاد السوفييتي ايديولوجياً وسياسياً، قبل الحديث عن طبيعة وحقيقة التحولات وأسبابها العميقة.

كان الاتحاد السوفييتي، في بداية هذا القرن، أكثر دول أوروبا فقراً وتخلفاً وجهلاً، بل إن ٩١٪ من سكانه كانوا أميين عام ١٩١٤. ثم بدأ الاتحاد السوفييتي تأسيس نفسه في عام ١٩١٧ مع تفجر الثورة البلشيفية. واستطاع الاتحاد السوفييتي رغم كل الظروف الصعبة أن ينمو ويتطور ويتجدد ويكسب معركة البقاء

كأول دولة عمالية واشتراكية في التاريخ. تعطل الصعود السوفييتي قليلاً خلال الحرب العالمية الثانية حيث كان في وضع اقتصادي وبشري مفجع نتيجة ما لحق به من دمار حيث قتل مالا يقل عن ٢٠ مليون شخص سوفييتي في هذه الحرب. لكن رغم هذا الدمار، بل ورغم الحصار الدولي الذي فرض، استطاع الاتحاد السوفييتي أن يعيد تأسيس نفسه ويحقق نجاحات اجتماعية وتقنية سريعة وتحول إلى إحدى الدولتين العظميين في العالم.

الاتحاد السوفييتي دولة مترامية الأطراف جغرافياً. انه أكبر دولة من حيث المساحة وثالث أكبر دولة من حيث السكان في العالم. تبلغ مساحته ٢٢ مليون كم*، أي حوالي ٢٠٪ من إجمالي مساحة الكرة الأرضية. الاتحاد السوفييتي هو الدولة الوحيدة التي لها حدود مع حوالي ٢٥ دولة مختلفة والاتحاد السوفييتي هو الوحيد المحاط حتى الآن بأكثر من ٢٠٠٠ قاعدة عسكرية معاونة ولازال مستهدفاً من أربع قوى نووية كبرى توجه كل أسلحتها وصواريخها النووية نحو المدن والمنشآت السوفييتية.

الاتحاد السوفييتي، لازال رغم كل الصعوبات الراهنة ورغم كل مؤشرات التراجع في النمو الاقتصادي، ثاني أكبر اقتصاد في العالم. إن إجمالي الناتج القومي السوفييتي في بداية هذا العام بلغ ٢,٥ تريليون دولار، وحتى لو صح ان هناك، تراجعاً قدره ١٢٪ مؤخراً في الناتج القومي، يظل الاقتصاد السوفييتي هو الاقتصادي الثاني بعد الولايات المتحدة ويليه بعد ذلك في الموقع الثالث الاقتصاد الياباني الذي لا يزيد إجمالي ناتجه القومي عن ٢ تريليون دولار.

١ـ الذي يجعل الاقتصاد السوفييتي بهذه الضخامة، هو أنه يملك موارد وثروات طبيعية ضخمة. فالاتحاد السوفييتي هو أكبر منتج وأكبر مصدر للنفط وهو أكبر منتج وأكبر مصدر للذهب والماس وهو أكبر منتج للفحم والحديد والنحاس. كذلك

يملك الاتحاد السوفييتي أضخم احتياطي مؤكد من الفحم وأكبر احتياطي مؤكد من الغاز الطبيعي، بل ان ٧٥٪ من إجمالي احتياطي الفحم والغاز الطبعي في العالم موجود في الاتحاد السوفييتي. والاتحاد السوفييتي يملك أكبر مناجم الذهب والنحاس والحديد والقصدير والمغنيوم والزنك... إلخ. كل هذه الموارد الاستراتيجية موجودة بكميات ضخمة في الاتحاد السوفييتي.

ثم إن الاتحاد السوفييتي ليس ضخماً بموارده وثرواته الطبيعية فحسب، بل هو أيضاً ضخم بموارده البشرية. فالاتحاد السوفييتي الذي يبلغ عدد سكانه ٣٠٠ مليون نسمة لديه أعلا نسبة تعليم في العالم. أي لديه أعلا نسبة مهندسين وأطباء وفنيين وعلماء في العالم. أكبر عدد من العلماء موجودون في الاتحاد السوفييتي، في الحقيقة ٢٥٪ من إجمالي عدد العلماء في العالم هم سوفييت. هؤلاء جعلوا الاتحاد السوفييتي يتصدر كل دول العالم في تقنيات مهمة كالليزر وتقنيات الايروديناويك والتقنيات النووية وتقنيات البصريات والتقنية الكهربائية وتقنيات الفضاء. ان الاتحاد السوفييتي يتقدم على كل دول العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة واليابان، في حقل هذه التقنيات وغيرها من التقنيات الفيزيائية المتخصصة والدقيقة.

بالإضافة إلى هذه القدرات البشرية والعالمية في هذه الموارد الطبيعية، فإن الاتحاد السوفييتي، وبالرغم من كل الصعوبات الراهنة، لازال لديه إمكانيات عسكرية ونووية رادعة: ليس فقط من خيث عدد الجنود وعدد الطائرات وعدد الدبابات والسفن الحربية والرؤوس النووية، بل أيضاً من حيث الانفاق العسكري. الاتحاد السوفييتي لازال يصرف حتى الآن مالايقل عن ٢٣٠ بليون دولار سنوياً على الشؤون العسكرية. هذا يعني ان الاتحاد السوفييتي لازال قادراً على إنفاق مليون دولار في كل دقيقة من دقائق السنة بدون توقف على التسليح. ان الميزانية العسكرية السنوية للاتحاد السوفييتي توازي حوالي نصف إجمالي الناتج القومي

لإيطاليا والتي هي سابع أكبر دولة صناعية في العالم. وتكفي الإشارة إلى ان لدى الاتحاد السوفييتي ما مجموعه ٧ بليون طن من المواد المتفجرة (ت. ن. ت.)، أي حوالي نصف إجمالي المواد المتفجرة في العالم وهي قوة كافية، لو استعملت، لتدمير الكرة الأرضية وقتل كل سكانها ٦ مرات متتالية.

بالإضافة إلى هذه القدرات والإمكانيات المتنوعة، فإن الاتحاد السوفييتي لازال يمثل قوة معنوية هائلة ليس في العالم فحسب، بل وفي كل هذا العصر. الاتحاد السوفييتي هو الذي أدخل العالم عصر الاشتراكية وهو الذي أدخل العالم عصر الفضاء وهو الذي أدخل العالم عصر الثورات وهو الذي أدخل العالم عصر التخطيط وهو الذي أدخل العالم عصر الايديولوجيات وهو الذي يقود حالياً سفينة الديمقراطية والحرية. كان في بداية هذا العصر نموذجاً اشتراكياً وثورياً والآن، وفي نهاية القرن، يقدم نفسه مرة أخرى كنموذج ديمقراطي للشعوب في العالم وخاصة العالم الثالث.

باختصار، فإن الاتحاد السوفييتي الاشتراكي سابقاً والديمقراطي حالياً، هو قوة اركازة في الحياة المعاصرة. وعلينا لكي يكون حديثنا متزناً وموضوعياً وواعياً فهم هذه الحقائق وفهم موقع الاتحاد السوفييتي وإدراك ما يمتلكه من قدرات وإنكانيات حيوية بالنسبة للعالم ككل.

النقطة الثانية تتعلق مباشرة بما جرى ويجري حالياً في الاتحاد السوفييتي. إن جوهر ما يجري في الاتحاد السوفييتي حالياً هو أننا أمام مجتمع يعيد تأسيس نفسه. نحن أمام مجتمع يحاول بناء أسس فكرية وحياتية جديدة. إنه يستبدل مفاهيمه وقوانينه ومعاييره ومؤسساته بمعايير ومفاهيم ومؤسسات مختلفة. إن المجتمع السوفييتي هو أمام اكتشاف لمعنى الحرية ولقيمة الحريات. إنه يحاول فحص قيمة الحرية وتأسيس هذه القيمة تأسيساً عملياً وحياتياً ووجودياً.

إننا أمام مجتمع لا يمانع من أن يهبط ولا يمانع من أن يحطم هامة الدولة العظمى ليكسب الحرية. إننا أمام مجتمع يسقط كل أسسه ومؤسساته ويحطم رموزه وحتى مقدساته من أجل الديمقراطية. إننا أمام مجتمع يرضى أن يفقد كل شيء للحصول على شيء واحد ووحيد هو الحرية.

لقد أكد الإنسان في الاتحاد السوفييتي أن الحرية أكثر أهمية من هالة الدولة العظمى. لقد أكد أن الديمقراطية أهم من الاشتراكية وأهم من العدالة الاجتماعية بل وأهم حتى من الوحدة الوطنية. في لحظة من اللحظات عندما تتم المقايضة بين الحرية والحياة، بين الحرية والمكتسبات الوطنية فإن الخيار يكون للحرية: لحرية الإنسان وكرامته وعفويته.

إن ما يجري في الاتحاد السوفييتي هو انتصار قيمة الحرية والديمقراطية والمشاركة على كل القيم الإنسانية الأخرى. مايجري في الاتحاد السوفييتي هو تأكيد حرية ٣٠٠ مليون إنسان من القيود البنيوية. لقد تمرد الإنسان ضد قيود النظام وأصبح يمارس استقلاليته وتلقائيته وعفويته بعيداً عن كل الأطر والتأطير.

هذا هو جوهر مايجري من تحولات سياسية على الساحة السوفييتية. نحن أمام لحظات مصيرية تتم خلالها مقايضة كل المكتسبات والمقدسات مقابل الحصول على الحريات. لذلك تبدو الأحداث صعبة، غير منطقية ولا معقولة وخارقة لكل الأعراف والأسس.

طبعاً لا ينبغي التقليل من الثمن الذي يدفعه حالياً الإنسان والمجتمع السوفييتي مقابل تأكيد قيمة الحرية والاستقالية والعفوية. الحرية لا تأتي عرضاً وصدفة ولا تنزل على المجتمعات فجأة. للحرية ثمن، وعادة ما يكون الثمن باهظاً. الانتقال للحرية، تصاحبه صعوبات وعذاب واضطرابات. لذلك نلاحظ أن الأحوال المعيشية السيئة ازدادت سوءاً والأوضاع الحياتية الصعبة ازدادت صعوبة. وأصيب الكبرياء

السوفييتي بالإذلال. المقدسات فجأة تحولت إلى مدنسات. كل ذلك يأتي كجزء من ثمن الحصول على الحرية. لكن الأهم عن كل ذلك أن المجتمع السوفييتي أخذ أيضاً يعيش حالة خوف جماعي هناك خوف من حدوث المزيد من التردي، وخوف من المستقبل، الجمهوريات تخاف من بعضها البعض، الأقليات تخاف من بعضها البعض، إضافة إلى الخوف النفسي الناجم عن الفلتان الأمني في العديد في المناطق. لكن الخوف الأكبر والحقيقي الآن هو الخوف من الجيش الذي يبلغ قوامه ٣,٥ مليون جندي ويملك كل أنواع الأسلحة التقليدية والنووية. هذا الجيش يعيش حالة متردية ويعيش هو الآخر حالة رعب. ولو قرر هذا الجيش ان يزحف فانه سيحدث مجزرة بشرية مروعة لانه سيصطدم بجماهير حريصة على تأكيد استقلاليتها وعفويتها وحرياتها.

نأتي إلى النقطة الثالثة والأخيرة والتي تتعلق بالسؤال إن كان الاتحاد السوفييتي يعيد تأسيس نفسه، فهل إعادة التأسيس اضطرارية أم اختيارية؟ هل هي حتمية أم انتقائية؟ بمعنى آخر ماهي الأسباب الرئيسية المحركة لعملية إعادة البناء؟

لقد كان بإمكان الاتحاد السوفييتي الاستمرار بنفس النهج السياسي والايديولوجي السابق، كان بإمكانه الإصرار على مواجهة الصعوبات الاقتصادية والإدارية بإدخال الحد الأدنى من الاصلاحات الشكلية والتقليدية، وذلك كما جرت العادة قبل مجيء غورباتشوف. لم يكن الاتحاد السوفييتي مضطراً للدخول في عمليات قيصرية وجراحية، كالتي شهدها خلال السنوات الأخيرة لمعالجة مشاكله المزمنة. لكن الاستمرار بنفس الأسلوب التقليدي كان يعني المزيد من التردي وكان يتضمن استمرار تحكم البيروقراطية التي نمت نمواً سكانياً في المجتمع. لذلك جاءت عملية إعادة البناء اضطرارية من ناحية واختيارية من ناحية أخرى. كانت هناك عوامل اجبارية وأخرى اختيارية دفعت في اتجاه التحولات دون ان تقصد

الوصول إلى نفس النهايات التي نلمسها الآن.

ولابد سريعاً من التوقف عند بعض من هذه العوامل. يأتي العامل الاقتصادي على رأس ثنائي العوامل الاضطرارية. كان الاتحاد السوفييتي، ومنذ تطبيقه الخطة الخمسية الأولى عام ١٩٢٨، يحقق معدلات عالية من النمو الاقتصادي. كان معدل النمو السنوي في الاتحاد السوفييتي لا يقل بأي حال من الأحوال عن ٦٪. لكن حدث هبوط تدريجي في معدل النمو ابتداء من عام ١٩٧٠ وانخفض إلى ٢٪ خلال النصف الأول من الثمانينيات. هذا المعدل المنخفض اعتبر ركوداً اقتصادياً ذلك مقارنة بالأداء السابق للاقتصاد السوفييتي. لذلك كان لابد من برنامج وطني شامل لإصلاح الاقتصاد من أجل زيادة إنتاجية العامل وزيادة إنتاج المواد الأولية وتجديد الصناعات القديمة التي أصيبت بالتآكل والتي كانت تتطلب استثمارات ضخمة جديدة.

لكن وبجانب العامل الاقتصادي كان هناك أيضاً العامل الإداري الذي يشكل أيضاً عاملاً مهماً من العوامل الاضطرارية. يتمثل العامل الإداري في المركزية الشديدة في التخطيط والتي اتضح انها مشكلة المشاكل بالنسبة للاتحاد السوفييتي. العامل الإداري يتمثل بشكل مكثف في وجود ١٨ مليون إداري xxx وفني ومخطط لإدارة الاقتصاد السوفييتي. هذا العدد الكبير من الإداريين والبيروقراطيين يمثل ١٥٪ من إجمالي القوة العاملة في المجتمع. تحول هذا الجيش من البيروقراطيين غير المنتجين إلى آلية كابحة للاقتصاد وأدى إلى تكلس وترهل المجتمع ككل سياسياً وفكرياً وإنتاجياً. البيريسترويكا التي أعلن عنها جورباتشوف كانت تهدف في الأساس تقليص عدد هذا الجيش من البيروقراطيين وتخليص المجتمع من مركزيته القاتلة وتجديد طاقاته وإعادة الحيوية لمنشآته قطاعاته ومؤسساته.

هذه العوامل الاقتصادية والإدارية هي التي حتمت إجراء التحولات الجذرية، بيد ان كل الذي يحدث في الاتحاد السوفييتي لم يكن له أن يحدث لولا العامل الاختياري المتمثل في غورباتشوف. غورباتشوف هو في قلب كل التحولات السوفييتية، بل ومعظم التحولات الدولية. لا يمكن فهم هذه التحولات السياسية والفكرية الضخمة بدون غورباتشوف، بل لا يمكن أصلاً توقع حدوثها لولا غورباتشوف.

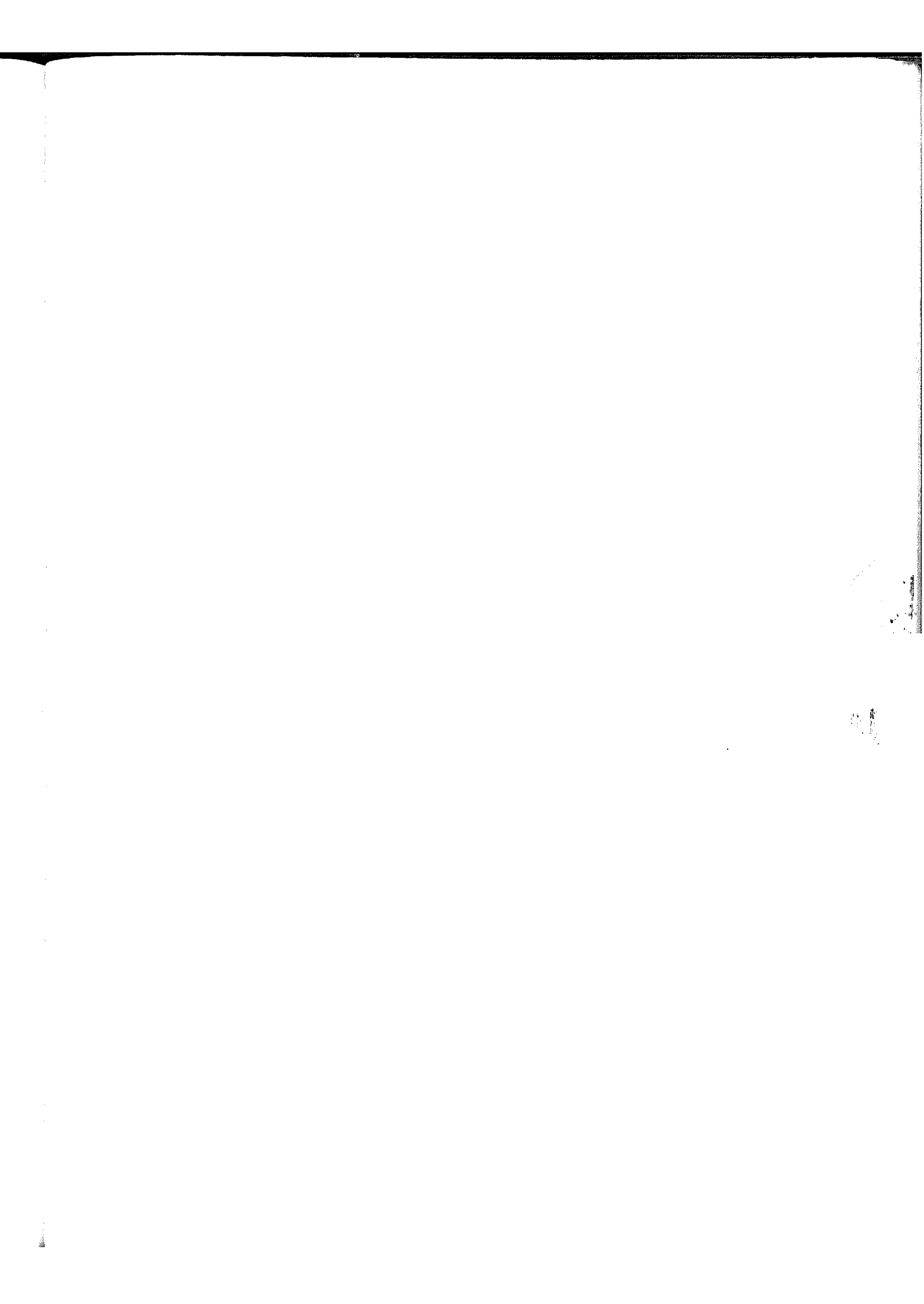
لاشك ان غورباتشوف يثير مشاعر متباينة وأحاسيس متناقضة. فهو عند البعض قديس ومنقذ ومؤسس، بيد انه بالنسبة للبعض الآخر مجرد خائن وعميل ولا يمكن ان يكون غير ذلك. إنه عند البعض إنسان إصلاحي وديمقراطي ومخلص، لكن البعض الآخر يراه كمخرب لا يمكن لأحد ان يجاريه فيما جلبه من خراب لشعبه. لكن مهما كان الأمر بالنسبة لهذه الشخصية السياسية ومهما كان التقييم بالنسبة لأفكاره التجديدية، فان المفروغ منه هو ان غورباتشوف قد تحول الآن إلى ظاهرة سياسية بل انه قد أصبح قوة رئيسية من القوى المحركة للأحداث على الساحتين السوفييتية والدولية معاً. لقد أصبح غورباتشوف قوة مؤثرة في حياة كل الشعوب في غرب وشرق وفي شمال وجنوب الكرة الأرضية.

لقد حرك جورباتشوف الساكن الذي لم يكن أحد يجرؤ على تحريكه من قبل. وأيقظ غورباتشوف شعب الاتحاد السوفييتي وخلصه من القيود، بيد أن هذه اليقظة قد ذهبت على ما يبدو إلى أبعد بكثير مما كان يتوقع ويرغب ويخطط له غورباتشوف. لقد ذهبت البيروسترويكا بعيداً عن البيريسترويكا. لقد نجحت أكثر مما كان يراد لها أن تنجح وانتهت إلى نهايات ربما لم تكن واردة حتى في خيال مؤسس البيريسترويكا.

النتيجة الواضحة والملموسة هي تأكيد حرية وعفوية واستقلالية ٣٠٠ مليون

نسمة وانضمامهم لقافلة الأحرار رغم أن الثمن الذي يدفعونه يبدو غالياً. لكن من قال إن الحرية بدون ثمن.

يبدو لي أنه بعد ذبول طويل، بدأت شجرة الحرية تخضر في الاتحاد السوفييتي وهذا في حد ذاته ينبغي أن يكون مصدر ابتهاج لنا جميعاً. وأخيراً لابد من القول إن شجرة الحرية إذا أريد لها أن تبقى دائمة الخضرة فلابد أن تسقى بين الحين والآخر بدماء الأحرار والطغاة.



الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر

- وجوه الثبات والتغير -



طارق البشري

القيت بتاريخ : ١٩٩٠/١٢/٢٣م

سيرة ذاتية

الأستاذ طارق البشري

- ليسانس في الحقوق.
- نائب رئيس مجلس شورى الدولة بجمهورية مصر العربية.
- له عدة مؤلفات منها:
- التاريخ الإسلامي الحديث في الفكر السياسي.
- الحركة السياسية في مصر.
- المسلمون الأقباط في إطار الجماعة الوطنية.
- الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو.
- بين الإسلام والعروبة.
- دراسات في الديمقراطية المصرية.



الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر وجوه الثبات والتغير

طارق البشري

أتصور أنه لكي نتلمس رؤية المستقبل للحركة الإسلامية، يحسن بنا أن نطالع ملامح الوعاء الزمني الذي تعمل فيه هذه الحركة والزمان المعاصر في تاريخنا يتكون من هذين القرنين الأخيرين، وقد شارف القرن الثاني منها على نهايته، وصرنا على مشارف قرن ثالث يبدأ معنا بالملامح عينها التي صبغت تاريخنا المعاصر منذ بداية القرن التاسع عشر.

أمام الحركة الإسلامية في بلادنا مهام جد متعددة ومتنوعة في مجالات الفكر والفقه والنظم السياسية والرؤى الحركية، وفي تشييد المؤسسات ورسم العلاقات في هذه المجالات وغيرها أمامنا العديد من المشاكل منها على سبيل المثال، مسألة التجديد مع المحافظة على الوصول والتجديد يعني التحرك الفكري والمحافظة على الوصول تعني الصمود ومنها الانفصال الحادث بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وهو انفصال طرأت تداعياته مما ألم بنا من توجهات الغرب في القرنين الأخيرين، وعلينا أن نعيد المزج والدمج بين هذه العلوم جميعاً، كما كان فقهاؤنا القدامى يعتبرون العبادات والمعاملات أبواباً من علم واحد.

ومن المشاكل أيضاً تلك القطيعة بين الفكر والنظم الوافدة من الغرب والفكر والنظم الموروثة وهي قطيعة تتعمق في وعي الناس عبر السنين ومن ذلك أيضاً هذا الازدواج في بناء المؤسسات والنظم والهيئات، سواء في التعليم أو في القضاء أو في مؤسسات الإدارة والحكم أو في الاقتصاد ومنه أيضاً هذا التنوع الكبير للرؤى

الإسلامية للواقع الراهن أو هذا الغموض الذي يعوق حسن إدراكنا للأوضاع المعيشة ولما يتعين علينا اتخاذه من الذرائع لحفظ الجماعة الإسلامية والنهوض بها.

وليست آخر تلك المشاكل مشكلة التفتت التي تعاني منها أوطاننا أي هذه التجربة الإقليمية والقطرية التي صرنا إليها عبر القرنين الأخيرين وما أدى إليه هذا الوضع من ظهور عناصر التباعد والتنافر في كل قطر إزاء غيره، حتى تكونت عوائق ذاتية صارت تكبح نمو حركات التوحد العربي والإسلامي، لأن التجزئة قد غايرت من أوضاع كل قطر إزاء غيره في أمور الاقتصاد والسياسة وبناء النظم والمؤسسات أو هذه المغايرة تشكل عوائق أمام مساعي التوحد، حتى وجدت تلك المساعي وحيثما وجدت.

إن تاريخنا المعاصر بدأ بحركتين للإصلاح كانتا متضاربتين، ولم يكتب لهما كليهما النجاح، وكان لهما أثر عميق فيما عرفنا من بعد من وجوه الإصلاح.

أولى الحركتين، كانت التجديد الفقهي والفكري التي استفتحت بابن عبدالوهاب في نجد في القرن الثامن عشر (١٧٠٣ ـ ١٧٩١) تقوم على التوحيد المطلق وترفض فكرة الحلول والاتحاد وتؤكد مسؤولية الإنسان وتمنع التوسل بغير الله وتدعو لفتح باب الاجتهاد، وظهر محمد بن نوح الفلاتي في المدينة (١٧٥٢ـ ١٨٠٣)، كما ظهر ولي الدين الدهلوي في الهند (١٧٠٢ ـ ١٧٦٢) وفي اليمن ظهر محمد بن علي الشوكاني (١٧٥٨ ـ ١٨٣٤) ثم الشهاب الألوسي في العراق (١٨٠٣ ـ ١٨٥٤) وفي المغرب ظهر محمد بن علي السنوسي (١٨٧٨ ـ ١٨٥٩) ثم ظهر في السودان محمد بن أحمد المهدي (١٨٤٣ ـ ١٨٨٥).

ونلحظ ان هذه الدعوات التجديدية الإصلاحية كانت ظاهرة عامة من منتصف القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً، وإنه رغم الخلافات التي تبدو بين بعض هذه الدعوات وبعضها، فهي جميعها تكون حركة تجديدية وهي

جميعها تتفق اتفاقاً عاماً في دعوتها للتجديد ونبذ التقليد وفتح باب الاجتهاد.

ونحن إذا نظرنا إلى مناطق قيام هذه الحركات وجدناها تظهر في الهند والعراق شرقاً وفي نجد واليمن والحجاز والسودان جنوباً وفي المغرب بالجزائر وليبيا غرباً. فهي حركة عامة ولكنها تتفادى منطقة القلب من الأمة الإسلامية، بحسبان أن منطقة القلب من هذه الأمة كانت تتمركز في مجال الهيمنة المركزية للدولة العثمانية في ذلك الوقت وهي المنطقة الممتدة على المحور من تركيا إلى الشام إلى مصر، (استامبول ـ دمشق ـ القاهرة).

وكان من الطبيعي أن تبقى منطقة المركز عصية على التغيير والتجديد لاستتباب المؤسسات التقليدية وعظم النفوذ المحافظ لهذه المؤسسات واتصالها جميعاً بهيئات الحكم والسلطان ووجودها كلها في منطقة الضوء الساطع لدى أجهزة الدولة. وكانت حركات التجديد الفقهي والفكري خليقة بأن تنمو ويزداد نفوذها حتى في مجال نفوذ المؤسسات المركزية، وذلك لعظم الاحتياج للإصلاح الفكري وللتجديد الفقهي في ذلك الوقت. ولأن ثمة شواهد تاريخية تشير إلى أن هذه الدعوات كانت مما يحسن قبوله لدى عامة المفكرين والمثقفين في مصر والشام، لو لم تواجه بمثل ما وجهت به من السلطة.

وثانية هاتين الحركتين، كانت حركة الإصلاح المؤسس التي قامت مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر على امتداد محور السلطة المركزية للدولة العثمانية بين استامبول والقاهرة.

استفتحت هذه الحركة بسعي السلطان سليم الثالث لاعادة بناء الجيش العثماني على الطرازالجديد وذلك بغية التمكن من مواجهة الأخطار الفعلية المحدقة بالدولة العثمانية، سواء من روسيا القيصرية في الشمال أو من الإنجليز بأسطولهم في البحر المتوسط أو من سائر الدول الأوروبية الكبرى في ذلك الوقت. وتلت حركة

سليم الثالث الفاشلة حركة السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٤٠) وحركة محمد علي من مصر (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) وقامت هذه الحركات بمناسبة وقائع الغزو الأوروبي لأرض المسلمين بخاصة وللشرق بعامة.

لم يبدأ تاريخنا المعاصر إلا وكان قد أحكم الحصار حولنا، اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح، الذي أدى إلى تطويق العالم الإسلامي من الجنوب والشرق، فضلاً عن الغرب والشمال. ونحن نذكر مؤسسات روسيا القيصرية في آسيا الوسطى وسيطرتها على بلدان «ما وراء النهر» ودخول بخاري وطشقند وسمرقند في حوزتها، ثم حروبها ضد الدولة العثمانية بالزحف عليها من الشمال. كما نعرف سيطرة الإنجليز على الهند ووصول هولندا إلى جزر الهند الشرقية، ثم صعود الإنجليز من الهند شمالاً إلى أواسط آسيا.

وبعد تمام حركة الحصار الغربي بدأت عمليات غزو القلب مع نهايات القرن الثامن عشر وعلى مدى القرن التاسع عشر، ومن أبرز ملامحها حملة نابليون على مصر في ١٧٩٨ التي كان يستهدف منها الاستيلاء على مصر وأرض الشام كلها، ثم استيلاء الإنجليز على عدن في ١٨٣٩ واستيلاء فرنسا على الجزائر في ١٨٣٠ ثم على تونس في ١٨٨١، واستيلاء الإنجليز على مصر في ١٨٨٢ ثم على السودان في ١٨٩٩ واستيلاء ايطاليا على ليبيا في ١٩١٢ واستيلاء فرنسا على المغرب في السنة نفسها ثم اقتسام الشام والعراق بين بريطانيا وفرنسا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في ١٩١٨ وهكذا تقطعت البلاد شلواً شلواً مما كان له أثره العميق من بعد.

كان من الطبيعي أن تلفت هذه المخاطر أقصى الانتباه من رجال الدولة والقائمين على الحكم وأن توقظ فيهم الشعور بالحاجة إلى الإصلاح وهم المسؤولون عن الرباط وحماية النفوذ والدفاع عن الحوزة ورجال الحكم رجال عمل وتصد،

تلقفتهم المشاكل العملية ويبادرون في التصدي لها بالحلول العملية، ووجوه الإصلاح والتجديد التي يهتمون بها هي ما يتصل مباشرة بما نسميه الآن «شؤون الأمن القومي» ونقطة البداية في ذلك مؤسسة الدفاع عن الديار وهي الجيش وفي هذا يتفق سليم الثالث مع محمود الثاني مع محمد علي.

وإذا بدأ الإصلاح في مجال الجيش فإنه يبدو أول ما يبدو إصلاحاً في استخدام آلات القتال كالمدافع وغيرها. وإدخال أدوات القتال الحديثة يستدعي إدخال وسائل التنظيم الحديث الملائم لاستخدامها. وفي هذين المجالين لابد من الإستفادة من خبرة الخصم الذي ثبت تفوقه فيهما كما أن هذين المجالين يستدعيان إدخال أنماط جديدة من التعليم تتعلق بعلوم الصنائع وفنونها، مما يمكن من الاستخدام الأمثل والسيطرة على وسائل الحرب الجديدة سواء الآلات وصناعتها وتركيبها واستخدامها أو التنظيمات التي يتحقق بها التنسيق الأمثل.

كل هذه المهام يقوم على تحقيقها رجال دولة ومديرو أعمال ومنفذو سياسات وهم بحكم نوع أعمالهم وخبراتهم ذوو حس عملي مباشر ولا ينشغلون كثيراً بالجوانب النظرية والفكرية ثم إن الضرورة تستدعي منهم سرعة سريعة في التحرك والتنفيذ لمواجهة المخاطر الخارجية أولاً، وللمناورة والالتفاف على القوى التقليدية في الجيش وفي مراكز الدولة ثانياً.

جماع هذه الأوضاع الجأ حكام ذلك الزمان إلى أن يتوسلوا للإصلاح بإنشاء ما يمكن أن نسميه «المؤسسات البديلة» فلم يهتموا بأن يتبنوا حركة تجديد شامل للجماعة والمجتمع والمؤسسات المختلفة، ولم يهتموا بأن يظهر الجديد انبثاقاً من القديم إنما أبقوا القديم على حالة من القدم، فكراً ومؤسسات ورجالاً أبقوه على ركوده وأنشأوا بجانبه المؤسسات الجديدة برجال آخرين وفكر آخر. ولم ير ذلك منهم استجابة لضرورات السرعة في التنفيذ فقط. ولكنه جرى تجنباً للخلاف

والصراع مع مؤسسات تقليدية كانت هي نفسها من ركائز الحكم ومن أعمدة قيامه ودعامات استقراره وذلك سواء في الجيش أو في التعليم أو في الفكر أو الإدارة المدنية.

فبقي الجيش القديم وأنشئت بجواره فرق جديدة وبقي التعليم التقليدي وأقيمت بجانبه مدارس حديثة وهكذا وصار هذا الازدواج منهجاً وتقليداً سواء في السياسات المنفذة أو في بناء عقلية الحكام المصلحين في بلادنا ثم صار منهجاً يترسم على وجه التلقائية في إنفاذ مطالب الإصلاح في المجالات المختلفة.

وثمة ملاحظتان يمكن الإشارة إليهما هنا، فإن هذا الازدواج الذي حدث بين المؤسسات القديمة والحديثة لم يكن من شأنه وحده أن يقيم صدعاً في الجماعة أو في البيئة الاجتماعية أو الهياكل الفكرية لو أن الأمور جرت على منوالها كان الأرجح أن يتفاعل الطرفان ويتبادلا التغذية على المدى الزمني الأطول ولكن الذي حدث أنه ما إن ظهر هذ الازدواج حتى بدأ يتسرب إلينا النفوذ الأوروبي في الكثير من المجالات والأنشطة ووجد هذا النفوذ فيما وفد علينا من مؤسسات غربية كالبنوك ومن نظم التعامل القانوني ومن فكر وعقائد ووجدت هذه المؤسسات والنظم والأفكار الواحدة وجدت في الازدواج الحادث ظرفاً مواتياً ورؤوس جسور لتلك النظم والأفكار الوافدة، فسرعان ما خلت هذه الأبنية المؤسسة الحديثة وصرفتها عن هدفها الأصلي الخادم لحركة المقاومة الحديثة ضد مخاطر الغزو الغربي ووجهتها وجهة التلقي والتبعية والتثبيت للنفوذ الغربي بعامة. ونضرب لذلك المثل بالمقارنة السريعة بمدارس محمد علي الحديثة التي أنشئت لتغذي الجيش المحارب وتقتصر على تدريس علوم الصنائع وفنونها في الهندسة والطب والحربية.. الخ وبين مدارس الخديو إسماعيل والاحتلال البريطاني مع نهاية القرن التاسع عشر، التي صرفت همها عن تلك العلوم إلى تدريس الآداب والنظم القانونية الوافدة.. الخ ويلحظ ذلك أيضاً في المقارنة المماثلة بين بعثات محمد علي في أوائل القرن الماضي

وبعثات الاحتلال البريطاني في أواخر ذلك القرن.

وثانية الملاحظتين أن عامل الخطر الخارجي كان هو السبب في كل الظواهر السابقة، هذا الخطر الخارجي الحال نو الوقائع الممتدة عبر سني القرن التاسع عشر، هو ما به توقفت حركة الإصلاح الفكري والفقهي التي سبقت الإشارة إليها، لأن مجال التجديد في الفكر والفقه كان يجري مكافحة للمؤسسات المحافظة. ولأن قيام الخطر الخارجي المهدد لأمن الجماعة كلها من شأنه أن ينحى المشاكل الداخلية ويبعدها عن بؤرة الاهتمام ومن شأنه أن يلقي على سلطات الحكم والمؤسسات الحاكمة مهام الدفاع عن الجماعة وحماية الحوزة مما يستدعي من الجميع المساندة والالتفاف وإرجاء خلافات الداخل وهذا ما حدث منذ اشتعلت المخاطر الخارجية في بدايات القرن التاسع عشر إذ ذوت معها حركة الإصلاح الفكري على مدى النصف أو الثلثين من بداية ذلك القرن.

وهو ذاته هذا الخطر الخارجي الذي استدعى أسلوباً عاجلاً سريعاً عملياً للإصلاح اعتمد على بناء مؤسسات جديدة موازنة للقديم دون أن تظهر منها ودون أن يصاحب هذا الإصلاح حركة فكرية وحركة إحياء للقديم تواكبها وتنتقل بالمجتمع كله من حال قديم إلى حال جديد ناهض تنسجم هياكله وأبنيته وتتكامل في أداء وظيفي واحد وهو ذاته الخطر الخارجي الذي احتل بنفوذه سائر المؤسسات المحدثة وغير من وظائفها ليجعلها باسم الحداثة قواعد تثبيت التبعية له في المجتمعات المغزوة.

والحال إن لم تفتقد حركة الإصلاح المؤسسي (الجيش والدولة... الخ) دعم حركة الإصلاح الفقهي والفكري فقط ولكنها حاربتها وعملت على تصفيتها وهذا ما كان من مسلك استامبول (محمود الثاني) والقاهرة (محمد علي) من الحركة الوهابية في ١٨١١.

لذلك كان من نتائج هذه الفترة نوع من الانفصام بين حركة الإصلاح المؤسس وحركة الإصلاح الفكري ونوع من الازدواج بين الأبنية التقليدية نظماً وفكراً وبين الأبنية الحديثة نظماً وفكراً فصار القديم أبتر مقطوعاً لم يفض إلى جديد من نوعه ومن مادته ومائه وصار الجديد أجنبياً لقيطاً وفد من نسق عقيدي آخر ومن أوضاع اجتماعية وتاريخية مختلفة. وما حل القرن العشرون حتى كانت البيئة الاجتماعية والفكرية قد انصدعت بين قرن أبتر وقرن لقيط أعقبه وهذا ما ورثناه حتى اليوم وما تواجهه الحركة الإسلامية لتتعامل مع مجتمع مصدوع عليها أن تلائم صدعه وأن تجدد قديمه وتؤصل حديثه.

وفي ظل هذا الظرف أتت الموجة التجديدية الثانية، جاءت من المناطق التي عرفت من قبل بمنطقة القلب، والتي آلت مع نهايات القرن التاسع عشر إلى الغزو والاحتلال الأجنبي. واستفتحت برجال مثل جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٦) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) وفي الوقت ذاته صار للتيار المحافظ وظيفة جد هامة تتعلق بالوقوف دفاعاً عن أصول العقيدة وثوابتها في وجه رياح الغزو العاتية التي لم تترك أخضر ولا يابساً وشملت الفكر والعقائد والعوائد وأساليب العيش.. الخ.

لقد صار على الحركة الإسلامية في عمومها وبمجدديها ومحافظيها أن تواجه أوضاعاً متعددة تستدعي مواقف فكرية متباينة فهي لم تعد تواجه ما كان يواجهه ابن عبدالوهاب من تعصب مذهبي وبدع وخرافات وهي لم تعد تواجه أخطار الاحتلال العسكري الغربي لأراضي المسلمين إنما صارت تواجه مع كل ذلك وفضلاً عن موجات من «التبشير» تقوم به بعثات مسيحية أوروبية وأمريكية وتواجه أفكار الفلسفات المادية واللادينية ونزعة التغريب في وسائل العيش والأساليب والعلاقات الاجتماعية.

هذا في ظني هو المنشأ التاريخي الحديث للتحديات التي توجهه الحركة الإسلامية فكراً وعملاً وهي التحديات التي أشير إليها في صدر هذا المقال، استحسنت أن أعرضها في سياقها التاريخي وأنا الآن أحاول أن أعرض حصيلة لتصدي الحركة الإسلامية لهذه المشاكل، أعرضها في سياقها التاريخي الواقعي أيضاً. ففي ظني أن الفكر الإسلامي الحديث تكون بالتراكم الحميد عبر عشرات السنين التي مضت من نهايات القرن الماضي وهو تكون من جهود عدد غير محصور من المفكرين والقادة والمصلحين وهو فكر شيد وتراصت لبناته تحت خط النار، وبنيت قلاعه وسط قصف مدافع الخصوم. ونذكر هنا في عجالة الملامح العامة لحركة تراكم الفكر السياسي الإسلامي في المرحلة التاريخية المعاصرة.

ونحن إذ نختار هذا الطريق التاريخي لعرض مفردات الفكر السياسي الإسلامي في زماننا إنما نفعل ذلك وأعيننا على الحاضر ولنوضح الظرف التاريخي الذي نبتت فيه أي ثمرة من ثمار هذا الفكر وهذا يلقي الضوء على هذا المفصل الذي يصل الفكر بالواقع من حيث الإعمال والمقاصد أي من حيث مدى احتياج جماعة المسلمين لفكره وحركته ملائمة في لحظة بعينها ومن حيث توظيف هذه الفكرة لصالح الإسلام وجماعته في مرحلة ما وهذا يوضح أيضاً أن كثيراً مما نعتبره خلافاً في الرأي فنقف إزاءه متواجهين متقابلين كان أساسه اختلاف الزمان أو المكان ولم يكن خلاف حجة وبرهان وإيضاح هذا الأمر من شأنه أن يقرب بين المتخالفين وألا يجعلهم في موقف المواجهة والمقابلة إنما يجعلهم أعرف بأن ثمة حقائق إسلامية عليا ومصالح إسلامية عليا. ونحن ـ كل في زمانه ومكانه ـ نتوسل إلى رعايتها وصيانتها وإعلائها بالعديد من المواقف الفكرية والحركية التي تتباين بتباين الظروف والأوضاع ومن هنا ندرك أن كثيراً مما نسميه اختلافاً هو إلى التنوع أقرب وكل ذلك يزيدنا بإذن الله غنى ومرونة في إدراك وجوه الرأي وفي التعامل به مع الواقع إعلاء للصالح الإسلامي العام.

إن لواقعنا التاريخي الحاضر جانبين هما وفقاً لتعبيرات «مالك بن نبي» الاستعمار والقابلية للاستعمار وأنا أقصد بالاستعمار العدوان الآتي إلينا من الخارج عسكرياً وكان أو سياسياً أو اقتصادياً أو فكرياً أي هو أثر الخارج فينا متى كان هذا الأثر يجري بغير رضانا ولغير مصلحتنا كما أقصد بالقابلية للاستعمار هذا الوضع الذي نكون عليه والذي يمكن من غلبة الغير لنا، أي هو مانتصف به في وقت ما من الضعف أو الفقر أو الاضطراب أو الوهن أو الجهل أو التضارب أو غير ذلك مما يكون سبباً في غلبة الطامعين فينا على أمرنا.

ولهذا نجد أن جمال الدين الأفغاني وضع اللبنات الأولى عن فكرنا الإسلامي الحديث «المقاوم للاستعمار» وأن محمد عبده وضع اللبنات الأولى في هذا الفكر «المقاوم للقابلية للاستعمار».

لقد انشغل جمال الدين بأمر «وحدة المسلمين» ليمكنهم الوقوف في وجه ما يتهددهم من أطماع الدول الأوروبية والغربية ودعا لنبذ الخصومة بين السنة والشيعة ليمكن تآليف السلطتين الإسلاميتين الكبيرتين في وقته وهما سلطتا استامبول وإيران، بعد أن كانت ذهبت دولة الهند الإسلامية أدراج الرياح. ومن أهم ما أكد عليه هو طرح ولاية الأجنبي عن المسلمين بحسبانه الركن الأعظم للإسلام فوحدة الجماعة الإسلامية وحدة موظفة إلى مقاومة الاحتلال ونبذ الولاية الأجنبية واعتبار ذلك هو الركن الأعظم للإسلام في وقتنا، هذه النقطة تنطوي على جوهر دعوة جمال الدين وجوهر ما أرسى في الفكر السياسي الإسلامي الحديث.

وأهم ما أريد الإشارة إليه هنا، ذلك الجدل الذي كان يثور كل حين حول موضوع مقاومة الاستعمار وإجلائه وموضوع الأخذ بأسباب النهوض ومعالجة أسباب الضعف بأي هذين الموضوعين نبدأ أولاًيهما تكون الأولوية في اهتمامنا وتحركنا.

والقائلون بأولوية الاستعداد لمكافحة الاستعمار يستندون إلى أن وجود الاستعمار يرتب مجموعة من السياسات التي تتخذ لمصلحة بقائه فوجوده واستمرار بقائه يضعفان فينا أسباب مقاومته ويقضيان على إمكانيات النهوض ضده أو النهوض لتحقيق أي أمل مرتجى في المستقبل.

والقائلون بأولوية بناء القوة الذاتية وإنضاج أسباب النهوض ومعالجة نواحي الضعف إنما يستندون إلى أن ضعفنا الذاتي هو الذي سبب نجاح الاستعمار ضدنا ونحن لم نستطع أن نقاوم غزوه لأننا كنا ضعافاً ولأننا ضعاف فلن ننجح في إخراجه وإذا حدث أن خرج مع بقاء ضعفنا فسيعاود الكرة علينا أو يعاودها غيره.

وفي ظني أن هذا الجدل يقوم على خيار خاطئ لأنه يجري تمييزاً بين أمرين كلاهما لازم أو أنه يقيم أولوية بين الواحد منهما تجاه الآخر رغم أنهما ذَوَىْ أولوية واحدة، ذلك أنهما معاً شرطان للنهوض والتقدم والاستقلال بوصف ذلك كله عملية واحدة، ولأن كلاً منهما لازم للأخر ملزوم منه ومتى كان الأمر كذلك فليس من الصواب أن نطرح سؤالاً مفاده أن أيهما أنفع وبأيهما نبدأ. وعلينا أن نتسلح بالنظرة التكاملية التي تنظر إلى العناصر المتنوعة في تكاملها وليس في تنافرها وإن الخيار الذي يطرح على الناس في وقت معين، والذي يتعلق بما يبدآن به من هذه العناصر إنما تؤثر فيه - وقد تتحكم فيه - ظروف اللحظة التي يطرح فيها الأمر والاختيار الصائب هو الاختيار الذي يتلاءم مع ما تتطلبه اللحظة التاريخية ذاتها ومدى ملاءمة عنصر ما إنما تقاس بمدى إمكان تحققه في ظرف معين أو بمدى ما يترتب عليه من أثر مطلوب في هذه اللحظة فالملاءمة تجد حديها في الإمكانية والتوظيف لذلك فنحن في الحقيقة لا نختار عندما نختار - بين بديلين كما لو كانا سلعتين معروضتين في واجهة أحد المحال التجارية إنما ننظر في الممكن والمؤثر في اللحظة التاريخية المعنية.

وجمال الدين عندما كان يهيئ المسلمين ويتحمسهم لمقاومة الاستعمار في كل من مصر وفارس والهند واستامبول إنما كان يضع ذلك في ظروف تدفق موجات الغزو الاستعماري على ديارنا في كل هذه الأقطار، وفي مثل هذه اللحظات فإن الخيار الوحيد المجدي هو الاحتشاد والتجمع للمقاومة وقد ساهم محمد عبده بقدر في هذا العمل عندما نشط مع أستاذه جمال الدين وقتها.

ولكن لاشك أن جهد الرجلين لم يكن متماثلاً وكان تركيب كل منهما النفسي والوجداني والفكري متلائماً مع المهمة التي قام بها جمال الدين في مقاومة الاستعمار ومحمد عبده في مقاومة القابلية للاستعمار وقد بدأ محمد عبده نشاطه الذي تميز به بعد تمام احتلال الإنجليز لمصر في ١٨٨٢ وقد أبعد عن مصر سنوات ثم عاد بعد أن تمكن منها الاحتلال البريطاني ولم يعد من بين الخيارات المطروحة في التسعينات من القرن التاسع عشر أن تحتشد القوى لطرد الاحتلال ولم يعد ثمة خيار غير العمل الدائب لمقاومة «القابلية للاستعمار» ومن هنا جاءت جدوى ما صنع محمد عبده. وقد اعتنى بما رآه من ازدواج يفصم الحياة الاجتماعية وتَبَدَّت أهم ظواهره في مجال القانون والتشريع ومجال التعليم وهنا صارت دعوة الاجتهاد والتجديد لصيقة بهدف تفتيق الفكر الإسلامي وفقهه ليستجيب لمطالب النهوض والصحوة وليلتئم الصدع الحادث في مؤسسات المجتمع فيمكن القضاء على الازدواج الحادث في المؤسسات.

وصار محمد رشيد رضا امتداداً لدعوة محمد عبده، خلال الثلاثين عاماً التي أعقبت وفاة محمد عبده في ١٩٠٥ إلا أنه امتداد له تميزه وتنوعه واستجابته للأوضاع المتغيرة على مدى هذه السنين. فقد صارت اجتهاداته أكثر اتصالاً بفكر ابن تيميه ومن ثم قويت الآصرة من بعد بين حركة التجديد الفقهي وبين التوجه السلفي وكان لهذه الآصرة أثر عميق في تحقيق الملاءمة بين الأصالة الشرعية وبين استشراف أوضاع الواقع المعيش. كما كان السيد محمد رشيد رضا أوغل في

السياسات العملية سواء العربية أو الإسلامية من الإمام محمد عبده واكتمل لديه منهج التفسير المجدد للقرآن مع الربط بين قضايا الفقه وقضايا السياسة وذلك لأنه عاصر من الأحداث التالية لمحمد عبده ما كان يحتاج لهذا الانشغال بهذه السياسات الوطنية مثل تصفية الدولة العثمانية وتقسيم بلاد الشام والعراق بين الإنجليز والفرنسيين وظهور الصهيونية.

في بداية القرن العشرين كانت الحركة الوطنية في بلادنا مرتبطة بالإسلام لا تكاد تنفصل وكانت شعوبنا العربية الإسلامية ـ وهي تقاوم الاستعمار ـ إنما تنهض تحت راية الإسلام وتتجمع تحت جناحه وتكافح به الاحتلال الأجنبي وظلم الاستبداد ومن ذلك حركات الجزائري في الجزائر والخطابي في المغرب والسنوسي في ليبيا والمهدي في السودان وابن عبدالوهاب في الجزيرة وحتى حركة مصطفى كامل في مصر تنتمي إلى هذا الاتجاه الذي لا يفرق بين الإسلام وبين حركات مقاومة الاحتلال والاستبداد.

ولم تكن التكوينات الثقافية والاجتماعية المتأثرة بالفكر الغربي لم تكن تتجاوز بعض النخب السياسية من كبار رجالات المجتمع ذوي المناصب الكبيرة ولكن ما لبثت هذه التكوينات أن اتسعت وتكاثر ناسها بسبب نظام التعليم الحديث الذي لم يكتف بإدخال العلوم الحديثة في الصنائع وفنونها كالفيزياء والكيمياء وغيرهما. ولم يكتف بإدخال اللغات الأوروبية ولكنه نظام أسس على نمط علماني يفصل علوم الدين عن علوم الدنيا ويقوم على أساس من فلسفات الغرب والسبب التالي يتعلق بانتشار الفكر الأوروبي الفلسفي والاجتماعي ونظرياته بين صفوة المثقفين المتخرجين من هذه المدارس أو من المبعوثين إلى الخارج ثم هناك سبب ثالث يتعلق بوجود المجلات الشهرية والكتب التي بدأت تظهر لتروج لهذه الأفكار وتقيم قواعد إحلال فكري ونظري تعارض أسس الفكر الإسلامي التقليدي.

ولم تكد تنتهي الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٩) حتى كانت الدولة العثمانية قد صفيت وحل محلها دولة تركيا الحديثة التي ألغت الخلافة الإسلامية واتخذت إجراءات بالغة الحدة لتصفية كل أثر للإسلام في تلك الديار، كنظام للحياة وأساس للشرعية الاجتماعية والسياسية فيها وكان لذلك وقع الصدمة الشديدة على المسلمين في العالم أجمع، لا ألما من ذهاب دولة بني عثمان ولكن ألما من تلك الظروف التي نقضت عقد المسلمين وشتت شملهم فلم يعودوا يرون وجهة أوهيئة يتجهون إليها كجامع لهم. وفي الوقت نفسه احتلت القوات الأوروبية ما كان لم يحتل بعد من أرض العرب والمسلمين واقتسموها فيما بينهم، وخاصة أرض الشام والعراق كما سبقت الإشارة.

وفي هذا الوقت ظهر عديد من الحركات الوطنية في العالم الإسلامي كمصر وفي غيره كالصين والهند، وكذلك حركات المقاومة في البلاد حديثة العهد بالاحتلال كسوريا والعراق. وكانت القوى الأساسية التي قادت هذه الحركات من أبناء المؤسسات الحديثة في التعليم وممن تربوا على أسس علمانية بعيدة عن المؤسسات الدينيةالتقليدية.

وقد تكاتفت هذه العوامل لتضع الحركات الوطنية التي ظهرت في هذه المرحلة بصورة علمانية فهي تعمل على إجلاء المحتل وتطالب بالاستقلال السياسي ولكنها ترسم لمستقبل بلادها صوراً مستمدة من أنماط النظم الاجتماعية السائدة في الغرب، وتستهدف بناء نظم وضعية بعيدة عن الفكر الديني وعن أصول الشرعية الدينية.

في البداية اندمج التوجه الإسلامي ورجاله في هذه الحركات بحسبان أن مقاومة الغاصب الأجنبي أولى في الاعتبار وأن إجلاءه يفيد القوى الوطنية كلها. وأن المتتبع للحركات الوطنية في هذه المرحلة من بداية العشرينات من القرن

العشرين، يلحظ اتصالاً قوياً للعناصر ذات التوجه الإسلامي بهذه الحركات ومشاركة فعالة منها.

ولكن في نهاية العشرينات بدا أن الفكر العلماني يعمل بإصرار على أن يسيطر على أوضاع المجتمع كلها. وأنه يصوغ المؤسسات الاجتماعية والفكرية ومؤسسات الدولة بطابعه، ويعمل على أن يفصل الإسلام عن أوضاع المجتمع لينشئ نظاماً علمانياً صرفاً ويكمل النظام العلماني الذي كان بدأ مع نهايات القرن التاسع عشر. وبدأت دعوة صريحة جهيرة تطالب بتنحية الإسلام عن نظم الحياة كافة.

وفي الوقت نفسه تحررت حركات التبشير المسيحي الأوروبية والأمريكية من خوفها إزاء المسلمين كانت هذه الحركات قد وفدت إلى أقطارنا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وكانت وقتها تنشط بين «المسيحيين الشرقيين» من مواطنينا، سعياً لأن تبنى لها قواعد بشرية موالية لها، وقد أثار ذلك المسيحيين الشرقيين وحفزهم لمقاومة هذا النشاط ولم تكن هذه البعثات في ذلك الوقت تجرؤ على أن تقترب بنشاطها من المسلمين هذا البحر الواسع الذي إذا هاج فقد يبتلع تلك البعثات في قراره العميق ويزيد المسلمين غضباً وحِدّة في مقاومتهم أي نفوذ غربي.

ولكن تغير هذا الموقف بعد الحرب العالمية الأولى، إذ انفض عقد الخلافة الإسلامية ونشأت نظم علمانية في بلادنا وتبنت قيادات دولنا وقيادات حركاتنا الوطنية هذه النظم الوافدة وبات الإسلام مجرداً من سيفه بعيداً عن سياسة الحكومات وكل ذلك شجع حركات التبشير أن تعمل بين المسلمين، وانعكس ذلك في مؤتمر المبشرين بالقدس في ١٩٢٤ الذي ارتفع فيه شعار تنصير العالم في جيل واحد.

وقد قوبل هذا النشاط بصدود شديد من المسلمين وأن الأفراد المعدودين القليلين جداً الذين استجابوا لبعثات التبشير بسبب يتم أو مرض، سواء في مصر أو في

بلاد الشام أو في تركيا، هذه الحالات المحدودة قد أقامت أعاصير احتجاج بين المسلمين وحفزت روح المقاومة في الجسد الإسلامي الكبير.

ورغم هذه الصحوة للروح الإسلامية، فإن سياسات الصهاينة اليهود في أرض فلسطين. وفلسطين أرض القدس والمسجد الأقصى، فقد أهاجت الحس العربي وأثارت معه الحس الإسلامي، تجاه بلد فيه أولى القبلتين وثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وفيها معراج البراق، ثم هناك أيضاً رد الفعل الإسلامي إزاء ما اتخذته السلطات الفرنسية في المغرب العربي من إجراءات لعزل البربر المغاربة عن الإسلام وإبعادهم عن أحكام الشريعة الإسلامية.

في هذه الظروف، واستجابة لها ظهر الشيخ حسن البنا بحركة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨ لقد سبقت جمعية الشبان المسلمين (١٩٢٧) ظهور حركة الإخوان، وقام عديد من رجالات الدعوة الإسلامية بدورهم من قبل ولكن حسن البنا وجماعته كانوا هم الاستجابة الأكثر وضوحاً والأكثر تبلوراً لِمتطلبات الحركة الإسلامية في ذلك الوقت.

والبنا والإخوان ليسوا فكرا فقط ولكنهم حركة وموقف وأساسهم فكراً وحركة وموقفاً هو «شمول الإسلام» أي الدعوة للإسلام الشامل لكل أوضاع الكون والمجتمع والفرد، وللإسلام الجامع لكل أطراف الحياة المهيمن على كل أحوال البشر عقيدة وشريعة وسلوكاً وبالعقيدة تتحدد للإنسان نظرته إلى الكون وموقعه فيه، وبالشريعة تتحد له نظرته للمجتمع وموقع الفرد بين الجماعة والتوازن الواجب بين الحقوق والواجبات بين الناس، وبالسلوك تتحدد له أسس نظرته إلى غيره من الأفراد والجماعات وأساليب تعامله مع غيره وتكوينه الوجداني.

إن التاكيد على هذا المعنى الشامل هو ما به تمثلت الاستجابة الإسلامية الصحيحة التي تطلبها الواقع، عندما اتجهت حركة المجتمع إلى إضمار الإسلام

وحصره في نطاق العلاقة الباطنية بين الفرد وربه وعندما ظهرت العلمانية لتقيد الإسلام في حدود العبادات وتعمل على إقصائه عن أن يكون مهيمناً على نظام المجتمع وحاكماً لعلاقاته.

إن ذلك لا يعني أن الدعوة كانت رد فعل لواقع معين فقط، ولكنه يعني أن أي كيان حي وكبير كالإسلام، عندما يلقى تحدياً لأي من جوانبه أو عناصره وخصائصه الأساسية إنما يبرز لهذا الوجه من وجوه التحدي كل طاقته ويحشد كل قوته لمواجهة التحدي في هذه الزاوية أو الجانب الذي وقع فيه الخلل، كشأن جسم الإنسان عندما يركز كل قوته لمواجهة آثار الإصابة الموجهة إليه في الجانب المصاب وشبيه بذلك مثلاً حركات الاستقلال الوطني التي انتشرت في بلادنا مع الاحتلال الأجنبي لهذه الأوطان، لم تكن رد فعل بالمعنى السلبي للكلمة ولكنها كانت استجابة لوجوه التحدي التي تواجهها الجماعة ولجوانب الخلل التي تعاني منها. فشمول الإسلام خاصة أصيلة فيه وهي ملاصقة له لا تبارحه أو لا يكمل الإسلام إسلاماً بغيرها وهي تتأكد في مواجهة من ينكرها.

وبما يتسق مع هذه النظرة لشمول الإسلام، اندمج فكر الجماعة في عملها ونشاطها الحركي والدعوة ليست عرضاً لفكرة والدفاع عنها، ولكنها تنظيم يجمع الناس وينتظمهم في شعب ويأخذهم بالتعليم والتربية الدينية والسياسية كما أن التكوين الفكري الوجداني للجماعة قام مزيجاً من علوم الإسلام التي تدرس بالأزهر ومن القدر الموفق من وجدانيات الصوفية في العبادة وربط الفرد بالجماعة كتنظيم ومن وطنيات الحركات السياسية التي تنادي بالاستقلال السياسي والنهوض به وخاصة الحزب الوطني.

لقد أرسى الأفغاني فكرة الإسلام المجاهد وأضاف محمد عبده فكرة التجديد في الفقه والتفسير وأضاف محمد رشيد رضا الربط بين التجديد والسلفية والتعامل

مع السياسات الوطنية وأضاف حسن البنا شمولية الإسلام والترابط الوثيق بين العقيدة والشريعة والسياسة وبين الفكر والتنظيم الحركي ومزج بين فكريات فقه الأزهر ووجدانيات الصوفية ووطنيات الحزب الوطني.

وهذه في تقديري هي الأسس العامة التي تكون هيكل الفكر السياسي الإسلامي في تاريخنا المعاصر، وهي جوانب ذات ثبات نسبي في الفكر الإسلامي المعاصر، تراكمت عبر مرحلة ممتدة من الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى النصف الأول من القرن العشرين. وقد شارك فيها كثيرون من المفكرين والدعاة والعاملين لنصرة الإسلام ولكننا هنا نحدد ملامح عامة ونتكلم عن أوضح الرموز في بيان تلك الخطوط العامة.

وأهم الدلالات التي يمكن استخراجها من العرض السابق، تتعلق بالترابط بين الأوضاع التاريخية التي تلابس جماعة الإسلام في وقت ما وبين نوعية الاستجابة الفكرية والسياسية لها من داخل الإسلام ومادته الفقهية. وهذه الدلالة نستطيع أن نتتبعها مع عدد من التكوينات الفكرية الإسلامية الأقل ثباتاً في خصائصها وسماتها مما سبق عرضه ونحن نعني بذلك أن الخصائص الأكثر ثباتاً في الفكر السياسي الإسلامي في هذا العصر الحديث، إنما هي خصائص تستجيب للملامح الأكثر عموماً التي تتسم بها هذه المرحلة الممتدة من تاريخنا المعاصر، وهي ما يمكن تسميتها مرحلة الاستعمار ومقاومته.

ففي هذا الإطار الفسيح للفكر الإسلامي السياسي، ظهرت حركات ومجموعات فكرية ذات خصائص ثانوية وأقل ثباتاً مما سبق عرضه وهي عند التحقيق لا تمثل نقضاً ولا معارضة للخصائص العامة السابقة ولكنها تمثل استجابات مرحلية أو إقليمية متغيرة لحالات طارئة أو خاصة و لضغوط حادة أو أوضاع غير عادية صادفت المسلمين. وهناك ما نلحظه في حركات ودعوات مثل ما كان من سعيد

النورسي في تركيا أو من جماعات التبليغ حيث ظهرت في الهند أو ما كان من فكر أبي الأعلا المودودي أو سيد قطب حيثما ظهر وتفاعل ولكل من هذه التنوعات الفكرية والسياسية خصوصيات قامت استجابة لحاجات الجماعة الإسلامية في وضع مخصوص.

ويمكننا أن نلحظ أن هذه الدعوات جميعاً ظهرت في أوضاع تاريخية وإقليمية اتسمت بحصر وتضييق على الوجود الإسلامي ولكنها تنوعت حسب نوع التضييق الحادث كما يظهر مما يلي: أولاً: حيثما كان الحصر والتضييق يشتد ويمتد إلى أصول العقيدة الإسلامية وتُسَد المنافذ أمام التعبير عن الموقف الإسلامي في شموله ويخشى على العامة من تآكل جذور العقيدة في نفوسهم بسبب المخالطات الوثنية كما في الهند أو بسبب سياسة طغيان عازم على اقتلاع الإسلام كما في تركيا الكمالية. حيثما كان الوضع هكذا صرفت الحركة الإسلامية المعنية جهدها لتثبيت العقيدة في قلوب البشر وتأكيد دعامات الإسلام في النفوس وتعتنى بالأوضاع الاجتماعية المهيئة لاستقرار أوضاع المسلمين المادية والمعنوية.

وهذا ما كان من دعوة محمد الياس الكاند هولي الذي انشأ جماعات التبليغ في بيئة كان المسلمون فيها أقلية غير معززة، ضعيفة محاصرة محرومة. وهذا ما كان كذلك من بديع الزمان سعيد النورسي الذي واجه كل محاولات كمال أتاتورك اقتلاع أسس العقيدة نفسها من صدور الرجال وقد قصرت جماعات التبليغ دعواها على التعليم والحض على إقامة الفروض وترك المعاصي سواء في الهند أو حيثما وجدت خطراً يهدد هذه الأصول بسبب انتشار الثقافات الغربية الكاسحة مع الحرص على البعد عن الدعوات السياسية حرصاً على حصر الخصوم وتوسيع الأنصار كما قصر النورسي حركته على المطالبة بتطبيق أصول الشريعة ومبادئ الإسلام والاستمساك بأركان العقيدة وغير ذلك من الجوانب الإيمانية مع الحرص على تجنب ما يتعلق بالنظم الإسلامية وتأجيل الاهتمام بكل ما يتعلق بالقضايا

السياسية.

نحن نلمح في هاتين الحركتين نوعاً من الدفاع عن الخط الأخير للإسلام خط المحافظة على استبقاء أصل العقيدة والدفاع عن مقوماتها الأساسية.

ثانياً: وحيثما أُرتجتْ أبواب التعبير عن الموقف الإسلامي من حيث هو نظام شامل ومصدر للشرعية لنظم الحياة والمجتمع، كانت الاستجابة داعية للمفاصلة مع النظم السائدة. وهذا ما نلحظه في فكر المودودي وقطب وبوجه خاص في فكر سيد قطب.

ونحن عندما نتحدث عن فكر سيد قطب إنما نقصد بوجه خاص ما أنتج هذا المفكر في الخمسينات والستينات دون ما صدر له من أعمال قبل ذلك فإن ما يميز هذا المفكر في هذا المقام مما كان له أثر خاص في تاريخ الفكر والحركات السياسية الإسلامية الحاضرة، هو ما ورد في الصياغة الأخيرة لتفسيره «في ظلال القرآن» وفي كتابه الذي شعر بخطره أنصاره وخصومه على السواء «معالم في الطريق».

في الخمسينات والستينات كانت الحركة الإسلامية مضروبة في رجالها وتنظيماتها وكان الفكر السياسي الإسلامي مستبعداً عن المشاركة في تحديد المفاهيم السياسية والاجتماعية ورسم السياسات ورغم كل تحفظات قيادة الدولة في مصر وحذرها مما اسمته «استيراد الأفكار» وحرصها وحرص دعاتها على الترويج لما أسمي بالنظم المنبثقة عن واقع المجتمع وتاريخه، رغم ذلك فقد غلب الطابع العلماني في صياغة مجمل الأفكار والمؤسسات والنظم ورؤى المستقبل واكتسب «المثال» الغربي قدراً كبيراً من السيادة في القيم السياسية وفي العادات وأساليب العيش. وفي هذه الظروف ظهر من تحت الرمال وميض ما عرف بفكر سيد قطب.

كان قطب يؤكد على مفهوم الحاكمية لله وحده، في جميع مجالات حياة البشر ويؤكد أن عقيدة الإسلام لا تتحقق بمجرد القيام بالعبادات لأن طاعة الله مطلوبة في شئون الحياة كافة والصلاة لا تؤدي وظيفتها إذا لم تنه عن الفواحش والتشريع لا ينفصل عن الدعاية والشريعة لا تنفصل عن ذكر الله إن مجمل هذه الأفكار سائدة في الفكر الإسلامي بعامه، ولكن سيد قطب أقام هذا الفكر على نهج فاصل وفارق، فهو فيما يؤكد عليه لا يتعامل مع الأفكار المغايرة ولا يقيم معها جسوراً ولا يتوجه إليها بجوار، فهو فكر صيغ على وجه يهدف إلى المجانية وليس إلى التغلغل والانتشار. وقطب يبدأ بمقولة صحيحة لا ينكرها مسلم، وهي أن الحكم لله وحده، ولكنه يستخلص من ذلك أن كل تشريع وأي قانون نضعه إنما يتضمن معنى الشرك بالله سبحانه، ومن ثم فهو مسلك جاهلي واعتبر دعوته إنما تقوم لإنشاء الدين إنشاء، أي إنها دعوة لاعتناق عقيدة الإسلام حتى لو كانت بين قوم يدعون أنهم مسلمون واعتبر موضوع التجديد في الفقه الإسلامي موضوعاً مرجأ، لأن شرط التجديد أن يوجد الإسلام أولاً.

لا صعوبة في بيان وجوه المغالاة في هذا الفكر الذي يحصر المسلمين في نطاق «طليعة» محدودة ويحسر هذا الوصف عن جمهور الأمة المطلوب إنشاء الدين فيها إنشاء على أننا لا نريد هنا أن نحاكم فكراً، ولا يكفينا أن نصف أي فكر أو حركة بالاعتدال أو التطرف ونسكت. إنما علينا أن نتساءل لماذا يظهر نهج فكري وحركي معين ولماذا ينمو أو يخبو، ثم علينا. أن نعرف أن الاعتدال والتطرف هما حكمان ينسبان إلى ظرف معين أو وضع خاص وأن الفكرة الواحدة يتغير وضعها ومؤداها من حيث التطرف أو الاعتدال بتغير الظرف الذي تعمل فيه. لأن الحكم يتعلق في صميمه بمدى الملاءمة مع واقع الحال. بل أكاد أقول إن وجهي التطرف والاعتدال قد يكونان نافعين في الظرف التاريخي الواحد. وذلك إذا توجه كل منهما إلى ما يسر له. ونحن هنا بصدد الحديث عن فكر وحركة سياسية، وفي السياسة يتوقف

النجاح على حسن أعمال كل من سلاحي التشدد والتهاون كل في مجاله وفي ظرفه.

نحن لا نحاول أن نجري تلفيقاً بين فكرين، ولكننا نحاول أن نفهم وظيفة كل صيغة فكرية في إطار أوضاعها وما يلابسها. وخطأ المدارس الفكرية في علاقاتها مع بعضها البعض أن كلاً منها لا يدرك وظيفة الأخريات في جوانب معينة من واقع الحال، فهي تتضارب بدلاً من أن تتعاون، وهي تضع مقاييس الحكم على أساس من الصواب أو الخطأ المطلقين، رغم أن المعيار هنا نسبي يقاس بملاءمة الاستجابة للأوضاع القائمة، وما قد تقتضيه أحياناً من تعدد الأدوار.

إن سيد قطب صاحب فكر يختلف كثيراً عن فكر حسن البنا، رحمهما الله ولكن الأمر لا يقوم بالمقارنة بموازين مطلقة، إنما يجري وصف كل فكر وظروف أعماله، وفكر حسن البنا لمن يطالعه فكر انتشار وذيوع وارتباط بالناس بعامه، وهو فكر تجميع وتوثيق للعرى. وفكر سيد قطب فكر مجانبة ومفاصلة وفكر امتناع عن الآخرين. فكر البنا يزرع أرضاً وينثر حباً ويسقي شجراً وينتشر مع الشمس والهواء، وفكر قطب يحفر خندقاً ويبني قلاعاً ممتنعة عالية الأسوار والفرق بينهما هو الفرق بين السلم والحرب.

لقد نشأت جماعة الإخوان كتنظيم علني منشور، ثم مالبث أن ظهر بداخلها ما عرف باسم «النظام الخاص» وهو تنظيم أكثر إحكاماً وأوثق رباطاً يمثل كتيبة صدام، عندما تظهر الحاجة للكتائب الصدام، سيما أن البلاد كانت محتلة. ولكن وجود التنظيمين في بردة واحدة لم يكن له أن يبقى طويلاً لأن لكل من التنظيمين تكوينه المتميز والوسط الملائم الذي يحيا فيه، من حيث اختيار الرجال والعلاقات التنظيمية وأدوات العمل ووجوده العطاء المطلوب والمبذول.

والمفروض أن يكون لكل منهما فكر أو «فقه» يلائم وظيفته، الانتشار أو الصدام

والفكر هو ماء الحياة وماء الحياة الذي يلزم لجماعة أعدت نفسها كتيبة صدام وعضلة امتناع ومحاربة وليس الفكر اللازم لبناء مجلس نيابي هو عينه الفكر اللازم لبناء جيش مقاتل، ولا الرجال هم هم ولا علاقات العمل ومستويات النظم هي هي. لذلك فقد حدث بين نظامي جماعة الإخوان ما عرفنا من وقائع الحركة الإسلامية في نهايات الأربعينيات وبدايات الخمسينيات.

لم يكن سيد قطب في ذلك الوقت من رجال المغالاة في الفكر السياسي الإسلامي، ولم يعرف «النظام الخاص» ولكن ظروف الخمسينيات والستينيات من بعد، والأوضاع التي خضعت لها تجربته الفكرية وملكاته الوجدانية والعقلية ككل ذلك اجتمع ليخرج من يراع هذا الرجل جوهر الفكرة الأساسية التي تقوم عليها كتائب الصدام وقدم الرجل حياته ثمناً لهذا الصنيع.

وقد تبلور فكران، فكر الانتشار وفكر الصدام، وقام كل على ساقه ليؤدي الوظيفة التي ترشحها له الظروف في كل حال وتنميها الأوضاع في كل آن. ونحن لا نقول أن السلام أفضل ولا أن الحرب أوجب، هكذا على نحو مطلق إنما الأفضلية والأولوية بينهما تكون منسوبة إلى ظروف الحال، وهكذا الحال في الفكر الذي يغذي أياً من النشاطين وأن الواقع الحي يعلمنا أنه لاسلام إلا مع القدرة على الحرب. فكلاً العنصرين مطلوب في الوقت عينه وكلاهما يغذي الآخر ويتغذى به، شريطة ان يعرف كل منهما مجاله ومجال غيره وشريطة أن نعرف القدر المناسب من كل منهما لعلاج الأوضاع العينية في كل عصر وحصر.

قصدت بهذا العرض التاريخي للملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث أن أوضح عدداً من الأمور أرجو أن أكون جلوتها بعض الجلاء من ذلك أن هذا الفكر كما يتراءى لنا الآن هو حصيلة استجابات تاريخية لهذه المرحلة من حياة جماعة المسلمين وأنه محصلة تراكمت عناصرها لبنة لبنة بواسطة عدد

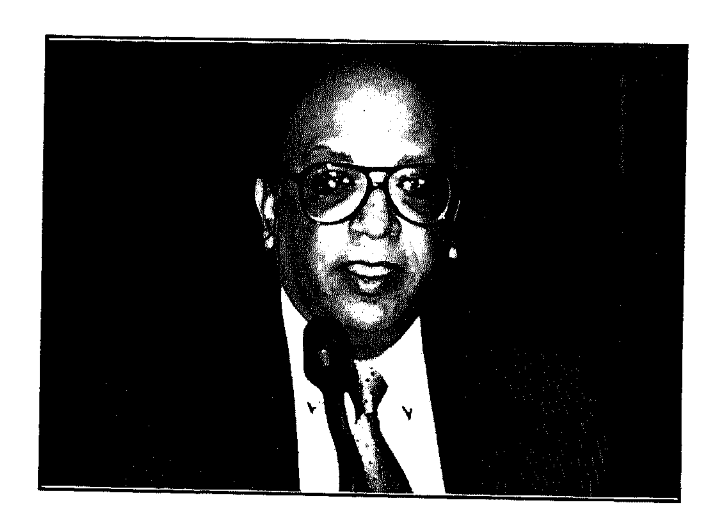
غير محصور من رجال الفكر والسياسة الإسلامية في عصرنا ومنها أن الخلافات بين الاتجاهات المختلفة إنما هي خلافات تحسها الحاجة التاريخية والاجتماعية للأمة الإسلامية في كل حال، وأن الحاسم في الحكم على الجوانب الإيجابية لكل اتجاه إنما يتعلق بمدى الاستجابة للشكل الأساسي الذي يطبع عصرنا كله وهو مشكل التبعية ومطلب التحرر الإسلامي من هذه التبعية للأجنبي وهذا ما يحدد وجوده التجديد ووجوده المحافظة وأنماط الوحدة والتنوع وأساليب الاعتدال والغلو وملاءمات كل وجه من وجوه النشاط.

وإن إيجابيات الإتجاهات المختلفة المختبرة وفقاً لما سبق يمكن أن يغذي بعضها بعضاً لتتراكم في إدراك الأمة كأدوار متنوعة في نسق واحد منتظم وأن التنوع مطلوب والكثرة نافعة متى أمكن نظم وظائفها لتجيب على الوجوه المتباينة لواقع الحال بتعقيداته وتنوعاته. فيعين بعضها بعضاً ويصوب بعضها بعضاً بغير تناف.

وإن الظرف التاريخي وأوضاع التحدي التي تقوم أمام الجماعة هي ما تولد أسلوب المواجهة للدفاع عن الإسلام والنهوض بالأمة الإسلامية بوصفها كياناً حياً وهي التي تحدد وسائل الدفاع وأدواته ونحن نحتاج في كل ذلك إلى قدر مقدور من الوحدة مع التنوع بدرجة لا يجلوها إلا التفاعل مع الواقع المعيش.

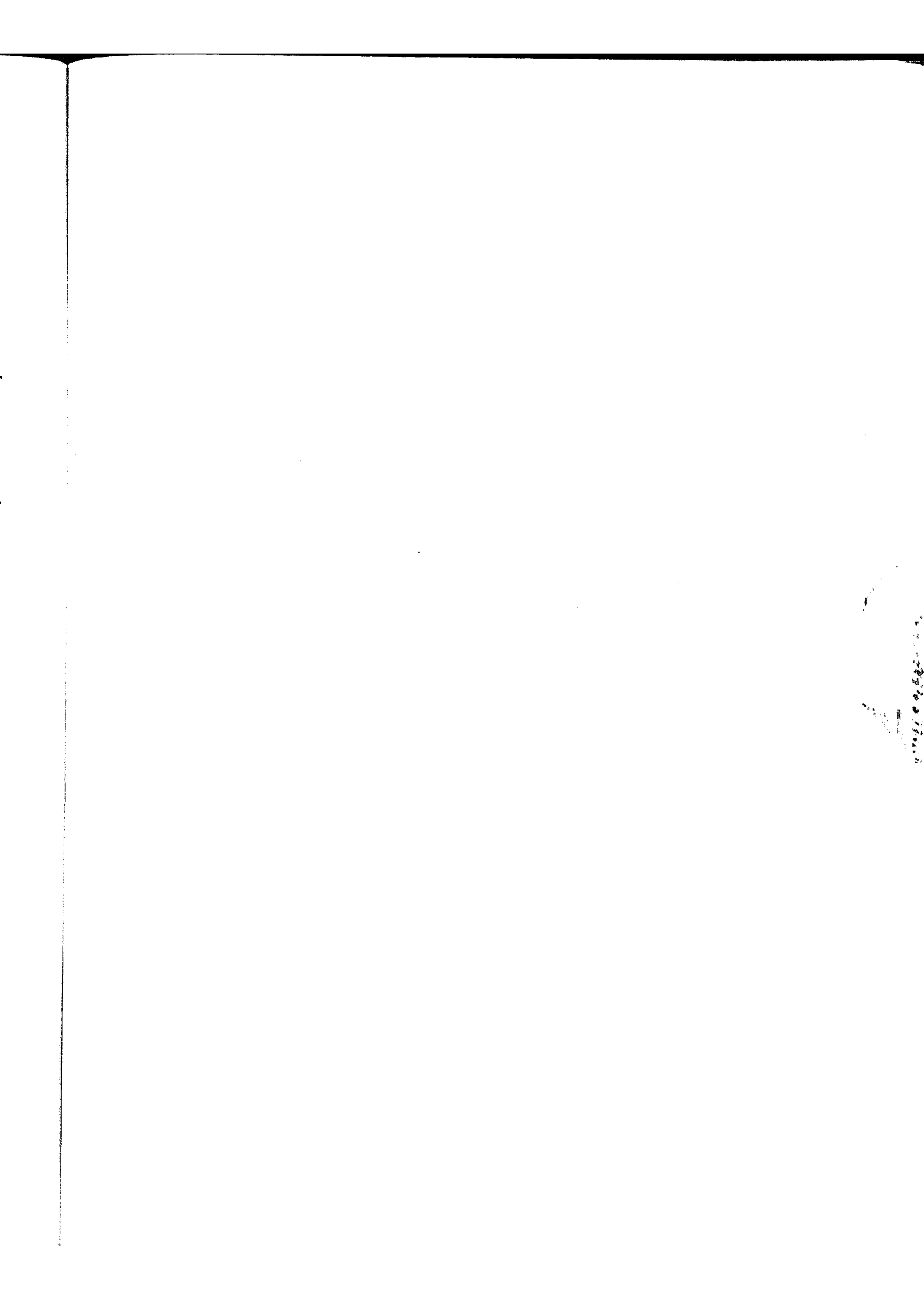
الحمد لله......

الإسلام السياسي
والمتغيرات الدولية



محمد سعيد العشماوي

القيت بتاريخ : ١٩٩١/١٢/٢٩ م



سيرة ذاتية

المستشار محمد سعيد العشماوي

- أستاذ محاضر في الشريعة الإسلامية والقانون المقارن في الجامعة الأمريكية بالقاهرة وفي عدة جامعات أمريكية وجامعة السوربون بباريس وليدن بهولندا وتوبنجن بألمانيا.
- عمل وكيلاً للنائب العام وقاضياً بالمحاكم المصرية ورئيساً للنيابة العامة.
- وكيلاً عاماً لإدارة التشريع بوزارة العدل المصرية ومستشاراً في محاكم الاستئناف ثم رئيساً لمحكمة استئناف القاهرة العليا للأحوال الشخصية.
- يعمل حالياً رئيساً لمحكمة الجنايات ومحكمة أمن الدولة العليا في القاهرة.

له عدة مؤلفات منها على سبيل المثال لا الحصر:

- أصول الشريعة.
- الخلافة الإسلامية.
- ضمير العصر.
- حصاد العقل.
- الربا والفائدة بالإسلام.
- رسالة الوجود.
- تاريخ الوجودية في الفكر البشري.
- جوهر الإسلام.

الإسلام السياسي والمتغيرات الدولية

المستشار محمد سعيد العشماوي

مقدمة

لبيان موقف الإسلام السياسي من المتغيرات الدولية، يتعين ـ ابتداء ـ بيان وتحديد المتغيرات الدولية، ثم استجلاء موقف المسلمين عامة من هذه المتغيرات، ثم بعد ذلك رصد موقف الإسلام السياسي منها.

فالتاريخ ـ غالبًا ـ ما يسير في دوائر متداخلة متصاعدة، تؤدي إلى حدوث تغيرات محلية وإقليمية ودولية. ولقد كان سير التاريخ بطيئًا وحدوث المتغيرات يسيرًا، يمكن ـ إلى حد ما ـ إستيعابُه بسهولة، واحتواؤه ببساطة، والتفاعل معه في اقتدار، غير أن حركة التاريخ زادت منذ أوائل القرن الحالي، ثم تسارعت في العقد الأخير منه؛ فأحدثت تأثيرات بعيدة المدى، وتخلفت عنها نتائج شديدة الفاعلية، ونتجت منها مواقف بالغة التعقيد.

ولأول مرة في التاريخ، بدأ العالم كله كمسرح واحد تجري عليه أحداث شديدة السرعة، كثيرة التداخل، بعيدة النتائج، من الصعوبة بمكان أن تحدث سيطرة تامة عليها، أو أن يقف أمامها الناس ساكنين.

ولقد أدى ذلك كله إلى متغيرات دولية على الأصعدة كافة، وفي كل الأنشطة؛ منها المتغيرات السياسية، والمتغيرات الاقتصادية، والمتغيرات الإعلامية والمعلوماتية، والمتغيرات المعتقدية.

«المتغيرات الدولية»

أولاً: المتغيرات السياسية:

من نوافل القول أنه لا يمكن تعقب كل المتغيرات السياسية على الساحة الدولية، لكنه من المتعين ـ مع ذلك ـ رصد أهم هذه المتغيرات، وهي تتحدد أساساً في مسائل أربع، هي:

انهيار الاتحاد السوفييتي، وحرب الخليج، والنظام العالمي الجديد، ومفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل.

أ ـ فالاتحاد السوفييتي كان يمثل قوة عظمى، وكان أحد ثنائي قطبي الهيمنة العالمية، وكان ـ بالنسبة لعدد كبير من النظم والأحزاب والجماعات ـ قوة مناوئة للغرب وسنداً في أي صراع مع العالم الغربي، ومن ثم فقد كان لما لحق به من انهيار أثر بالغ على كثير من السياسات الدولية والإقليمية والمحلية، وأحد المتغيرات السياسية الهامة، إن لم يكن أهمها جميعاً.

وعلى الرغم من مظاهر القوة والتماسك والهيمنة التي كان يظهر بها الاتحاد السوفييتي وخاصة في العقود الخمسة الأخيرة، فإن الدارسين بجدية والباحثين عن صميم الحقيقة ولب الواقع كانوا يدركون ويكتبون مايفيد أن الاتحاد السوفييتي يحمل في بنائه عوامل انهياره، ويحتوي بين ثناياه على عناصر انحلاله.

فالاتحاد السوفييتي ـ خلافاً لكل ما يقال ويشاع ـ لم يكن يطبق النظام الاشتراكي ـ لكنه كان يطبق نظام رأسمالية الدولة، أو بالأحرى رأسمالية الحزب، وهو بهذا المعنى كان يطبق النظام الإقتصادي ذاته الذي يطبقه الغرب، فيما عدا فارق أساسي وهام، هو أن ذلك النظام السوفييتي، كان يصدر عن الحزب وحده، لا عن مؤسسات ولا عن شركات ولا عن أفراد، لذلك فقد اختلط بالبيروقراطية (المكتبية) الإدارية، وتداخل مع النظام الشمولي، فكان رأسمالية شائهة أو

رأسمالية شمولية أو رأسمالية بيروقراطية (مكتبية)، ففقد بذلك مزايا الرأسمالية وعناصرها الإيجابية وقدرتها التطورية، وكان مآله الانهيار والزوال.

والاتحاد السوفييتي أغفل مسألة القوميات والشعور القومي، مع أنه خليط من قوميات كثيرة، غير متوافقة، إن لم تكن متنافرة. والقومية ـ كما هو معروف ـ أحد مصادر العزة الاجتماعية وأحد أسباب التماسك الاجتماعي. وخلال الحرب العالمية الثانية اضطر النظام السوفييتي إلى إحياء القومية الروسية وحدها، لمقاومة الغزاة النازيين، وخاصة أثناء حصار مدينة لينجراد (التي عاد إليها أخيراً اسمها الأصلي: بتروجراد).

وكان لإحياء القومية الروسية وحدها أثر منشّط لفكرة القومية ذاتها، وأثر منبه للقوميات الأخرى التي تماسكت فيما بينها، وظلت تتربص فرصة وتتحين مناسبة لتظهر وتسفر عن نفسها، واضحة قوية، تطلب الاعتراف بها، وتنزع إلى الاستقلال عمن يريد أن يكبتها أو لا يعترف بها.

والاتحاد السوفييتي قام منذ البداية على استخدام الجهاز البوليسي القيصري، لكي يحمي نفسه ويضرب أعداءه، ولم يستطع بعد ذلك أن يتخلص من هذا الجهاز أبداً، فصارت البوليسية سمته الأساسية، والشمولية طابعه الرئيسي، وأثر هذا الطابع وتلك السمة على سلوك الأفراد فسلبهم الحرية والقدرة والابتدار، وجعل منهم مجرد آلات في يد الحزب وفي «ترسانته» الضخمة. ومتى كان نظام بغير شعب حر قادر مبتدر فهو نظام فاشل مآله إلى الانحلال والزوال والدمار؛ مهما طالت به المدة أو بلغ به المدى.

والاتحاد السوفييتي أعرض تماماً عن الدين وعن الإيمان، أو بالأحرى استبدل بهما الإيمان بالدولة والإيمان بالحزب، مع أن الدين نظام كوني لا يمكن الانفلات منه، ومبدأ طبيعي تنطوي عليه فطرة كل إنسان؛ وهو ـ بهذا المعنى ـ أهم مصدر

للخلق الرفيع، وأول سبب للتوافق الاجتماعي، وأظهر عامل للترابط الإنساني. فإذا غاب الدين من الآفاق الفردية والاجتماعية والإنسانية، أو فسد تفسيره أو اختل تطبيقه، كان ذلك نذيراً بالفوضى والشر واللاأخلاقية والانتهازية والأنانية، وهي كلها عوامل لابد أن تنتهي إلى الدمار وأن تفضي إلى الانهيار.

ومن عجب أن الذي أسرع بانهيار الاتحاد السوفييتي هو قوة هذا الاتحاد. ذلك أن الاتحاد السوفييتي ارتكز أساساً على القوة العسكرية، وأعد ترسانة ضخمة تنافس ترسانة الغرب. ومع التسابق في التسلح، وُجهت أغلب موارد الاتحاد السوفييتي إلى هذا المجال، كما أن تقنيته وقفت عنده. وعهد الغرب إلى جر الاتحاد السوفييتي إلى زيادة التسابق - خاصة بعد مشروع حرب النجوم - فزاد إنفاقه على السلاح، وبهذا قصّر عن الإنفاق على مشروعات التنمية الاقتصادية والشعبية، كما وقفت التقنية عنده إلى المجال العسكري وحده، فلم تمتد لتنفيذ مشروعات التنمية.

بهذا تكاملت الأسباب، فانهار الاتحاد السوفييتي، وكان لهذا الانهيار آثار كثيرة، منها استقلال بلدان دول شرق أوروبا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وغيرها، ومنها توحد ألمانيا بشطريها الغربي والشرقي.

وأثر ذلك على النظم الشمولية في أنحاء العالم كافة، فانهارت واحداً بعد الآخر، وحلت الليبرالية (أي الحرية السياسية والحرية الاقتصادية والحرية الفكرية) محل التنظيم الجامد والمركزية الشديدة والنظم الشمولية، وبدأت تظهر وتتفشى أفكار مثل التعددية الحزبية، وحق الشعوب في حكم نفسها، واحترام القوميات، وما إلى ذلك.

وترك انهيار الاتحاد السوفييتي أثره على الأحزاب اليسارية في العالم أجمع، ودعاها إلى تعديل برامجها، بل وإلى تغيير معنى اليسار ذاته؛ هذا فضلاً عن تأثير

ذلك الانهيار على توجهات وتصرفات بعض المؤسسات والمنظمات، مثل منظمة التحرير الفلسطينية.

ب ـ حرب الخليج

كانت حرب الخليج أول حرب في التاريخ تُدار ـ ولو ظاهريًا ـ من خلال المنظمات الدولية كالأمم المتحدة ومجلس الأمن وغيرها، كما أنها كانت ـ كذلك ـ أول حرب تضم عددًا كبيرًا من الدول في الغرب والشرق ضمن تحالف واحد يعمل من أجل إزالة آثار العدوان العراقي على الكويت ووقف تهديد العراق لجيرانه من الدول العربية. وخلال هذه الحرب ظهرت فكرة النظام العالمي الجديد، وبدأت ملامحه تتضح شيئًا فشيئًا.

ومن جانب آخر، فقد كانت حرب الخليج سببًا في تحطيم القوة العسكرية للعراق. وفي وجود غربي عسكري في المنطقة، وفي تكوين نظام جديد للدفاع عنها، وفي بروز قوة إسرائيل العسكرية، وهذه كلها أمور لابد أن تكون ذات أثر بالغ في العالم بأسره، وعلى منطقة الشرق الأوسط، وعلى البلاد العربية؛ وهي من المتغيرات الدولية الملحوظة.

جـ ـ النظام العالمي الجديد

طالما حَلُم العلماء وكَتَب الكتاب عن ضرورة نشوء نظام عالمي جديد، إنساني في طبيعته، إنساني في أهدافه. وكان ظهور مثل هذا النظام أمرًا صعبًا ـ بل ومستحيلاً ـ في ظروف الإستقطاب الدولي بين محوري الزعامة: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. ثم أصبح نشوء النظام العالمي الجديد أملاً قريب المنال بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، ثم صار حقيقة واقعة أثناء حرب الخليج وما بعدها.

والنظام العالمي الجديد، ليس هو النظام الإنساني في طبيعته والإنساني في

أهدافه، كما أمل المفكرون وحلُم الكتّاب، لكنه نظام عالمي دولي، علّه أن يكون خطوة ثابتة في الطريق الصحيح.

والنظام العالمي الجديد يقوم أساسًا على إدارة شؤون العالم وحل الصراعات فيه، من خلال المنظمات الدولية، كالأمم المتحدة ومجلس الأمن وغيرها، حماية لمبدأ الشرعية الدولية. وإذا كانت إدارة شؤون العالم وحل صراعاته من خلال المنظمات الدولية أمر محل نظر لسيطرة بعض الدول على هذه المنظمات، فإن مبدأ الشرعية الدولية ـ كذلك ـ قد لا يكون مبدأ مناسبًا أو كافيًا، طالما كان من الممكن أن يؤدي إلى إسباغ الحماية على نظم مستبدة، وإلى نشر الرعاية على دول ظالمة، وإلى دعم استقرار أوضاع خاطئة.

ويرى بعض الناس أن هذا النظام العالمي الجديد نظام يؤدي إلى تفرد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم، بعد أن كانت هذه القيادة متوازية بين القطبين الكبيرين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، ولكن بعضًا آخر يرى أن انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم أمر سوف يحدث في المدى القريب وإلى حين فقط، إذ سوف تظهر بعد ذلك قوى أخرى تحدث التوازن المطلوب، مثل أوروبا الموحدة بعد سنة ١٩٩٢، والتكتل الاقتصادي لدول جنوب شرق آسيا، وغير ذلك من قوى.

د ـ مفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل

منذ وعد بَلْفُور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ والصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين صراع مادي، أخذ أشكالاً متعددة حتى صار صراعًا عسكريًا، بل وانتهى إلى حروب مستمرة بين بعض البلدان العربية وإسرائيل. ونتيجة لهذه الحروب فإن إسرائيل أذاعت أن العرب رفضوا الشرعية الدولية المتمثلة في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية وعبرية (٢٩ نوفمبر

سنة ١٩٤٧) وأن حدودها سوف تصل إلى ما تصل إليه حرابها، وبذلك لم تعد الحرب بين العرب وإسرائيل سبيلاً إلى الوصول إلى السلام، لكنها أصبحت طريقاً يدفع إسرائيل إلى التوسع والامتداد على حساب عرب فلسطين وعرب بعض البلاد المجاورة، وأراضي كل منهم.

حرب مثل هذه ليست لها حدود تقف عندها ولا وقت تنتهي فيه، خاصة وقد اصطبغت ـ هذه الحرب ـ بعد احتلال إسرائيل للقدس القديمة سنة ١٩٦٧ ـ بصبغة دينية، فأصبحت حرباً بين المسلمين من جانب واليهود من جانب آخر ـ والحروب الدينية تستمر على الدوام ولا تعرف لها نهاية إلا بالموت.

ونتيجة لأسباب عدة، تكاد تكون ما سبق بيانه من متغيرات دولية، فقد اتجه الصراع العربي الإسرائيلي إلى مائدة المفاوضات بدلاً من ساحات الوغى. وهذا التبدل في أسلوب حل الصراع، والذي يساهم فيه الفلسطينيون أنفسهم، يعد من المتغيرات الهامة التي طرأت على الساحة الدولية والتي سوف تؤثر تأثيراً بعيداً على هذه الساحة وعلى منطقة الشرق الأوسط سواء بسواء، خاصة وأن مفاوضات السلام سوف تتناول عدة موضوعات غير انتهاء الصراع العسكري، مثل المقاطعة الاقتصادية وتوزيع المياه والأمن الإقليمي وما إلى ذلك من موضوعات.

ثانياً: المتغيرات الاقتصادية:ـ

كانت المعادلة الاقتصادية التقليدية معادلة ثلاثية تقوم على الأرض والعمل ورأس المال. وفي العصر الحديث تغيرت المعادلة لتصبح معادلة رباعية يُعَدّ فيها الإنسان الراشد أهم عناصرها. بهذا أخذ الترشيد والتدريب والتثقيف معاني جديدة، إذ صار أهم العوامل لتقديم الإنسان الواعي المنتج.

ومع ضرورة التنمية بهذا المفهوم، خاصة في بلاد العالم الثالث، فإنها أصبحت

عسيرة المنال وليست يسيرة التحقيق؛ بسبب احتكارات رأس المال، أو تضخم الديون الخارجية، أو قلة الموارد، أو ندرة عدد السكان، أو ما إلى ذلك.

ومن ناحية أخرى، فإن احتكارات رأس المال العالمية تركزت في بعض المصارف وفي الشركات المتعددة الجنسيات، وأصبحت هذه الشركات وتلك المصارف أهم المؤسسات للتأثير على الاقتصاد العالمي، وعلى دخول واتفاقات كل أسرة في شتى أنحاء العالم.

ونتيجة لذلك، فقد أخذت أهمية النقد المحلي تتوارى أمام عملات دولية للنقد، أهمها الدولار الأمريكي؛ كما أن نظام النقد التقليدي بدأ يتخلف أمام نظام الائتمان الحديث، وصار من الصعب على الدول أن تفرض رقابة وطنية على حركة تداول النقد، بسبب سهولة هذا التداول عالميًا، ووجود مناطق جذب له، وانتشار بطاقات الائتمان، وغير ذلك.

وبالإضافة إلى المتغيرات في النظام النقدي والنظام الاقتصادي المحلي والعالمي، فإن هناك متغيرات هامة في اكتشاف الطاقة وتداولها، فَثَم تجارب ناجحة في استخراج الطاقة الآمنة الرخيصة، بالانشطار النووي والاندماج النووي، ومن الطاقة الشمسية، ومن تسييل الفحم، ومن تبريد المعادن؛ وهذا كله سوف يؤثر على النظام الاقتصادي العالمي بأسره، كما سوف يترك بصماته العريضة على النظام النقدي كذلك.

وحتى في اعتبار النفط منتجًا أساسيًا للطاقة، فان التقارب بين دول غرب أوروبا من جانب، والبلاد التي تحلل عنها الاتحاد السوفييتي من جانب آخر، قد يؤدي إلى مد أنابيب النفط من هذه البلاد عبر بلاد غرب أوروبا (كما هو حادث بالنسبة للغاز الطبيعي)؛ ومن شواطئ المحيط الهادي الشرقية يُنقل النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا حدث ذلك فلابد أن يؤثر تأثيرًا سلبيًا على منطقة

الشرق الأوسط التي يقوم اقتصاد بعض بلادها على استخراج النفط أو على مرور ناقلاته عبر أراضيها أو في قنواتها.

ثالثًا: المتغيرات الإعلامية والمعلوماتية:-

حدثت في السنوات الأخيرة ثورة إعلامية ملحوظة، غيرت من وسائل الاتصال وبدلت من طرائق المعرفة، وفي هذا الصدد قال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في خطاب له أمام الأمم المتحدة (في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٩١): «إن ثورة الاتصال حطمت العزلة المفروضة على الشعوب، وكذلك حطمت الجهل، وفي مناطق كثيرة من العالم تغلبت التقنية على الاضطهاد وتحققت فرضية، هي أن عصر المعلومات هو بالقدر نفسه عصر الحرية».

إن الثورة الإعلامية التي حدثت، جعلت من العالم كله قرية إلكترونية، كل الأحداث فيها مرئية ومسموعة ومقروءة للجميع في الوقت نفسه، وغالبًا وقت وقوع الحدث أو بعده بفترة يسيرة. وقد أدى ذلك الانتقال الحر السريع للأفكار والقيم والأحداث والصور إلى ظهور قدرة هائلة للإعلام على تشكيل الأحداث وعلى تكوين العقول وعلى التأثير في الضمائر. وقد بدا ذلك واضحًا حين نقل الإعلام إلى كل بيت في العالم، في الوقت نفسه، صور حرب الخليج التي سُميت من أجل ذلك بالحرب التليفزيونية؛ كما تجلت سطوة الإعلام وأثره في سير الأحداث في ذلك الدور البارز الذي لعبه إبان أحداث الإنقلاب الفاشل في الاتحاد السوفييتي (أغسطس سنة ١٩٩١) مما دعا البعض إلى القول بأن الإعلام الدولي هو الذي أسقط الانقلاب.

لقد أدت الثورة الإعلامية إلى حصار كثير من الأفكار والقيم والمبادئ والمعتقدات والتقاليد القديمة والموجودة حالاً (حاليًا)، كما أنها جعلته ضربًا من المستحيل، حصار الحرية في أي مكان في العالم، وبهذا أفسحت المجال لثورة

عظيمة في المجال الفكري والقيمي والمعتقدي، وجعلت من الحرية معنى مساويًا للخبز ومكافئًا للإنسان.

أما المعلوماتية، فهي الأنشطة والأعمال والوسائل والنظم والأدوات التي تُستخدم في جمع وتحليل ومعالجة وصياغة تداول المعلومات في مجتمع ما، وأسلوب تطويع تلك المعلومات لخدمة الأهداف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لذلك المجتمع ولأفراده. وقد تزامن الاهتمام المعاصر بالمعلوماتية، أو لعلّه كان نتيجة، لانتشار استخدام الحواسيب Computers، مما أدى إلى تسهيل تراكم وتركيز وتداول المعلومات لأي فرد.

وتراكم وتركيز المعلومات وسهولة تداولها لأي فرد لابد أن يؤدي إلى تغيير كبير في الفهم والإدراك والتصرف، لأن شطرًا كبيرًا من العقل البشري ومساحة واسعة من تصرفات الأفراد ومعتقداتهم كانت مظلمة قاتمة، محكومة بالجهل، أو على الأقل مشلولة مشوهة نتيجة نقص المعلومات. وعندما يزول الجهل وتتنامى المعلومات فان تغييرًا كبيرًا لابد أن يطرأ على كل المستويات الدولية والإقليمية والمحلية والإنسانية.

رابعًا: المتغيرات المعتقدية:-

أدت المتغيرات المتعاقبة إلى تغيير كبير في موضوعين هامين، هما الإيمان والإنسان.

فقد غلبت على كثير من الناس - في فترات ماضية - نزعات الإلحاد وإنكار الدين واعتناق أفكار ومبادئ عن مادية السلوك الفردي والجماعي، بل وعن حركة التاريخ ذاته. لكن هذه الاتجاهات جميعًا، انهارت في الوقت الحالي لتفسح مجالاً للإيمان بالله والإيمان بالإنسان.

فالصحو الديني في كل أرجاء العالم أمر ظاهر ملحوظ ممتد شامل لكل الشرائع. ولئن اختلط في بعض الحالات بالأعمال السياسية أو بالأنشطة الإرهابية، فإنه لابد وأن يصحح نفسه ليصبح صحواً صحياً خلاّقاً مفيداً للإيمان والإنسان والإنسانية.

وقد واكب الإيمان بالله إيمان بالإنسان، فأصبح الإعتقاد بحقوق الإنسان، كل إنسان على ظهر الأرض، أمراً يكاد يدخل في صميم الإيمان، ويُعَد ترجمة حية واضحة وعملية للإيمان بالله.

وإذا كانت بعض الحركات العنصرية، في هذا المكان من العالم أو ذاك، قد أطلت برأسها وبدأت تقوى وتشتد؛ فإنها، مع الصحو الديني والإنساني، لابد أن تتلاشى وتزول وتُخلي مكانها للإيمان المتعاظم بالله والإنسان، خاصة وإنها حركات مضادة للتاريخ ومعارضة للإنسانية ومناقضة للروح الجديدة.

موقف المسلمين من المتغيرات الدولية :

الإسلام ليس ديناً لجماعة ولا شريعة لأمة، لكنه دين مفتوح للجميع؛ وهو بهذه المثابة دين عالمي وشريعة إنسانية.

وقد كان في الفكر السياسي، خلال القرن الماضي، نوع من الفرز الديني، يجعل من أوروبا إقليماً للمسيحية بينما يجعل من الشرق الأوسط إقليماً للإسلام. غير أن هذا الفرز زال وانتهى، لقيام نظام الدولة المعاصرة الذي يجعل من الجنسية أساساً للانتماء إلى الوطن.

هذا فضلاً عن وجود عدد كبير من المسلمين بالشرق الأقصى أضعاف عددهم في الشرق الأوسط، ووجود كثير من المسلمين بالبلاد الأوروبية بقدر عددهم مابين سبعة عشر مليوناً وعشرين مليوناً، ووجود عدد آخر بالولايات المتحدة الأمريكية

يقدر بحوالي خمسة ملايين فرد.

فإذا ما كان الوضع كذلك، فإن بيان موقف المسلمين من المتغيرات الدولية لا يعد خطابًا موجهًا إلى دول الشرق الأوسط ذات الأغلبية الإسلامية، لكنه أمر يتصل بالمسلمين في كل مكان، أينما وجدوا؛ وإن كان لمسلمي الشرق الأوسط - خاصة - دور أساسي وهام، نظرًا للظروف التاريخية والجغرافية والسياسية لهذه المنطقة من العالم.

وموقف المسلمين - بهذا المعنى - من المتغيرات الدولية يتحدد في نقاط خمس: الواقعية التاريخية، وتحديث العقل الإسلامي، وتجديد الفكر الديني، وإنتاج التقنية لا مجرد استهلاكها، وتقوية التعاون الإسلامي في نطاق النظام العالمي.

١) الواقعية التاريخية:

من الملاحظ أن كثيرًا من المسلمين لا يتصورون الماضي باعتباره أحد عناصر تشكيل الحاضر ومن ثم التأثير على المستقبل، لكنهم يقيمون تفاصلاً في الزمان بين الماضي والحاضر والمستقبل. وفي هذا التفاصل، يُعَدّ الماضي عندهم سجنًا تنحبس فيه عقولهم وقلوبهم وضمائرهم، ولا تستطيع الانعتاق إلى الحاضر. والحاضر لديهم مجرد أوصاف إنشائية وتعبيرات هلامية وليس عناصر معقدة متشابكة يمكن فهمها فهمًا علميًا، والتداخل فيها بوعي والسيطرة عليها بقدرة، ثم توجيهها إلى حيث يريد الإنسان ويمكنه. والمستقبل في تقديرهم غيب لم يقع وأمر لم يحدث، وهو لا يرتبط بالماضي ولا يتصل بالحاضر.

هذا الفهم الغائم لفكرة الزمن ومعاني الماضي والحاضر والمستقبل تفصل أغلبية المسلمين عن التاريخ وتقطعهم من الزمن وتبعدهم عن الوقت، وتدعهم معلقين في فضاء أبدي وسكون سرمدي لا يستطيعون الحركة، ولا يقدرون على التأثير في

الأحداث، ولا يتمكنون من التداخل في النتائج، وليس بقدرتهم أن يكونوا فاعلين إيجابيين؛ وبذلك تركوا لغيرهم العمل والإنتاج والتأثير في الأحداث وتشكيل الواقع ومحاولة رسم آفاق المستقبل.

وأهم وأول واجب على المسلمين لمواجهة المتغيرات الدولية إدراك فكرة الزمن وقيمة الوقت ومعنى التاريخ ومبدأ الحركة وأسس الفاعلية وسبل الإيجابية. فإن فعلوا ذلك ـ اتصلوا بالزمن، وتعلّقوا بالوقت، واستوعبوا التاريخ، وتحركوا مع الأحداث، وتفاعلوا مع كل عناصر الكون، وكانوا إيجابيين في مسلكهم؛ ومن ثم استطاعوا أن يحلّوا مشكلة الأصالة والتحديث، كما استطاعوا أن يبدأوا التوافق السليم مع المتغيرات الدولية والإسهام الفعال في تشكيل هذه المتغيرات والسيطرة عليها.

٢) تحديث العقل الإسلامي:

كان المسلمون الأوائل يفكرون ويتحدثون ويتصرفون على سجيتهم، وفقًا لطبيعة اللغة العربية ولهجاتها المتعددة، دون أن يتجهوا إلى وضع أسلوب للتفكير أو نظام للعقل، مثلما فعل أرسطو الإغريقي في القرن الرابع قبل الميلاد، حين وضع المنطق الصوري أداة لضبط العقل وتحديد الفكر.

ووصل العقل الإسلامي إلى درجة بعيدة من الحرية إبّان عهد المعتزلة. غير أن هؤلاء بددوا طاقاتهم واستهلكوا قواهم في مسائل فرعية وقضايا جدلية وأمور وقتية، ولم يبحثوا في الموضوعات الإنسانية العامة، ولا وضعوا للعقل الإسلامي منهجًا متكاملاً للعمل، أو أداة دقيقة للفكر تحمل سماته.

وفي بحث المعتزلة في القضايا الإسلامية وقفوا كثيرًا عند مسألة خلق القرآن وأكدوا عليها تأكيدًا فلسفيًا جدليًا، مع أنهم كانوا يكونون أكثر توفيقًا لو أنهم

طرحوها من الناحية الفقهية وفقًا لنظرية تفسير آيات القرآن تبعًا لأسباب تنزيلها لأعلى عموم ألفاظها.

ومن المؤسف أن المعتزلة، وقد كانوا فرسان العقل، ما إن وصلوا إلى السلطة في عهد الخليفة المأمون حتى لجأوا إلى العنف والقوة والقهر لفرض معتقدهم عن خلق القرآن، واضطهدوا الكثيرين من مخالفيهم ومنهم أحمد بن حنبل، فضربوا بذلك حرية العقل، ومهدوا لتقويض العقل الإسلامي.

وفي عهد المتوكل، عندما انتصر السلفيون على المعتزلة، عمدوا إلى ضرب العقل والمنطق وحرية الفكر، باعتبارها السبيل الذي يؤدي إلى الكفر والإلحاد بمسألة مثل مسألة خلق القرآن.

وظهر الأشعري (أبو الحسن بن أبي موسى ٨٧٣/٩٤١م) ليحدد عقيدته في التمسك بكتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، وبمذهب واتجاه أحمد بن حنبل (عدو المعتزلة الذي كان يقول بأزلية القرآن). وأهم ما يتألف منه مذهب الأشعري ما قاله من أن «الله قادر على كل شيء وخالق كل شيء، وليس للطبيعة عنده فعل ما.. أما أفعال الإنسان، فإن الله يفعلها ويخلقها فيه فينسبها الإنسان إلى نفسه ويزعم أنها من كسبه.. والعقل أداة للإدراك فقط لكنه لا يستطيع إدراك وجود الله.»

وقد انتهى الأشاعرة، أتباعه، إلى أن العقل لا يوجب شيئًا من المعارف، ولا يقتضي تحسينًا ولا تقبيحًا، ولا يوجب على الله رعاية لصالح العباد، والواجبات كلها تُفرض بالسمع ولا وصول لها بالعقل. وهذا كله على الضد من آيات القرآن الواضحة الصريحة في تبجيل العقل وجعله مدار المسألة.

ثم تلا الأشعري أبو حامد محمد الغزّالي (١٠٥٩ ـ ١١١١م) فختم على العقل

الإسلامي نهائيًا، دون رجعة إلا بمراجعة شديدة وثورة شاملة.

وخلاصة مذهبه ـ فيما يتعلق بالموضوع ـ أنه يرى أن الله سبب لوجود العالم، وأنه خلقه بإرادته وقدرته، وأنه لا توجد إلا علّيةٌ واحدة، هي علّية وجود المُريد، أي الله؛ أما علّيّة الطبيعة، أو ما تلحظه المشاهدة من وجود صلة بين شيئين كإضرام النار واشتعالها في الأشياء من ثمّ، أو إحداث إصابة تعقبها وفاة، أو رش ماء يتبعه بلل؛ ذلك كله أمر منكور ومردود إلى علاقة زمانية بين الشيئين، أي حدوث أمْر متتابع بينهما. فليست النار هي التي أشعلت الأشياء، ولا الإصابة أحدثت الموت، ولا الماء أنشأ البلل، إنما ذلك كله تهيؤ في ذهن الناس لحدوث هذه بعد تلك ـ والفاعل في الحقيقة، والسبب ـ هو وحده الله سبحانه، لا هذا الشيء ولا ذاك.

ونظرًا لانتشار فكر الغزّالي، وكتابه إحياء علوم الدين، فقد خُتِم على العقل الإسلامي وقُطع دابر الرأي، بل وانتهت تمامًا فكرة وجود قوانين ثابتة مطردة لحكم الأشياء، كما انتهت كذلك حرية الإرادة ومبدأ مسألة الإنسان عما يفعل.

لقد ضُرب منطق السببية ومنهج العلّية ومبدأ حرية الإرادة وأساس القوانين، وانتهى جانب العقل وتقدير الحرية من العقل الإسلامي، فلا هو قادر على الفقه والتشريع، ولا هو قادر على النظر والتدبير، وليس مسموحًا له أن يبحث عن سبب الأشياء، أو يغوص في علل الحوادث، أو يحاول تنظيم أفعاله أو السيطرة على إرادته أو التداخل في التاريخ أو التفكير في تسخير المواد لمصلحته. ومن باب العقل ضُرب العقل، ومن نهج الدين وقف الدين، وباسم العلم انتهى العلم تمامًا. فبغير المنطق لا يستقيم فهم، ودون السببية لا يتكون عقل، وبنفي العلية تنتهي العلوم، وبإنكار حرية الإنسان يصبح أدنى إلى الحيوان وأقرب إلى المادة.

لكل أولئك فقد تراجع المنطق، وتخلف العقل، واندثر العلم، وضاعت الحرية، وبدأ الإسلام عهدًا طويلاً من النوم وعصرًا بعيدًا من الخرافة.

وتحديث العقل الإسلامي واجب على المسلمين جميعًا، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بتحديث آليته، وتعصير أدواته، ليقوم على مَنْطَقة الأشياء، ومَنْهَجة العلوم، والأخذ بالسببية، والركون إلى العلّية، وتقدير حرية الإنسان.

ولا يمكن بحال من الأحوال أن يواجه المسلمون المتغيرات الدولية إلا إذا كانوا على مستوى راق من الفهم ومستوى عال من الأداء، وذلك أمر يتوقف أساسًا على تحديث العقل الإسلامي.ة

٣) تجديد الفكر الديني:

منذ ضُرب العقل الإسلامي - في القرن الرابع الهجري - هبط مستوى تفكيره، فلم يعد قادراً على تناول الموضوعات الهامة والرئيسية والأساسية والجادة، في الدين أو في الدنيا، وإنما اقتصر على الهامشية وإنحصر في القشوريات وتبدد في التافه من الأمور، واقتصر شأنه على طلب الفتوى جاهزة في شعار، أو معلبة في رأي، أو مغلفة في قول، أو مطلقة في هتاف.

وفي العصر الحالي الذي تفرض فيه التحديات على العقل الإسلامي أن يجدد فكره ويعلو بمستوى تفكيره ليستوعب المتغيرات، فيستطيع مواجهتها والإسهام في حلها؛ في هذا العصر؛ فإن الفكر الإسلامي يدور أساسًا حول موضوعات غير جادة مثل شرعية لبس الجلباب، وطول هذا الجلباب، وضرورة إطلاق اللحية، وما إذا كان من اللازم حلق الشارب أم تركه، وحُرمة الخَلّ أو حلّيته، وما إذا كان يجوز دفن الميتة الأنثى بجوار ميت ذكر.. وهكذا، من موضوعات أبعد ما تكون عن لباب الأمور وأسّ المسائل في العصر الحديث.

وتجديد الفكر الديني واجب على المسلمين جميعًا للخروج من هذا المأزق إلى انفساح الفكر وعرض التفكير.

وأهم السبل للوصول إلى هذا التجديد يكون باتباع مايلي:

أ ـ تحديد معاني القرآن الكريم تحديداً واضحاً لكل لفظ ـ جامعًا لمعناه، مانعًا من تداخله مع غيره. فبعض الألفاظ يحتمل الاختلاف اللغوي، وبعضها تغير على مدى التاريخ، وبعضها يُنطق بأكثر من نطق يؤدي إلى تغيير معناه.. وهكذا.

وأهم الألفاظ التي ينبغي تحديدُها لتجديد الفكر الإسلامي هي ألفاظ: ـ الشريعة، الحكم، الأمة، الناس، الكفر، الذكر، الشرك، الكتاب، العالمين، الإيمان، الإسلام وغيرها.

ب ـ تحديد منهج لتفسير القرآن. ثَمّ منهج أصيل يرى أن يكون تفسير آيات القرآن وفقًا لأسباب تنزيلها، بينما يرى منهج آخر ـ متأخر ـ أن يكون تفسير آيات القرآن تبعًا لعموم ألفاظها لا على خصوص أسبابها.

والفارق بين المنهجين كبير ومتشعب، ويمكن أن يكون فارقًا بين بنائين كاملين للدين، كل منهما متفاصل عن الآخر، ومتباعد عنه. ولا يمكن للفكر الإسلامي أن يستقيم حقيقة إلا إذا استقر على منهج واحد لتفسير آيات القرآن الكريم، هو المنهج الأصيل.

جـ ـ وضع نظرية للنسخ في القرآن الكريم. ذلك أنه على مدى التاريخ الإسلامي لم توضع نظرية ولم تحدد قاعدة للنسخ في القرآن الكريم ـ وبهذا خضع النسخ للإعتبارات الشخصية والآراء الفقهية والأغراض السياسية، كل يقول بما يوافقه. فثمّ رأي على أن آيات حرية العقيدة في القرآن نُسخت بآية السيف، وثم رأي آخر بأنها لم تنسخ قط لأنها من المحكمات ولأن لآية السيف تفسيراً يبعد بها عن آيات حرية العقيدة. والفارق بين الرأيين فارق بين اتجاه يلجأ إلى السلم في الدعوة إلى الإسلام ومع غير المسلمين عمومًا، واتجاه يفرض الحرب على كل مخالف في

العقيدة أو مخالف لأي رأي له أو تفسير أو حتى شعار.

د ـ وضع نظرية للأحكام التي يمكن للمجتمع تعليق تنفيذها. فالرق موجود في القرآن ولم تنسخ منه آياته. والتسري بالإماء (الجواري) ورد في ٢٥ موضعاً من القرآن الكريم.. ومع ذلك فإن المسلمين الآن ـ جميعًا ـ لا يعترفون بالرق ولا يجيزون التسري بالجواري، أي أنهم علّقوا العمل بأحكام الرق في القرآن الكريم، مع أن بعضها يتصل بالعبادة، مثل أحكام فك الرقبة (تحرير عبد).

وتجديد الفكر الديني الإسلامي يقتضي دراسة ما فعله عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين من وقف العمل بحد السرقة عام المجاعة، ووقف زواج المتعة، ووقف إعطاء الأرض المفتوحة إلى الجنود الفاتحين، ثم دراسة ما حدث في العصر الحديث من وقف العمل بأحكام الرق والتسري بالجواري، واستخراج نظرية عامة في ذلك تحقق مرونة في تطبيق التشريع وتسمح بمواجهة تحديات العصر دون إعراض عن الدين أو إشاحة عن الشريعة، بل بحلول من صميم الدين ومن بناء الشريعة.

هـ ـ وضع معيار لتقويم الأحاديث النبوية على أساس صحة المتن لا على أساس سلامة الإسناد فقط. مثل هذا المنهج قد ينتهي إلى استبعاد بعض الأحاديث الموضوعة والتي تشكل حائلاً ضخمًا دون تجديد الفكر الديني.

وعلى صعيد آخر ـ فإن بعض الفقهاء تحدثوا عن وقتية بعض الأحاديث مثل حديث «وفروا اللحى واحفوا الشوارب» دون أن يضعوا في ذلك قاعدة عامة يمكن لأي مسلم أن يستند إليها، فيعمل ذلك على تجديد فكره وصحو عقله، ويمكّنه من أن يواكب الأحداث المعاصرة وأن يتصدى للمتغيرات الدولية.

٤) إنتاج التقنية لا مجرد استهلاكها:

من أهم سمات العصر الحالي ذلك التحول الكبير من نطاق الجدال الفكري والمعتقدية الجافة (الأيدلوجية) إلى مجال الإنتاج التقني والعملية الفنية. فالتقنية أصبحت طابع العصر وأسلوب الحياة، ولم تعد وسائل الإنتاج التقليدية كافية أو قادرة على تلبية متطلبات الشعوب واحتياجات الأمم.

وأغلب المسلمين ـ وخاصة في منطقة الشرق الأوسط ـ يستهلكون الحضارة ولا ينتجونها، بل إن معدّلات الاستهلاك لبعض المنتجات ـ في هذه المنطقة ـ تفوق معدّلاتِه في أي منطقة أخرى من العالم، بما في ذلك البلاد المتقدمة صناعياً.

والاستهلاك دون إنتاج يؤدي إلى إيجاد خلل في نظام الحياة ويفضي إلى نتائج سلبية للغاية على الشخصية الفردية وعلى البناء الاجتماعي سواء بسواء؛ ذلك أنه يوفر وقتًا طويلاً ممتدًا لا يملؤه عمل جدي، ويعوّد على الراحة والدعة فيسلب الفرد روح الكفاح وقدرة العمل وعنصر المبادأة، ويجعل من اللهو والتسلية طابعًا للعيش، فيحوّل الحياة إلى ملل وسأم وتفاهة وغثاثة، ويوجد أسلوبًا انتحاريًا في التعامل معها، وربما للخلاص منها. أما الإنتاج مع الاستهلاك فإنه يحق التوازن النفسي والتوازن النفسي والتوازن الإجتماعي والتوازن الإقتصادي. والإنتاج المعاصر لابد أن يكون إنتاجًا تقنيًا، لأن هذا الإنتاج هو الإنتاج الأمثل اقتصاديًا، ولأنه هو وحده الذي يرفع الإنسان إلى مستوى العصر ويقف به على الجديد من العلوم وعلى السليم في الإنتاج.

ولئن كانت التقنية المتقدمة سرًا تحتفظ به بعض البلاد المتقدمة ولا تعطيه لغيرها، فإن ثمة أنواعًا من التقنية البسيطة الشائعة في مناطق من العالم، وخاصة جنوب شرق آسيا، يمكن استيرادها وتعلمها وإنتاجها كبداية في الطريق.

(٥) تقوية التعاون الإسلامي في نطاق نظام عالمي:-

ثَمّ منظمات للعالم الإسلامي مثل المؤتمر الإسلامي - غير أن هذه المنظمات تعمل لمصلحة بعض الحكومات ومن ثم تُحدث اضطرابًا في العالم الإسلامي ولا تحقق الفائدة المرجوة لمواجهة تحديات العصر..

أما المؤتمر الإسلامي فإن أغلب أعماله تتصل بالحكومات والجهات الرسمية. ولا شك أنه من الأوفق في الظروف المعاصرة - أن يهتم هذا المؤتمر، أو أن تنشأ بجانبه، مراكزُ للبحوث والدراسات تهتم بالمكتشفات العلمية وتُعنى بالتقنية الحديثة، وتعمل على مساعدة البلاد الإسلامية في استخدام هذه واستعمال تلك، على أن يكون ذلك في نطاق النظام العالمي الجديد، الذي يعلن قيامه على أسس من الشرعية الدولية وحقوق الإنسان. ويعني ذلك ألا يعلن المسلمون - كلهم أو بعضهم - عداوة لهذا النظام أو خصومة معه أو انفصالاً عنه. وحتى إذا وجد خلالف - فعليهم أن يعلنوا عن قبولهم حل الخلافات داخل نطاق النظام العالمي الجديد، ولا يتخذوا موقف المجابهة العالمية، كي لا يُعد المسلمون خالقين للإضطرابات، داعين إلى الحروب، باعثين إلى الفتن، عامدين إلى الصراع، فيندفع ذلك المجتمع الدولي - كله أو بعضه - إلى أن يحارب العالم الإسلامي - سرًا وعلانية - ويمنع عنه أي تقدم أو ازدهار إنساني أو علمي أو اقتصادي، ويجهض أي محاولة فيه للتقدم.

فالسلوك الحضاري الهادئ الرصين ضروري للعالم الإسلامي كي يسلك في مسالك الواقع والممكن، ولا يبدد طاقاته في شعارات بلا مضمون، أو حروب بلا نصر، أو صراعات هو فيها الخاسر؛ هذا فضلاً عن أن هذا السلوك هو السلوك الأمثل لمجتمع يعمل على استيعاب المكتشفات العلمية، والوعي بالتقنية الحديثة، ورفع أسسه على التنمية الإنسانية والإنتاج الوفير.

الإسلام السياسي والمتغيرات الدولية

الإسلام دين واحد، لكن صيَغه متعددة. فثم تفسيرات متباينة ونظرات متغايرات

تؤدي إلى وجود أكثر من صيغة إسلامية.. وليس أدل على ذلك من وجود صيغتين أو اتجاهين متباعدين - وربما في بعض الأحيان متناقضين - أديا إلى وجود الإسلام السني والإسلام الشيعي.

ومنذ عشرينات هذا القرن ظهر في العام الإسلامي مفهوم للإسلام، كان قد ظهر في عهد الخوارج، أسميناه بالإسلام السياسي، تحديداً لهويته، وتفريقًا له عن الإسلام المستنير.

والإسلام السياسي يتميز بعناصر رئيسية ثلاثة هي:

١) التأكيد على أن السياسة جزء من الإسلام، وأن العمل السياسي فرض على كل مسلم.

٢) الادعاء بأن جماعته (وكل جماعة تأثرت به أو انشقت عنه) هي جماعة المسلمين، وما تقول به هو الإسلام الصحيح؛ وهو أمر يعني أن من ليس من هذه الجماعة ليس من جماعة المسلمين بل هو خارج عن الإسلام؛ وربما كان مهدر الدم والمال والعرض؛ كما يعني أن من لم يعتنق كل مبادئ الجماعة، بلا نقاش أو جدال أو تفهم أو تعديل - يُعد مرتداً عن الإسلام يستوجب عقاب المرتد.

٣) فرض الآراء والقرارات والاتجاهات بالقوة والعنف والاغتيال والحرب الذي يسمونه جهاداً في سبيل الله.

والإسلام السياسي بعناصره الرئيسية الثلاثة، لا يصمد للنقاش ولا يقوى على التحليل.

فالقول بأن السياسة جزء من الإسلام قول هلامي مخادع، فإذا كان المعنى به أن السياسة ركن من عقيدة الإسلام، فإنه بذلك يكون قد قوض الاتجاه السني (الذي يرى أن أركان الإسلام خمسة) لحساب الاتجاه الشيعي (الذي يرى أن

أركان الإسلام ستة)، والذي يعتبر أن الإمامة ـ أو السياسة ـ ركن سادس في الإسلام. وإذا كان المعنىّ بقول (أن السياسة جزء من الإسلام) أنها جزء من التاريخ الإسلامي؛ فالتاريخ الإسلامي ليس هو الإسلام؛ وهو مراحل، كل مرحلة منه تختلف عن المرحلة الأخرى.

أما اعتبار العمل السياسي فرض على كل مسلم فهو اعتبار خاطئ، لأن العمل السياسي ليس فرضًا دينيًا، وفروض الإسلام محددة وليس منها العمل السياسي؛ هذا فضلاً عن أن واجب المسلم هو المشاركة في الحياة عمومًا بإيجابية واقتدار، وليس اعتزالها بأي حال من الأحوال. أما العمل السياسي فهو جزء من الحياة، وليس كل الحياة أو كل أنشطتها، وأداؤه يعد عملاً بشريًا لا عملاً دينيًا. وإذا كان هذا العمل منافيًا للحياة متعارضًا معها، فهو عمل مخالف للدين مجانب للشرع.

والادعاء بأن العمل السياسي فرض ديني أو عمل ديني ادعاء يميز هذا العمل عن باقي أنشطة الحياة كالبيع والشراء والزواج والطلاق وغيرها. فهي جميعًا أعمال بشرية وتصرفات عادية. يضاف إلى ذلك زن اعتبار العمل السياسي عملاً دينيًا يؤدي إلى تعصيم (أي إضفاء العصمة على) عمل السلطة وقرارات الحكام، بحيث يكون أي جدال عنها أو أي معارضة لها كفرًا بالله يستوجب عقوبة المرتد أو عقوبة المُحارب. ومن ناحية أخرى فإنه يؤدي إلى تعصيم (أي إضفاء العصمة على) عمل المعارضة، بحيث يكون أي جدال عنه أو أي رفض له كفرًا بالله كذلك. وهكذا ينتهي الأمر إلى كُفر الجميع، السلطة والمعارضة، وإلى مقاومة الرأي المعارض بالقتل والاغتيال بحكم من الشرع أو فتوى من الدين ـ بدلاً من مجادلته بالتي هي أحسن.

أما الادعاء بأن جماعةً ما هي جماعة المسلمين، وأن من عداها خارج عن الإسلام، فهذا قول الخوارج قالوا به من قبل، ولا يتبعهم فيه إلا خارج. فالإسلام

دين مفتوح للجميع لا يقتصر على جماعة ولا يقف على مجموعة. والمسلم هو من نطق بالشهادة وآمن بأركان الإسلام. وليس الإسلام هو الانضمام لجماعة أو الإنضواء تحت زعامة مرشد أو أمير أو رئيس بذاته.

وتكفير أي مسلم عمل غير إسلامي، فضلاً عن أنه لا يجوز أن يكون هذا التكفير في باب السياسة وعلى مسرح التحزّب، وهي مسائل بشرية وليست دينية بحال.

أما فرض الآراء والقرارات والاتجاهات بالقوة والعنف، ورفع صيحة الحرب دومًا، وتبرير اغتيال الخصوم غشًا واختيانًا، والادعاء بأن ذلك كله جهاد في سبيل الله، فهو أمر مناف للإسلام ومجاف للشريعة. ففي القرآن وردت آيات بعكس ذلك، منها ماهو خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم)، مثل «لست عليهم بمسيطر» (سورة الغاشية ٨٨: ٢٢) «ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك» (سورة ال عمران ٣: ١٥٩)، «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» (سورة الكهف ١٨:٢٩)، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا» (سورة يونس ١٠: ٩٩)، «ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة» (سورة الشورى ٤٢: ٨)، وهي كلها آيات تمجد التسامح وتبين حرية الفكر وتقرر أن الخلاف في الإيمان ذاته هو سنة الله وإرادته.

والجهاد في الفهم الإسلامي الصحيح جهادُ النفس قبل أن يكون إعلانًا للحرب، فإن يكن حربًا فهو للدفاع عن النفس أساسًا، ولا جهاد في العدوانية أو الاغتيال.

ومع أن كل مقولات الإسلام السياسي مردودة، فإنه لا يقدم شيئًا ذا بال يدل على فهم المتغيرات الدولية والتفاعل معها تفاعلاً صحيًا.

فهو لم يقدر بعد معنى انهيار الاتحاد السوفييتي وأن لذلك دلالات كثيرة ونتائج بعيدة في انهيار عصر المعتقدية الجافة (الأيدلوجيا) وحلول عصر جديد هو عصر

التقنية والعمل والإنتاج. فما زال الإسلام السياسي يرفع ـ رغم ذلك ـ شعارات بلا برامج، ويردد مقولات بلا فعل، ويكرر عبارات بلا فهم.

وهو لم يستوعب معنى ظهور نظام عالمي جديد، وأن هذا النظام يتضمن وفاق الأقطاب التي ظلت ثنائية ومتعارضة لفترة طويلة؛ وهذا ما يدعو هذه الأقطاب إلى توحيد جهودها لضرب أي اتجاه يرون فيه خطورة أو يسفر لهم عن عداوة. ومع ذلك، فإن الإسلام السياسي دائم إظهار العداوة للعالم وإعلان المواجهة مع الجميع، مع أنه لا يملك أسباب ومقومات الحرب الحديثة ولا يعرف تقنيتها؛ وأي حرب دون استعداد وبغير تمكن، هي ضرب من البلاهة ونوع من الانتحار.

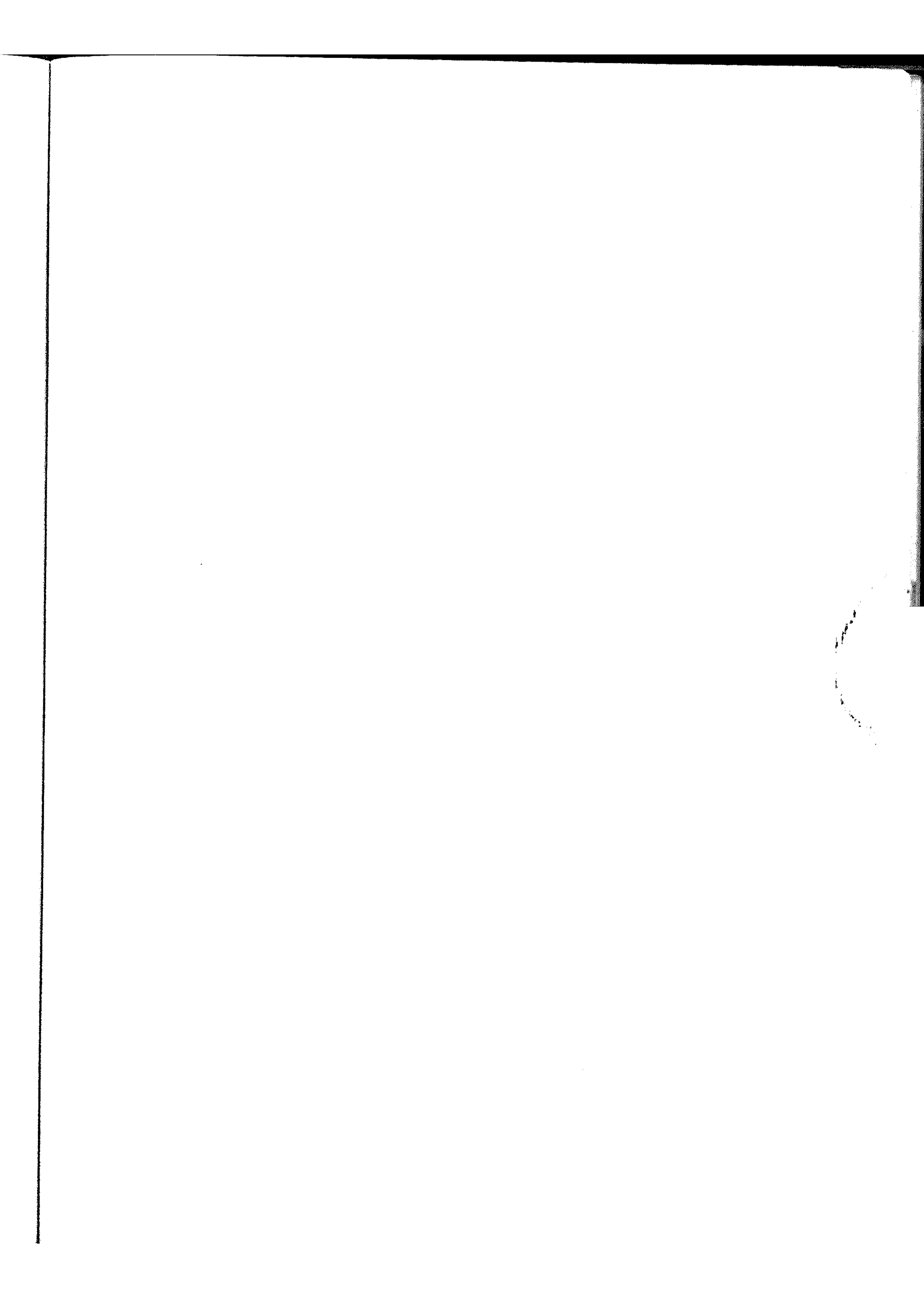
ولأن الإسلام السياسي بغير نهج واضح محدد فقد وقف في حرب الخليج ضد أغلب بلاد العالم العربي وضد الشرعية الدولية والنظام العالمي الجديد، فكان بذلك في جانب العدوان ومع نظام للحكم لم يعمل أبدًا باسم الدين إلا إبّان الحرب. ولو أن الإسلام السياسي وقف بجانب العدل والحرية وحقوق الإنسان لجاز له بعد ذلك أن يطالب النظام العالمي الجديد بإعمال هذه المبادئ في الصراع بين الدول العربية وإسرائيل وفي أي صراع أو خلاف آخر.

وهو يعارض الحضارة العالمية ويرفض نقل التقنية برغم أن ذلك غزو فكري، مع أن نقل التقنية لازم في الحد الأدنى، إن لم يكن لرخاء المجتمع، فللدفاع عنه أمام أسلحة تقنية متقدمة. والإسلام السياسي لا يقدم، في معارضته للحضارة العالمية، أي حضارة مقابلة أو مغايرة، بل إنه ينكر حتى الحضارة الإسلامية ويتمسك بعهد البداوة في الإسلام لا بعصْر الحضارة فيه؛ فكأنه بذلك يتنكب طريق التطور والتقدم وهو أمامه واضح قويم، ويعزل نفسه عن حركة الحياة الفعالة، ويتحجر في دوامات من الألفاظ السحرية والعبارات غير البناءة.

وكل ما يرفعه الإسلام السياسي في هذا المجال عبارة غامضة غير محددة هي

«المشروع الإسلامي». وتعبير «المشروع الإسلامي» هذا ظهر أصلاً في الغرب لدى بعض الكتاب المستشرقين وغيرهم، قصد التدليل على أن العالم الإسلامي لا يسير ولن يسير في طريق الحضارة العالمية لأن له مشروعاً يخالف ويضاد المشروع الحضاري العالمي. أي ان التعبير يؤكد ويكرّس فكرة العزل والتفريق بين الشرق والغرب، وهو ترديد معاصر لمقولة رد يارد كبلنج القديمة من أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.

والحقيقة والواقع أن المشروع الحضاري الإسلامي لا يمكن أن يكون معارضاً للحضارة العالمية وهو يرتعُ في ماديّاتها، أو مجانباً لتاريخ الإنسانية مع أنه لابد أن يكون ثمرة لجانبه المضيء؛ ذلك أن هذا المشروع لابد أن يكون واعياً بذلك التاريخ تالياً لتلك الحضارة، وهو على اليقين لا يمكن أن ينقض الحضارة العالمية إلا إذا كف عن استهلاك نتاجها المادي بشراهة ثم استوعب كل علومها وفنونها وثقافتها، ليعيد تقديمها حضارة روحية سامية نابعة وناقضة لحضارة مادية استغلالية (كما يقال) ومفاد ذلك أن المشروع الحضاري الإسلامي لا يمكن أن يقوم في عزلة عن الواقع العالمي، كما أنه لا يمكن أن ينقض هذا الواقع إلا بعد استيعابه، وبعد أن يضيف إليه أو يخلط به قيم الدين السامية وأخلاقيات الشرائع الرفيعة، ومن ثم فإن هذا المشروع يتمخض عن قيم وأخلاق وعلم ووعي وقدرة واقتدار، ولا يمكن أن يقوم على مجرد دعاوى سياسية وشعارات جوفاء.

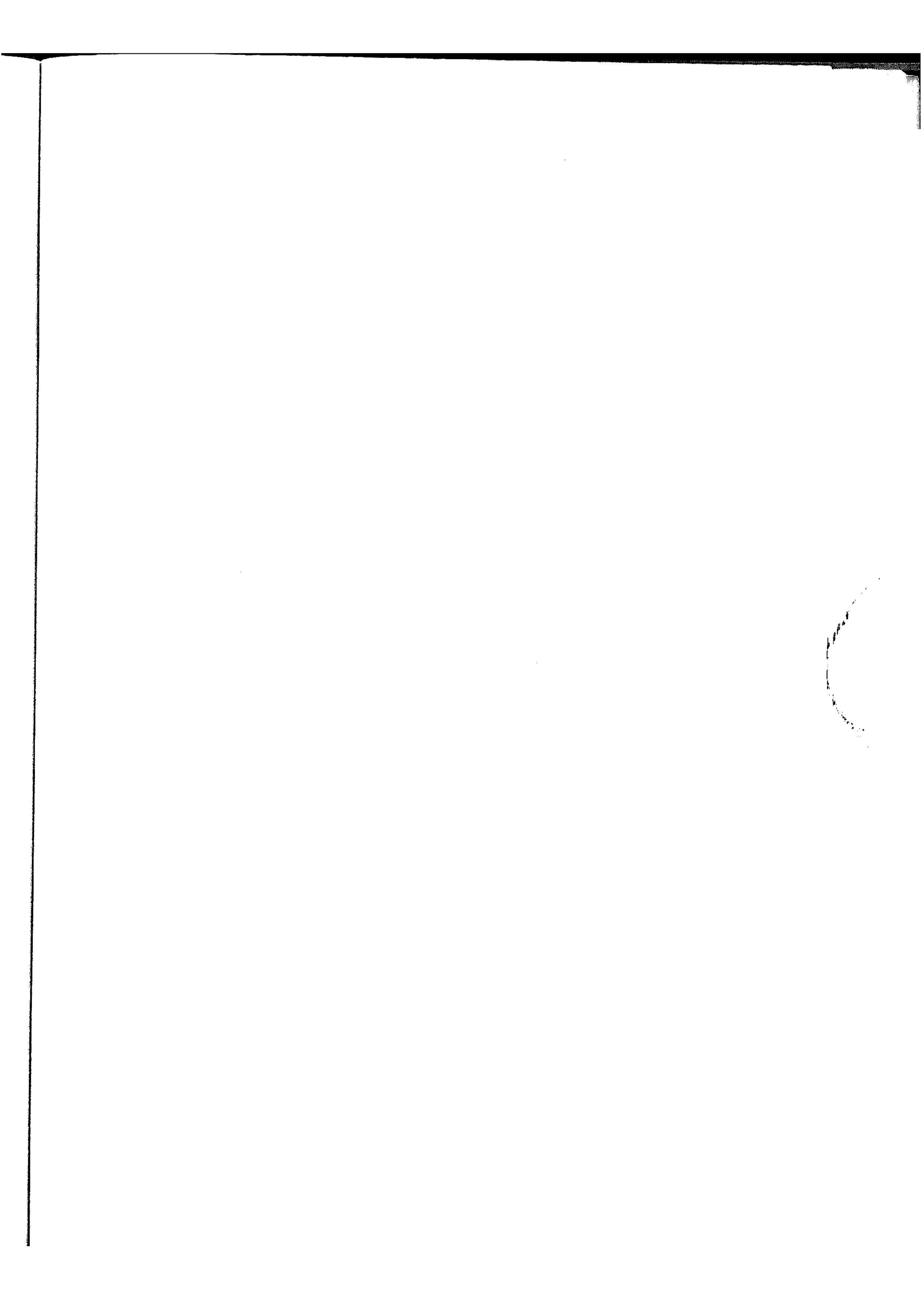


مكانة السلام وطبيعته
في الإسلام



الدكتور يحي هاشم حسن فرغل

القيت بتاريخ : ١٩٩١/٣/٣١م



سيرة ذاتية

الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل

- حصل على الليسانس من كلية أصول الدين بالأزهر سنة ١٩٥٨.

- حاز على الماجستير في العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بالأزهر سنة ١٩٧١.

- نال الدكتوراه في العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بالأزهر سنة ١٩٧٦.

- عمل وكيلاً لكلية أصول الدين بطنطا عام ١٩٨٥ ثم عميداً للكلية عام ١٩٨٦.

- كما عمل أستاذاً زائراً في عدد من الجامعات العربية.

- يعمل حالياً أستاذاً ورئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات.

- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات الإسلامية.

- له العديد من المؤلفات منها على سبيل المثال لا الحصر:

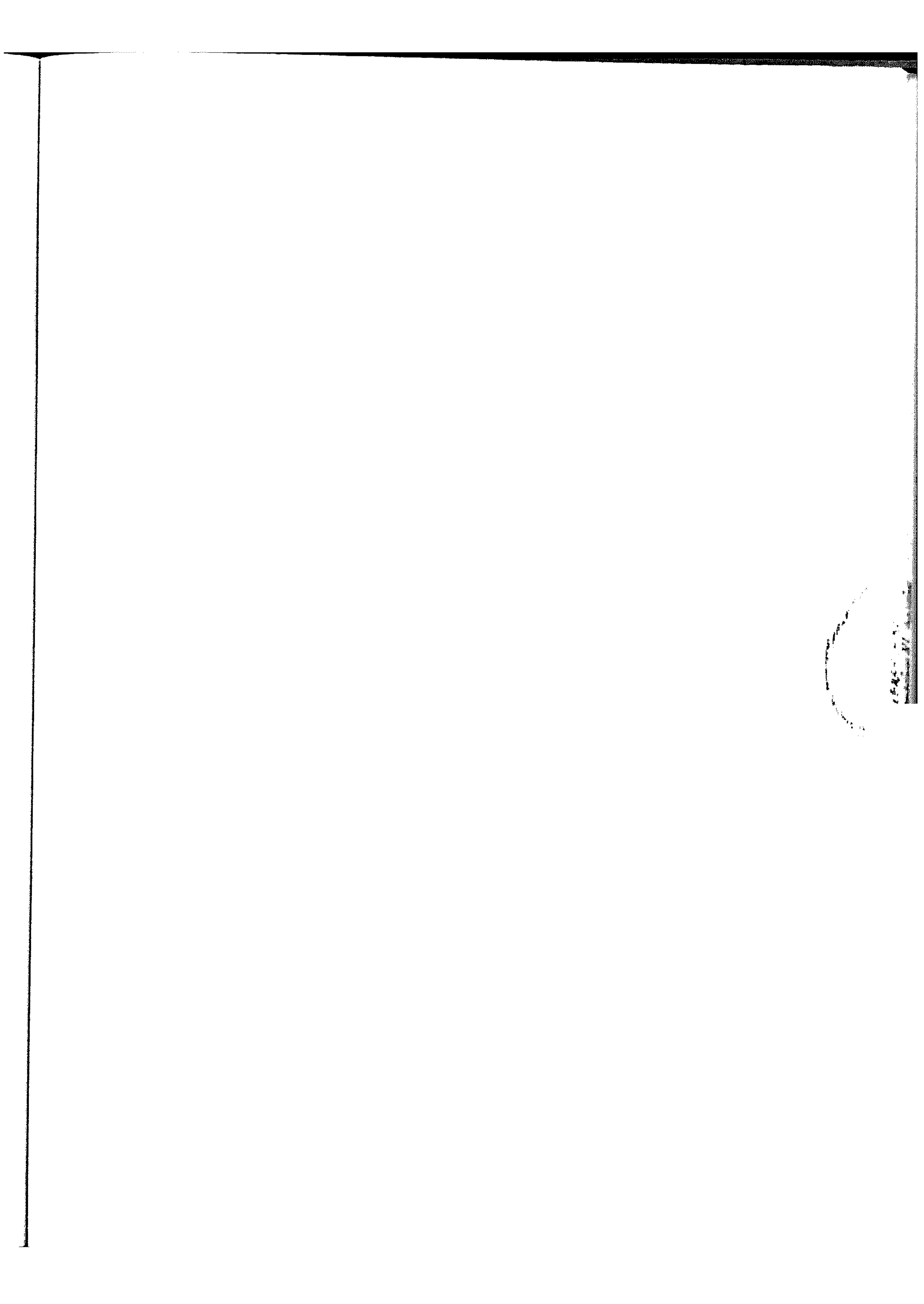
١- نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية.

٢- عوامل وأهداف علم الكلام في الإسلام.

٣- الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية.

٤- العقيدة الإسلامية بين الفلسفة والعلم.

٥- أصول التصوف الإسلامي.



مكانة السلام وطبيعته في الإسلام نظرة قرآنية

الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل

أول ما يلاحظه الباحث في مكانة السلام في الإسلام من خلال النظرة القرآنية أنه اسم من أسمائه تعالى، وهذا بلاشك يرتفع بقيمة السلام إلى أعلى الدرجات، وأسمى الآفاق. يقول الله تعالى: «هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون.» ٢٣ سورة الحشر.

يقول شراح الأسماء الحسنى إن من معاني اسمه «السلام» أنه المسلم عباده عن المهالك.

وقد أخرج مسلم في «الأذكار» في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا، وقال: «اللهم إنك أنت السلام، ومنك السلام وإليك السلام ياذا الجلال والإكرام.

وفي هذا السياق: سياق أن السلام اسمه تعالى أننا نجد في صحيح البخاري فيما أخرجه عن عبدالله بن مسعود أنه قال: كنا نصلي خلف النبي صلى الله عليه وسلم فنقول: السلام على الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله هو السلام، ولكن قولوا» التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.»

ومن هنا يظهر لنا في توجيه الرسول أن السلام وهو اسم من أسمائه تعالى لا يجوز أن نطلبه له تعالى، وإنما علينا أن نطلبه منه.

ويتقرر هذا الطلب ـ طلب السلام من الله ـ على المسلم كل يوم عشر مرات على أقل تقدير باعتبار الحد الأدنى من الصلوات المفروضة عليه.

وإذا أردنا أن نتتبع استجابة الله تعالى لهذا الطلب فإننا نجد أنه سبحانه وتعالى يضع هذا السلام بين يدي دعوته منذ أقدم تاريخ نعرفه عن الأنبياء في القرآن الكريم.

فبالنسبة لسيدنا نوح عليه السلام يقول الله سبحانه وتعالى: (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم، وتركنا عليه في الآخرين: سلام على نوح في العالمين، إنّا كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين) ٧٩ الصافات.

وعلينا نحن أن نستخلص من هذا العطاء الرباني قانونه الذي يحكم مسيرته، وعلينا أن نتتبع بروز هذا القانون أمامنا في حلقات هذه المسيرة مع الأنبياء الذين يأتون من العد. تبين لنا الآيات السابقة الخاصة بسيدنا نوح كيف استحق نوح هذا السلام الرباني...

لأنه كما يقول الله تعالى كان من المحسنين، كان من عباد الله المؤمنين.

ونتابع الحلقات فنجد السلام أيضاً من الله على إبراهيم (وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم) لماذا.. (كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين.) ١٠٧ ـ ١١١ الصافات.

ويأتي السلام كذلك على لوط بعد أن ينزل العقاب على الفاسقين من قومه (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطرُ المنذَرين، قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمّا يشركون.) ٥٨، ٥٩ النمل.

إن السلام هنا مرتبط بالعبودية لله وإخلاص له كما في قصة نوح وإبراهيم.

والعبودية لله تعني التوجه إليه باعتبار أنه وحده خالق السماوات والأرض، مالك الملك، مالك الهداية، مالك السلام. أنظر سياق الآيات التالية في قصة لوط عليه السلام (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى عما يشركون) ٥٩ ـ ٦٣ النمل.

ومن هنا يتقرر أن ليس لأحد أن يطمع في السلام إذا كنا نطلبه من آلهة أخرى...!

والسلام كذلك كان على نبي الله الياسين، يقول تعالى: (وإن الياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون الله ربكم ورب آبائكم الأولين، فكذبوه فإنهم لمحضرون، إلا عباد الله المخلصين، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على الياسين.)

لماذا؟ يقول تعالى:

(إنا كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين.)

مرة أخرى يرتبط السلام بالعبودية الخالصة لله وحده والإيمان به وتقواه.

وكذلك الأمر في سيدنا موسى وهارون عليهما السلام ومن تبعهما من المؤمنين، يقول تعالى (ولقد مننا على موسى وهارون، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم، وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون.)

لماذا مرة أخرى؟

(إنا كذلك نجزي المحسنين، إنهما من عبادنا المؤمنين.) ١٢٠ الصافات.

ومع سيدنا يحيى كان عليه السلام. يقول تعالى:

(وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا.)

لماذا؟ إن السلام هنا مرتبط أيضاً بمعرفة الله والتقوى والتواضع والطاعة والبر والتطهر (يايحيى خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبيا، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقياً، وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً.)

١٢ ـ ١٥ مريم

ومع سيدنا عيسى كان عليه السلام. يقول تعالى:

(والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا.) ٣٣ مريم

والسلام مرتبط هنا كذلك بإفراد العبودية لله، والتوجه إليه، واستلهامه الهداية والاستقامة، يقول سيدنا عيسى (قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركا أين ماكنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت، ويوم أبعث حيا، ذلك عيسى بن مريم قولَ الحق الذي فيه يمترون، ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم.) ٣٠ ـ ٣٦ مريم.

ومع ذلك فمن الملاحظ تتبع الآيات القرآنية المتعلقة بالرسل السابقين وأقوامهم أن الله يمتحنهم جميعاً، مؤمنين وغير مؤمنين بنعمة السلام، ويعرضها عليهم بشروطها يقول تعالى (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات، عليك وعلى أمم ممن معك، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم.) هود: ٤٨

فهنا السلام نبع ينهل منه المؤمن، وغير المؤمن إلى حين وذلك إذ يعرض الله السلام على الجميع يقول تعالى:

(والله يدعو إلى دار السلام) فهي دعوة عامة شاملة تصل إلى أسماع كل البشر على وجه الأرض، ولكنها تعرض عليهم بشروطها إذ يردفها سبحانه وتعالى في نفس هذا السياق بما هو أحلى، وأجدى: الهداية. إذ ما فائدة السلام بغير هداية؟ أما الهداية فالسياق يقول لنا إنها تعطى لمن يطلبها (من يشاء.) يقول تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.) ٢٥ يونس.

وتتنوع الأحوال، فقد يعرض السلام ليطلبوا الهدى كما في الآية السابقة،

وقد يحفزون إلى طلب الهدى ليتحقق السلام، كما جاء في قوله تعالى (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.) ١٦ سورة المائدة.

وهنا يتعلق الخطاب في هذه الآية بأهل الكتاب إذ يقول سبحانه وتعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم.) ١٦ المائدة.

وأياً ما كان الأمر فإننا نجد الدعوة إلى السلام وإن كانت موجهة إلى جماعة بعينها - إلا أنها دعوة محببة مشمولة بالوعد بالعفو، والنور، وترتبط فيها الدعوة إلى السلام باتباع الصراط المستقيم، وما يترتب عليه من هداية ممنوحة لمن يشاء أن يطلبها.

ويرتبط السلام بالهدى الممنوح لمن يطلبه مرة أخرى في دعوة موسى عليه السلام، إذ يأمره الله وأخاه هارون أن يأتيا فرعون (فأتياه فقولا إنّا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، قد جئناك بآية من ربك والسلام على من

اتبع الهدى.) ٤٧ طه.

فدعوة موسى عليه السلام وأخيه دعوة إلى الله، وهي في الوقت نفسه دعوة إلى السلام؛ المترتب على الهدى.

ومع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:

يأتي أمر الله له:

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم.) ٥٤ الأنعام.

ويأتي أمر الله له:

(فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون.) ٨٩ الزخرف.

ويرتبط السلام هنا ـ ممنوحاً كان أو مطلوباً ـ بالإيمان والتوحيد والإخلاص، والتوجه لمن يملك... إذ يأتي بعدما تقدم قوله تعالى (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق، وهم يعلمون، ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون، وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون.) ٨٦ ـ ٨٩ الزخرف.

قل «سلام»

هكذا قول مطلق.

قل «سلام» واتركهم يطلبونه

ولا تقل «سلام عليكم» لأنهم لم يطلبوه بعد.

وهم لا يكونون طالبين له إلا أن يطلبوه ممن يملكه، الذي يملك ذواتهم «خلقهم» ويملك كل شيء.

أما أن يطلبوه ممن لا يملكه فذلك عجب في القول، وعجب في المنطق.. إنهم عندئذ: يضيعون الطلب، ويضيعون السلام معاً.

وكما يأتي الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم فإنه يأتي للمسلمين عندما يضربون في الأرض في سبيل الله؛ يختلطون بالمؤمنين سلفا، ويختلطون بالمؤمنين آنفا (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً.)

أمر صريح قوي مشمول بالتنبيه والتحذير (تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة.) ٩٤ النساء.

وهنا يضاف عنصر جديد إلى مسيرة السلام في الإسلام وهو عنصر التجرد والترفع عن أعراض هذه الحياة الدنيا، إذ بغير هذا التجرد يتبدد السلام.

وهنا تعلن حقيقة خطيرة تغيب عمن يسمون أنفسهم صناع السلام: إن السلام لا يطلب لأعراض هذه الحياة الدنيا، بل إن الأمر على العكس من ذلك، إنه يطلب بالترفع عليها.

واتفاقاً مع الطبيعة البشرية فإن الأمر لا يتوقف عند هذا الترفع وإنما يظهر معه عنصر الثواب الآجل عند الله، لمن يبتغون الإيمان والسلام (فعند الله مغانم كثيرة.).

وهذا يعني أنه لابد في السلام من تضحيات، ومع هذه التضحيات، يأتي أحسن الجزاء، لأنها مغانم عندالله، وما أدراك بالمغانم إذ تكون «عند الله».

وإذا كان الحصول على السلام لا يكون إلا مع التسليم لله، والتضحية في سبيله، فإنه من باب أولى لا يكون إلا بالإعراض عن كثير من التوافه، أو عن شيء من اللغو مما يكون علاجه الإعراض، يقول تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم.)

وتقرر الآية أن الذين يهددون السلام بأخذهم بشيء من اللغو إنما هم الجاهلون، الجاهلون بقيمة أنفسهم، والجاهلون بقيمة السلام (سلام عليكم لانبتغي الجاهلين.) ٥٥ القصص

ولعل السلام هنا لا يعني مجرد الإعراض بقدر ما أنه يعني تشويق هؤلاء الجاهلين إلى مايعرض عليهم وإلى مايلوح لهم به «سلام عليكم»، وتبدو المفارقة واضحة هنا بين من يلقى عليهم السلام، وبين من يصفهم القرآن بالجاهلين، وهي مفارقة يلوح بها الأسلوب اللغوي إذ يتحدث مع من يلقى عليهم السلام بصيغة «الخطاب»، ويتحدث مع من يصفهم بالجاهلين، بصيغة «الغيبة».

هكذا بنظرة تاريخية على مسيرة السلام: مع الذات الإلهية ونزولاً إلى الأرض، ومصاحبة مع الأنبياء، وسيراً مع الإنسان... وصعوداً فيما بعد إلى الجنة،

تلك المسيرة الحافلة الواضحة، المشتقة من الدين، والإيمان، والتقوى، والإخلاص، والمعرفة بمالك السلام الأوحد... والتوجه إليه وحده.

بهذه النظرة تبرز أمامنا طبيعة السلام في الإسلام كما تبرز حقيقة إسلامية هامة نؤكدها فيما يلي تلك هي: أن السلام هو الأصل في نظرة الإسلام إلى العلاقات بين الإنسان وبين غيره، من كل مافي هذا الكون.

السلام والفطرة الإنسانية:

إنه من الأمور البديهية أن يكون السلام مطلب الفطرة الإنسانية على وجه العموم، فتلك بديهية لا تحتاج إلى أكثر من التنويه.

إنه حتى الذين يسارعون إلى الحرب إنما يفعلون ما يفعلون بدافع الهلع من خسران السلام.

إن السلام لهو من المطالب الأساسية للفطرة البشرية، وإن تحقيق هذا المطلب - في نظر القرآن الكريم - لهو من أسمى مايجزي الله به أولياءه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، وإنه لهو النعمة التي ينعم بها على غير أوليائه في بعض الحالات (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.)،

وإن الشريعة الإسلامية عندما قررت القتال بصيغة استثنائية قررته وهي على علم بكراهته في النفس البشرية، يقول تعالى (كتب عليكم القتال وهو كُرْه لكم.) ٢١٦ البقرة.

معنى هذا أن السلام فطرة في النفس... هذا موضع اتفاق ولما كان الإسلام هو دين الفطرة - وهذا ما نؤكده ونؤمن به - طبقاً لقوله تعالى (فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها.)... فإنه ليصبح من المؤكد أن السلام في الإسلام قضية أصيلة نابعة من نفس الأسس التي يقوم عليها هذا الدين.

ومن هنا فإنه من منطلق الفطرة هذه لا يكون مستغرباً أن نجد الحديث النبوي الشريف - وهو يدعو إلى إفشاء السلام يربط بينه وبين إطعام الطعام. فقد سئل صلى الله عليه وسلم - فيما رواه الإمام مسلم بسنده - عن: أي الإسلام خير؟ قال: أن تطعم الطعام وتفشى السلام على من عرفت ومن لم تعرف.

وفي رواية للترمذي بسنده عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام.)

ويرجع تأصيل السلام في الإسلام أيضاً - إلى حقيقة الكلمة، (كلمة السلام) حيث يكون السلام والإسلام من مادة لغوية واحدة.

فالإسلام هو إسلام النفس لله (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى)، وهو في نفس الوقت إسلام هذه النفس لمن يملك السلام.

ولا سلام يؤخذ ممن لا يملكه.

فالطريق يبدأ من الإسلام وينتهي بالسلام.

إن إسلام النفس لغير الله نهايته النكران، والضلال والهلاك.. كما جاء في قوله تعالى (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك، فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون، وألقوا إلى الله يومئذ السلَم، وضل عنهم ماكانوا يفترون.) ٨٦ - ٨٧ النحل.

والسلام في الإسلام مرتبط - في تأصيله - بنظرته إلى الأصل الإنساني، وأنه أصل واحد. يقول سبحانه وتعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساؤلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا.) الآية ١- سورة النساء

هاهي الدعوة موجهة إلى الإنسان الذي يرجع أفراده جميعاً إلى أصل واحد.

وهاهي الدعوة تربط بين تقوى الله وتقوى الأرحام، وماذا تعنى تقوى الأرحام -

عند ذوي الأصل الواحد ـ غير السلام؟!

وفي هذا الأصل الواحد يأتي أيضاً قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا.)

فهاهو النداء «للناس» ليقرر أصل الإنسانية الواحد

أيها السادة:

وإنه ليرتبط السلام ـ القائم على الإيمان والتسليم لمالك السلام ـ بالنصر في دعوة الرسل جميعاً، يقول تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون. فتول عنهم حتى حين. وأبصرهم فسوف يُبْصِرون أفبعذابنا يستعجلون، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين، وتول عنهم حتى حين، وأبصر فسوف يبصرون سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمدلله رب العالمين.) ١٧١ ـ ١٨٢ الصافات.

وفي هذه الآيات أيها السادة نجد ضوءاً جديداً على جوانب مهمة من طبيعة السلام في الإسلام:

فبالإضافة إلى ما في هذه الطبيعة من ارتباط السلام ـ في الإسلام ـ بقيم محددة: بقيم الإيمان، والتوحيد، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم... والتضحية، والجزاء الأخروي بالإضافة إلى ذلك نجده كذلك مرتبطاً بالصبر إذ يقول تعالى (فتول عنهم حتى حين.)

مرتبطاً بسنن الله في الكون التي تقضي بتسلسل الأسباب وانتهائها إلى النتائج، إذ تأتي الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى (وأبصر فسوف يبصرون.)

مرتبطاً بهامش من سوء التقدير عند أعداء السلام (أبعذابنا يستعلجون، فإذا

نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين.)

مرتبطاً بتدخل الإرادة الإلهية بالإنعام على البشر الذي هو مربوبون له وهم جميعاً تحت رعايته، إنعاماً يستحق الحمد ويستحق الشكر، إذ تأتي الإشارة إلى ذلك أيضاً في قوله تعالى (والحمد لله رب العالمين.)

مرتبطاً كذلك بتدخل الإرادة الإلهية عند الله: بشراً كانوا أو ملائكة (وإن جندنا لهم الغالبون.)

مرتبطاً بالنصر طبقاً للنظرة البعيدة التي لا تستعجل الأمور (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون.)والنصر الذي تتحدث عنه الآيات والذي يعنيه القرآن لا يكون فورة تفور ثم تغور...

إنه ليس نصر الاسكندر، ولا نصر جنكيز خان، ولا نصر نابليون، ولا نصر هتلر...

فهذا كله هو الزبد الذي يذهب جفاء

أين في الدنيا الذين عادوا أنبياء الله؟

أين الذين عادَوا نوح... وأين نوح؟

أين النمرود... وأين إبراهيم؟

أين فرعون... وأين موسى؟

أين يهوذا ... وأين المسيح؟

أين الذين قتلوا يحيى... وأين يحيى؟

أين أبو لهب وأبو جهل... وأين محمد؟

في كل ذلك ذهب أعداء الأنبياء إلى محرقة التاريخ، وصعد أنبياء الله فوق منارات الإنسانية...

(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز.) ٤١ الحج.

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا.) ٥١ غافر

(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين.) ٤٧ الروم.

ومفاهيم النصر ليست في السلطة، أو الجاه، والقدرة على استعباد الآخرين وإذلالهم وإنما هي تتمثل فيما جاء في نصر الله لبعض أنبيائه، ـ على سبيل المثال ـ في شأن سيدنا موسى ومن تبعه إذ يقول تعالى (ونصرناهم فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما في الآخرين. سلام على موسى وهارون.) ١١٦ ١٢٠ الصافات.

ورموز النصر هي تلك التي تشير إليها الآيات: الكتاب المستبين والصراط المستقيم، والسلام المستمر في الآخرين.

أيها السادة:

إن الإشارة إلى النصر في مقام السلام لتعنى أن السلام الذي نتحدث عنه ليس هو السلام المطلق.

وإنما هو السلام الذي يدخل عنصراً في علاقات شديدة التشابك تشابك علاقات الإنسان بكل ما في هذا الكون، وعلاقات هذا الكون بكل ما في هذا الإنسان.

سادتي: هل أذكّركم في هذا المقام بالشيطان؟

من الصحيح أن الشيطان لا موضع له في مقام إخلاص العبودية لله. (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان.)

فهل أذكركم إذن «بالإنسان»...

لا أريد أن أطيل عليكم ـ أيها السادة ـ في هذه النقطة، فإنكم أعرف بها وبما يترتب عليهم.

وخلاصة القول في هذا أن تجاهل هذه النقطة (مكر الشيطان ـ أو ضعف الإنسان على السواء.) لا يساعد قضية السلام في شيء.

والواقع البشري كما يقرره الإسلام يتضمن الطغيان:

(إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ٦ ـ ٧ العلق.

والواقع البشرى كما يقرره القرآن يقتضي المدافعة، (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين.) ٢٥١ البقرة.

مما سبق بيانه ـ ومن حيث أن الدعوة الإسلامية: تنزل إلى الإنسان لتبدأ معه الصعود من نقطة كينونته.... فقد وجدنا أن الإسلام لا يدعو إلى السلام في فراغ...

نعم: إن السلام يتقرر في الإسلام باعتباره أصلاً كما بيناه، هذا حق، وكما يقول أحد أعلام الفقه الإسلامي المعاصرين الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله (إن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم. وإن ذلك رأي الجمهرة العظمى من الفقهاء. والقلة التي خالفت كان نظرها إلى الواقع، لا إلى الأصل. وكان ما قررته حكماً زمنياً، وليس أصلاً دينيا.)(١)

---

(١) العلاقات الدولية في الإسلام ص. ٥٢، نشر دار الفكر العربي.

نعم: إن السلام يتقرر في الإسلام أصلاً، ولكنه - أي الإسلام - يلقي الأضواء على الجوانب الخفية أو الظاهرة التي قد يأتي منها الخطر.

يفعل ذلك في نفس الوقت الذي يقرر فيه السلام.

فهو أي السلام إنما يجد مناخه الصحي - كما هو الشأن في الإسلام عموماً - في جو التعامل بالحكمة والحسنى: (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.) ١٢٥ النحل.

ثم هو بعد ذلك - إذ تتأزم الأمور - إنما يجد مناخه الصحي في جو العدل. (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) ٤٦ العنكبوت.

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين.)

فإذا انحسر العدل جاء الاستثناء من الأصل: (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون.) ٨ - ٩ الممتحنة.

أما قبل ذلك - أي قبل وقوع العدوان أو ظهور دلائله فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (لاتتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا من ذكر الله.) رواه أحمد(١)

فإذا ظهر العدوان أو ظهرت دلائله كان الحكم في قوله تعالى:

---

(١) انظر كنز العمال ٤/٣٢٣

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله..) ٤٠ الحج

ولا يعني الاستثناء الذي نتحدث عنه أنه أمر عارض، وإلا لكان في هذا التقرير الذي جاء في الآية السابقة كفاية وينتهي الأمر.

ولكنه الاستثناء الثابت المستقر في طبيعة العلاقات الإنسانية على هذه الأرض، والذي ينبغي أن يشرع له على مدى الحياة.

ومن هنا تتصاعد المواجهة، المواجهة ضد هذا الاستثناء، باعتبار هذه المواجهة دفاعاً عن الأصل، وباعتبار هذا الاستثناء واقعاً ثابتاً. (إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور.) ٣٨ الحج.

وتتصاعد المواجهة، في حرص على الأصل الذي هو السلام: (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلَّم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً.) ٩٠ النساء.

وعندما يصبح الحرص على السلام مهدِّداً للسلام نفسه تتصاعد المواجهة درجة أخرى: (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلَّم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبيناً.) ٩١ النساء.

وهنا تأتي الحرب، عندما يشهر سيف العدوان أو تظهر دلائله الغالبة. (ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً.) ٧٥ النساء.

وإذ كان من الواضح أن الدعوة إلى القتال في هذه الآيات ـ السالفة ـ معللة بالعدوان، أو خشية العدوان بعد أن تظهر دلائله، فإن الآيات التالية وهي تأمر بالقتال دون أن تذكر العلة محمولة على المعلل السابق ذكره: يقول تعالى (فإذا

انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم.) ٥ التوبة.

معنى هذا أن الله عز وجل أذن في القتال ضد العدوان الواقع أو المحتمل بدلائله، حيث ذكر السبب في بعض الآيات، وتركه في بعضها الآخر اكتفاء بعلمه من الآيات السابقة عليه.

ويتم هذا وفقاً لماهو مقرر من المبادىء الأصولية من أن المطلق يحمل على المقيد في حالة تماثل السبب، أي أن الآية المطلقة في تشريع القتال، مقيدة بالقيد المذكور في الآية السابقة.

وإذا كانت آيات القتال المعلل سابقة في نزولها على آيات القتال المطلق فلا بأس في رأينا أن يكون السابق مقيِّداً للاحق، إذا اعتبرنا السابق في حكم المصاحب لأنه آيات مستقرة في القرآن ثابتة، يلتفت إليها المكلف في نفس الوقت الذي يلتفت فيه إلى الآيات اللاحقة.

ولا فرق في رأينا بين هذا التفسير وبين التفسير الذي يذهب إلى أن كلاً من هذه الآيات معمول به في موضعه وفي مثل ظروفه، طالما فهمنا تعليل القتال بأوسع من ظروف العدوان الواقع المباشر: بأن يشمل العدوان الواقع أو المحتمل: على المال أو على الأرض، على العرض أو على العقل، على الدين أو على السلام.

فتلك كلها مقاصد للشريعة الإسلامية أو داخلة فيها. ولا أظن أن أحداً يخالف - خلافاً يعتد به - في أن الباعث على القتال لم يكن هو محض المخالفة في الدين.

يقول الحنفية (الآدمي معصوم ليتمكن من حمل أعباء التكاليف، وإباحة القتل عارض سمح به لدفع شره.) وقالوا أيضاً (الكفر ليس علة لقتالهم). ويقول الإمام

مالك رضي الله عنه (لا ينبغي لمسلم أن يهريق دمه، ولا يهريق دماً إلا بحق.)
ويقول الحنابلة (الأصل في الدماء الحظر إلا بيقين الإباحة.)(١)

وتتراوح المواجهة التي نتحدث عنها وفقاً للحالة العدوانية التي عليها أعداء السلام (وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله.) ٦١ الأنفال.

أما قبل هذا الجنوح وبعده أيضاً فلابد من حماية السلام عن طريق الحصول على القوة.

عن طريق الردع.

الردع الذي يصل إلى منع العدو من التفكير في القتال حماية للسلام (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم.) ٦٠ الأنفال.

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً.) ٧١ النساء.

ويظهر حرص الإسلام على السلام - وهو في دفاعه عنه في حالة القتال الاستثنائية تلك - من شروطه التي وضعها للقتال، وهي شروط تجعل من هذا القتال حرباً أشبه بالسلم.

فهو يوجب قصر الحرب على المقاتلين، فينهى عن التدمير والتغريق والتحريق، وقتل الأطفال والنساء والشيوخ، والتمثيل بالجثث، وقطع الأشجار ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في وصاياه لبعض جيوشه (سيروا باسم الله، في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، ولا تغُلُّوا ولا تغدروا ولا تنفروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً.)

---

(١) انظر العلاقات الدولية في الإسلام للدكتور وهبة الزحيلي، نقلاً من «اختلاف الفقهاء للطبري ص ١٩٥ تحقيق شاخت»

وفي رواية أخرى يأتي قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأة ولا تَغُلُّوا وضعوا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا فإن الله يحب المحسنين.)

ويقول في رواية أخرى وقد بلغه قتل بعض الأطفال: (مابال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية.). وهل رأيتم شريعة غير الإسلام - توجب في الجهاد أن تكون نفقته - على المقاتل - من كسب حلال؟ ليكون الجهاد مقبولاً عندالله لأنه لا يقبل إلا طيباً؟؟ (١)

تلك كما قلنا حرب أشبه بالسلم، إن لم نقل إنها سلم أشبه بالحرب.

ونظلم الإسلام إذا وقفنا بكم هنا لنلفت إلى مايجري في القتال على الساحة الدولية بعامة، وإلى مايجري بين جيش إسرائيل وأطفال فلسطين بخاصة. نظلم الإسلام إذ نضعه بهذا في مقارنة أشبه بالمقارنة بين الماء الطهور الذي يغسل، وبين الماء النجس الذي يسمم، تلك مقارنة لا تجوز بأي مقياس...

وأخيراً يحذر القرآن من حديث للسلام يأتي في غير موضعه، إذ السلام لا يكون مع الهوان، والذين تحدثهم نفوسهم بالسلام قبل أن تتحقق شروطه بأن تزول كراهته من نفوس أعدائه لمجرد بادرة من هنا أو خداع من هناك... يوقعون أنفسهم في الهوان ولا يحصلون على شيء من السلام. وهذا هو المقصود في قوله تعالى (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلّم وأنتم الأعلون، والله معكم ولن يتركم أعمالكم.) ٣٥ محمد.

---

(١) انظر تنبيه الغافلين للسمرقندي في اداب الغزو.

ومن هنا كان حرص الإسلام على المراقبة الدائمة لتلك الحالة الاستثنائية، حالة نشوب الحرب، فجعل الجهاد فرضاً من فرائضه، وهما من هموم نفس المسلم، يحدث نفسه به ولا يغفل عنه (من لم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية.) حديث شريف، ولا تفرط فيه الأمة الإسلامية مادام هناك حلفاء الشيطان أعداء الإسلام، وهم موجودون مادامت الحياة الإنسانية على هذه الأرض.

ومن المزايدة الفارغة على الإسلام في هذا المقام أن ينكر المنكرون عليه فريضة الجهاد، لأنهم إذ ينكرونها فإنما يدعون إلى حالة من الفوضى يصبح السلام معها أمراً مستحيلاً.

وعلى الذين يعملون من أجل السلام عليهم أن يعملوا أولاً أو في الوقت نفسه على تحقيق ما يعيش عليه في بيئة أخلاقية.

إن الذين يوجهون السلام ويدعون إليه ويساعدون عليه هم ـ مرة أخرى ـ أولئك الذين يشتقون هذا السلام من صفاتهم باعتبارهم «عباد الرحمن».

يقول تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

(والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً..)

إنهم يبلغون هنا قمة الإيمان أو هم يجمعون فضائله وتتابع الآيات (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً، إنها ساءت مستقراً ومقاماً.

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً.

والذين لا يدعون مع الله الها آخر.

ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق.

ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثاماً، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً. إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً.

والذين لا يشهدون الزور

وإذا مروا باللغو مروا كراماً

والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا.

والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إماماً.

أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً.

قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً.) ٦٣ - ٧٧ الفرقان.

وربما يضيق المقام بنا عن الرجوع إلى هذه الآيات بالشرح والتفصيل ولكن يكفي أن نقول:

إن السلام إذا كان يحتاج إلى بيئة أخلاقية - وهو بالتأكيد لابد له من ذلك - فإن البيئة الأخلاقية اللازمة لنشأته واستمراره واستوائه سلاماً حقيقياً هي بيئة «عباد الرحمن»، ومن يرغب في معرفة هذه البيئة عليه بأن يعيد قراءة هذه الآيات مرة

أخرى، لكي تكون محاولتنا لصنع السلام هي في الوقت نفسه محاولة لصنع البيئة التي يمكن أن يتنفس فيها.

وإذا كان لابد من بيئة أخلاقية لصنع السلام فإن محاولة اصطناعية دون تحقيق الحد الأدنى من هذه الأخلاقيات - ألا وهو العدل - تجعل منه عملاً مضاداً للأخلاق.

إنه عندما تكون عقيدة المجتمع هي ماتحويه فلسفة التطور من آليات الصراع والتنكيف والبقاء للأقوى فإن الدعوة إلى السلام مع تربع هذه الفلسفة على عرش الحضارة والثقافة والقانون تكون دعوة لتمكين الظالم من المظلوم، ومحض إضافة إلى وسائله في سفك الدماء.

إن الظلم ظلمات... يوم القيامة، وهو كذلك في الدنيا،

إن الظالم ليتمنى أن يبعد عن نفسه ظلمات يوم القيامة ولو بملك الأرض جميعاً، يقول تعالى (ولو أن لكل نفس ظلمت مافي الأرض لافتدت به.) ٥٤ يونس.

ويقول (ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به.) ٤٧ الزمر.

وإن الظالمين لينزل بهم سوء الدنيا قبل أن ينزل بهم عذاب الآخرة (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) ٥٩ البقرة.

واخطر الظلم ماكان بين العباد: إنه كما جاء في الأثر

(إن لقيت الله بسبعين ذنباً فيما بينك وبين الله تعالى أهون من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد.)(١)

---

(١) انظر كتاب تنبيه الغافلين للسمرقندي

وإنه لمن أشد أنواع الظلم أن نتبرع نحن بمساندة الظالمين في شبه دعوة إلى سلام لا أساس له من العدل (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) ١٣ النساء.

إن الدعوة إلى السلام دون أن تسبق بدعوة فعالة إلى العدل ودون أن تكون مشروطة بالإنصاف... تصبح الدعوة في هذه الحالة دعاية. بل تصبح نوعاً من الخديعة، وتتحول إلى وسيلة من وسائل استمرار الحروب.

لنهتف هنا من أعماق قلوبنا بإسقاط فلسفات الصراع.

لنهتف هنا من أعماق قلوبنا بإدانة جميع ألوان الاستعمار.

لنهتف هنا من أعماق قلوبنا بالتآزر من أجل نصرة الشعوب المقهورة.

لنهتف هنا من أعماق قلوبنا بالجهاد من أجل الأطفال والنساء والشيوخ والشباب الذين يقتلون ويصلبون في أنحاء الأرض وعلى امتداد المعمورة بدءاً من أفغانستان، إلى فلسطين إلى الفيليبين إلى الهند...، إلى شعوب أخرى يهز أنينها قلب السماء، وإن كانت آذاننا عنه ماتزال بعدُ صماء.

أيها السادة:

هذا هو السلام على الأرض:

نحصل عليه إن عملنا له بشروطه:

إنه يتم طبقاً لقانون البديهة، وقانون الخالق معاً.

يعطي السلام من يملكه

ويأخذ السلام من يطلبه

ومن هنا كان لابد أن يرتبط منح السلام بالتوجه إلى الله وحده.

أي بالإيمان والتوحيد.

واتباع الصراط المستقيم الذي يهدي إليه الله من يشاء أن يهتدي.

وإنفاذ شريعته سبحانه على هذه الأرض كما تنفذ شريعته في السماء.

فإذا نحن فعلنا ذلك حصلنا على السلام في الأرض ثم حصلنا عليه في السماء.

إنه عندئذ يصبح السلام المطلق في الآخرة، إذ هي دار السلام... السلام المطلق.

(وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذَّكرون. لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون.) ١٢٧ الأنعام.

ويصبح السلام تحيتهم في لقائهم بربهم.

كما يصبح تحيتهم في لقائهم بالملائكة.

كما يصبح تحيتهم في لقاء بعضهم لبعض.

مع ربهم في قوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام.) ٤٤ الأحزاب.

ومع الملائكة في قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يقولون سلام عليكم، ادخلوا الجنة بماكنتم تعملون.) ٣٢ النحل.

(جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة، يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ٢٣ ـ ٢٤ الرعد.

وفي لقاء بعضهم بعضاً: في قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم، دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام.) ٩ ـ ١٠ يونس.

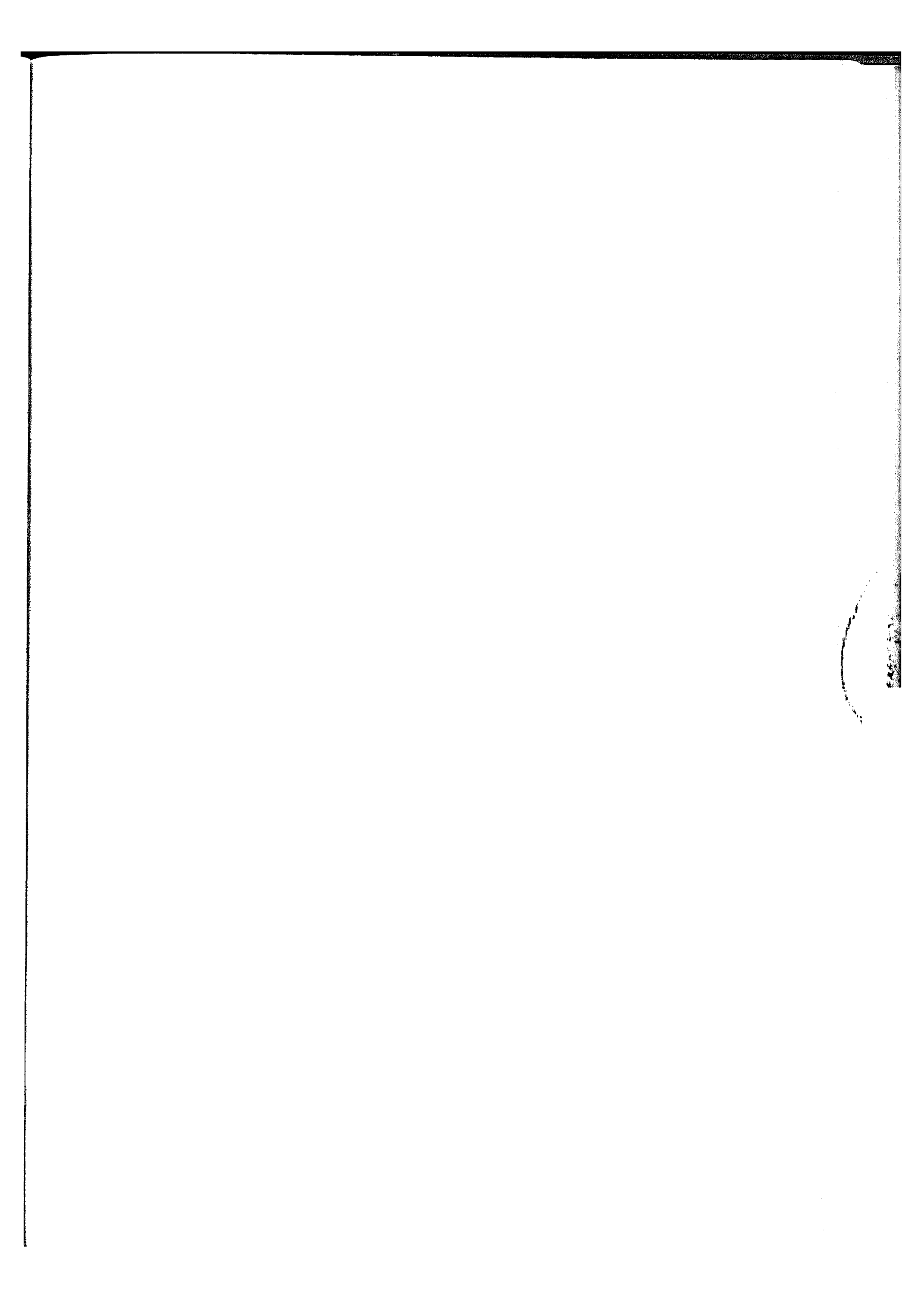
ويصبح السلام فيها حقيقة واقعة،

لا لغواً تلوكه الألسنة في الأندية.

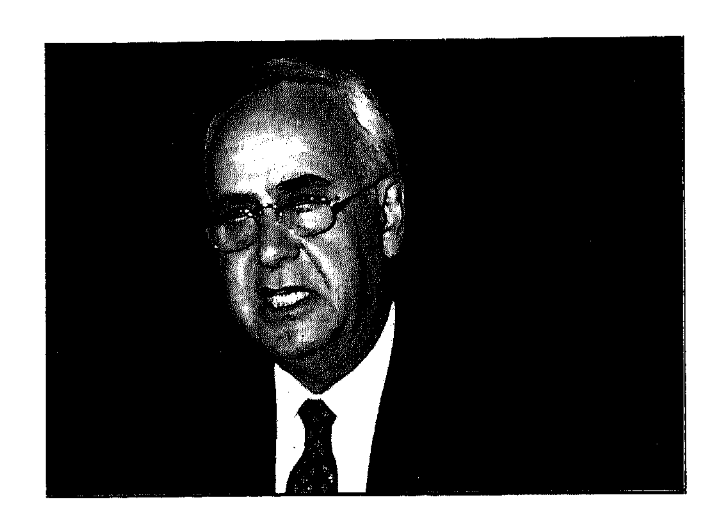
سلاماً حقيقياً (جزاءاً بما كانوا يعملون، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً.) ٢٤ ـ ٢٦ الواقعة.

سلاماً آمناً، لا سلاماً مهدداً خائفاً (إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين.) ٤٦ الحجر.

سلاماً خالداً لا سلاماً موقوتاً (خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) ٢٣ إبراهيم.

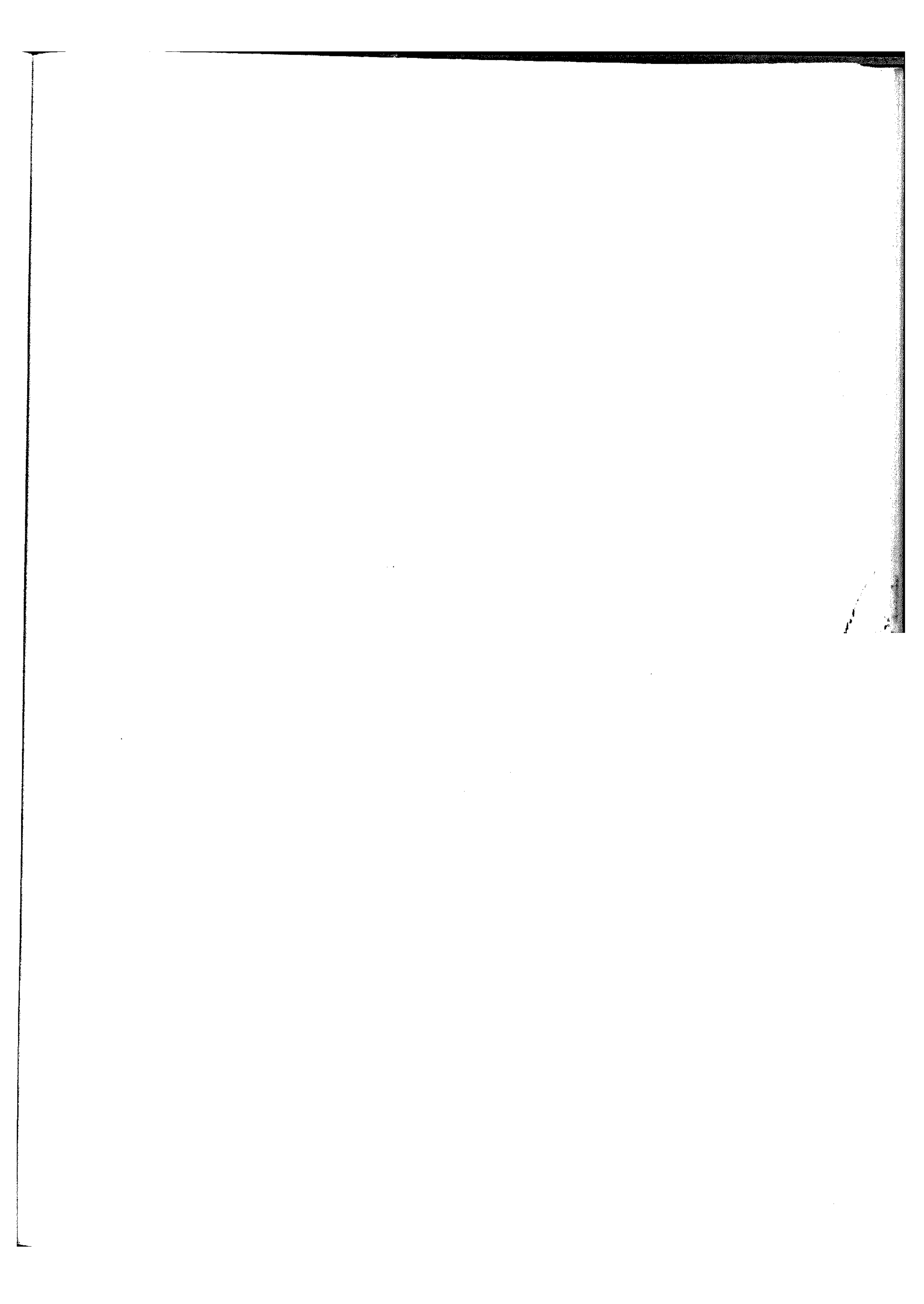


الشباب وتحديات المستقبل



الدكتور هشام نشابه

القيت بتاريخ : ١٩٩١/١١/٧ م



سيرة ذاتية

الأستاذ الدكتور/ هشام نشابه

حاصل على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعتي ماككيل وهارفرد في كندا والولايات المتحدة.

عميد التربية والتعليم في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت.

رئيس المعهد العالي للدراسات الإسلامية.

أمين عام اللجنة الوطنية اللبنانية للأونيسكو.

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - عمان/ الأردن.

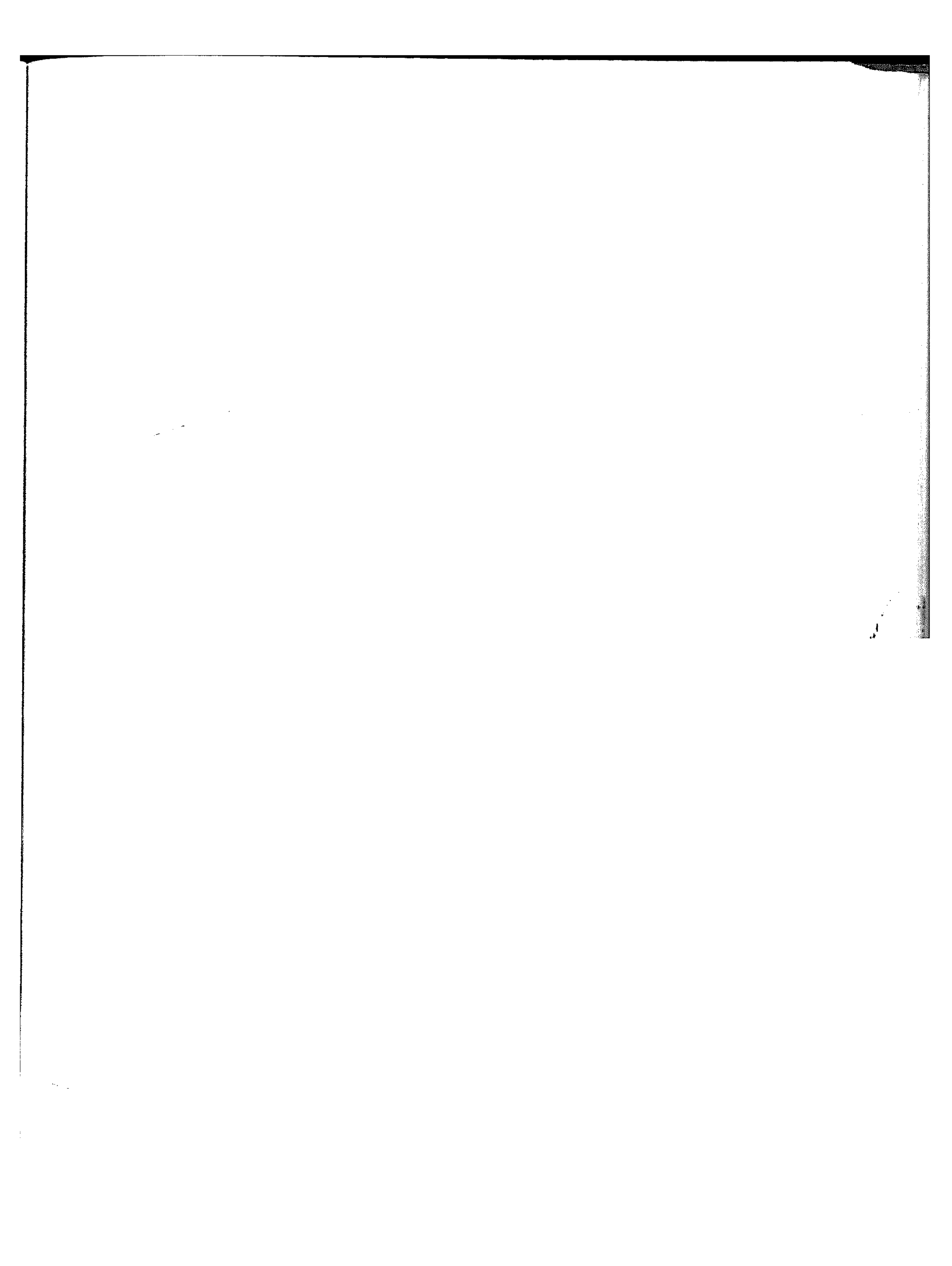
عضو مجلس أمناء مؤسسة الموسوعة العربية.

مندوب لبنان الدائم لدى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

أستاذ الفكر الإسلامي في الجامعة الأميركية في بيروت.

أهم مؤلفاته:

- Muslim Educational Institutions-Beirut-1989.
- التراث التربوي الإسلامي، بيروت - ١٩٨٨.
- دراسات فلسطينية، بيروت - ١٩٨٦.



الشباب وتحديات المستقبل

الدكتور هشام نشابه

بسم الله والحمد لله

«ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا»

صدق الله العظيم

«سنريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق»

صدق الله العظيم

بهاتين الآيتين الكريمتين وتيمناً بما تتضمنه من معاني الأمل في أن المخرج مهما كان عسيراً فإنه ميسّر لمن اتقى الله وبأن القضايا التي تواجه مجتمعاتنا الإسلامية هي آيات يريد الله أن يمتحن بها الناس حتى يتبين لهمّ الحق.

انطلاقاً من هذه المعاني الكريمة وتيمناً بها سأعالج موضوع هذه المحاضرة حول التحديات التي تواجه الشباب في المجتمع الحديث.

وليسمح لي أن أعبر بادئ ذي بدء عن غبطتي العميقة بتلبية هذه الدعوة الكريمة من المجمع الثقافي في أبوظبي.

فقد تشرفت بهذهب الدعوة مرتين، مرة يوم تلقيتها ومرة وأنا ماثل بينكم ملبياً لها، وحاملاً إليكم تحية جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت.

وقد أتاحت لي هذه الدعوة الكريمة أن آتي إليكم لأول مرة بعد المحنة الأخيرة العاتية التي تعرض لها الخليج العربي، وخرج منها والحمدلله سالماً معافى

ليستأنف مسيرة التقدم والفلاح وليثبت للعرب، جميع العرب، وللناس جميعاً في كل مكان، أن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، وأن لغة الحرب لا ولن تكون بعد اليوم سبيلاً لحل أية قضية في أي بقعة من بقاع الأرض.

ونحن في لبنا نعرف جيداً معنى الحرب ومحاولات حل الخلاف بواسطة الحرب. فقد عانينا منها سنوات طويلة تآكل خلالها البشر والحجر، وهانحن نخرج منها اليوم لنواجه تحديات سياسية واقتصادية واجتماعية يعلم الله كم من السنين سنحتاج لمعالجتها.

حمى الله هذه الأمة من جهل الجاهلين وغطرسة المتغطرسين ومن القوم الظالمين ويسّرنا وإياكم لمرضاته إنه سميع مجيب.

سيداتي وسادتي:

قد يتصور البعض أن الحديث عن الشباب حديث يضع الشباب في فئة مستقلة من المجتمع، وكأنما للشباب شؤون وقضايا هي من اهتمامهم وحدهم. ولو أن الأمر كذلك لحقّ للشباب أن يقولوا إن الشباب وحدهم هم الذين يستطيعون أن يجدوا الحلول لقضاياهم. أو قل هم أولى بإيجاد الحلول لمشكلاتهم فهم أصحاب الشأن، وهم الذين يعانون ويتألمون. ولكن الشباب جزء من المجتمع بل هم أعزّ جزء منه، وأحبهم إليه، وهم معقد الآمال وهم الحاضر والمستقبل في آن. ولذلك فان شؤون الشباب وشجونهم هم شؤون وشجون المجتمع كله، كباره وصغاره.

وأذكر في هذا السياق اجتماعاً حصل في المؤتمر العالم لليونسكو سنة ١٩٦٨، يوم كنت أمثّل شباب بلادي في هذا المؤتمر. يومذاك وقف مدير عام اليونسكو - السيد رونيه ماهو - ودعا الشباب الثائر على الأنظمة والقوانين في فرنسا آنذاك،

إلى اعتبار اليونسكو مكان لقاء وحوار بين الشباب والشيوخ. وأذكر شاباً سويسرياً، أي شاباً أوروبياً غربياً ينتمي إلى أحد أرقى المجتمعات الأوروبية، وقد أسدل شعر رأسه ولحيته على طريقة الهبيين وقال لمدير عام اليونسكو: من قال لك أننا نريد أن نتحاور معكم؟ دعونا وشأننا فليس عندكم ما تقولوه لنا وليس عندنا ما نقوله لكم سوى أنكم فشلتم في بناء عالم سعيد لنا، فقد أدخلتمونا في حربين عالميتين وأوجدتم استهلاكياً يتصارع فيه رجال الأعمال حتى الموت، ونشرتم الروح العدائية بين الناس والجشع والاستغلال. فدعونا وشأننا إذ ليس عندكم ما تعلموننا إياه، وإننا نستطيع أن نبني مجتمعاً جديداً أفضل من المجتمع الذي اقمتموه أنتم.

وأذكر أنني تعاطفت يومذاك مع ذلك الشاب، فقد كنت شاباً برماً بواقع المجتمع، ناقماً على المجتمع الغربي الذي قهر أمتي العربية، وكنت أتمنى أن يحصل تغيير جذري في ذلك المجتمع.

أذكر هذه القصة لأمثل بها المواجهة القائمة في المجتمع الغربي بين فئة الشباب وغيرها من فئات المجتمع. فالمجتمع الغربي المعاصر يقسّم المجتمع إلى طبقات وفئات متعارضة متناقضة. مجتمع الشباب يواجه مجتمع الشيوخ، تماماً كما أقام قبل ذلك مجتمعاً للعمال يواجه مجتمعاً لأصحاب رؤوس الأموال. وكما يقيم اليوم مجمعاً للنساء يزاحم ويناوئ مجتمع الرجال.

ان تقسيم المجتمع إلى فئات اجتماعية على أساس الطبقات أو على أساس الجنس أو على أساس العمر هو خاصة مميزة للمجتمعات الغربية الحديثة. وهذه الفئات في المجتمعات المشار إليها ليست متعاونة ومتفاهمة وإنما هي بحكم تكوينها وعقليتها متناحرة، متنافسة ومتعارضة. وهي، في النظرية الغربية للتحدي ورد الفعل يتحدى بعهضا بعضاً باعتبار أن هذا التحدي ضروري للتقدم والارتقاء.

هذه نظرة نراها، نحن العرب والمسلمين، غريبة عن تراثنا ونمط تفكيرنا. ولئن

تسرّبت إلينا هذه النظرة الغربية إلى العلاقات الإنسانية فما ذلك إلاّ لأننا تأثرنا بالغرب في حياتنا المعاصرة تأثراً بالغاً وتغاضينا عن جهل أو إدراك عن الخصائص الأصيلة لمجتمعنا العربي الإسلامي.

النظرة العربية ـ الإسلامية لتكوين المجتمع:

فالمجتمع العربي الإسلامي ينظر إلى العلاقات الإنسانية على أساس أن المجتمع وحدة متكاملة قائمةً على مساواة أساسية بين الناس باعتبار أن الله سبحانه وتعالى قد فرض هذه المساواة يوم خلق السماوات والأرض ومن عليها.

ثمّ تفرّق الناس إلى مجتمعات، لكل منها خصائصها المميّزة. غير أن العلاقة بين الناس في نظر الإسلام ليست مبنية على المنافسة ولا على الاقتتال ولا على التحدي وإنما على التعارف والتفاهم لكي يغني كل شعب الشعب الآخر بخبرته وخصائصه. ولذلك قال تعالى:

يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أقربكم عند الله أتقاكم (الحجرات) فقد جعلت البشرية شعوباً وقبائل ونساء ورجالاً ليتعارفوا ويتفاهموا ويتحابوا في الله. أما الصراع والاقتتال والحروب بين الشعوب والتحدي بين النساء والرجال وبين الفئات والطبقات فهي حالة مرضية على الإنسان أن يعالجها على أساس ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من قواعد وأحكام.

وأما العلاقة بين الأجيال، التي تتمثل في العلاقة بين الأولاد وآبائهم وأمهاتهم، فقد تحدث عنها القرآن الكريم واضعاً الاحترام أساساً في قوله عزّ وجل: «إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا».

(آية ٢٣ الاسراء).

وفيما يتعلق بالجانب الاقتصادي فإن منطق القرآن الكريم لا يقسم المجتمع إلى طبقات متصارعة، كما في نظرة الغرب، تسعى كل طبقة للوصول إلى السلطة، فإذا ما وصلت، قامت طبقة جديدة تناوئها وتناصبها العداء حتى تحتل السلطة مكانها وهكذا في حركة متصلة منذ فجر التاريخ إلى آخر الزمن. بل ان القرآن الكريم يرى في المجتمع فئتين أساسيتين من الناس هما أصحاب الثراء والفقراء. ولا فضل لفئة من هاتين الفئتين على الفئة الأخرى إلاّ بالتقوى والشكر لله. وخير ما يمثل هذه النظرة الإسلامية إلى العلاقة بين الأثرياء والفقراء ما جاء في مثل الجنتين: يقول الله تعالى في كتابه الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم. واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً، كلتا الجنتين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً، وكان له ثمر فقال لصحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا، قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً (الكهف ٣٢ ـ ٣٨)

تلاحظون أن العلاقة بين الرجل الذي أعطى الجنة الوارفة الغنية بغلالها، وبين الرجل الذي لم يعط مثلها هي علاقة «حوار»، لا علاقة صدام واقتتال، وكلما تعارضت مصالح الأثرياء مع مصالح الفقراء فان الحل المبدئي في الإسلام يكون عن طريق الحوار لا عن طريق الاقتتال. فبالحوار يحافظ الغني على ثرائه وبه ينعم الله على الفقير حتى تتحسن حاله ويُنقذَ من فقره.

والإسلام لا يدعو إلى الفقر كما تدعو بعض الديانات الأخرى كالمسيحية مثلاً. لإن هذه الدعوة إلى الفقر تتعارض مع الطبيعة الإنسانية. ولذلك اضطرت

المجتمعات الغربية إلى نبذ النظرة المسيحية إلى الثروة، وتأسس المجتمع العلماني في الغرب على أساس أن لا دور للدين في الحياة العامة.

ولكن الإسلام يحذّر من المساوئ التي ترافق اقتناء المال الكثير، لما يحمله المال من إغراء على التبذير وسوء الاستعمال والفساد. وضرب القرآن الكريم مثل القرية التي دمرها الله عزّ وجل لما فسق مترفوها:

وإذا أردْنا أنْ نُهلِكَ قريةً أمرْنَا مترفيها فَفَسقُوا فيها فَحَقَ عَلَيْها القولُ فَدَمَّرْنَاها تدميراً (الآية ١٦، سورة الاسراء).

العلاقة الاجتماعية، إذاً، في المجتمع الإسلامي هي علاقة تعارف وعلاقة احترام وعلاقة حوار عند الاختلاف وتحمل للمسؤولية في جميع هذه الحالات.

وبالتالي، فالشباب في المجتمع الإسلامي هم جزء من المجتمع تربطهم بسائر أفراده علاقة تعارف واحترام وحوار. وهذه نظرة تختلف اختلافاً أساسياً عما وصفت به العلاقة بين الشباب وغيرهم في المجتمع الغربي.

ولكن أين نحن في مجتمعنا الإسلامي المعاصر من هذه النظرة؟؟ فإن وعينا خصائص مجتمعنا العربي ـ الإسلامي، كان هذا الوعي أول خطوة على طريق إيجاد الحلول لمشكلات شبابنا بل لمشكلات المجتمع العربي والإسلامي عموماً في مواجهة تحديات هذا العصر. ولا فرق عندئذ بين رجل وامرأة وبين كبير وصغير، فالكل في هذه المواجهة لتحديات العصر مسؤول سواء بسواء.

ولعل امتياز الشباب على غيرهم في أي مجتمع يكمن في أن المشكلات الاجتماعية تتجلى فيهم أكثر مما تتجلى في أي فئة أخرى من فئات المجتمع لأن الشباب هم الأنشط جسماً وفكراً وهم الأكثر إنتاجاً والأكثر مسؤولية لانهم الأقدر على تحمل هذه المسؤولية.

ومن هنا كان حبنا للشباب وتقديرنا له وعقدنا الآمال عليه فهم عماد الأمة وأساس الصلاح والإصلاح في المجتمع.

فما هي تحديات هذا العصر التي تتطلب المواجهة المسؤولة من الشباب، بالدرجة الأولى، ومنا جميعاً؟ لا اخفي عليكم تهيبي أمام هذا السؤال الواسع بمدلولاته فالتحديات تتطلب الرد الذي يؤدي إلى مستقبل عزيز وحياة كريمة.

والتحديات كثيرة وعنيدة ومتلاحقة في هذا العصر الذي يموج بالتغيرات والصراعات وكلها تتطلب البذل والتضحية، فإن لم نواجهها بوعي مسؤول طحنتنا في مسيرتها الجامحة وخلفتنا نجرّ ذيول الخيبة والتخلّف.

ولو أردت أن ألخّص هذه التحديات بما يسمح به الوقت المتاح لي في هذه الأمسية لذكرت ثلاثة تحديات هي في نظري أعظمها شأناً وأبعدها أثراً في مجتمعنا.

أولهما تحدي العلم.

ثانيها تحدي القلق.

وثالثها تحدي الحرية.

وليسمح لي أن أنبه، قبل معالجة كل من هذه التحديات، إلى أن ما سأقوله ليس قولاً فصلاً ولا هو كل الواقع، وإنما هو موقف مبني على فرضيات ومحاولة لتبسيط الواقع المعقد الذي نعيشه. وبالتالي فان ما سأعرضه عليكم عرضة للنقد بل للنقض، وهو بحاجة إلى إعادة نظر مستمرة في ضوء التطورات التي سنواجهها في المستقبل القريب والبعيد. انطلاقاً من هذا التحفظ المبدئي سأعالجة فيما يلي

كلاً من هذه التحديات.

تحدي العلم:

طلب العلم هو السمة المميزة لهذا العصر وأحسب أن شبابنا في الوطن العربي، كما في العالم أجمع قد قبل هذا التحدي، فأقبل على العلم إقبالاً منقطع النظير. ولم تدخر الحكومات ولا الأفراد ذخراً إلاّ وأنفقته في سبيل العلم... فحتى أقل المجتمعات موارد مالية وأكثر العائلات عوزاً، تدرك اليوم أن العلم هو سبيل التحرر من الجهل والفقر والمرض. وقد نادى في مطلع هذا القرن الشاعر العربي معروف الرصافي مخاطباً الشباب:

وأعدوا العلم لا السيف الجراز

إنه عدة هذا الزمن

بسواه العزّ لم يكتسب

وهو المنصف للمنتصف

إنه والله لا عن كذب

شرف النفس ونفس الشرف

وقد استجاب الشباب والحكومات لهذا النداء، فها نحن اليوم في الوطن العربي ننفق على العلم إنفاقاً كبيراً بدءاً بمحاربة الأمية عند الصغار والكبار حتى بناء مؤسسات التعليم العالي. وعدد الجامعات في الوطن العربي يزداد باطراد حتى بلغ اليوم مئة وخمسين جامعة على الأقل ناهيك عن المعاهد العليا. وأحسب أن الدول العربية والأفراد على استعداد لمزيد من الإنفاق في هذا المجال بل إنها حتماً سائرة في سبيل هذه الزيادة.

المشكلة إذاً ليست في وعي هذا التحدي ولا في الاستعداد لمواجهته بالتضحيات. إن المشكلة هي في النوع لا في الكم.

إن الواقع العلمي في العالم لا يرضى من الشباب العربي ولا من المجتمعات الطموحة مجرد محو الأمية ولا متابعة الدراسة في الجامعة حتى نيل درجاتها العالية. بل يخامرني شعور لا أستطيع أن أجهر به، لأني لا أملك الدليل القاطع عليه، وهو أن الدعوات المتكررة لمحو الأمية واعتبار محو الأمية الهدف الأسمى للمجتمع، هي دعوات مغرضة. وإن الأصح أن تتوجه الجهود والأموال بصورة عادلة بين محو الأمية من جهة ورفع مستوى التعليم العالي من جهة أخرى.

غير أن الدرجات العلمية ليست معياراً دقيقاً للعلم. فالجميع يعلم كم من حملة الشهادات العلمية لم ينفعهم علمهم ولا انتفع بهم مجتمعه. إننا نريد أن نقرن إلى الشهادة العلمية، تفكيراً علمياً أي أسلوباً في معالجة المعلومات العلمية، أسلوباً بعيداً عن الأهواء الطائشة والأحلام الخادعة. ثم إننا نريد علماً نافعاً يستجيب لحاجة في المجتمع. أو لم يبشرنا رسولنا العظيم بأن خير ما يثاب عليه المرء «علم ينتفع به» وحذّر من يطلب العلم ليباهي به الناس، وإن من يطلب العلم لهذا الغرض سيتبوأ مقعده في النار

إن على الشباب، في سعيهم للاستجابة للتحدي العلمي في هذه المرحلة من تاريخنا أن يدركوا أن مواكبة مسيرة العلم الحديث تتطلب اتقاناً للغات الأجنبية، بل قد نحتاج إلى تعريف الأمية من جديد بحيث تُصبح معنى محو الأمية لا مجرد معرفة القراءة والكتابة باللغة الأم، بل معرفة لغة أجنبية إلى جانب اللغة الأم.

بل قد نذهب أبعد من ذلك فنضيف بأن من لا يعرف لغة الحاسوب (الكمبيوتر) هو أيضاً أمي.

إن واقعنا العلمي المعاصر مقصّر جداً على الأصعدة الثلاثة التي ذكرت: العلم النافع، اللغات الأجنبية، لغة الحاسوب أو الكمبيوتر.

ولكن قبل هذا وبعده، أين نحن من إتقان متعلمينا للغتهم العربية، ومعرفتهم لتراثهم، في الأخلاق والتاريخ والهندسة وغيرها من العلوم. إن ثمة شرخاً واسعاً بين المتعلمين وبين ماضيهم. وقد صدق من قال: قل لي كيف تعامل ماضيك أقل لك كيف سيكون عليه مستقبلك. ونحن زمة عريقة، ماضيها حافز لها على بناء مستقبل عظيم.

نقصد كلَّ هذا عندما نتحدث عن نوعية العلم الذي يكتسبه الشباب، فكل علم بلا نوعية متميزة هو علم لا ينفع، يدفعنا إلى جاهلية حديثة.

وإنني دون تردّد أحث شبابنا على الاقبال على الحضارة الحديثة والعلوم الحديثة ومواكبة العلوم التكنولوجية في المواصلات والمعلومات، ولكنني أذكرهم بأن الآلة المعقدة والقادرة التي توصل إلى صنعها الغرب ليست نتيجة إقامة الجامعات والحصول منها على الشهادات وحسب. إن الآلة الحديثة والتكنولوجيا الحديثة هي تجسيد لجهد مضن ومتواصل، وصبر وجلد على البحث، وتواضع أمام العلم واحترام لنواميس الطبيعة. واستعمال الآلة سيارة كانت أو طائرة أو حاسوباً أو غير ذلك أقل مرتبة في معيار العلم من إبداع الآلة أو اختراعها. ونحن نريد لشبابنا أن يكون منتجاً مبدعاً مخترعاً لا مجرد مستهلك لما ينتجه الآخرون. ولكي يكون كذلك عليه أن يتخلق بأخلاق العلماء فالعلم قبل كل شيء خُلُق. وقد قال سلفنا الصالح «ان هذا العلم لا يعطيك بعضه إلاّ إذا أعطيته كلّك». هذا ما قصدت إليه عندما قلت إن التحدي العلمي هو تحدٍّ نوعيّ لا كميّ.

وهذا هو التحدي العلمي الذي ما نزال مقصرين جداً في مواجهته.

تحدي القلق:

والقلق كلمة عربية لا أجد لها ترجمة دقيقة إلى اللغة الفرنسية أو الإنكليزية. وهي حالة نفسية تقع في منزلة متوسطة بين عدم الرضا والخوف.

ولعلّ من أهم أسباب القلق الشعور بالخطر وقلة الثقة بالنفس. والقلق ليس بالضرورة ظاهرة مَرَضية، ذلك أنه في كثير من الأحيان حافز للعمل، غير أنه يصبح مشكلة وتحدياً خطراً عندما يتفاقم لأنه عندئذ يشل الفكر والعمل جميعاً.

فإن صحّ تقديري بأن القلق هو أحد تحديات مجتمعنا، فمن الطبيعي أن تساءل عن الأشكال الذي يتبدى بها وأسبابه وسبلِ معالجته.

أما أشكاله فتبدو في القلق من البطالة عند الفئات الاجتماعية الفقيرة وفي القلق الناتج عن الضجر وكثرة أوقات الفراغ عند المترفين.

إن البطالة في المجتمعات الغربية هي المشكلة الاجتماعية الأولى في تلك المجتمعات، وهي ناتجة في أغلب الأحيان عن عدم التوافق بين الإعداد العلمي والمهني من جهة، وحاجات المجتمع من جهة أخرى، لا عن انتشار استعمال الآلة كما يعتقد البعض. وأما أوقات الفراغ وسبلُ ملئها بالمفيد والمنتج من الأعمال فهي أولى المشكلات الاجتماعية عند شبابنا العربي.

هذان التحديان ـ البطالة وأوقات الفراغ ـ هما السببان الرئيسيان للعنف والتحلل الاجتماعي وانتشار استعمال الكحول والمخدرات والانغماس في الرذيلة المؤدية إلى انتشار الأوبئة، بدءاً بالسيدا أو الإيدز، والله أعلم بما تخبئه الأيام من كوارث أخرى.

أيها السيدات والسادة:

إن الشباب مستودع الطاقة في المجتمع. وهذه الطاقة المتدفقة تحتاج إلى توجيه، فإذا أهملت انحرفت. لذلك فإن التحدي الاجتماعي الكبير في كل مجتمع يكمن في توجيه هذه الطاقة إلى العمل المنتج وملء أوقات الفراغ.

فأما بالنسبة إلى تأمين العمل للشباب والقضاء على البطالة، فقد ثبت بأن الصناعة هي المجال الأكبر لاستيعاب اليد العاملة ولذلك فلا سبيل لنا لحل مشكلة البطالة إلاّ عن طريق التصنيع، والتصنيع يعني إنتاج الآلة الصناعية واستعمالها بحكمة ودراية، ونشر روح التعارف والتكامل بين الأجير وربّ العمل. وقد ثبت أيضاً أن الزراعة على أهميتها البالغة في معالجة الأمن الغذائي في المجتمع لا تحتاج إلى العاملين بأعداد كبيرة خاصة بعد تصنيع الزراعة في أغلب المجتمعام.

وأما ملء أوقات الفراغ فإن بلادنا قد بدأت تعي أهميته ولذلك أعطت النشاطات الرياضية المختلفة شأناً كبيراً في البرامج التعليمية والاجتماعية. ولكن لابد من القول، بأننا مازلنا مقصرين جداً في مجال إنشاء النوادي وتنظيم الخدمات الاجتماعية للشباب من الذكور ومن الإناث وتشجيع المواهب عندهم في المجالات الفنية والعلمية المختلفة. إن إنشاء المراكز الثقافية والأندية المختلفة بحيث تصبح في متناول الجميع، وإنَّ أعدادَ المسؤولين عن هذه النوادي لكي تضجَّ بالحياة والنشاط، ولكي يشارك كلُّ شاب وشابة في النشاط الاجتماعي والأدبي والفني والرياضي، أمور ملحة في مجتمعنا. إن الثقافة العامة عند الشباب وإسهامهم في الحياة الثقافية والاجتماعية في مجتمعاتهم وبالتالي انصرافهم عن التسكع والارتماء في مهاوي الرذيلة، رهنٌ بإنشاء هذه النوادي ونشاطها. يقول بودلير، الشاعر الفرنسي المشهور: الفراغ، هذا الوحش الكامن، إنه يستطيع أن يقوض دعائم العالم ويتثاوب مرة واحدة يستطيع أن يبتلع الدنيا ومن عليها».

فإياكم والفراغ! وعليكم ملء أوقات الفراغ بالنافع والمفيد من الأعمال، وإلاّ

ملأتها النفس الأمارة بالشر والفساد.

أما تحدي الحرية فهو في نظري أعمق التحديات وأصعبها. لأن للحرية مفاهيم ومعاني يمكن أن تستغل أسوأ استغلال. ولأن ثمة معاني عديدة تنسب إلى الحرية ولكنها في الحقيقة لا تمت إليها بصلة. كثيراً ما نسمع الشباب إذا شاؤوا التمرد والتسيب أن يقول «أنا حرّ» وكأنما الحرية جواز للتخلص من القيود ومن المسؤولية، حتى أن جماعة نشأت في أوربا أطلقت على نفسها اسم «حركة الحرية بلا حدود».

وإن أحداثاً قامت في السنوات الأخيرة على الصعيد العالمي وبسرعة خاطفة ومذهلة أحدثت تغيرات هائلة في مسيرة الدول والإنسانية جمعاء. وهذه الأحداث تصبو في سعي الأفراد والجماعات للحرية. ولعلكم عرفتم أنني أنوه هنا إلى سقوط حائط برلين وسقوط النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي وفي الدول التي تدور في فلكه. ولا تستغربوا إن عيرتْ دعوات الحرية معالم جغرافية في مناطق عديدة أخرى من العالم. فإن دعوات الحرية ترسم معالم المستقبل.

إن الحرية تتحدى الأنظمة والقوانين والأعراف، انها تتحدى الحدود الجغرافية للدول والمؤسسات، ولذلك فإنني أقف أمام هذا التحدي بكثير من السعادة والتهيّب والقلق. السعادة، لأن الحرية ضمانة الفكر المبدع، والقادر على سبر افاق جديدة وإنماء الطاقات الإنسانية في جميع المجالات. وأما التهيب فلأن هذه التغيرات قد تحدث، كما حدثت فعلاً في الآونة الأخيرة، بسرعة لا نستطيع أن نستوعب نتائجها أو نسيطر عليها. وأما القلق فلانني أشك، وبكل صراحة، بحكمة ووعي وأخلاقية قادة المدنية الحديثة في العالم الغربي وحسن استعمالهم للحرية في بناء عالم الغد. فباسم الحرية وبسببها أرى الهوة تتسع يوماً بعد يوم بين بلاد الشمال وبلاد الجنوب، ومسار الرخاء من «فانكوفر إلى فلاديفوستوك» يوازيه مسار بؤس متزايد من بوركينا فاسّو والنيجر إلى سريلانكا وبنغلاديش شرقاً حتى جزر المحيط

الهادي ثم وراء هذا المحيط حتى بلدان أميركا اللاتينية.

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: كاد الفقر أن يكون كفراً. ولذلك فان مسار الحرية تتهدده آفة الفقر في العالم. وليسمح لي بأن استعرض معكم الواقع العالمي بتجرد وموضوعية مراعياً الإيجاز الذي يحتمه هذا المقام.

إن ثلاثة أرباع سكان العالم ـ أربعة أخماس السكان في العام ٢٠٠٠ ـ سيكونون حسب تقديرات اليونسكو متخلفين (في طريق النمو حسب التعبير المهذب). مليار من البشر أي ألف مليون سيعانون الجوع، وألف مليون سعانون الفقر، ومليار ونصف المليار لن يكون عندهم أي نوع من العناية الصحية، ومليارين لن تكون عندهم مياه صالحة للشرب. وفي السنوات العشر الماضية تضاعفت ثلاث مرات الديون المترتبة على الدول الأقل نمواً ومن المتوقع أن تتضاعف عدة مرات أخرى هذه الديون خلال السنوات العشر القادمة. أي أن التبعية الاقتصادية وما يرافقها عادة من تبعية حضارية لبلدان العالم الثالث ستزداد باطراد.

ان في بلدان جنوب القارة الأرضية ٩٠٠ مليون أمي لا يقرأون ولا يكتبون، إن طفلاً من أصل كل خمسة أطفال في هذه البلدان لا يجد مكاناً في مدرسة ابتدائية، وعدد المثقفين ثقافة علمية والتقنيين هم تسع مرات أقل مما هم في البلدان الصناعية. ومقابل كل كتاب يصدر في هذه البلدان تصدر عشرة كتب على الأقل في البلدان الصناعية، وهذه النسبة تنسحب على الصحف ووسائل الاتصال المختلفة.

وفي الوقت الذي تقصر المسافات بين الدول نتيجة تقدم وسائل المواصلات، تزداد الفوارق وتبقى الجهود لردم الهوة الساحقة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة، أي بين دول الشمال ودول جنوب القارة الأرضية. هذا ما قاله مؤخراً مدير عام اليونسكو (انظر مجلة Sources, No.30, Oct.1991 PP.7-8)

إنّ هذا الواقع الذي ينذر بمستقبل مظلم للبشرية ويتطلب حلولاً جذرية وجديدة لمشكلات العالم، يهيب بالشباب أولاً وبالمجتمع عموماً أن يوجه طاقاته الفكرية والمادية لخدمة الإنسانية جمعاء بحيث يؤمن العدالة والأخوة والمساواة في الفرص بين الشعوب.

ونحن العربَ والمسلمين بحكم ديننا الحنيف وموقعنا الجغرافي الفريد وتراثنا الإنساني مدعوون للقيام بالدور الأهم في تحقيق التوازن في التطور بين الشعوب. ألم يقل الله سبحانه وتعالى مخاطباً المسلمين: إنّا جعلنَاكُم أمةً وسطًا لتكونوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً (البقرة ١٤٣). أو لم ينبّه الله عزّ وجلّ الناس جميعاً تنبيهاً صارماً عندما قال:

بسم الله الرحمن الرحيم ـ الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها الميزان، ألاّ تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان (سورة الرحمن) صدق الله العظيم.

إن الميزان المشار إليه في هذه الآيات البينات هو ميزان العدل الذي لا يقبل بالتطرف من أي جهة أتى، إنه الميزان الذي لا يقبل بالظلم والاستبداد، إنه الميزان الذي لا يسمح باستغلال موارد الأرض بحيث يحتل التوازن الطبيعي.

إن هذا الميزان الذي أوجده رب العالمين وجعلنا مؤتمنين عليه هو مسؤولية الشباب المسلم في كل مكان وهو المنقذ من الضلال في هذا العصر، إن صنّاه صاننا وإن طغينا فيه هلكنا. ولذلك فان المسلمين مدعوون في هذا المنعطف الخطير من تاريخ الإنسانية أن يكون القوة الجديدة الذي ترد الاعتبار للتوازن في تقدم الإنسان وفي سعيه نحو الحرية وهي مسؤولية كبيرة وطموح للشباب لو تعلمون عظيم. إننا ننظر إلى الحرية من منظار التوازن وصون الحقوق وصون الطبيعة

والشعور بالمسؤولية.

نعم، إننا نتقبل تحدي الحرية ولكننا نفهم الحرية والمسؤولية صنوان لا يفترقان ونتقبل تحدي القلق والخوف ونفهم أن معالجته تكون بالعمل الجدي وتوجيه الطاقة إلى العمل المبتكر، والتجدد في نتاج الفكر والآداب والفنون والإقبال على العلم الحديث، دون تردد ومهما كانت التضحيات، وحتى إذا اضطررنا أن نخترع أنفسنا من جديد.

وبعد، فيقول الله عزّ وجلّ

ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا

ويقول سبحانه وتعالى

يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحا فملاقية

صدق الله العظيم.

وهو خيرٌ حافظاً لشباب أمتنا العربية أمل المستقبل والمؤتمن على التراث، والله خير معين في مواجهة جميع التحديات فكونوا مع الله يكن الله معكم.

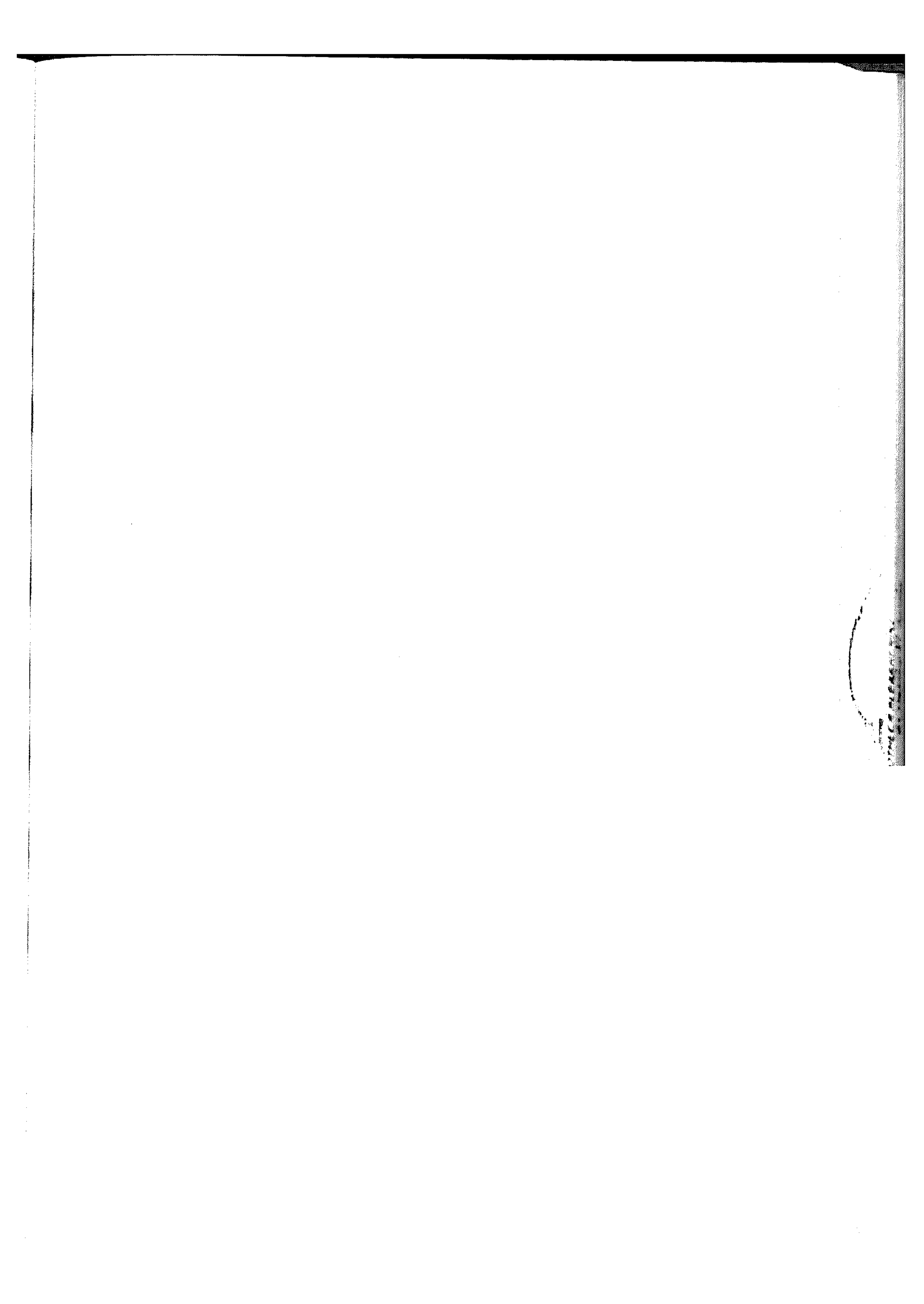
والسلام عليكم.

اطلالة على التصوير الإسلامي



الدكتور ثروت عكاشه

القيت بتاريخ : ١٩٩١/٤/٢٨م



سيرة ذاتية

الأستاذ الدكتور ثروت عكاشة

- عمل وزيراً للثقافة والإرشاد القومي المصري من عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٦٢ ومن عام ١٩٦٦ وحتى عام ١٩٧٠م.

- عضو المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو من عام ١٩٦٠ وحتى عام ١٩٧٠.

- نائب رئيس اللجنة الدولية لإنقاذ فينيسيا.

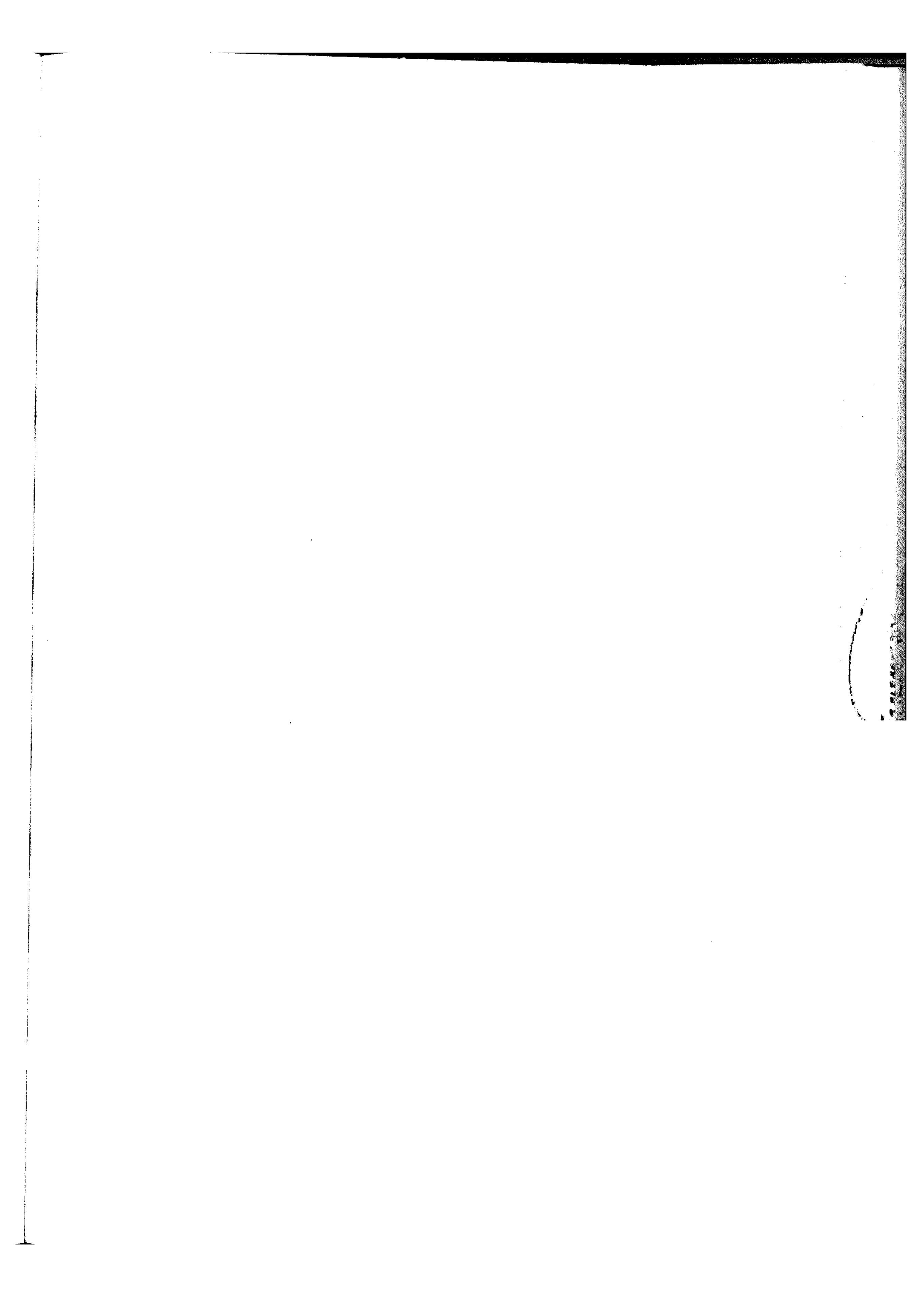
- أستاذ زائر في الكوليج دي فرانس بباريس سنة ١٩٧٣.

- زميل مراسل بالأكاديمية البريطانية سنة ١٩٧٥.

أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات وخاصة في مجال الفن والموسيقى والثقافة.

- <u>أهم كتبه</u>:

تاريخ الفن - إنسان العصر يتوّج رمسيس - القيم الجمالية في العمارة الإسلامية - الموسوعة الموسيقية وغيرها.



إطلالة على التصوير الإسلامي

الدكتور ثروت عكاشة

لم تعرف البيئة العربية قبل الإسلام التصوير فناً كما عرفته الأمم الأخرى، ومن ثم لم يظفر العصر الجاهلي بشيء من التصاوير. ولعل بُعد الأمة العربية في جاهليتها عن التصوير كان له أثره فيما بعد حين أظلّها الإسلام فكانت أميل إلى الأخذ بما تخال فيه نهياً عن التصوير وابتعاداً عنه، ولعل هذا أيضاً كان له أثره في الإخباريين وأهل السير والمفسرين فمالوا في تأويلهم إلى ما أُثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم خاصاً بالتصوير إلى جانب التحريم. على أن البيئة العربية لم تكن كلها على دين الإسلام بل ظل نفر يدينون بالوثنية وباليهودية وبالنصرانية، فكان التحرز عن الأخذ بالتصوير الذي شمل المسلمين بعيداً عن أن يشمل غيرهم. ومع ذلك لم نظفر لهؤلاء بتصاوير فيما عدا تصاوير السريان اليعاقبة والنحل الأخرى من المسيحيين الشرقيين، وهو ما يبرهن على أن البيئة العربية لم تكن مغرمة بالتصوير. وظل هذا الأثر البيئي الذي صرف العرب عن الأخذ بالتصوير ممتداً عهود الإسلام الأولى إلى أن كانت تلك الصلات التي عقدت بين الشعوب العربية وشعوب أخرى ذات حضارات مختلفة عن الحضارة العربية وتحمل فنوناً مختلفة منها فن التصوير وفن النحت.

وكما أفاد العرب من حضارات تلك الشعوب التي خالطوها أدباً وعلماً أفادوا أيضاً منها فناً، فكانت تلك الجولات الأولى في التصوير يوم أن عرفوه فيما شاهدوه عن تلك الأمم، وكانت نشأة المصورين العرب الذين تتلمذوا على الفنون التصويرية لتلك الأمم المختلفة مسيحية وبيزنطية وساسانية، غير أنهم كانوا لا يزالون قريبي العهد بتعاليم الرسول التي لا تعرف لهو الحياة وترى فيما يصرفها عن وجه ربّها شيئاً محرّماً. ومن أجل هذا كان ذلك التزمت في النظرة إلى

التصوير وغيره مما يشبهه، إذ كان الإسلام حريصاً ألا يكون بين العابد وبين ربه شاغل من رسوم وتصاوير فخلت المساجد الأولى من كل رقش أو نقش ومن الإسراف في مباهج الحياة.

وقد مر التصوير الإسلامي بمراحل متعددة، لكل مرحلة عواملها المؤثرة فيها وظروفها وبيئاتها. ويمكن حصرها في مدارس أربع رئيسية، تنقسم بدورها إلى مدارس فرعية زماناً ومكاناً. ومن الصعوبة بمكان تحديد تواريخ دقيقة لكل مرحلة، إذ كثيراً ماتتداخل وتختلط بدايات تلك المراحل ونهاياتها. وهذه المراحل هي مدرسة التصوير «العربية» و«الفارسية» و«المغولية بالهند» و«التركية».

التصوير العربي

تغلب على مدرسة التصوير العربية الرسوم الآدمية التي جاءت لا تفاصيل فيها للأجسام ومن أجل هذا غشّاها المصورون بثياب كثيرة الأطواء والمكاسر، ودون دراية بأصول التشريح ولا مراعاة لنسب الأعضاء بعضها ببعض، مطّرحة جانباً أثر الأحاسيس والانفلات في الوجوه إلا مع النادر المعدود ـ فإذا هي غُفل من ملامح التعبير وكأن عليها أقنعة. فكان شأن المصور شأن لاعب مسرح العرائس يعرض أدوار شخوصه فيما يسرد من أحداث بخطوط محوَّرة تحدد الإيماءات مع شيء من التهويل لكي يعوض بهذا عن إغفال تعبير الوجوه، كما قد يعبر عن بعض مواقف الأشخاص وحركاتهم بالثياب طيّاً وبسطاً.

ولم تعن هذه المدرسة بتمثيل الطبيعة عناية الفنون الصينية أو الغربية، كما لم تعن بقواعد المنظور، فلم يكن للصورة غير بعدين اثنين هما الطول والعرض، أما العمق فلا وجود له. وإلى هذا فإننا نجد هذه المدرسة أقرب إلى الواقع في تصوير الكائنات الحية وهو مالم تلحقها فيه المدارس التي خلّفتها في الإسلام. ومن ميزات هذه المدرسة الجمع بين مشهدين أو أكثر في صورة واحدة، ومنها تلك المسحة

العربية واللحى المرسلة التي سادت قسمات الوجوه وإن غدت الوجوه بين أيديهم أنماطاً معينة لا لأشخاص بذواتهم، ومنها استخدام الأعين في التعبير والأصابع في الإشارات والأيادي في الإيحاءات، وظهور الشخص الرئيسي أحياناً أكبر حجماً من غيره ممّن هم أقل منه شأناً. هذا إلى توفيق هذه المدرسة في تصوير مجموعات الناس مع تنوّع وضعاتهم، ووضع كل شخص في مرتبته رفعةً وضعةً.

وثمة شيء له قيمته أُثر عن هذه المدرسة هو تلك الهالة التي تعلو الرؤوس. وهذه الهالة ترجع إلى أصلين قديمين: أولهما بيزنطي، وكانت الهالة ترسم على شكل دائرة تكلل بها رؤوس الأباطرة والأبطال ومن إليهم. وقد شاعت تلك الهالة بعد أن اعتنقت الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) المسيحية. ولم تكن علامة تقديس كما كان يظن البعض، فقد كللت بها رؤوس أشخاص كانوا أعداء للمسيحية. ومن المحقق أن تلك الهالة فقدت مغزاها في التصوير الإسلامي، ولم تعد أن تكون عنصراً زخرفياً نراها حول رؤوس الأشخاص عامة لتمييزها وإبرازها.

أما عن الأصل الثاني فهو فنون الصين وأواسط آسيا، غير أنها كانت ترسم في الأكثر بيضية غير منتظمة الخطوط، مما جعلها تبدو على شكل شعلة نارية.

وأما الهالة التي استخدمت في الفن الإسلامي في أوائل عهده فتماثل تلك التي كانت دائرية وأحاطوها أحياناً بحواف زرقاء أو حمراء ثم مالبثت مع امتداد الزمن أن تأثرت بمثيلتها في الفن الصيني والآسيوي فجاءت على شكل هالة نورانية .

كذلك أصابت هذه المدرسة توفيقاً في رسم الحيوان لاسيما الحيوان المستأنس في البادية العراقية من خيل وإبل، فأبدعت هذه المدرسة فيه أي إبداع لاسيما حين ساقت مشاهد من قوافل متراصة متتابعة من الإبل. ولاشك أن إجادة مصوري مدرسة بغداد لتصوير الحيوان قد آلت إليهم عن أسلافهم فناني بابل وآشور وعن الفنانين الفرس. ولقد جنحت المدرسة البغدادية في الرسوم النباتية إلى التنسيق

الزخرفي، فحين تناولا مشاهد الطبيعة والنبات أحالوها تقريباً إلى رموز وزخرفة، وأدى ذلك إلى الخروج عن الحقيقة المرئية للنبات، غير أنه على الرغم من هذا فثمة رسوم نباتية جاءت محاكية للطبيعة.

أما عما أثر عن هذه المدرسة في تصوير العمائر فنراها قد التزمت أسلوب التشكيل الخطّي والاصطلاحي المتداول. وكان مصورو هذه المدرسة أقبل ما يكونون على استخدام الألوان الزاهية الخاطفة، ولعلهم كانوا يقصدون من وراء ذلك إلى جذب الأنظار ثم التعويض عما في تصاويرهم من تسطيح وقصور عن التعبير بقواعد المنظور.

كما نجد تلك المدرسة تلتزم في رسم الثياب أن تكون واسعة سادلة بأكمام مسترخية، وعلى تلك الأكمام أشرطة تحمل بعضاً من زخارف. وقد ضمت إلى هذا أنواعاً من الثياب منها ماهو بلا أطواء يحمل برقشة أو صوراً لأزهار وحيوانات أو رسوماً لأهلّة وبروج، ومنها ماهو ذو أطواء تحاكي الأمواج المضطربة، وقد يسرفون في الأطواء فتبدو معقدة مجافية للمألوف. وثمة نوع ثالث من تلك الثياب تبدو فيه المكاسر على هيئات زخرفية، تارة كالأصداف المتراكبة وتارة كالديدان المتجمعة.

وثمة موضوعات لم يطرقها التصوير العربي إلا بقدر كالموضوعات الدينية، وذلك لحساسية هذا النوع من التصوير في العالم الإسلامي آنذاك. كذلك لم يتناول موضوعات الملاحم الشعرية أو الدرامية، ومرد ذلك إلى خلو الأدب العربي من الدراما وقتذاك، وإن كان قد تناول بعض قصص الحب والغرام الساذجة. وكذا لم يعن كثيراً بتصوير الموضوعات الأسطورية أو القصص الرمزية أو الصور الذاتية للشخوص «البورترية». وبالرغم من هذا كله فقد استطاع المصور العربي أن يعبر بالصورة عن موضوعات وأفكار ملوكية وسياسية وعلمية وشاعرية، وأن يوفق إلى تمثل العناصر الأجنبية، وأن يخلق بقدراته صوراً مكتملة بل وعصية على النسيان

أحياناً، وأن يمضي في طريقه بعزم وتصميم دون أن يلقى بالاً للمتزمتين من رجال الدين، فكان بهذا مضرب المثل في الشجاعة.

المنمنمات الفارسية:

نشأت في فارس مدرسة من أعظم مدارس الفن الآسيوي تقفو أثر مدارس التصوير الأخرى في آسيا من حيث إهمالها للظلال، وتتجاهل أسلوب المدارس الأوربية القائمة على الاعتماد على تجسيم الأشكال. وعلى حين كان الإنسان يشمخ نداً للآلهة في التصوير الأوربي حاجباً كل ماعداه، وعلى حين احتفى التصوير الصيني بمناظر الطبيعة أي احتفاء مهملاً شأن الإنسان، جاء المفهوم الفارسي بين هذا وذاك، فالإنسان وما يأتيه من أفعال لها مكانها على الدوام في صدر الصورة. والفنان الفارسي على خلاف غيره من الفنانين لا يرسم الجسد الإنساني إلا كاسياً غير عار، وإن لم يتجل هذا المفهوم في جميع أنماط التصوير الفارسي. وثمة تقليد شاع في جميع الفنون الآسيوية احتذاه التصوير الفارسي، وهو افتراض أن يتخيل المتفرج نفسه وكأنه يتطلع إلى المشهد المتعدد الزوايا والأبعاد والأحجام والمستويات من موقع مرتفع حتى لا يضطر الفنان إلى رسم الشخوص أو الجماعات متراكبة بعضها فوق بعض، لذا نجد الفنان يرسم المبنى وكأنه يراه من عل، في حين تظهر بقية الصورة للعين في مستوى النظر أو من زاويتين مختلفتين في آن معاً. ولا يبدو أن هذا الاختلاف بين الرؤيتين كان يؤرق الفنان أو المشاهد، فكلاهما لم يبال بأن تكون الصورة مطابقة كل المطابقة للأشياء كما تُرى. على أن المصور الفارسي رغم ضيق مجال «الإبهام» أمامه لاقتصاره على استخدام البعدين الرأسي والأفقي فحسب، ولافتقاره إلى إمكانيات التأثير بواسطة الظلال والمنظور والتجسيم قد وفق إلى التعبير عما يريده بواسطة وسائل بديلة، فقد كان يوحى بالتراجع في الفراغ عن طريق وضع الأشياء البعيدة أعلى الصورة، والقريبة أدناها، مع رسم الأشياء البعيدة أحياناً أشد ضآلة في حجمها من الأشياء

القريبة. ووراء هذا النوع من الفن يكمن الخيال الشرقي العريق الذي يضع في اعتباره دائماً ما يستهوي المشاهد فيحاول المصور إرضاءه محققاً العجائب والمعجزات الخارقة في نظر العقلية المدققة في احترامها لقوانين الطبيعة، فيظهر المصور الفارسي المشاهد الليلية في حين لا يسود الصورة ظلام دامس، ويدفع النجوم إلى التألق في مشهد حافل بضوء النهار، مانحاً نفسه حريات واسعة دون اكتراث.

وأكثر منجزات التصوير الفارسي مصورات إيضاحية زخرفية، وإن كان الفرس مفطورين على حب الزخرفة، فلم يكن غريباً على الفنان الفارسي أن يبدع في خلق هذا التكوين الذي يعتمد على اتساق أجزائه وعلى التحكم فيها بحيث تبلغ الانسجام التام. وما أصدق الفنان ماتيس الذي تأثر إيما تأثر بتصوير المنمنمات الفارسية حين قال: إن التكوين الفني هو قدرة المصور على التنسيق بين العناصر المختلفة التي بين يديه زخرفياً، ليعبر بهذا عن انفعالاته. وانطوت المنمنمات الفارسية على نظم لوني فريد يضم مجموعات لونية يؤلف منها المصورون تكوينات مذهلة من درجات الألوان التي لا تتعدى درجتين أو ثلاثاً تقدم في النهاية عناقيد لونية ينتقل فيها البصر من لون إلى آخر، وقد تصل درجات اللون الواحد إلى اثنتي عشرة درجة مما يثير الإعجاب بها منفصلة أو متعانقة مع الألوان الأخرى مسهمة كلها في التكوين العام للوحة. ولم يقتصر الفنان الفارسي في اختياره للألوان وتوزيعها على الهدف الزخرفي وحده، بل جاوزه إلى أهداف أخرى مثل التعبير عن المزاج النفسي، إذ كان يوحى بجو المعارك العنيف بالتوزيع المتناثر للألوان، كما كان يوحى باحتدام عواطف العشاق وحلكة الليل باللونين الأحمر والأزرق الكثيفين، على حين كان يحرك الإحساس بالرعب في عالمه غير الواقعي باحتواء اللوحة على اللونين الأحمر والبرتقالي مع اللونين الأصفر والبنفسجي.

وكان الفنان إذا ما فرغ من رسم المنمنمة وتلوينها وتذهيبها أو تفضيضها ألقى

عليها نظرة نافذة تستهدف الإجادة سواء بالإضافة أو التصحيح. ولا يقف من المنمنمة عند هذا الحد، بل لا يلبث أن يشرع في تخطيط هوامشها وتجميلها برسم إطار من الزخارف التوربقية أو الحيوانية، ثم يعقب ذلك بصقلها بمصقلة من العقيق أو بيضة البللور أو بأداة شبيهة ذات سطح أملس، إلى أن تأخذ المنمنمة في التوهج فينقلها إلى مكانها الخاص في أحد الألبومات (مضم الصور) أو يتركها في مكانها في مخطوطتها.

وقد مر التصوير الفارسي بصفة عامة بمراحل ثلاث: أولاها التصوير في عصر الإيلخانات المغول (١٢٩٥ ـ ١٣٩٢)، وثانيتها التصوير في عصر التيموريين بعهديه الأول (١٤٠٠ ـ ١٤٥٠) والثاني (١٤٥٧ ـ ١٥٠٧)، ولا يقتصر التصوير في هذا العصر على هراة فحسب بل يشمل أيضاً مدارس شيراز وتبريز، وبخارى وقزوين وغيرها من عواصم الأقاليم. وثالثة هذه المراحل هي التصوير في العصر الصفوي مع مطلع القرن السادس عشر.

وقد ظل تراث الفنون التصويرية الساسانية يعيه أهل فارس الأوفياء لتراثهم ويلقى التشجيع حتى من أولئك الذين دانوا بعقيدة الغزاة العرب. وقد بقيت لنا منه بعض النقوش الصخرية، والقليل النادر من نماذج التصوير الساسانية التي لم يبق منها شيء سوى بعض الرسوم الجدارية في كوة خواجة (جبل السيد) بإيران وفي باميان بأفغانسان. وتدل بعض قصائد البحتري المتوفى سنة ٨٩٧ على أن بعض اللوحات المصورة الأصلية كانت لا تزال موجودة خلال حياته في القصر الملكي الساساني بمدينة طيسفون «المدائن» فيصف لوحة تمثل الحرب بين الفرس والرومان في إيوان كسرى أنوشروان (٥٣٨م). وتصل به الدقة في الوصف إلى حد ذكر الألوان.

ولعل ماظهر في الفن العربي من منجزات مصورة بسامرا خلال القرن التاسع

كان صورة من التحف الساسانية الفضية المحفورة التي أفلتت من عوادي الزمن، وهي لم تظهر على ترتيب زخارف الشخوص على نحو ماكان في الفن الساساني فحسب بل تظهر فيها أيضاً نفس أنماط وجوه الرجال والنساء، كما تظهر الثياب نفسها بأسلوبهم في تصوير الأطواء والمكاسر، وكذا صور الراقصات والقيان والمغنيات والعازفات من النساء ومثيلاتهن كما هي في التقاليد الساسانية القديمة. وكما استقى الشعراء المسلمون من الفرس موضوعات قصصهم عن التاريخ الأسطوري للملوك القدامى قبل الفتح العربي مثلما فعل الشاعر الفردوسي في الشاهنامة ومثلما فعل الشاعر نظامي في قصائده الخمس كذلك خضع مصورو المنمنمات الفارسية الإسلامية في مخطوطاتهم لتأثير أسلافهم، فعادت إلى الظهور بعد سبعة قرون أو ثمانية مشاهد الصيد والطراد ومآثر الملوك والأبطال ومعارك القتال وقصص الغزام المأثور، كما تابع هؤلاء المصورون الأسلوب التقليدي للفنانين القدامى في العهود الساسانية في تمثيل موضوعات بذاتها.

مدرسة التصوير المغولي بالهند:

حكمت الهند سلالة من الأباطرة المسلمين سنة ١٥٢٦ إلى ١٨٥٨م، أسسها بابر (ومعناه الأسد بالتركية) بعد أن تم له غزو الهند من ناحية أفغانستان منشئاً الامبراطورية الهندية المغولية على أطلال سلطنة دهلي. وبابر هو سليل الغزي التتري تيمورلنك من جهة أبيه والغازي المغولي جنكيز خان من جهة أمه.

وعندما غزا بابر الهند في عام ١٥٢٥ مؤسساً ابمراطورية المغول بالهند بعد أن تم له فتح الأنحاء الشمالية منها، حمل معه حضارة الإسلام. وكان خلفه همايون (١٥٣٠ ـ ١٥٤٢) قد قضى بعض الوقت في المنفى بإيران بعد أن فقد عرشه بالهند، وأعجب بتقاليد التصوير في بلاط الشاه طهماسب. وعند عودته أحضر معه عدداً من المصورين الفرس على رأسهم الأستاذان ميرسيد علي وخواجه

عبدالصمد اللذان عهد إليهما بالإشراف على تصوير مخطوطه «حمرة نامة» (١٥٦٠ ـ ١٥٧٤)، وهي الملحمة التي تشيد بمآثر حمزة عم الرسول والتي يعدها البعض الرمز الفني المعبر عن الفتح الإسلامي للهند. وقد عكف على إعدادها فيما يقال مئة مصور بين هنود وفرس، فكانت عملاً فذاً في تاريخ الفن المصور يضم ٢٤٠٠ صورة مسجلة على نسج قطني من الحجم الكبير غير المألوف (٢٧,٥ بوصة × ٥، ٢٣ بوصة)، ولا يزال عدد منها محفوظاً بين المجموعات العامة والخاصة في أوربا وأمريكا. وقد انتهى العمل في هذه المخطوطة في عهد الامبراطور «أكبر» (٥٥٦ ـ ١٦٠٥)، وكان عاشقاً للفنون وراعياً لها. وقد حاول دمج الشعب الهندي مع أشياعه المغول المسلمين وذلك بتحالفه مع الراجبوت في وحدة سياسية واجتماعية، وهو ما أسفر عن تألق التصوير المغولي بقسماته المتميزة حيث تدرب في المدرسة التي أنشأها بعاصمة ملكه قرابة مئة من المصورين الهنود والمسلمين على أيدي الأساتذة الفرس. وكان نتاج هذا فناً هندياً جديداً، تكوينه الفني العام فارسي وأشكاله وعمارته فارسية في بعض أجزائها وراجبوتية في أجزائها الأخرى، بينما كان يتجلى تأثير الفن الأوربي بين الفينة والفينة في اتباع قواعد المنظور ورسم المناظر الطبيعية في الخلفيات. وقد عمل «أكبر» في سبيل تحقيقه لهدفه الأساسي ـ وهو خلق قومية عامة ـ على إدخال موضوعات من التقاليد والأساطير الهندوكية، فثمة العديد من اللوحات المصورة المعبرة عن نصوص سنسكريتية إلى جانب صور «حمزة نامه» و«بابر نامه» التي تسجل حياة وأسس الدولة المغولية في الهند. فلقد كان «أكبر» ذا حس «انتقائي» يدفعه إلى الترحيب بكل ما ينال إعجابه بغض النظر عن مصدره، فمقياسه الأساسي والأوحد هو توافق عناصر العمل الفني مع نظرته الجمالية. وكانت المنجزات الفنية المغولية هي حصيلة جهد جماعي لفريق متعاون من الفنانين، وكان ثمة مجال واسع للتخصص ضمن كل فريق، فالبعض يقوم بتصميم التكوين الفني العام، والبعض يرسم الشخوص والتفاصيل، والبعض الآخر يستخدم الألوان المناسبة. ولم يكن

المصور بصفة عامة يوقع على صورته، غير أن كاتب البلاط كان يدوّن أسماء المشاركين في أدنى اللوحة في أغلب الأحوال. وهكذا كان هؤلاء الملوك المسلمون رعاة لمدرسة فنية جديدة في التصوير اشترك فيها الفنانون الهنود مع الفنانين الوافدين من فارس وأواسط آسيا في تسجيل مآثر ملوكهم ومغامراتهم العسكرية وحفلاتهم وهواياتهم، وإن غلبت الصفة الملحمية على مصوراتهم وبخاصة في المراحل المبكرة. وبهذا يكون التصوير المغولي الهندي قد أخذ في بدايته عن إيران، ولو أنه انتهى قبل أفول القرن السادس عشر إلى تبني طراز مستقى إلى حد ما من التصوير الهندي الشعبي والتصوير الأوربي، وخاصة بعد زيارات من بعض الفنانين اليسوعيين بين عام ٥٨٠ أو ١٦٠٥ فأحسن الأمبراطور أكبر وفادتهم، وبدأ لأول مرة ظهور بعض عناصر التصوير الأوربية مثل «المنظور» وتقنه «الإشراق والاظلام» ومن هنا كان هذا التحول الذي امتزجت فيه الخطوط والألوان الفارسية بالواقعية الأوروبية والأساليب الهندية المحلية، فغدا التصوير المغولي في صدر القرن السابع عشر فرعاً مستقلاً قائماً بذاته من فروع التصوير الإسلامي.

وخلف الامبراطور أكبر ابنه جها نجير (١٦٠٥ ـ ١٦٢٧) وكان هو الآخر راعياً للفنون، غير أنه لم يكن خلاّقاً كأبيه ولم يعن بتصاوير المخطوطات عنايته بتصوير البورتريهات الشخصية والأحداث التي وقعت إبان حكمه، وكذا الدراسات الواقعية للنبات والحيوان. وقد اتسم عهده بتغيير ملحوظ في الدرجات اللونية للمنمنمات المصورة المغولية فضلاً عن التوسع في استخدام تقنة الإشراق والإظلال. وقد أسهمت «نورجهان» زوجة جها نجير بنصيب في تشجيع الفنانين لتطوير التصوير بإشاعتها إحساساً جديداً بالرقة تجلى في الثياب البيضاء الرهيفة الشفافة للرجال والنساء على السواء، كما تجلى في تصوير الرخام الأبيض المكفّت في صور العمائر، وفي فيض الألوان الشفيفة حتى باتت حقبة حكم جهانجير تعد العصر الذهبي للتصوير المغولي.

وفي مطلع القرن السابع عشر وفي عهد الامبراطور شاه جهان (١٦٢٨ - ١٦٥٨) بلغ البورتريه المغولي أوج قمته، وكذلك تصوير موضوعات النبات والحيوان وخاصة في مخطوطات كليلة ودمنة. وكان لهذا وذاك أثره على فن التصوير الهندوكي الذي تجلى هو الآخر في المنمنمات التي ترقن مخطوطات ملحمتي الرامايانة والمهابهاراته.

ولم يكن ثمة تغيير أساسي إبان حكم «شاه جيهان». ولكن ثمة كثرة من تلك التصاوير وإن كان لها حظها من التألف إلا أنها كانت توحي بأن فن التصوير كان إلى اضمحلال، فقد أخذ التأكيد على الأبهة يطغى، كما زادت النزعة التكلفية في رسم التفاصيل لدرجة تدعو أحياناً إلى الملل. ولعل هذه الفترة تمثل أكثر مراحل التصوير صقلاً ورقة وإن افتقدت إلى حد ما حيوية المرحلة الأولى وأصالتها.

وكان أكبر أبناء «شاه جهان» أيضاً من عشاق الفن ورعاته غير أن أخاه أورانجزيب (١٦٥٨ ـ ١٧٠٧) أزاحه عن العرش وسرّح المصورين من المراسم الملكية، وأبطل رعاية البلاط للفنون، الأمر الذي أسفر عن تدهور التصوير المغولي بشكل لا تخطئه العين. وعلى الرغم من أن القوة الدافعة للرعاية التي أولاها «شاه جهان» للفنون ظلت مستمرة في السنين الأولى لحكم «أورانجزيب» إلا أن البلاط مالبث أن فقد الاهتمام بالفنون. وبانحسار رعاية الامبراطور للفنون، بدأ المصورون المسرحون يعتمدون على حاجة راجاوات الهند إليهم في الإمارات المختلفة هنا وهناك. على أنه قد نشأ خلال حكم «أورانجزيب» أسلوب طغت عليه مشاهد المعارك الحربية والصور الشخصية الرسمية.

وبعد «أورانجزيب» غدا التصوير المغولي شيئاً فشيئاً يشبه بعضه بعضاً وتعوزه الأصالة وغارقاً في الأساليب الإصلاحية المتداولة، كما شاعت الزخارف المفرطة الثراء مع الغلو في التذهيب وتصوير الثياب الحديثة الطراز. وما إن غدت الحياة

الأرستقراطية تزخر بالإسراف في الترف والملذات والشهوات حتى كان لهذا أثره في التصوير، فإذا بنا نرى أن الصور المليئة بموضوعات الحريم وحفلات الرقص والموسيقى ومجالس الشراب وحياة العشاق هي الطابع الغالب على التصوير. كذلك تطورت موضوعات التصوير شيئاً فشيئاً فأخذت تستوحي الرومانسية والعاطفية التي تتميز بها الحياة الريفية. وكان ثمة بعث قصير المدى بين عامي ١٧١٣ و١٧٤٨ يذكّر بأمجاد الماضي التليد وإن ظل الإنتاج الفني في عمومه واهناً عقيماً، وهو مع ذلك من حيث التقنة سليم. وفي نهاية القرن الثامن عشر فقدت تقاليد المدرسة المغولية حيويتها بعد أن أخذ التدهور بتلابيبها طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فضلاً عما ألحقته عناصر التصوير الأوربية الدخيلة من قضاء على الفن المغولي قضاء لا رجعة إليه بالرغم من كل محاولات التجديد.

وسرعان ما تعرف الغرب على هذا الفن الإسلامي المغولي الهندي ووضعه في منزلته اللائقة به، وكان أول المعجبين به رمبرانت أحد عباقرة المصورين الهولنديين في القرن السابع عشر. ويقال إنه كانت في حوزته مجموعة أصلية من تلك المنمنمات المغولية استنسخها وزاد فضمّن بعض عناصرها لوحاته. وهذا مثل مافعل مصورو الامبراطور جهانجر حينما ضمنوا هوامش ألبومات الأمبراطور زخارف مقتبسة من صور الفنان الألماني ألبرخت دورر. ومستنسخات رامبرانت هي عجالات تخطيطية تنطوي على تقنة «الإشراق والإظلام» التي خلت منها الأصول المستنسخة، غير أن روح الفن المغولي قد أشربتها روح رمبرانت، وبذا أصبح من اليسير التعرف على الشخصيات الموجودة في الأصول المغولية في عجالات رمبرانت. وثمة عدد من الفنانين الإنجليز إلى جانب رامبرانت ولعوا هم الآخرون بهذا الفن، وعلى رأسهم المصور والناقد الفني الفذ سير جوشوا رينولدز.

التصوير التركي:

يتعذر استعراض تاريخ التصوير التركي على نحو متصل متلاحق قبل عهد سليمان العظيم لقلة ما حفظه الزمن من شواهد تنتمي إلى العهود السابقة. ومع أن التصاوير التركية في القرن ١٦ هي الإبنة الشرعية للتصاوير الفارسية إلا أنها سرعان ما أفادت مما حولها فجدّدت وطوّرت. فعلى حين نرى في اللوحات العثمانية جميع عناصر الفن الفارسي في مجال تصوير الطبيعة، إلا أن ثمة بينهما تبايناً جوهرياً، فموضوعات التصوير التركي وإن كانت مستوحاة من التصوير الفارسي إلا أن أسلوبها مختلف كما لحقت بعناصرها تحويرات عدة لاسيما مايمس الحذق والتمكن من الرسم الذي غدا أكثر وضوحاً وأقوى تعبيراً. أما الألوان وإن بقيت على حالها وضاءة إلا أنها مثقلة بتضادها الصارخ وفجاجتها أحياناً، وجاءت أزياء الشخوص تؤكد الطابع القومي التركي للوهلة الأولى بحيث أصبح من اليسير على المشاهد أن يتعرف على نكهتها العثمانية، وخاصة في مجال تصوير الأشخاص الذين يلفتون الانتباه بمظهرهم القوي وبنيانهم المتين على العكس من شخوص اللوحات الفارسية الذين يبدون ضعافاً تتخلع أجسادهم من فرط مرونتها. ولم ينقل المصور التركي ألوانه عن الفنان الفارسي بل ابتكر ألوانه الخاصة جانحاً إلى الألوان البسيطة الزاهية غير المركبة التي تتجلى خصوصيتها وتفردها حتى مع اختلاطها بلون آخر، على حين كان الفنان الفارسي يميل إلى الألوان المركبة. وإذا كانت المنمنمات التي تزدان بها دواوين الشعر التركية والفارسية قد ظلت خاضعة للتقاليد الإيرانية إلا أن الأمر اختلف مع تصوير السجلات التاريخية الذي سيطر على الفن العثماني في القرن السادس عشر كله حتى لم يتبق في تكويناتها الفنية من الأثر الفارسي إلا أقله وبخاصة في تصاوير المناظر الطبيعية، على حين تبدو الشخوص متأثرة تارة بالتيار الأوربي وتارة أخرى تبدو خشنة متميزة بالمناكب العريضة والبنية القوية، وتفوح منها وحشية الروح

العسكرية التركية المأثورة في مشاهد الحرب. وبينما يصور الفنان العثماني مواطنيه الأتراك في هذه الوضعية الجامدة الساكنة، كان يستوحي أشكال أعدائه من الأجانب ووضعياتهم من التصاوير الأوربية. على أن مظهر الشخوص التي تبدو وكأنها تماثيل جامدة في اللوحات التاريخية مايلبث أن يتغير في لوحات الأفراح الشعبية وخاصة في حفلات ختان أبناء السلطان، حيث نرى ممثلي مختلف الحرف وهم يستعرضون أمام السلطان، فقد صورهم الفنان التركي بأسلوب ينم عن قوة الملاحظة وروح المرح والدعابة فيبدون أقل جموداً من الأشراف والجند وكأنهم دمى صغيرة تؤدي الأدوار التي وزعت عليها بحماس. وتعد المرحلة الأولى من التصوير التركي التي استغرقت القرن السادس عشر كله أغنى مراحله خصوبة وغزارة، حيث نرى العناصر الفارسية والأوربية وقد اتحدت مع التقاليد التركية القومية في تكوينات فنية حولتها الروح الخلاقة للفنانين الأتراك إلى منجزات تركية بحتة. وهكذا يعود الفضل في خلق الطابع الخاص للتصوير العثماني خلال هذا القرن إلى العبقرية التصويرية التركية التي أضفت على لوحاتها الشاعرية جاذبية آسرة، وعلى لوحات الحياة اليومية روح الدعابة الراقية، وعلى لوحاتها التاريخية عظمة الملاحم وجلالها، وعلى لوحاتها الدينية المهابة وخفق المشاعر بكل ماهو قدسي.

وخلال المرحلة الثانية من التصوير التركي التي يطلق عليها اسم «عصر الزنبق» (١٦٢٣ ـ ١٧٧٣)، وهو الاسم الذي أطلق على عهد السلطان أحمد الثالث المشهور ببذخه وولعه بالحياة الرغدة المرحة، تابعت رسوم البورتريه تطورها في إطار التقاليد التي رسخت خلال المرحلة السابقة وتميزت بدقة محاكاتها للشخصيات التي نقلت عنها مع البساطة التامة في التفاصيل. كذلك بدأت تأثيرات طراز الروكوكو الأوربي تطفو فوق التأثير الفارسي حاجبة إياه مزاحمة له ثم محتلة مكانه، وأثبت الروكوكو التركي خصوبته فيما قدم من رسوم الأشخاص المفعمة بالرقة والخيال تبهر الناظر بمهارة تقنيتها وبانسياب خطوطها وتعرجاتها

البهلوانية، فهي أحياناً منتفخة ثقيلة وأحياناً أخرى تدق وترهف حتى تغدو مثل خيط العنكبوت. كذلك تمزج رسوم الركوكو العثمانية التصوير بالزخرفة مطلقة العنان لسيطرة المتخيَّل المجرد على الواقع المرئي، وقد يبلغ فقدان التوازن بين العنصرين أحياناً حداً تتغلب فيه الروح الزخرفية على الروح التصويرية، يصبح معه التكوين مجرد زخرف نرى فيه حيواناً أو وردة لا يمتان إلى الحيوان أو النبات بصلة. ومالبثت أشكال هذه الحيوانات والنباتات وليدة الأحلام أن انتقلت من لوحات المصور إلى بلاط القاشاني. وعلى هذا النحو كان تأثر الفن التركي بالفن الأوربي في النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى جوار تأثير مدرسة إصفهان الفارسية. وتسللت التأثيرات الأوربية في أول أمرها على استحياء لا تكاد تتعدى أسلوب تجسيم الجسد وإبراز طيات الثياب وثخن الأقمشة أو في المحاولات المترددة للإيحاء بالعمق عند تصوير الطبيعة أو العمارة. ولا يلبث المصورون الأتراك أن يضاعفوا من محاولاتهم تقليد مصوري الغرب قرب نهاية القرن حتى رأينا خلفيات اللوحات التركية تتجاوز الشكل المسطح الثنائي الأبعاد تماماً وباتت ذات أعماق، وغدت الطبيعة محاكاة للمنظر الطبيعي الأوربي، ولم يتبق من الأسلوب التركي في اللوحات المصورة سوى شخوصها الذين بدوا وكأنهم دمى ملونة تُركت معزولة في فراغ ذي عمق، أعني ثلاثي الأبعاد. وأشهر المخطوطات المصورة في عصر الزنبق هي «سورنامة وهبي» ١٧١١ المحفوظة بمتحف طوب قابو باستنبول.

وقد بلغ فن تصوير الشخوص ذروته في تركيا حين استطاع الفنان تسخير فرشاته بنجاح في تسجيل التعبير المرتسم على وجوه شخوصه، وهو مايتجلى في صور السلاطين البليغة التعبير التي أنجزها المصور حيدر الريس المعروف باسم نيجاري. وحتى نهايات القرن السادس عشر كانت البورتريهات تمثل صوراً شخصية متخيلة لأمراء العثمانيين بما في ذلك مؤسس أسرتهم عثمان الأول. وأول صورة شخصية صورها فنان عن الطبيعة لتمثل شخصية بذاتها هي صورة محمد

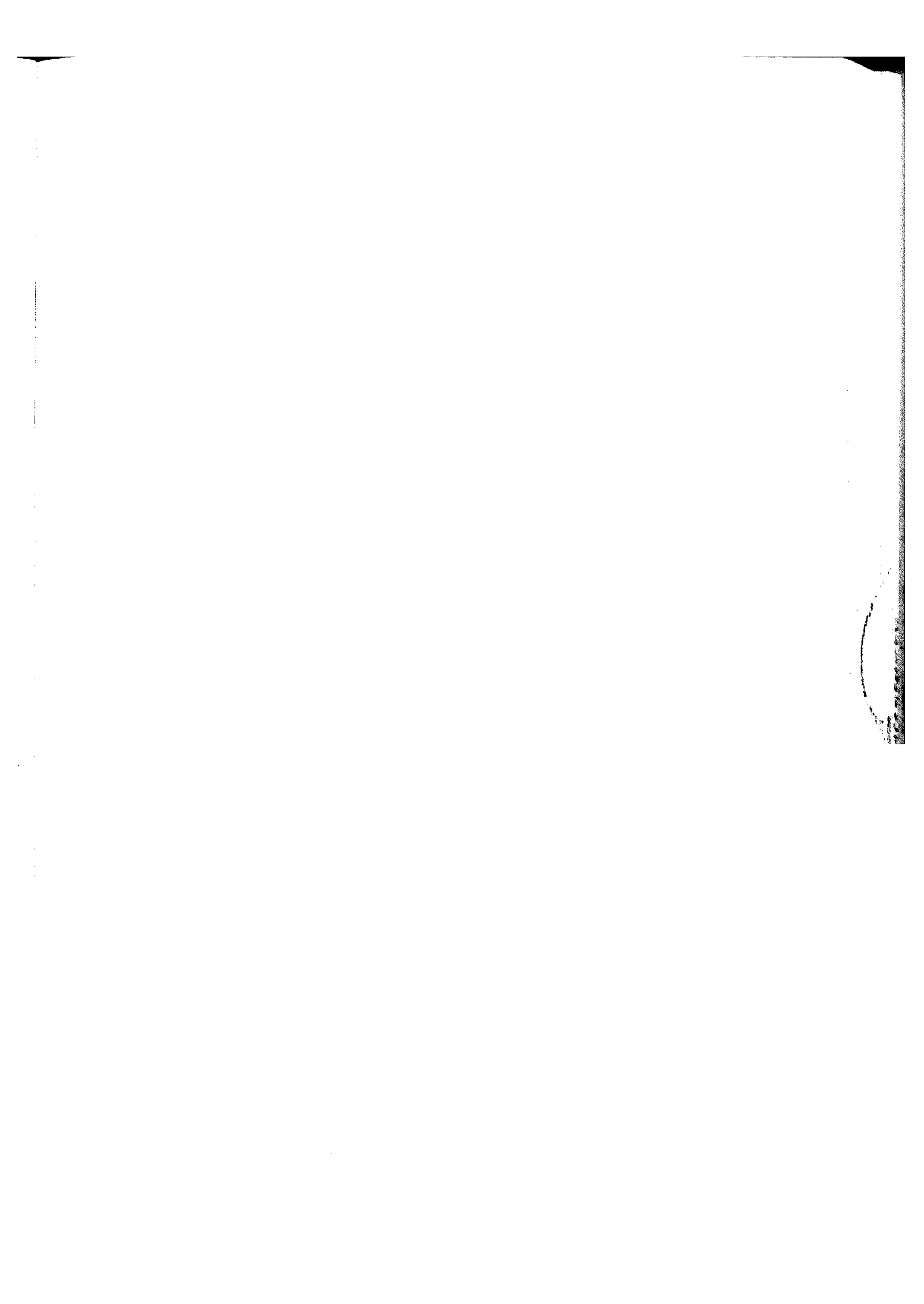
الفاتح بريشة الفنان سنان بك الذي درس على كبار الفنانين في مدينة البندقية، وهو مايتجلى في إضفاء الإحساس بالتجسيم بفعل الظلال التي يُسقطها على ملامح وجوهه وعلى طيات الثياب ومكاسرها. وقد تميز البورتريه التركي بطابع خاص هو تخطى جزئيات الأشياء المرئية وعدم وقوفه عند المحسوسات المرئية، فلقد حرص دوماً على ألا ينحصر في شتى جزئيات المرئي فيتجاوزه إلى ما وراء الشخص موضوع الصورة سواء في ثيابه أو فيما يؤثر عنه في أسلوب حياته، كتصويره تارة وهو يهم بشم وردة وتارة أخرى وهو يشد قوسه ليطلق سهمه.

مناخ مدينة أبوظبي



الدكتور نعمان عابد شحاده

القيت بتاريخ : ١٩٩١/٥/٥م



سيرة ذاتية

الأستاذ الدكتور نعمان شحادة

- أردني الجنسية، من مواليد ١٩٤٥.

- أستاذ المناخ ورئيس الجغرافيا في جامعة الإمارات العربية المتحدة.

- أستاذ المناخ في قسم الجغرافيا بالجامعة الأردنية.

- من مؤلفاته:

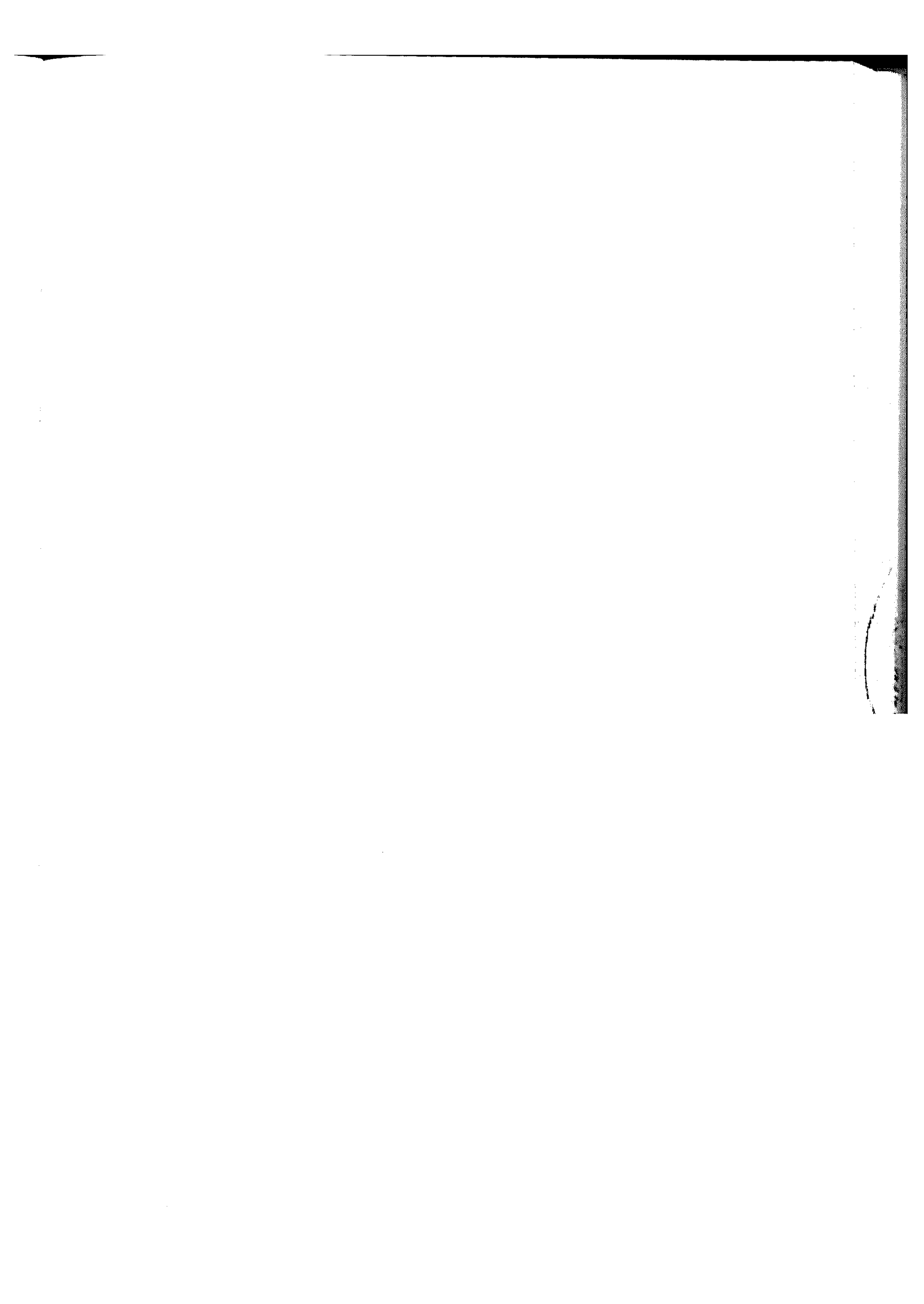
١ـ علم المناخ ١٩٨٣.

٢ـ المناخ العملي ١٩٨٣.

٣ـ الجغرافيا المناخية ١٩٨٨.

٤ـ مناخ الأردن تحت الطبع.

- له عدّة أبحاث في المناخ والبيئة.



مناخ مدينة أبوظبي

الدكتور نعمان عابد شحادة

أيها الإخوة،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أحييكم أيها السادة، وأشكركم على تفضلكم بحضور هذه المحاضرة. وأود أن أتقدم بالشكر للمجمع الثقافي بمدينة أبوظبي الذي أتاح لي فرصة الالتقاء بكم وإلقاء هذه المحاضرة. خاصة وإنها المرة الثانية التي أُدعى بها خلال السنتين الماضيتين. فقد كانت محاضرة السنة الماضية عن تقلبات المناخ العالمي وأثر التلوث الجوي على تلك التقلبات. أما هذه المحاضرة فمخصصة لمناخ مدينة أبوظبي بالتحديد. وأود أن أوضح منذ البداية أن هذه المحاضرة لا تشكل بحد ذاتها معالجة شاملة لمناخ أبوظبي. إذ إن ذلك يحتاج إلى سلسلة من المحاضرات لا محاضرة واحدة. كما أن معظم تفصيلاته لا تهم إلا المختصين. وسأكتفي في هذه المحاضرة بإعطاء العموميات وبمعالجة العوامل الرئيسية المؤثرة على مناخ المدينة. وتوضيح بعض الظواهر الجوية التي تهم الشخص العادي من سكان أبوظبي كشدة الإشعاع. وارتفاع درجة الحرارة في الصيف، والاضطرابات والعواصف الرملية وغيرها. ولتبسيط الموضوع وتسهيل عرضه وفهمه، فسأتحدث عن الخصائص المميزة لكل من فصلي الشتاء والربيع معاً. ثم الصيف والخريف.

١ـ الشتاء والربيع:

أهم الخصائص المناخية المميزة لفصلي الشتاء والربيع هي تعرض المدينة لعدد من الاضطرابات الجوية القوية، التي تكون مصحوبة أحياناً ببعض الظواهر الجوية العنيفة، مثل الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة وغيرها. إلا أن حدوث تلك

الاضطرابات هو في الواقع أمر نادر نسبياً. فالقاعدة العامة المميزة لمناخ المدينة هي رتابة الطقس وضعف الظواهر الجوية. ولعل السبب في ذلك هو الموقع المداري لمدينة أبوظبي. فهي تقع على خط عرض ٢٦ ٢٤ شمالاً. أي أنها تقع ضمن نطاق الضغط المداري المرتفع الذي يمتد خلال فصل الشتاء، عبر الصحراء الكبرى والجزيرة العربية ليتصل بمركز الضغط السيبيري المرتفع الذي يجثم فوق وسط آسيا. ومناطق الضغط المرتفع هي في العادة مناطق ذات رياح هادئة وطقس حسن. وذلك بخلاف المناطق المعتدلة والباردة التي يمتاز مناخها بكثرة التقلب والتغير، خاصة خلال فصل الشتاء الذي يعد الطقس فيه محصلة عامة لتصارع الكتل الهوائية القطبية شديدة البرودة. والكتل المدارية الدافئة، وتعاقب الجبهات الباردة والدافئة. أما المناطق المدارية فمناطق يسود بها غالباً نوع واحد من الكتل الهوائية ولا تصل إليها كتل غريبة إلا نادراً. وبعد أن تكون قد فقدت كثيراً من خصائصها الأصلية(١).

تعزى معظم الاضطرابات الجوية الت تتعرض لها مدينة أبوظبي خلال فصلي الشتاء والربيع إلى تأثر المدينة بأحواض الضغط المنخفض (Troughs) التي تتكون في شمالي منطقة الخليج العربي ووسط أو شمال الجزيرة العربية ثم تتحرك نحو الجنوب الشرقي بسرعة تتراوح بين ٢٠ ـ ٢٥ عقدة. وقد لوحظ أن سرعة تلك الأحواض تقل بعد أن تعبر خط عرض الدوحة جنوباً. إلا أنها تقطع عادة الخليج العربي كله من أقص الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي في مدة لا تتجاوز ٢٤ ـ ٣٦ ساعة فقط(٢) ولا تزيد مدة تأثيرها على يوم واحد أو يومين إلا نادراً. ويتبين من تحليل الظروف الجوية المرافقة لتكون هذه الأحواض ان أكثر الظروف ملاءمة لتكونها هي:

١ـ ازدياد قوة مركز الضغط الجوي المرتفع المتمركز فوق شمالي سورية والعراق وهضبة الأناضول.

٢ـ تكوّن ضغط جوي منخفض فوق الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية خاصة فوق الربع الخالي.

٣ـ ازدياد شدّة انحدار الضغط الجوي بين المركزين السابقين(٣).

٤ـ ان يظهر ضمن طبقات الجو الوسطى لجنوب شبه الجزيرة العربية تيار هوائي نفاث (Jet stream) يعمل على اندماج كتلة من الهواء المداري الحار الرطب من بحر العرب أو المحيط الهندي(٤).

٥ـ اندفاع كتلة من الهواء البارد من مركز الضغط المرتفع على شكل جبهة باردة (Cold front).

ويمكن إجمالي أهم الظواهر الجوية التي تتعرض لها مدينة أبوظبي عند وقوعها تحت تأثير حوض منخفض جوي بما يلي:

١ـ هبوب رياح شمالية شرقية (NE) في مقدمة المنخفض تكون محملة بالغبار خاصة عندما تتجاوز سرعتها ٢٠ عقدة.

٢ـ خفض درجة الحرارة وإثارة الغبار، خاصة إذا كان الحوض ضعيفاً كما هو الحال في معظم أحواض الشتاء. أما إذا كان الحوض قوياً كبعض الأحواض التي تحدث في أواخر الشتاء وأوائل الربيع فإنها تؤدي إلى هبوب رياح قوية وهطول أمطار سيلية غزيرة. ومن أشهر الأمثلة على ذلك الحوض القوي الذي أثر على المدينة يوم التاسع عشر من مايو ١٩٨٩ وأدى إلى هبوب رياح قوية وسقوط أمطار غزيرة تجاوزت الـ ١٥٩ ملم.

٣ـ هبوب رياح شمالية غربية في مؤخرة الحوض، حيث يصحو الجو إلا من بعض سحب ركامية عالية (Alto cumuins clouds).

يتكون خلال فصل الربيع مركز كبير للضغط المنخفض فوق الربع الخالي ويتعمق ذلك المركز مع تقدم الصيف وارتفاع درجة الحرارة. وعندما يشتد تأثير ذلك المنخفض، فإنه يجلب إلى المنطقة رياحاً جنوبية إلى جنوبية شرقية حارة رطبة، مما يؤدي إلى ارتفاع شديد في درجتي الحرارة والرطوبة.

٢ـ الصيف والخريف:

يشتد خلال فصل الصيف تأثير مركز الضغط المنخفض المتمركز فوق الربع الخالي. وفي الحالات التي يتوسع فيها ذلك المركز ويتعمق إلى الحد الذي يتحد فيه مع نطاق الضغط المنخفض الذي يمتد خلال فصل الصيف فوق منطقة الخليج العربي. فإنه يجذب إلى المنطقة كتلاً مدارية بحرية شديدة الحرارة والرطوبة تتسبب في حدوث بعض من أشد موجات الحر والرطوبة التي تتعرض لها مدينة أبوظبي.

عناصر المناخ في مدينة أبوظبي

تشمل عناصر المناخ الرئيسية في مدينة أبوظبي كلاً من:

١ـ الإشعاع الشمسي.

٢ـ درجة الحرارة.

٣ـ الرطوبة النسبية.

٤ـ الرياح.

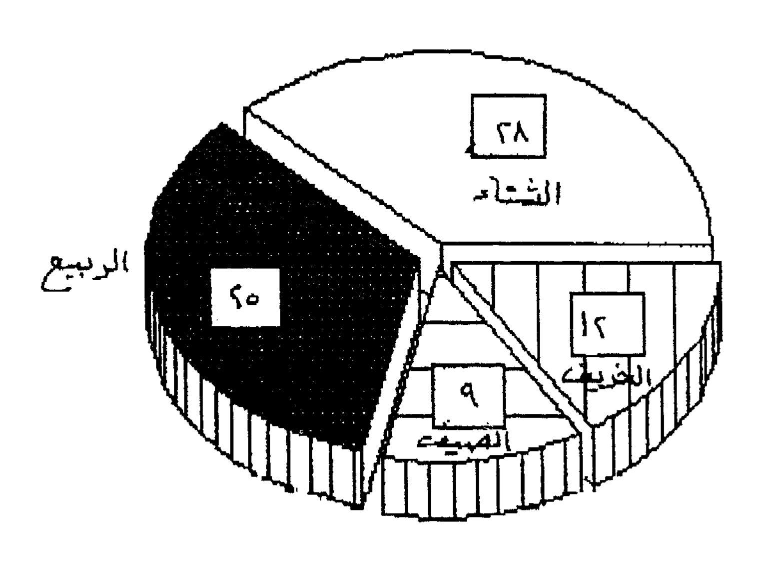
٥ـ الأمطار.

١ـ الإشعاع الشمسي:

يقدر المعدل اليومي للإشعاع الشمسي في مدينة أبوظبي بأكثر من ٥٥٨ فيغاواط في اليوم، أو ما يعادل ٤٦٨ سعراً. وهو معدل عال جداً. ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر بأنه يكفي لتبخير ثمانية ميلميترات من الماء في اليوم أو ٢٨٨٥ ملم في السنة.

وترجع شدة الإشعاع إلى عاملين رئيسيين هما:

١ـ زاوية سقوط الأشعة: فنظراً للموقع المداري للمدينة فإن زاوية سقوط الأشعة تظل عمودية أو قريبة من العمودية في معظم أيام السنة. ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر بأن زاوية سقوط الأشعة تصل في ٢٢ يونيو إلى ٨٩ْ وهي لا تقل عن ٤٣ْ في أي يوم من السنة. وكما هو معروف فإن الأشعة العمودية أقوى من الأشعة المائلة وأشد تأثيراً. لأنها تتركز على مساحة أصغر. كما أن مسارها في الغلاف الجوي أقصر من مسار الأشعة المائلة مما يجعلها أقل تأثراً بالغلاف الجوي.

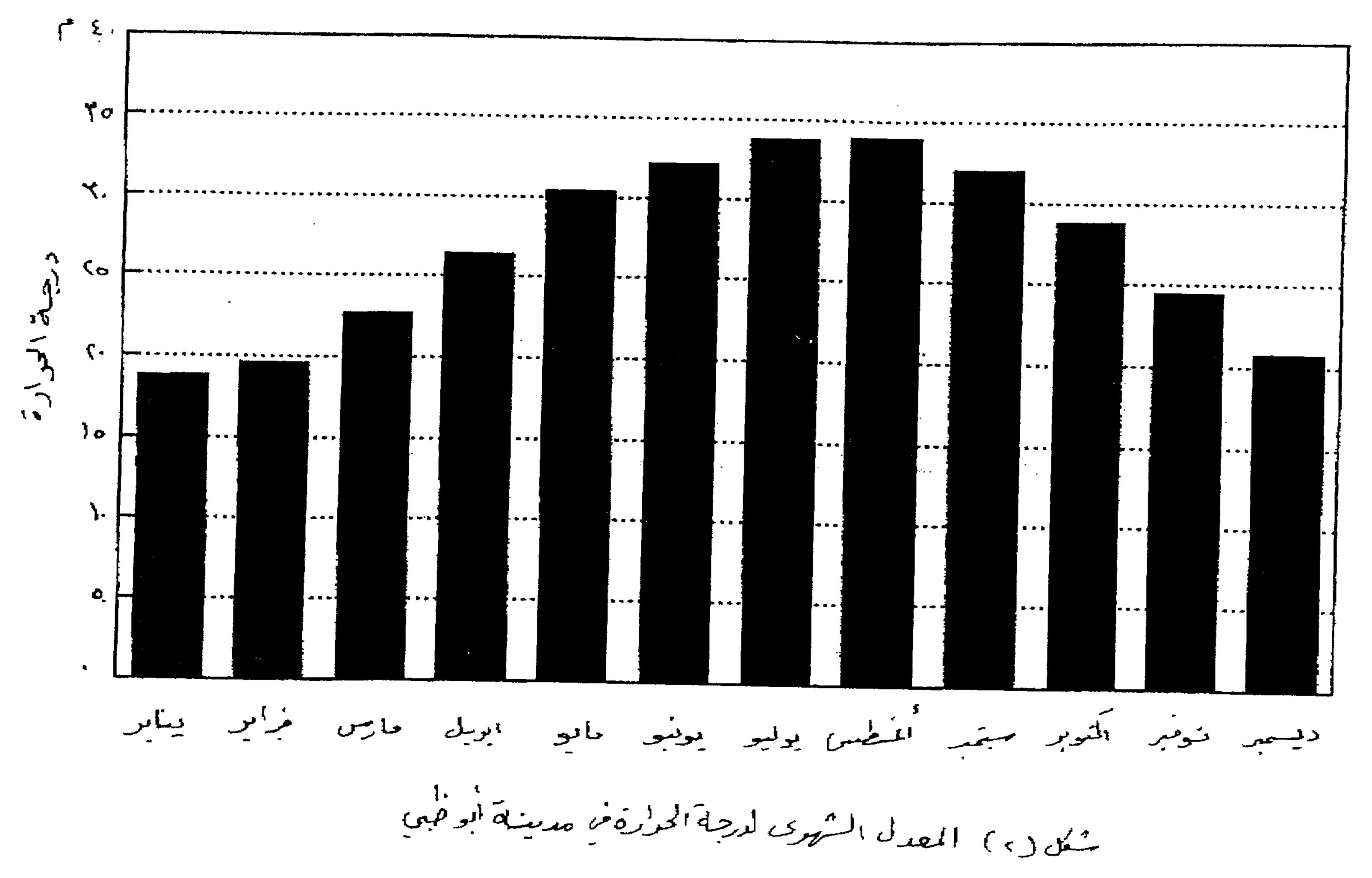


شكل (١) [illegible]

٢ـ قلة نسبة الغيوم وهذا يجعل الإشعاع الشمسي شديداً وقوياً فالسماء في أبوظبي سماء صافية معظم أيام السنة، فنسبة تغطية السماء بالغيوم لا تزيد في المعدل على ١٩٪ وهي نسبة منخفضة جداً مقارنة بالمعدل العالمي، الذي يقدر بـ ٥٤٪. والأكثر من هذا أن نسبة التغيم تنخفض في بعض الأشهر مثل أكتوبر إلى أقل من ٨٪ (شكل١). يضاف إلى هذا، أن معظم السحب التي تظهر في سماء أبوظبي هي من النوع العالي القليل السمك. مما يجعل تأثيرها على عكس الإشعاع الشمسي تأثيراً محدوداً.

٢ـ درجة الحرارة:

يقدر المعدل السنوي لدرجة الحرارة في مدينة أبوظبي بـ ٢٧ْ وهو مساو لمعدل الحرارة في كل من دبي والعين. ونظراً للتأثيرات البحرية للخليج العربي على المسار الفصلي لدرجة الحرارة. فإن أحر شهور السنة هو أغسطس وليس يوليو (شكل٢). ويقدر المعدل السنوي لدرجة الحرارة العظمى بـ ٣٣ْ والحرارة الصغرى بـ ٢٢ْ. وقد بلغت أعلى درجة حرارة سجلت في مدينة أبوظبي ٤٨ْ. وهي أدنى من الحد الأقصى الذي وضعته منظمة الصحة العالمية (WHO). والذي يوحى إذا بلغته درجة الحرارة بالتوقف عن العمل. كما أنه أقل من الحد الذي تصل إليه درجة الحرارة في المناطق الداخلية من الدولة كمدينة العين. ومما لا شك فيه أن السبب في ذلك يرجع إلى التأثير الملطف لمياه الخليج. أما الحد الأدنى من درجة الحرارة في أبوظبي فأعلى منه في مدينة العين حيث تنخفض درجة الحرارة الصغرى أحياناً إلى ٢ْ م فقط. أما في أبوظبي فإن أدنى درجة حرارة تم تسجيلها خلال العشرين سنة الماضية قد بلغت ٩ و٧م نستخلص مما سبق أن الشتاء في أبوظبي فصل لطيف معتدل الحرارة ومن أفضل فصول الشتاء في أي مكان آخر. ويعد هذا في حد ذاته مورداً سياحياً هاماً خاصة لسكان المناطق الباردة الذين يعشقون الشتاء الدافىء والشمس الساطعة.



شكل (د) المعدل الشهري لدرجة الحرارة في مدينة أبوظبي

٣ـ الرطوبة النسبية:

يقدر المعدل السنوي للرطوبة النسبية في مدينة أبوظبي بـ ٦٣٪، وهو معدل عال مقارنة بنطاق الصحارى المدارية التي تعد أبوظبي جزءاً منها، بل إنه أعلى بكثير من معدل الرطوبة النسبية في مدينة العين التي لا تبعد عن مدينة أبوظبي أكثر من ١٣٠ كيلومتراً نحو الداخل، وأهم العوامل المحلية التي تساعد على ارتفاع الرطوبة النسبية في مدينة أبوظبي أكثر من غيرها هي:

١ـ موقعها الساحلي على الشاطىء الجنوبي الغربي للخليج العربي وكونها جزيرة صغيرة تحيط بها المياه من كل الجوانب.

٢ـ اتفاق اتجاه نسيم البحر مع اتجاه الرياح الشمالية الغربية الساحلية في منطقة الخليج العربي.

٣ـ هدوء الرياح أو ضعفها في معظم أيام السنة، مما يساعد على تجمع بخار الماء في الجو وارتفاع الرطوبة النسبية.

٤ـ تعرض منطقة الخليج العربي لكتل مدارية بحرية حارة رطبة قادمة من بحر العرب والمحيط الهندي.

ويعد فصل الشتاء أكثر فصول السنة رطوبة، أما أقلها فالخريف، وعلى خلاف ما يعتقده معظم الناس، فإن الرطوبة النسبية في الصيف أقل منها في الخريف بكثير، ولكن إحساس الناس برطوبة الشتاء يكون مضاعفاً لاقترانها بارتفاع درجة الحرارة، وبهذا نشعر أن الخريف أكثر رطوبة من الشتاء، وأن الرطوبة تصل أقصى حد لها وقت الظهر، علماً بأن المسار اليومي لدرجتي الحرارة والرطوبة متعاكس تماماً.

والواقع ان الرطوبة العظمى تحصل في ساعات الصباح الأولى، خاصة قبل أن تشرق الشمس، وأن الرطوبة الصغرى تحصل بعد الظهر. وبالرغم من أن الرطوبة العظمى تصل في أبوظبي إلى ١٠٠٪ في كثير من الليالي، إلا أن المعدل السنوي للرطوبة الصغرى يقدر بـ ٣٨٪، وهو معدل مناسب تماماً لراحة الإنسان.

٤ـ الرياح:

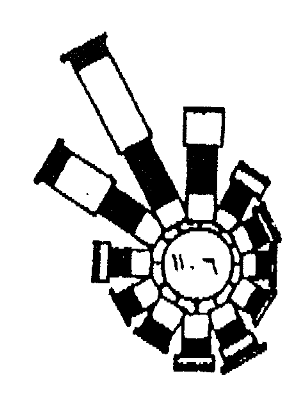
من الحقائق العلمية المعروفة في علم المناخ أن المناطق المدارية مناطق ذات رياح هادئة أو خفيفة السرعة، ويرجع السبب في ذلك إلى كونها مناطق ذات ضغط جوي مرتفع، ولهذا نجد أن نسبة الهدوء في الرياح في أبوظبي تصل إلى ١١.٦٪. كما تصل نسبة الرياح التي تقل سرعة الرياح فيها عن ١٠ عقد إلى ٧٣٪. ولاشك أن هذا يساعد على ارتفاع الرطوبة النسبية بشكل كبير، وعلى زيادة أهمية نسيم البر والبحر.

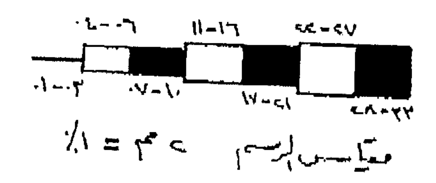
والرياح السائدة في مدينة أبوظبي هي رياح الشمال التي تهب عادة من الشمال الغربي إلى الغرب شمال غربي، حيث تبلغ نسبة هبوبها ٤٣٪ (شكل ٣) وهي في العادة رياح جافة ومثيرة للعواصف الرملية خاصة عندما تكون قوية.

كما تعمل هذه الرياح على حمل التلوث الجوي والبحري نحو السواحل الغربية من منطقة الخليج العربي.

ومن الرياح الأخرى التي تتعرض لها مدينة أبوظبي أحياناً الرياح الجنوبية الشرقية التي تهب بشكل خاص عندما يتعمق مركز الضغط المنخفض فوق الربع الخالي.

وعندما تهب هذه الرياح فإن تأثير نسيم البحر يضعف كثيراً ويتأخر عن موعده.

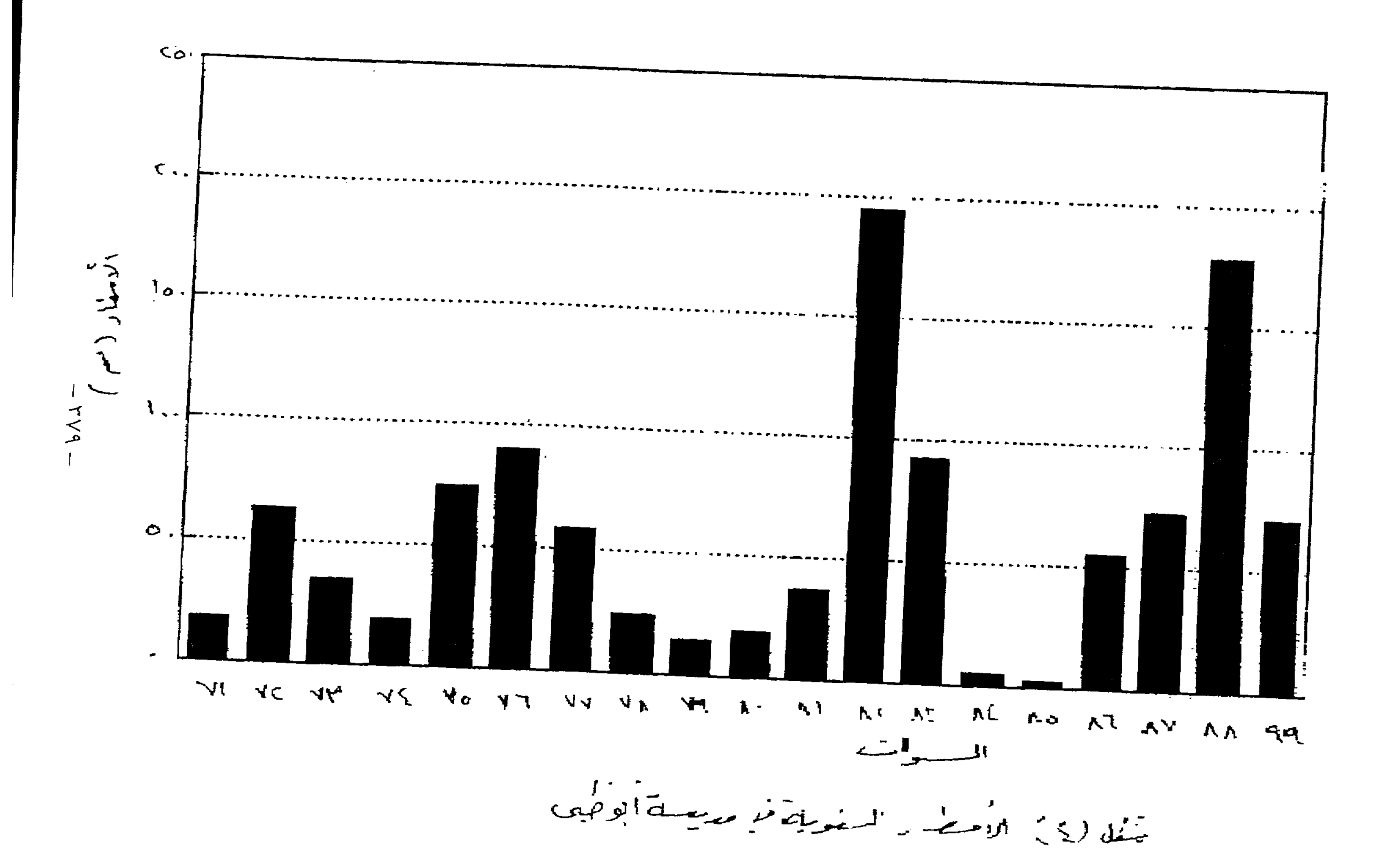




شكل (٢) وردة الرياح السنوية في مدينة أبوظبي

٥ـ الأمطار:

أبوظبي مدينة صحراوية قليلة الأمطار. فالمعدل السنوي للأمطار يقل عن ٦٠ ملم. يسقط معظمها خلال أيام محدودة. وتتباين كمية الأمطار التي تسقط سنوياً من سنة لأخرى تبايناً كبيراً. فبعض السنوات الغزيرة الأمطار كسنتي ١٩٨٢ و١٩٨٨ قد يسقط بهما أكثر من ضعفي المعدل السنوي للأمطار. إلا أن الأمطار في بعض السنوات الجافة تقل عن ثلاثة ميلميترات فقط (شكل ٤) ويرجع التباين الشديد للأمطار من سنة لأخرى إلى اختلاف عدد أحواض الضغط المنخفض التي تتأثر بها المدينة من سنة لأخرى، وتسقط معظم الأمطار خلال شهري فبراير ومارس. اللذين يسقط فيهما وحدهما أكثر من ٦٢٪ من الأمطار السنوية. وتسقط في الصيف والخريف بعض الأمطار الخفيفة خاصة عندما تصل إلى البلاد كتلة هوائية شديدة الرطوبة. ويتوغل في طبقات الجو الوسطى تيار هوائي نفاث، يعمل على تطور بعض حالات عدم الاستقرار الجوي.



شكل (٤) الأمطار السنوية في مدينة أبوظبي

الحواشي

١ـ الكتل الهوائية عبارة عن كتل ضخمة من هواء ذي خصائص مناخية متجانسة خاصة في درجة الحرارة والرطوبة. وهي تنشأ عادة في مناطق محددة ذات خصائص مناخية متشابهة. وأهم مناطق نشأتها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية هي شمالي سيبيرية وشمالي كندا والمناطق المدارية ذات الضغط المرتفع في المحيطين الأطلسي والهادي وشمالي أفريقيا وغيرها.

ولا تبقى الكتل الهوائية ثابتة في مناطق نشأتها. بل إنها تتحرك خارجة نتيجة أي تغير في توزيع الضغط الجوي. وهي تتحرك عادة باتجاه مناطق الضغط المنخفض. وفي أثناء حركتها، فإنها تحمل إلى المناطق التي تمر بها الخصائص المناخية للمناطق التي نشأت بها. فإذا كانت قادمة من مناطق بحرية دافئة. فإنها تؤدي إلى رفع درجتي الحرارة والرطوبة. أما إذا كانت قادمة من مناطق قطبية باردة، فإنها تؤدي إلى خفض درجة الحرارة. ولمزيد من التفصيلات أنظر.

نعمان شحادة. الجغرافية المناخية، دار العلم، دبي ١٩٨٨ من ٣٠٩ ـ ٣١٤.

٢ـ تختلف أحواض الضغط المنخفض التي تتعرض لها مدينة أبوظبي خاصة خلال فصلي الشتاء والربيع عن المنخفضات الجوية التي تتعرض لها منطقة شرق البحر المتوسط، سواء من حيث خصائصها أو أسباب نشأتها ومساراتها وغير ذلك. وتظهر أحواض الضغط المنخفض عادة في طبقات الجو المتوسطة أو العليا نتيجة التقاء تيارات هوائية باردة بأخرى دافئة.

٣ـ المقصود بتحدر الضغط الجوي هو معدل تناقص الضغط الجوي بين مركزي الضغط المرتفع والمنخفض. ويظهر ذلك في خرائط الطقس على شكل تقارب في خطوط الضغط الجوي.

٤ـ التيارات الهوائية النفاثة عبارة عن نطاقات طولية من الرياح العليا التي تصل سرعة الرياح بها أحياناً إلى أكثر من ٥٠٠ كيلومتر في الساعة. وهي تظهر بشكل خاص على خرائط الطقس العليا. خاصة خرائط الـ ٥٠٠ ملليبار. ويلاحظ أن تلك التيارات تغير مواقعها والمستويات التي تظهر بها من وقت لآخر.

وكلما انخفض منسوب التيار النفاث كلما كان تأثيره على الطقس ملحوظاً.

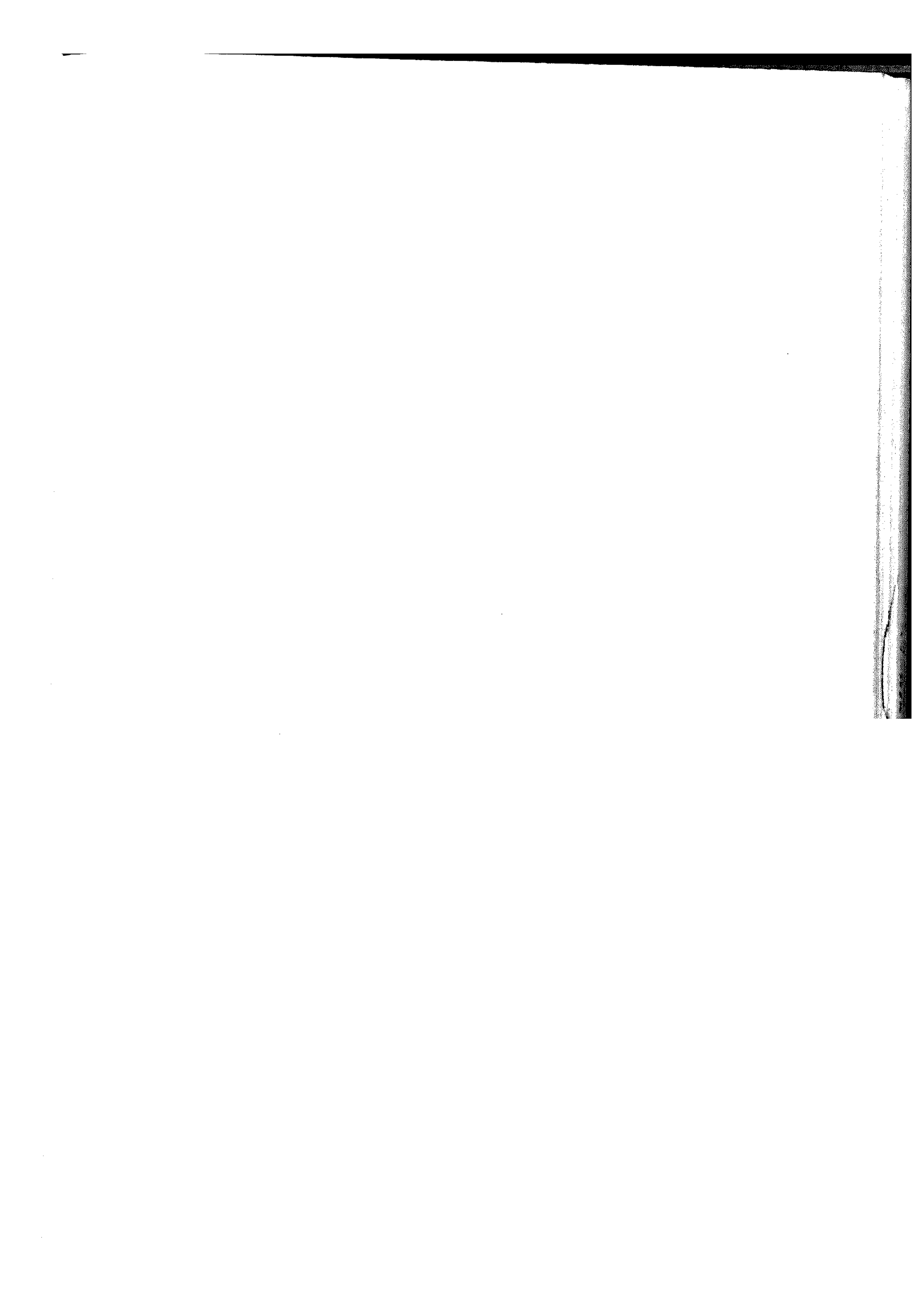
وتؤثر تلك التيارات على نشأة الاضطرابات الجوية وعمقها وحركتها.

ومما يجدر ذكره أن الطقس في مدينة أبوظبي يتأثر بشكل خاص بالتيار شبه المداري الذي يظهر خلال فصل الشتاء في المناطق الواقعة بين درجتي عرض ٢٥ - ٣٥ شمالاً ولمزيد من التفصيلات أنظر:

نعمان شحادة: فصلية الأمطار في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وآسيا العربية.

النشرة الدورية لقسم الجغرافيا بجامعة الكويت. العدد ٨٩، ١٩٨٨.

نعمان شحادة: مناخ الأردن، عمان، دار البشير ١٩٩١ ص ٣٩ ـ ٤٠.

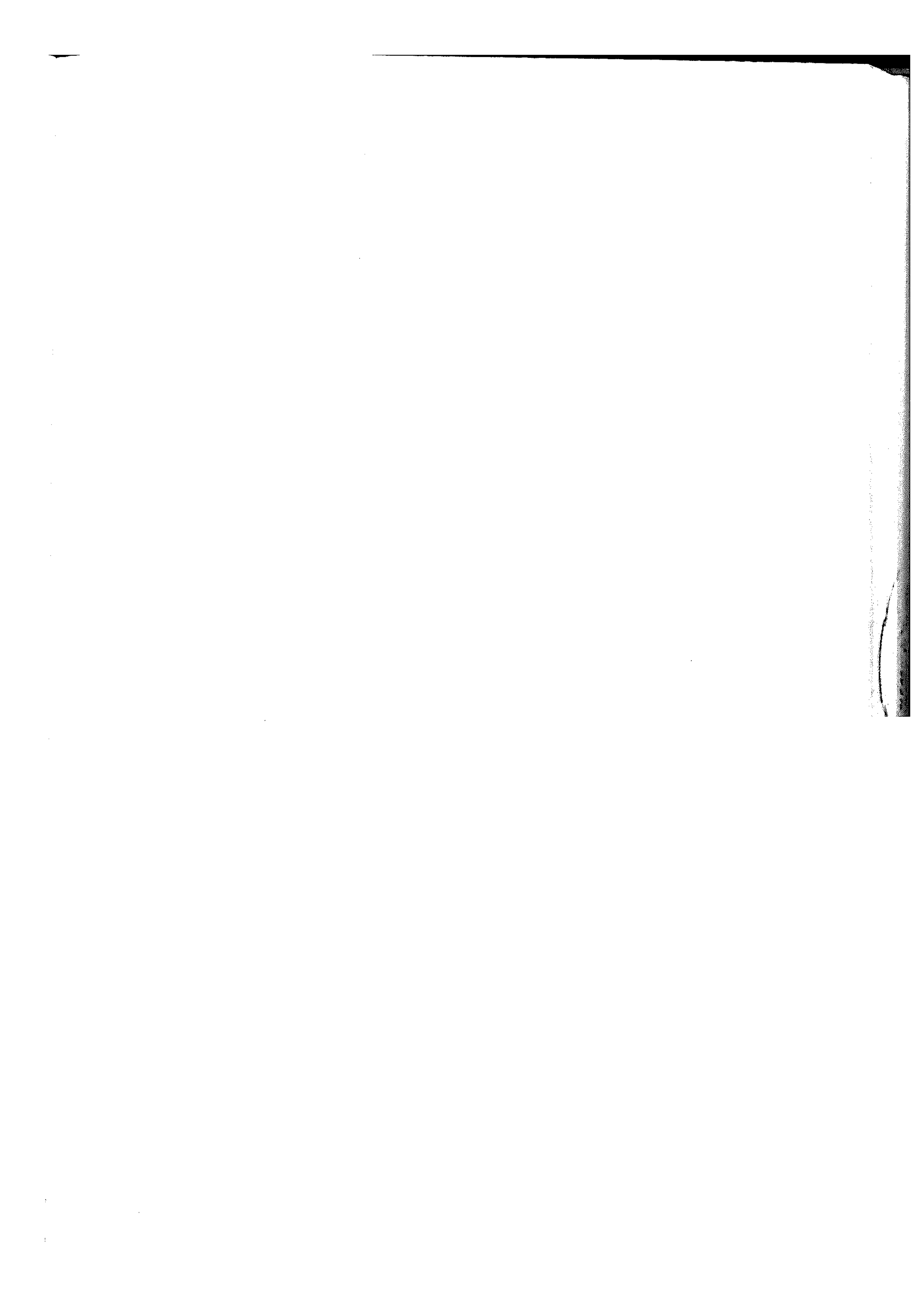


ترجمة الأدب العربي
إلى اللغة الانجليزية



ليزلي مكلوجين

القيت بتاريخ : ١٩٩٠/١٢/٩م



سيرة ذاتية

المستشرق ليزلي ماكلوجين

- دكتوراة بالترجمة من بريطانيا.

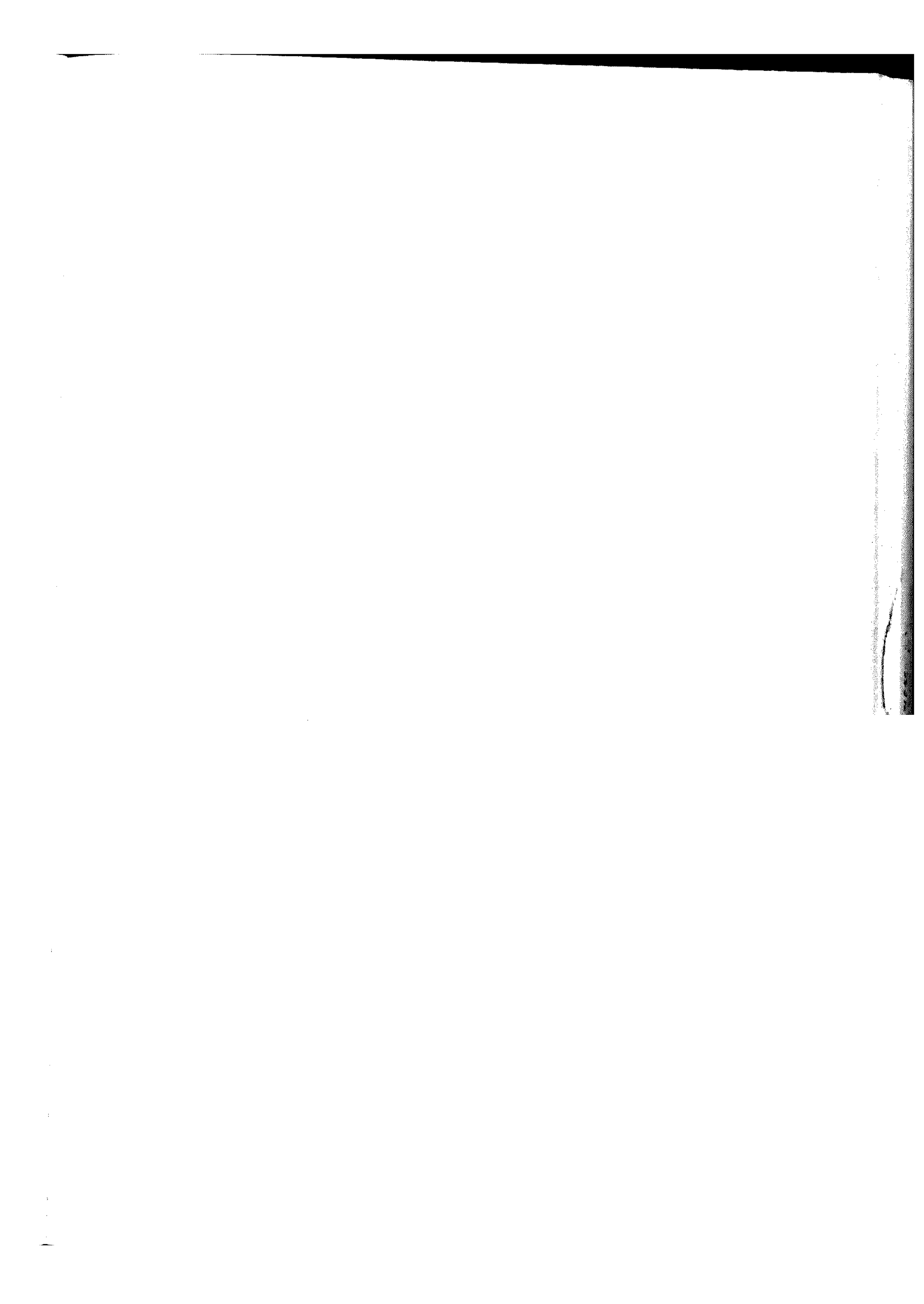
- رئيس مجلس إدارة شركات خدمة اللغة العربية التي تهتم بالترجمة من العربية إلى الانجليزية وبالعكس.

- له عدة ترجمات منها:

- رمال العرب لولفرير تيجر.

- كما قام بالترجمة على أعلى المستويات لصاحبة الجلالة الملكة اليزابيث، ورئيس الوزراء البريطاني ووزير الخارجية.

- يعكف حاليًا على كتابة سيرة الملك عبدالعزيز بن سعود.



ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الإنجليزية

ليزلي ماكلوجلين

أيها الحفل الكريم،

من دواعي سروري، أن أكون معكم هذا المساء، تلبية للدعوة اللطيفة التي تفضل الأستاذ أحمد خليفة السويدي، ومندوب المجلس الثقافي البريطاني، الدكتور بيتر كلارك بتوجيهها إليّ لبحث بعض نواحي موضوع ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الإنجليزية.

سيداتي وسادتي،

إن هذا الموضوع ليس له آخره، بسبب كثرة النواحي التي تحتاج كل واحدة منها إلى دراسة علمية كاملة، موضوعة حسب أعلى مقاييس النقد الأدبي. فمثلاً هل موضوع المحاضرة، ترجمة الشعر العربي أو على الأدق ترجمة الشعر المقفى أو الشعر غير المنظوم، أو ترجمة كتب البلاغة أو ترجمة الآداب الشعبية من أغانٍ وأشعار، أو ترجمة القصص القصيرة أو الروايات المعاصرة أو ترجمة مقامات الحريري أو الهمذاني!. وهل يجوز ضم العلوم الدينية إلى موضوعنا هذا نظراً لكون القرآن الكريم أوّل نص عربي متكامل تم نقله إلينا عبر الأجيال، وكون نص المصحف مرجعاً ومقياساً ونموذجاً من نواحي الصرف والنحو والكتابة الصحيحة باللغة العربية؟

أرى لزاماً عليّ أن أحدّد أولاً، أوجه الموضوع التي سأرتكز عليها ثم أن أبيّن العوامل والدوافع التي تحملني على اتخاذ المواقف التي سأتخذها في هذه المحاضرة.

وفيما يتعلق بأوجه الموضوع المختارة، عليّ أن أقول في باديء الأمر. «ما في عيب إلا العيب». عيب أن أقول أمام جماعة من الأدباء والمثقفين العرب أنني سوف لن أتكلم إلا قليلاً عن الشعر العربي. أقول هذا ليس لأني لا أقدّر الشعر العربي. بل بالعكس، اتلذذ بالكثير من الشعر العربي إن كان لعنتر أو للأستاذ نزار قباني أو لأهل الوبر. اتلذذ به بسبب اختلاطي بالمجتمع العربي خلال ثلاثين سنة. وأيضاً بسبب عامل الوراثة، إذ إن أجدادي من إيرلندا نقلوا إليّ حب الشعر والحس الفطري بجمال الشعر. غير أن فكرة ترجمة الشعر العربي إلى اللغة الإنجليزية، أعتبرها مخيفة ومخيفة جداً لسببين رئيسيين، أولهما: أنه يوجد فارق شاسع بين طبيعة الشعر العربي وطبيعة الشعر الإنجليزي، ألا وهو أن عنصر الطرب في الشعر العربي يتطلب أن يسمع، لا أن يقرأ في هدوء المكتب. وإن أنس لن أنسى أثر صوتي الشاعرين العربيين المعاصرين الكبيرين أدونيس ونزار قباني عندما أسمعانا أشعارهما في مناسبتين مختلفتين في الفترة الأخيرة في لندن (كما تعلمون أصبحت لندن سوق عكاظ بكل معنى العبارة) وعنصر الطرب هذا أجده شيئاً معجزاً.

لم أجد حتى الآن ترْجمة إنجليزية للشعر العربي لها عُشر الأثر الذي يتركه الشعر العربي فيَّ. والسبب الثاني لخوفي من ترجمة الشعر العربي إلى اللغة الإنجليزية لا يمكن فصله عن مسألة الطرب. أي أنني لا أستطيع أن أتصور أنه يمكن لمترجم أجنبي أن يجمع بين كل الصفات المطلوبة، لجعل الترجمة الشعرية ذات التأثير نفسه على المستمع أو القارئ الأجنبي مثل التأثير على الناطق بالضاد. فمن المطلوب من مترجم الشعر العربي أن يفهم أهمية كل كلمة وكل إشارة وكل وقفة صمت وأن يتأثر بالطرب، ويستوعب قصد الشاعر العربي، قبل أن يفكر بإيجاد شيء مماثل بلغة أمه.

وقبل بداية الترجمة يجب أن يكون المترجم قبل كل شيء شاعراً بلغة أمه. وإلا

فإن عمله لا ينفع على الإطلاق.

سيداتي وسادتي،

أستميحكم عذراً لعدم تناولي موضوع ترجمة الشعر العربي إلى اللغة الإنجليزية وأعيد تأكيدي لحبي للشعر العربي من قديم وحديث. ولكن ترجمة الشعر العربي إلى اللغة الإنجليزية، أعتبرها قضية ميئوساً منها تقريباً، إلا في بعض الحالات النادرة. ومع ذلك لا مانع من بحث هذا الموضوع في الفترة المخصَّصة للأسئلة في نهاية هذه المحاضرة إذا أردتم ذلك.

هذا عن ناحية من نواحي الموضوع التي سوف لن أتناولها. وبعد إذنكم أقترح أن أخصِّص معظم وقتنا لتناول القصص والروايات المعاصرة، لبحث جانبين رئيسيين من موضوع ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية هما: أولاً: صعوبات ترجمة اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية. وثانياً: بعض الأمثلة على النصوص العربية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية.

قبل أن ندخل في تفاصيل الموضوع، اسمحوا لي أن أنقل إليكم عدَّة ملاحظات عن بعض الفروق بين اللغتين العربية والإنجليزية ذكرتها السيدة رانا قباني الأديبة السورية الأصل التي تقيم في لندن مع زوجها الإنجليزي والتي تعتبر من الأمثلة النادرة على الأدباء أو الأديبات العرب الذين يجيدون اللغتين من الناحية العملية. أي أنهم يستطيعون ليس انتقاد نص بأي من اللغتين فقط، بل إنهم قادرون على التأليف باللغتين أيضاً. فقالت الكاتبة في مقال تقدم فيه ترجمة إنجليزية لديوان شعر عربي.

«يبدو لي أن صعوبة الترجمة من العربية إلى الإنجليزية، تكمن في طبيعة اللغة الإنجليزية نفسها، إذ أن اللغة الفرنسية تسمح بنقل روح اللغة العربية بصورة

أكمل. إذ يبدو أن هناك تشابهاً ضمنياً بين اللغة العربية واللغة الفرنسية فيما يتعلق بما يمكن تسميته أنماط تفاعل العواطف فيهما».

كما سبق القول أريد أن أتكلم لبعض الوقت عن صعوبات الترجمة من العربية إلى الإنجليزية. وتمهيداً لهذا الجانب من الموضوع يجب أن أقول: أني لست من الناس الذين يبالغون في وصف صعاب اللغة العربية وتعذر نقلها إلى لغة أخرى.

خلاصة القول إنني أعتبر ترجمة رواية عربية واقعية أو قصص عربية قصيرة إلى اللغة الإنجليزية، مسألة لا تتجاوز صعوبتها ترجمة مثلها من أية لغة عالمية إلى اللغة الإنجليزية. وبطبيعة الحال يتطلب من المترجم أن يجيد اللغتين وأن يمتاز بالحس الدقيق في ما يتعلق بنقل مشاعر الشخصيات مثلاً أو بنقل قصد المؤلف بصورة مخلصة. وقبل كل شيء من المستلزمات أن يعرف المترجم عن كثب المجتمع الذي تجري فيه أحداث الرواية أو القصة القصيرة. وإذا توفرت هذه الشروط عند المترجم أمكن نقل نص الرواية أو القصة القصيرة إلى اللغة الإنجليزية بصورة جيدة. وغني عن البيان أن الفرق في التأثير على القارئ بين مترجم ومترجم يكمن في مهارة المترجم في اختيار الكلمات أو العبارات المناسبة لنقل ما يقصده المؤلف. وسأتناول هذه الناحية في الجزء الأخير من محاضرتي هذه.

والآن أود أن أذكر إحدى الصعوبات الرئيسية في ترجمة الرواية أو القصة أي مسألة ترجمة الحوار العربي إلى اللغة الإنجليزية.

لقد واجهت هذه الصعوبة بصورة مباشرة عندما كنت بصدد ترجمة رواية المرحوم الأستاذ توفيق يوسف عواد «طواحين بيروت» إلى اللغة الإنجليزية في الفترة الواقعة بين سنة ١٩٧٣ وسنة ١٩٧٤. وكما تعلمون تجري أحداث هذه الرواية المأساوية في لبنان، وبطبيعة الحال كانت لغة أبطال الرواية اللغة العامية، الطراز اللبناني، أو الأطرزة اللبنانية. إذ كان أبطال الرواية عن عدة مناطق وعدة

مجتمعات متباينة. وكانت صعوبة الترجمة مزدوجة: أولاً نقل نص الحوار الفصيح إلى العامية، ثم نقل هذا الأخير إلى نص حوار يتسم بالسلاسة والحيوية.

وفي حالات كثيرة، لم يتطلب نقل الحوار أكثر من قليل من التفكير الجانبي أي ـ LATERAL THINKING ـ على نمط نقل ـ من غير معقول ـ إلى «مش معقول» وفي حالات أخرى كان المرحوم يقدم يد المساعدة لأنه كان يميل إلى كتابة الحوار الفصيح بأسلوب يتمشى مع أسلوب العامية. ولكني أتذكر جيداً كيف أنني كنت أجد صعوبة كبيرة في العثور على العبارة الإنجليزية الدقيقة المماثلة للعبارة الفصحى التي استعملها المؤلف. وفتحت الكتاب بصورة عشوائية ووجدت الجملة التالية الواردة في مرحلة يتآمر فيها إثنان من شخصيات الرواية لمباغتة بطلة الرواية تميمه نصور.

«ما لنا والمشاكل؟ نأتي مع الفجر والناس كلهم نيام ونأخذها على غفلة» أي «شو بدنا بالمشاكل. نيجي عند الفجر والناس نايمين أُونفاجئها».

"Why give ourselves trouble? We'll come just before dawn when everyone's asleep and take her by surprise".

وإذا كنت على الصواب برأيي هذا، فمعنى هذا تأكيد على ضرورة أن يعرف المترجم معرفة جيدة جداً لغة المجتمع الذي يصفه في روايته (ويمتاز عدد صغير من المترجمين الأجانب من هذه الناحية يسرني أن أذكر منهم المترجم المشهور الأستاذ دينيس جونسون دنيس والدكتور بيتر كلارك). وكما تعلمون حضراتكم جرى التركيز على نقل الأدب المعاصر المصري إلى اللغة الإنجليزية على حساب غيره. ومن المعروف عن المصريين أن لغتهم العامية لها طعم خاص إذ أنها تمتاز باستعمال أمثال وعبارات تقليدية ومقتضبة على غرار «إزي بقى» أو «واخذ بال سيادتك»؟ أو «ما بقولش حاجة».

ويمكنكم أن تتصوروا بكل سهولة، صعوبة نقل الحوار المصري إلى اللغة الإنجليزية إذا كتب المؤلف الحوار باللغة العربية الفصحى. فمثلاً يمكن أن يكتب بدلاً من «ما بقولش حاجة» «لا أقول شيئاً» أي I say nothing. إن هذه العبـــارة I say nothing تعتبر ترجمة حرفية وأمينة للنص العربي، ولكنها لا تقول شيئاً على الإطلاق للقارئ الغربي. فمن الواضح أن المطلوب من المترجم أن يعرف أن أصل النص الفصيح هو «ما بقولش حاجة» ثم أن ينقل العبارة إلى الشيء المماثل باللغة الإنجليزية. الأمر الذي يتطلب درجة عالية من المرونة من جانب المترجم حتى يختار العبارة الأنسب، فقد تكون الترجمة.

"Least said, soonest mended" أو

" You must be joking!" أو

"You can't be serious" أو

"You know and I know....." أو

"A nod's as good as a wink....."

حسب القرينة وحسب المستوى اللغوي (Register) للحوار الأصلي.

سيداتي وسادتي،

عدم المؤاخذة، لقد طال الحديث عن وصف صعوبة واحدة في ما يتعلق بصعوبة الترجمة الأدبية. أي صعوبة ترجمة الحوار. والوقت المخصّص إلى هذه المحاضرة لا يمتد إلى الفجر. لذلك أود أن أنتقل إلى تقديم بعض المقتطفات من الترجمات الأدبية إلى اللغة الإنجليزية والتعليق عليها. كما تعلمون، فإن صورة واحدة تساوي ألف كلمة ومثال واحد يمكن أن يقدم بآن واحد عدة جوانب من الموضوع لذوي الألباب إذ أن اللبيب من الإشارة يفهم.

اخترت لكم بعض الأمثلة من ضمن الروايات والقصص القصيرة، وأبدأ بعمل أدبي ذي طابع مميز. أي «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» للأستاذ أميل حبيبي، قام بترجمته الأستاذ تريفور لي كاسيك والدكتورة سلمى جيوسي تحت عنوان: -

The Secret Life of Sa'eed, the Ill - fated Pessoptimist.

ويروي هذا العمل الرائع بصورة رمزية حياة المواطن الإسرائيلي ذي الأصل العربي. نلاحظ أولاً العنوان لأن «الكتاب يقرأ من عنوانه» وإذا كان العنوان غلطاً فكيف بالنص؟ ففضَّل المترجمان ترجمة ال ٨ كلمات الواردة في العنوان بـ ٨ كلمات بالإنجليزية، وبصورة خاطئة. كلمة اختفاء قد اختفت لماذا؟ إن الله أعلم! اختفاء البطل يعتبر صلب الموضوع أو بيت القصيد. والخطأ الثاني كلمـــــة "ill fated" نستعمل هذه الكلمة ليس لأشخاص بل لأشياء مثل سفينة مصيرها الغرق أو مشروع كتب له أن يتبوأ بالفشل. الخ.. أما بالنسبة للأشخاص يمكننا أن نستخدم عدة كلمات أمثال

"calamitons"أو "jinxed"أو "desparately Unlucky"

والخطأ الثالث يكمن في طول ترجمة العنوان. إن العنوان العربي يلفت النظر بفضل كلمة اختفاء ثم باستعمال اللقب «أبو نحس». وفي اللغة الإنجليزية يمكن أن نلفت النظر بطرق أخرى مثلاً باطالة العنوان، كما يلي:

"The man who was jinxed: the strange story of the disappearance of sa'eed, the optimistic pessimist or the pessimistic optimist".

وكما تعلمون فإن الإفراط في إطالة العنوان قد يلفت النظر بصورة جيدة جداً

على نمط عنوان الفيلم

"Doctor Strangelove, or how I learned to stop worrying and love the Bomb"

أما بالنسبة إلى نص الرواية، فإن العنوان يدل على مستوى الترجمة. فلنأخذ مقدمة الكتاب، أي قصيدة الأستاذ سميح قاسم «قرآن الموت والياسمين» التي يقول فيها:

أنتم أيها الرجال، وأنتن أيتها النساء

"So, you men and women

أنتم أيها الشيوخ والحاخاميون والكرادلة

You sheikhs, rabbis and cardinals,

وأنتن أيتها الممرضات وعاملات النسيج

You, nurses and girls in factories

لقد انتظرتم طويلاً

How long must you await

ولم يقرع سعاة البريد أبوابكم

The postman with those letters

حاملين الرسائل التي تشتهون عبر الأسيجة اليابسة

You so anticipate across the dead-dry barriers

أنتم أيها الرجال، وأنتن أيتها النساء

You, men, you women

لا تنتظروا، بعد، لا تنتظروا

Don't wait, still more, don't wait

اخلعوا ثياب نومكم

Now off with your sleep clothes

واكتبوا إلى أنفسكم

Thou letters you anticipate

اسمحوا لي أن أذكر بعض نقاط الضعف الأخرى في هذه الترجمة. في أول الفصل الثاني يروي المنحوس، كيف أنه نجا من كمين إسرائيلي:

During the fighting in 1948 they waylaid us and pened fire, shooting my father, may he rest in peace.

الحوادث كمنوا لنا واطلقوا الرصاص علينا فصرعوا والدي رحمة الله عليه.

رسائلكم التي تشتهون.

سيداتي وسادتي،

مرة ثانية أطلت الحديث عليكم، عن موضوع مفضَّل على حساب مواضيع

أشمل، وذلك لسبب وجيه، إذ إن هذه الترجمة تشتمل على عدد لا بأس به من عيوب الكثير من الترجمات المنشورة. ذلك أن عمل الترجمة عمل مشترك بين شخصين. وكما يقول المثل العربي «برمة الشراكة لا تفور» ينطبق هذا المثل على الكثير من الترجمات المزدوجة التي تعرفت عليها، الأمر الذي يجب أن يدعو إلى الدهشة. بطبيعة الحال لا مانع من حيث المبدأ للتعاون بين شخصين في إنتاج ترجمة. هذا هو الأسلوب المثالي لإصدار ترجمات من مكتبنا في لندن مثلاً. أي أن ابن اللغة يترجم إلى لغته، ويجري التدقيق والمراجعة على يد شخص آخر تكون اللغة المترجم منها لغته الأم. وهكذا يمكن إخراج ترجمة تتسم بالسلاسة في اللغة المترجم إليها. وفي نفس الوقت يمكن التأكد من أن دقائق اللغة الأخرى قد روعيت مراعاة تامة. أما بالنسبة لإصدار ترجمات أدبية على يد شخصين فإن النتيجة عادة ما تعتبر ناقصة. ومع كل احترامي لأهل العلم، وخصوصاً بين المستشرقين يجب أن أقول: إن أكثر ترجماتهم التي نشرت حتى الآن تفتقر إلى صفات الأدب. وبوجه خاص عندما يتعاون أستاذان جامعيان على إخراج الترجمة على أساس الازدواجية اللغوية. والأمثلة على ذلك كثيرة وكثيرة جداً أقتصر على ذكرها بصورة عامة. وكما تعلمون كان ولا يزال الكثير من اهتمام وتركيز المستشرقين على ترجمة الروايات المصرية المعاصرة، قبل فوز الأستاذ نجيب محفوظ بجائزة نوبل وبعده. فظهرت ترجمات كثيرة لروايات الأستاذ نجيب محفوظ وللأستاذ يوسف أدريس وللأستاذ عبدالرحمن الشرقاوي وللأستاذ إحسان عبدالقدوس وغيرهم من الكتاب المصريين. ويا للأسف لرداءة الكثير من الترجمات. فكم من مرّة نضطر إلى قراءة نصوص كهذا:

His staunch faith in the sanctity of his convictions, in the harshness and holiness of life, the struggle and the agony and the far away and exalted hope, all remained unshaken".

Respected Sir,

[C.N. Mahfuz]

لا يتوقع قارئ الأدب الإنجليزي أن يقرأ في رواية نصاً يذكره في أسلوب «البلاغ رقم ١» فلماذا نتوقع ذلك منه عند قراءة ترجمة لعمل أدبي عربي؟.

وكم من مرة نجد أخطاءً في ترجمة الكلمات، فأذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر.

واهتز رأسه بانتظام وبطء وتحرك شدقاه كأنما يلوك

"He shook his head with a slow regularity and his lips kept moving as though he were chewing something".

و: «بوجه نقش على صفحته امتعاض ثابت كأنه سجل لتعرف الزمن»

"His face wore a look of permanent annoyance as though it were a scroll recorded on the bark of time itself"

[God's world in N. Mahfuz]

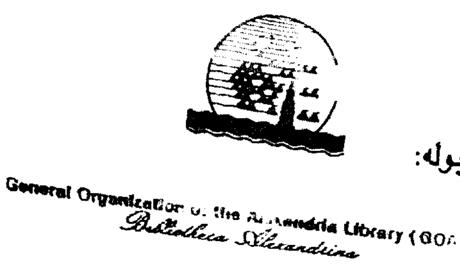
وأذكر أيضاً عبارة واردة في كتاب الأستاذ توفيق الحكيم «عودة الوعي»

صلب الموضوع

"The steel of the matter".

سيداتي وسادتي،

ختاماً لسجل الأخطاء هذا، أقدم نموذجاً عن أسلوب الحوار الذي لا



يمكن قبوله:

- Moneim has quit his job
- Who's moneim?
- My husband.
- Oh! And why did he quit?
- They say they are retrenching or something.
- The cheapest rights in yusuf Idriss

لا يمكن التوفيق بين الأسلوب الذي يقول:

He's quit his job

والأسلوب الذي يقول:

"They're retrenching or something

فمن الأفضل بكثير أن نقول:

They're cutting back.

وهذا المثل الأخير يجيء بنا إلى ناحية من أهم نواحي موضوعنا هذا، أي الفرق بين اللغتين فيما يتعلق بكنز المفردات.

سيداتي وسادتي،

يتطلب وصف طبيعة المفردات الإنجليزية جلسة كاملة بل جلسات متتالية، ولا يتسع المجال إلا لذكر بعض المعالم الرئيسية. كما بيّنت مثل

"Retrenchement, cutting back"

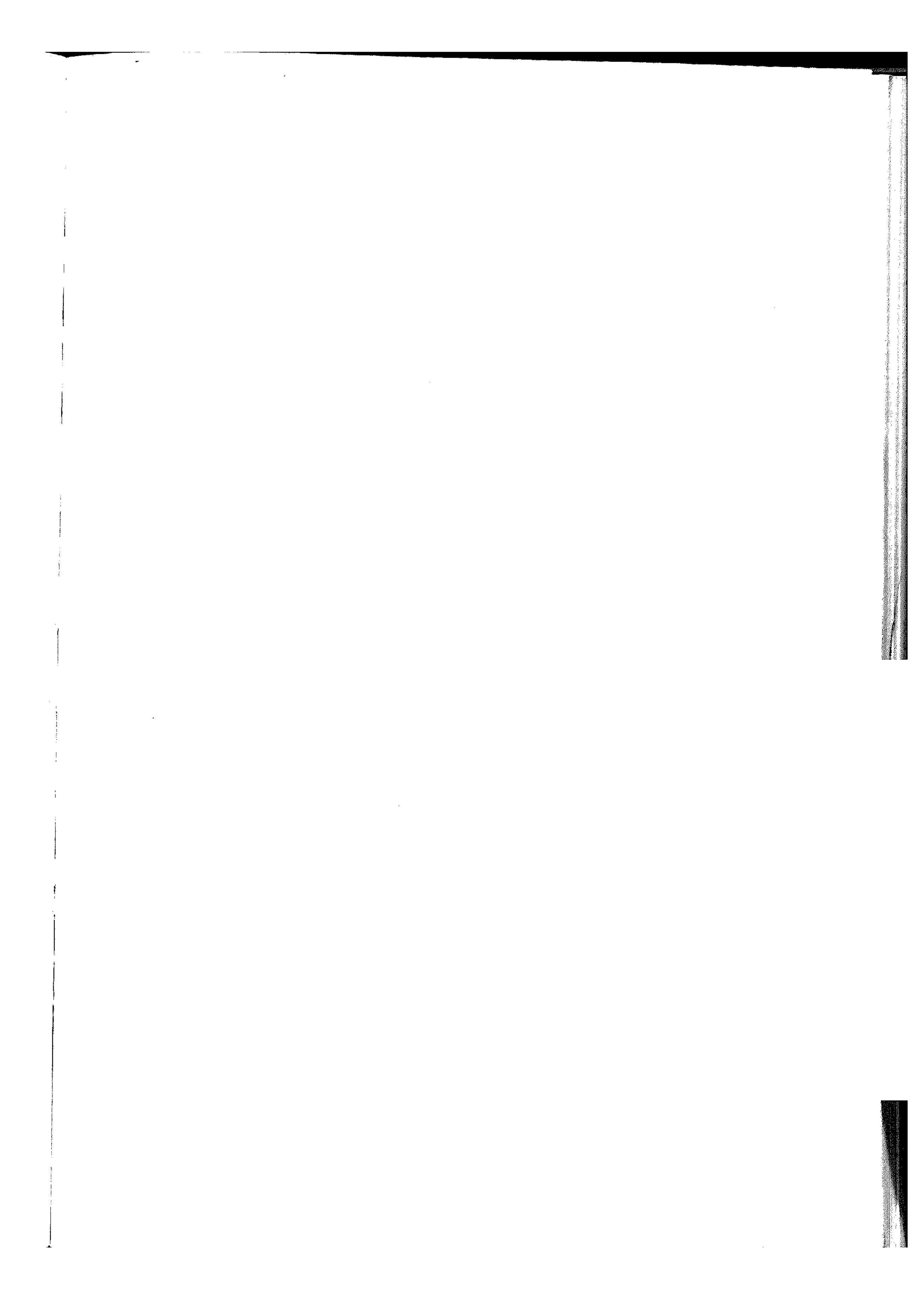
عند اختيار الكلمات الإنجليزية المناسبة، يمكن إيراد مترادفين مختلفين تماماً من مصدرين بعيدين عن بعضهما، في هذه الحالة من اللغة اللاتينية ومن اللغات الجرمانية. وعندما نتأمل في أن مصادر اللغة الإنجليزية تشمل اللغات اللاتينية واليونانية والهندية والفرنسية والإيطالية والجرمانية وحتى العربية، يمكننا أن نقدر حجم صعوبة اختيار الكلمات المناسبة في ترجمة نص أدبي عربي إلى اللغة الإنجليزية. ولهذا السبب وحده - أي تعدد مصادر المفردات الإنجليزية - أقول: إنني لا أتصور كيف يتسنى لأي أجنبي أن يترجم عملاً أدبياً عربياً إلى اللغة الإنجليزية بأسلوب إنجليزي سليم. كما هو الحال بالنسبة إلى اللغات العالمية الأخرى يجب على المترجم أن ينقل إلى لغته.

ولا أفهم لماذا يتمادى بعض الأساتذة العرب على ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الإنجليزية.

هذا أحد الأسباب التي حالت دون إعطاء الأدب العربي حقَّه. وبرأيي المتواضع فإن ما يميز عمل الترجمة الأدبية حتى الآن من العربية إلى الإنجليزية أنه لا توجد نسبة بين صفات العمل الأدبي الأصلي وصفات الترجمة.

ومرة ثانية أعود إلى ملاحظات أدلت بها شخصية تعتبر مرجعاً أهم مني ومؤهلاً أكثر مني بكثير هي السيدة - رانا قباني. تقول السيدة رانا قباني في تقييم لترجمة نشر قبل ثلاثة أشهر في بريطانيا.

«إن هذه الترجمة تجعل عمل فدوى طوقان موضع الاهتزاء.... اللغة صبيانية ومملة، ليست إلا «لت وعجن»... اللغة ساذجة... الله يساعدنا. هناك حاجة إلى نشر الثقافة العربية بصورة أفضل من هذا بكثير وإلا كان مصيرها التعرض إلى اللامبالاة من جانب العالم الخارجي».







طبعت لدى شركة أبوظبي للطباعة والنشر (بن دسمال)